



المركز الديمقراطي العربي - ألمانيا

الطب والخدمات الصحية بالعالم الإسلامي عبر العصور

وقائع أعمال المؤتمر الدولي الافتراضي أيام 20-21 أيار - مايو 2023

إشراف وتنسيق:

د. محمد الحفيظ موسى - جامعة سعيدة - الجزائر

د. بوحلمة نجادي - جامعة سعيدة - الجزائر



الجزء الثاني

2023

المركز الديمقراطي العربي

الطب والخدمات الصحية بالعالم الإسلامي عبر العصور



المركز الديمقراطي العربي - ألمانيا - برلين
&
جامعة أب - اليمن



VR . 3383 - 6812 B

DEMOCRATIC ARABIC CENTER

Germany: Berlin 10315 Gensinger- Str: 112

<http://democraticac.de>

TEL: 0049-CODE

030-89005468/030-898999419/030-57348845

MOBILTELEFON: 0049174274278717



كتاب وقائع المؤتمر الدولي العلمي:

الطب والخدمات الصحية بالعالم الإسلامي عبر العصور

Medicine and health services in the Islamic world through the ages

الجزء الثاني

إشراف وتنسيق:

د. موسم عبد الحفيظ-جامعة سعيدة-الجزائر

د.بوداعة نجادى- جامعة سعيدة-الجزائر



الناشر

المركز الديمقراطي العربي

للدراستات الإستراتيجية والسياسية والاقتصادية

ألمانيا/برلين

Democratic Arabic Center

Berlin / Germany

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه

في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

جميع حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved

No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, without the prior written permission of the publisher

المركز الديمقراطي العربي

للدراستات الإستراتيجية والسياسية والاقتصادية ألمانيا/برلين

البريد الإلكتروني

book@democraticac.de

المركز الديمقراطي العربي-برلين-ألمانيا



جامعة إب - اليمن



ينظمون المؤتمر الدولي العلمي الموسوم بـ:

الطب والخدمات الصحية بالعالم الإسلامي عبر العصور

Medicine and health services in the Islamic world through the ages

أيام 20 و21 أيار، مايو 2023

إقامة المؤتمر بواسطة تقنية التّحاضر المرئي عبر تطبيق Zoom

ملاحظة: المشاركة مجاناً بدون رسوم

لا يتحمل المركز ورئيس المؤتمر واللجان العلمية والتنظيمية مسؤولية ما ورد في هذا الكتاب من آراء، وهي لا تعبر بالضرورة عن قناعاتهم ويبقى أصحاب المداخلات هم وحدهم من يتحملون كامل المسؤولية القانونية عنها

الرئاسة الشرفية:

- الأستاذ الدكتور طارق أحمد قاسم المنصوب، رئيس جامعة إب، اليمن
- الأستاذ الدكتور فؤاد عبد الرحمن حسان، نائب رئيس جامعة إب اليمن، للدراسات العليا والبحث العلمي.
- الأستاذ عمار شرعان، مدير المركز الديمقراطي العربي، ألمانيا

رئيس المؤتمر:

د. بوداعة نجادي، جامعة سعيدة، الجزائر

نائب رئيس المؤتمر:

د. حمادوش بولخراس، جامعة تيارت، الجزائر

مدير المؤتمر:

د. فضل قاسم الخضرمي، جامعة إب، اليمن

رئيس الهيئة الاستشارية:

د. موسم عبد الحفيظ، جامعة سعيدة، الجزائر

رئيس اللجنة العلمية للمؤتمر:

د. بكوش فافة، جامعة سعيدة، الجزائر

المنسق العام للمؤتمر:

د. قراوي نادية، جامعة سعيدة، الجزائر

رئيس لجنة المتابعة:

د. مراد يحي الجحافي، جامعة إب، اليمن

التنسيق والنشر:

د. حنان طرشان، المركز الديمقراطي العربي، ألمانيا

مدير إدارة النشر:

د. ربيعة تمار، المركز الديمقراطي العربي، ألمانيا

رئيس اللجنة التحضيرية:

د. أحمد بوهكو، المركز الديمقراطي العربي، ألمانيا

رئيس اللجنة التنظيمية:

أ. كريم عايش، المدير الإداري، المركز الديمقراطي العربي (ألمانيا)



أعضاء اللجنة العلمية:

| | |
|---|---|
| أ.د. بن داود نصر الدين (جامعة تلمسان. الجزائر) | أ.د. مبخوت بودواية (جامعة النعام. الجزائر) |
| أ.د. كريم مطر جمزة أزيدي (جامعة بابل، العراق) | أ.د. بوباية عبد القادر (جامعة وهران 01. الجزائر) |
| أ.د. جاكرو الحسن (جامعة معسكر، الجزائر) | أ.د. مقنونيف شعيب (جامعة تلمسان، الجزائر) |
| أ.د. بن مصطفى إدريس (جامعة سعيدة. الجزائر) | أ.د. فشار عطاء الله (جامعة الجلفة. الجزائر) |
| أ.د. داعي محمد (جامعة سعيدة. الجزائر) | أ.د. بوغوفالة وذان (جامعة تيارت. الجزائر) |
| أ.د. عبد الحق زريوح (جامعة تلمسان، الجزائر) | أ.د. محمد علي ديبوز (جامعة عين شمس، مصر) |
| أ.د. يوسف كاظم الشمري (جامعة بابل، العراق) | أ.د. جمال فرفار (جامعة معسكر، الجزائر) |
| أ.د. بوحيسون عبد القادر (جامعة سعيدة. الجزائر) | أ.د. إبراهيم سلامة أبو العلاء (جامعة الاسكندرية، مصر) |
| أ.د. صورية بوربابة (جامعة بشار، الجزائر) | أ.د. مكحلي محمد (جامعة سيدي بلعباس، الجزائر) |
| أ.د. أحمد الجاسم أبو القاسم (جامعة حلب، سوريا) | أ.د. حميد آيت حبوش (جامعة وهران 01. الجزائر) |
| أ.د. مرزوقي بدر الدين (جامعة وهران 01. الجزائر) | أ.د. حبيب حسن اللولب (جامعة الزيتونة، تونس) |
| أ.د. عثمانى أم الخير (جامعة خميس مليانة، الجزائر) | أ.د. موساوي مجدوب (جامعة سعيدة. الجزائر) |
| أ.د. إبراهيم جدلة (جامعة منوبة، تونس) | أ.د. شرف عبد الحق (جامعة تيارت. الجزائر) |
| أ.م. د. سليم الهنائي (جامعة نزوى، سلطنة عمان) | د. موسم عبد الحفيظ (جامعة سعيدة. الجزائر) |
| د. هيفاء سليمان الإمام (الجامعة اللبنانية الدولية، لبنان) | أ.د. يحيى لعمارة محامد (جامعة مستغانم، الجزائر) |
| د. آيت أحمد نور الدين (جامعة سعيدة، الجزائر) | أ.د. كريم ولد النبوية (جامعة سيدي بلعباس، الجزائر) |
| أ.د. حميد آيت حبوش (جامعة وهران 01. الجزائر) | د. نرجس بخوش (جامعة الزيتونة، الجزائر) |
| د. كورات كريمة (جامعة سعيدة، الجزائر) | د. بن دوبة شريف الدين (جامعة سعيدة، الجزائر) |
| د. مداح عبد القادر (جامعة تيارت. الجزائر) | د. بن خيرة رقية، (جامعة تيزي وزو، الجزائر) |
| د. حمزة عبد الصمد (جامعة المدية. الجزائر) | د. قراوي نادية (جامعة سعيدة. الجزائر) |
| د. دكار أمين (جامعة سعيدة الجزائر) | د. سميرة نميش (جامعة خنشلة، الجزائر) |
| د. حمادوش بولخراس (جامعة تيارت. الجزائر) | د. عبد الله طويلب (جامعة سعيدة. الجزائر) |
| د. كبداني فؤاد (جامعة سعيدة. الجزائر) | د. شباب عبد الكريم (جامعة سعيدة. الجزائر) |
| د. قدوري عبد الرحمن (جامعة سعيدة. الجزائر) | د. قاضي هشام (جامعة ورقلة. الجزائر) |
| د. مجاود حسين (جامعة سعيدة. الجزائر) | د. تبون عبد الكريم (جامعة سعيدة، الجزائر) |
| د. شيخ فاطيمة (جامعة سعيدة. الجزائر) | د. محروق إسماعيل (جامعة المدية، الجزائر) |
| د. خليلي بختة (جامعة غليزان، الجزائر) | د. قدور منصورية (جامعة غليزان، الجزائر) |
| د. بلقاسم ليلى (جامعة غليزان، الجزائر) | د. بلقاسم محمد (جامعة تلمسان، الجزائر) |
| د. قدور بوجلال (جامعة معسكر، الجزائر) | د. بكوش فافة (جامعة سعيدة. الجزائر) |
| د. بن بوزيان عبد الرحمان (جامعة تلمسان، الجزائر) | د. دحماني عمر جمال الدين (جامعة قسنطينة 2- الجزائر) |
| د. بن دحمان حاج (جامعة غليزان، الجزائر) | د. كوشنان محمد (جامعة المدية، الجزائر) |
| د. هاشمي بن إبراهيم (جامعة معسكر، الجزائر) | د. دلبياز محمد (جامعة سعيدة، الجزائر) |
| د. طيبي عبد العالي (جامعة الجزائر 02، الجزائر) | د. بوشيبية ذهبية (جامعة سعيدة، الجزائر) |
| د. تلي رفيق (جامعة سعيدة. الجزائر) | د. بلخير عبد الرحمن (جامعة تلمسان. الجزائر) |

| | |
|---|---|
| د. رزيوي زينب (جامعة سعيدة، الجزائر) | د. شادلي هواري (جامعة سعيدة، الجزائر) |
| د. بونقاب مختار (جامعة معسكر، الجزائر) | د. برنوتوفيق (جامعة معسكر، الجزائر) |
| د. زاوي بوبكر (جامعة قسنطينة، الجزائر) | د. سكاومريم (جامعة سعيدة، الجزائر) |
| أعضاء اللجنة التنظيمية | |
| د. صديقي محمد (جامعة تلمسان، الجزائر) | د. دحماني يوسف (جامعة تلمسان، الجزائر) |
| د. فلاح محمد العربي (جامعة معسكر، الجزائر) | ط د. حصاد عبد الصمد (جامعة المدية، الجزائر) |
| ط د. علواني توفيق (جامعة معسكر، الجزائر) | ط د. زلماط عمار (جامعة تلمسان، الجزائر) |
| ط د. محيوس أمينة (جامعة تيارت، الجزائر) | ط د. دريال سعيد (جامعة الجزائر 02، الجزائر) |
| ط د. سنوسي بدر (جامعة سيدي بلعباس، الجزائر) | ط د. سنوسي محمد (جامعة بشار، الجزائر) |



ديباجة المؤتمر:

يعد علم الطب من أهم وأوسع مجالات العلوم العقلية، وقد أولى المسلمون عناية فائقة بهذا العلم؛ نظير ما امتاز به من فعالية في الحفاظ على الإنسان روحياً وبدنياً، فعملوا بذلك على بناء دور الشفاء في مختلف الظروف والأحيان، وصنفوا فيه التأليف الكثيرة الحسان، التي صارت متداولة في كل المواطن والبلدان.

ويعتبر تاريخ الطب بالعالم الإسلامي من المقاربات التاريخية الجادة والرصينة التي تتبع إشكالات تاريخية مختلفة، تُبرز مسار تطور هذا العلم عبر العصور التاريخية، وعلى مختلف المستويات؛ من مؤسسات تعليمية وممارسات طبية، وخدمات صحية متنوعة، ونظام غذائي وصحي، وإسهامات طبية جليّة وإنجازات علمية توصل إليها المسلمون في ميدان

الطب والتطبيب، وغيرها من المكونات البنوية للواقع الطبي والصحي بالعالم الإسلامي عبر التاريخ.

وجاءت فكرة هذا الملتقى لثري هذا الميدان الذي فاقت العناية به مؤخرًا، لاسيما بعد الوباء الذي اجتاح العالم متمثلاً في فيروس كوفيد 19، ومن جهة أخرى حتى تعزز فكرة دور العلوم المساعدة في علم التاريخ خاصة والعلوم الإنسانية عامة كعلم الطب، وإثراء للتواصل العلمي والثقافي بالعالم العربي والإسلامي.

الإشكالية:

إن موضوع "الطب والخدمات الصحية في العالم الإسلامي عبر العصور"، من البحوث الخصبة التي لم تستوف الدراسة المستفيضة من قبل الباحثين بصفة عامة والمؤرخين بصفة خاصة، لذلك جاءت إشكالية المؤتمر على النحو التالي: فيما تتمثل مظاهر تطوّر الطب والخدمات الصحية في العالم الإسلامي عبر التاريخ؟ لتكون بذلك إشكالية المؤتمر فرصة سامحة للباحثين من مختلف التخصصات للمساهمة في التعريف بتطوّر واقع الطب والتطبيب في العالم الإسلامي عبر محطات مختلفة من التاريخ.

محاور المؤتمر:

المحور الأول: الطب عند العرب قبل ظهور الإسلام.

المحور الثاني: الطب التقليدي بالعالم الإسلامي عبر التاريخ.

المحور الثالث: إسهام الأطباء والصيادلة في تطوّر علم الطب والخدمات الصحية بالعالم الإسلامي عبر العصور.

المحور الرابع: الانتاج الفكري في العلوم الطبية (حركة التأليف) بالعالم الإسلامي إبان الفترة الوسيطة والحديثة والمعاصرة.

المحور الخامس: تاريخ المؤسسات الطبية ودورها في مجال الطب بالعالم الإسلامي

المحور السادس: تطوّر طرق وأساليب التداوي (العلاج) بالعالم الإسلامي.

المحور السابع: قوانين وأخلاقيات (آداب) ممارسة الطب بالعالم الإسلامي.

المحور الثامن: تعليم الطب (التعليم الطبي) بالعالم الإسلامي عبر التاريخ.

المحور التاسع: واقع التأثير والتأثر في مجال الطب بين العالم الإسلامي والغرب الأوروبي

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

تمحورت جل الدراسات التاريخية في مجال العلوم حول العلوم النقلية من فقه وحديث وقراءات وغيرها، وهذا لتوفر المادة التاريخية في هذا النوع من العلوم، وبالمقابل نجد هناك قلة الدراسات في العلوم العقلية - الطب والصيدلة والحساب والهندسة والكيمياء وغيرها -، فكان لزاما علينا الخوض في البحث حول تاريخ العلوم العقلية، فوقع اختيارنا على دراسة فرع من هذه العلوم دراسة شافية وواقعية، والمتمثل في علم الطب، الذي ينظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية، فاجتهد الأطباء على تشخيص الأمراض وإيجاد الدواء الفعال منذ القديم إلى يومنا هذا.

إن موضوع تاريخ الطب عبر العصور من الموضوعات الهامة والخصبة، وهو ما جعلنا نسلط الضوء على هذا المجال بدراسة تاريخية أكاديمية متنوعة. كللت بمجموعة من الأبحاث الجادة والمفيدة والمستفيضة، ساهم فيها نخبة من أساتذة جامعيين وباحثين وطلبة دكتورالين من مختلف أقطار العالم الإسلامي، والتي انبثقت عن المؤتمر الدولي الذي نظمه المركز الديمقراطي العربي للدراسات الإستراتيجية، الاقتصادية والسياسية، بتعاون مع جامعة إب- اليمن، يومي 20 و21 ماي 2023، وجاء عنوان المؤتمر موسوما ب: "الطب والأطباء والخدمات الصحية بالعالم الإسلامي عبر العصور"، وهذه الدراسات أردنا أن ننشرها في هذا الكتاب لتكون في متناول الطلبة والباحثين في هذا المجال.

ونطمح أن تكون هذه الأبحاث قد غطت دراسة الموضوع نسبيا، ونسأل الله التوفيق والسداد، وأن يجعل هذا الكتاب إضافة إلى المكتبات، وأن يجعله عملا نافعا للعالم الإسلامي عامة والعالم العربي خاصة.

رئيس المؤتمر: د. بوداعة نجادي-جامعة سعيدة-الجزائر



المركز الديمقراطي العربي
للدراسات الاستراتيجية، الاقتصادية والسياسية
Democratic Arab Center
for Strategic, Political & Economic Studies

كلمة رئيس المؤتمر

الأحوال الصحية بمدينة الحلة العراقية ابان العهد العثماني

Health conditions in the Iraqi city of Hilla during the Ottoman era

أ.د. كريم مطر حمزة الزبيدي، العراق – جامعة بابل
kareemwww4@gmail.com

الملخص:

مدينة الحلة وضواحيها شأنها شأن المدن العراقية الأخرى مرت بظروف صحية مزرية ابان العهد العثماني، فالأمراض الفتاكة تجتاحها بين مدة وأخرى لاسيما وباء الكوليرا والطاعون فتحصد عشرات الآلاف من الأرواح البشرية، ومما زاد الوضع الصحي سوءا عدم وجود مستشفيات حكومية، وعدم وجود ادوية لمواجهة هكذا اوبئة خطيرة. ومما ساعد على انتشار الامراض بيئة المدينة المتسخة وانتشار القاذورات، وانتقال هذه الأوبئة مع الجثث القادمة من خلف الحدود ومعظمها متفسخة والتي يروم ذوبها دفنها في مدينة النجف. وإزاء عجز الإدارة العثمانية في معالجة الأوضاع الصحية في العراق بصورة عامة، اعتمد الطب في مدينة الحلة على الطب الشعبي وهو طب متخلف ويعالج الامراض بطرق بدائية، ونتيجة لذلك تفشل معظم العلاجات وتؤدي الى الوفاة او العوق في أحد أعضاء الجسم، ومن الأمثلة على ذلك ان الحلاق في العهد العثماني يعمل بثلاث مهن في ان واحد، فهو حلاق لقص شعر الرأس للرجال، وهو طبيب اسنان لقلع الاسنان بطريقة بدائية، وهو يقوم بختان الأطفال في موسم الختان في فصل الصيف.

الكلمات المفتاحية: الحلة، العثمانيون، الصحة، الأوبئة، الطب.

Abstract:

The city of Hilla and its environs, like other Iraqi cities, went through miserable health conditions during the Ottoman era. Deadly diseases invaded it from time to time, especially the cholera and plague epidemics, which claimed tens of thousands of human lives. What worsened the health situation was the absence of government hospitals, and the lack of medicines to confront such dangerous epidemics. What helped spread diseases is the city's dirty environment and the spread of filth, and the transmission of these epidemics with the bodies coming from behind the borders, most of which are decomposed, and whose relatives intend to bury them in the city of Najaf. In view of the inability of the Ottoman administration to deal with the health conditions in Iraq in general, medicine in the city of Hilla relied on folk medicine, which is backward medicine and treats diseases in primitive ways. As a result, most treatments fail and lead to death or disability in one of the body parts. In the Ottoman era, he worked in three professions at the same time. He is a barber to cut men's hair, and he is a dentist to extract teeth in a primitive way. He circumcises children during the circumcision season in the summer.

Key words: Hilla, Ottomans, health, epidemics, medicine.

مدخل:

لم تكن الحكومة العثمانية مهتمة بصحة الناس بأي شكل من الأشكال، لذلك داهمت الأوبئة والأمراض البلاد باستمرار، وقضت على أعداد كبيرة من السكان بين الحين والحين. ولم تكن الخدمات الصحية هي الأخرى شيئاً معروفاً لدى السكان في العراق خلال تلك المراحل، بل مفقودة تماماً، وكان لإهمال رفع النفايات وعدم الاهتمام بالنظافة سبباً في انتشار الأمراض أو موت الكثيرين⁽¹⁾.

وكان من الطبيعي أمام قلة الأطباء المؤهلين لممارسة مهنة الطب وضعف الوعي الصحي لدى العراقيين أن راجت ممارسة من أطلق عليهم المتطببون. أما بالنسبة لأطباء الأسنان فلم يكن في العراق عموماً أطباء بهذا الاختصاص، وليس هناك أدنى اهتمام بمعالجة الإنسان، إذ أُسندت تلك المهمة إلى الحلاقين⁽²⁾.

اعتمد سكان الحلة في تلك الأزمنة على الأطباء الملاي أو الاطباء اليونانيين أي الشيوخ الذين مارسوا الطب اليوناني القديم، كذلك على الحلاقين، وبعبارة أخرى ان فئة الاطباء والجراحين تألفت من الحلاقين والعطارين والعرافين والكحالين والحجامين ورجال الدين والسادة والمشايخ وكبار السن والقابلات والسحرة والدجالين والمشعوذين، وعالج اولئك مختلف الامراض⁽³⁾.

عالج الأطباء والجراحين خلال العهد العثماني مختلف الامراض، وكثيراً منهم فعل ذلك مجاناً، لاسيما في المناطق الشعبية الذي تأوي الفقراء وذوي الدخل المحدود. وامتدت الخرافات والأوهام في كثير من الأحيان إلى ميدان الطب الشعبي وتفشت أعمال الدجل والشعوذة في معالجة بعض الأمراض⁽⁴⁾.

(1) إبراهيم الوائلي، الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر، مطبعة العاني، بغداد، بغداد، 1961، ص 77، و أكد الرحالة البريطاني جيمس ريموند وليستيد الذي زار الحلة في عام 1831 ومكث فيها عدة ايام، ان شوارع الحلة غير نظيفة تكثير فيها الاوساخ والقذارات، وهي بيئة صالحة لانتشار الامراض. راجع: جيمس ريموند وليستيد، رحلتي الى بغداد في عهد الوالي داود باشا، ترجمة سليم طه التكريتي، مكتبة النهضة العربية، بغداد، 1984، ص 14.

(2) سندرسن، مذكرات سندرسن باشا، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي، منشورات مكتبة اليقظة العربية، بغداد، 1982، ص 303.

(3) محمود الحاج قاسم محمد، الإدارة الصحية في ولاية بغداد في أواخر العهد العثماني، الكاردينيا مجلة ثقافية عامة، دون معلومات طبع.

(4) حسن الاسدي، ثورة النجف على الإنكليز، دار الحرية للطباعة بغداد، 1975، ص 142.

ومن الجدير بالذكر أن الواقع الصحي في ريف الحلة، في العهد العثماني، لا يختلف كثيراً عن المدينة، لكن وطأة الأمراض أقل فيها مما هو عليه في المدينة، وخاصة الأوبئة الفتاكة مثل الطاعون والكوليرا.

أولاً: الواقع الصحي في المدينة

عانى المجتمع الحلي من تدهور الأحوال الصحية في العهد العثماني، ناهيك عن كثرة البرك والمستنقعات التي لم تبذل السلطات أية جهود ملموسة في ردمها، وافتقار المدينة إلى نظام لإسالة المياه، إذ كانت مياه الشرب تنقل على ظهور الحيوانات من الأنهار ومصادر المياه القريبة، ومن الآبار الملوثة داخل البيوت.

كما كان لافتقار مدينة الحلة لنظام تصريف المياه أثر كبير في انتشار الجراثيم والأمراض الزهرية ، ولم يقتصر الأمر على البيوت فقط بل تعداها إلى الأماكن العامة كالخانات والحمامات ، فضلاً عن المدايح المنتشرة قرب شط الحلة ، حيث كانت ترمي فضلاتها فيها فكانت سبباً إضافياً في انتشار الكثير من الأمراض ، ومن العوامل الأخرى التي أسهمت في تدهور الحالة الصحية في المدينة تدني المستوى التعليمي ، وانعدام الوعي الصحي لدى الغالبية العظمى من السكان ، وإذا كان ثمة من يراجع الطبيب فان ذلك لا يكون قبل استفحال المرض ، وبالتالي لا يتمكن الطبيب من شفائه لفوات الأوان⁽¹⁾.

ومن العوامل الأخرى التي ساعدت على تفشي الأمراض السارية والوبائية وقوع الحلة على مفترق الطرق ، مما جعلها عرضة للأمراض الوافدة التي كانت تنقل بواسطة القوافل التجارية وقوافل الزوار الأجانب ، حتى انتشرت الأوبئة كمرض الطاعون الذي اصبح الحلة مرتعاً خصباً له ، فقد تفشى المرض في السنوات (1831 و 1877 و 1881 و 1882) ، وكان يفتك بالناس دون رحمة ودون أن يقف أمامه شيء ، ولم يبق من نفوس الحلة البالغ عشرة آلاف نسمة إلا عدد قليل جداً ، وتفشت الهیضة (وباء الكوليرا) الحادة في السنوات (1821 و 1871 و 1889 و 1892 و 1899) ، من دون أن تبدي السلطات العثمانية جهودها لاتخاذ الوسائل الكفيلة لوقف هذا التدهور في الحالة الصحية ، الذي يمكن أن يعزى إلى: قلة المستشفيات في الولايات العراقية ، علاوة على تركها في مراكز الولايات الرئيسية ، وقلة التخصيصات المالية ، وانعدامها في أحيان كثيرة⁽²⁾.

(1) عبد الرضا عوض ، تاريخ الطب والأطباء في الحلة ، مكتبة الصادق ، الحلة ، 2004 ، ص 38.

(2) رسول حاوي الكركوكلي، دوحة الوزراء في تاريخ بغداد الزوار ، ترجمة موسى كاظم نورس ، قم ، منشورات الشريف الرضي ، 1413هـ ، ص 289؛ علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، بيروت ، دار الراشد ، 2005 ، ج 1، ص 252.

كان ولاية بغداد ومنهم داود باشا (1817 - 1831) يفاتحون السفارة البريطانية في بغداد أثناء موجة الأوبئة القاتلة لأيجاد دواء لهذه الامراض، وقد قدمت الحكومة البريطانية بعض الادوية المضادة مع النصائح والارشادات للوقاية منه ، وزودت بغداد بمعلومات مفصلة ، وترجمت تلك المعلومات من اللغة الانكليزية إلى اللغة التركية وارسلت إلى الجهات المختصة لدراستها وتطبيقها والعمل بموجبها⁽¹⁾.

كان سكان مدينة الحلة، والمدن الاخرى، يقفون عاجزين تجاه ما كان يداهمهم من أمراض وأوبئة بين حين وحين لانعدام وجود الرعاية الصحية، وفقدان الخدمة الطبية للناس، فكثيراً ما كان يداهم الطاعون البلاد فيحصد النفوس فيها حصداً وينتشر في أرجائها عرضاً وطولاً فلا يفارقها إلا بعد أن يكون قد أتى على معالم الحياة العفوية فيها، وقضى على نسبة كبيرة من سكانها⁽³⁾.

ثانياً: أشهر الشخصيات الحلية التي اشتهرت الطب

من أشهر حكماء الحلة في القرن التاسع عشر السيد (حسين بن السيد سليمان الحلي)⁽²⁾، وأخوه السيد (علاوي)، والسيد (ربيع بن السيد علي)⁽³⁾، وميرزا (مهدي الخليلي)⁽⁴⁾، والسيد (مرتضى الأسترابادي)⁽⁵⁾، و(سليمان بن باقر بن نصير البوزاجر)⁽⁶⁾، والشيخ (محمد بن الشيخ عبد الله العذارى)⁽⁷⁾. ومن الحكماء في المسيب سيد (علي الهندي)⁽⁸⁾.

- (1) جعفر خياط، صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة، بيروت، مطبعة دار الكتب، 1971، ص 279.
- (2) كان متوسعاً في علوم الطب، واشتهر بلقب الحكيم، وتوفي سنة 1820م. يُنظر: محمد علي اليعقوبي، البابليات، المطبعة العلمية، النجف، 1954، ج2، ص31.
- (3) ولد في كربلاء سنة 1777م، وقدم إلى الحلة سنة 1854م، وتوفي فيها سنة 1858م. يُنظر: عبد الرضا عوض، المصدر السابق، ص32.
- (4) هاجر إلى الحلة واستوطن فيها حتى توفي سنة 1904م. يُنظر: محمد علي اليعقوبي، المصدر السابق، ج3، ص112.
- (5) انتقل من (أستراباد) في إيران إلى الحلة منتصف القرن التاسع عشر، وكان الطبيب المميز يومئذ بالحلة. يُنظر: محمد علي اليعقوبي، المصدر السابق، ج3، ص85.
- (6) ولد في الحلة (محلة الطاق)، برع في معالجة المرضى على الطريقة التقليدية، توفي سنة 1924م عن عمر ناهز (60 سنة)، أعقب أبناءً وأحفاداً مارسوا مهنة الطب ومداواة الناس على الطريقة التقليدية. يُنظر: عبد الرضا عوض، المصدر السابق، ص33 - 34.
- (7) مارس الطب القديم وكان ضليعاً فيه، سكن المحاويل وتوفي سنة 1905. يُنظر: محمد علي اليعقوبي، المصدر السابق، ج3، ص75.
- (8) جواد عبد الكاظم محسن، من تراث المسيب الشعبي، مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية، جامعة بابل، 2002، ص22.

وعرفت الحلة كثير من الحلاقين بعضهم امتلك محلاً خاصاً به، فقصده الناس، وبعضهم الآخر كان متجولاً أو جليس دكة أحد الحمامات العمومية، واشتهر منهم في الحلة حسين محمد خضير الأصفر، ويقع محله في الجانب الصغير، وكانت لديه شهادة عثمانية بمثابة إجازة لممارسة مهنة الختان .
أما العطارون فقاموا مقام الصيدالنة، إذ امتنوا ببيع العقاقير اليونانية وما شاكلها⁽¹⁾، ووصفوا المواد العطارية لمعالجة أمراض معينة .

ولم تقتصر مهنة الطب الشعبي في الحلة على الرجال وحدهم، بل مارست بعض النساء الطب على الطريقة التقليدية، لاسيما طب العيون⁽²⁾.

وتجدر الإشارة إلى وجود مأمورية حجر صحي (كرنتينة) في المسيب تابعة إلى مديرية كرتنتينة بغداد، تولت مهمة الإشراف الصعب على الزوار وفحص الجناز التي ترد إليها بغية الدفن في مدن العتبات المقدسة، إذ سمحت السلطات بمرور الجناز القديمة التي مضى زمن على وفاة أصحابها وسبق دفنها وردت ما سواها من الجناز الحديثة، وذلك منعاً لما قد تنشره من أوبئة وأمراض⁽³⁾.

وغالباً ما كان مستوى الأداء في ميدان الحجر الصحي متدنياً، وربما يعود ذلك إلى ضعف إمكانياتها المادية والفنية، وعدم كفاءة ملاك الأطباء والمساعدين، المقترن بنقص التجهيزات والمعدات⁽⁴⁾.

كانت الحلة إحدى المدن العربية التي أنشأت فيها الدولة العثمانية مشفى عسكرياً بهدف تقديم الخدمات لقوات الجيش المتواجدة فيها، وتألّف ملاكها الطبي من طبيبين وجراح وصيدلي وملاك إداري مؤلف من كاتب أول ومعاونته، فضلاً عن 17 شخصاً من الموظفين عاملين بسائر الخدمات، وذلك عام 1858م⁽⁵⁾، ومع ذلك لم يأخذ لواء الحلة نصيبه من إنشاء المؤسسات الصحية خلال القرن التاسع عشر⁽⁶⁾،

(1) محمد علي اليعقوبي، المصدر السابق، ج 3، ص 69.

(2) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، 1955 ج 6، ص 278؛ علي الوردی، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج 1، ص 224.

(3) جميل موسى النجار، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2001 ص 401 – 402.

(4) ستيفن هيمسلي لونكریک، ارغة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر خياط، منشورات مكتبة التحرير، بغداد، 1955، ص 70.

(5) علي هادي عباس المهداوي، الحلة في السالنامات العثمانية، مكتبة الرياحين، الحلة، 2005، ص 35.

(6) عبد العظيم عباس نصار، بلديات العراق في العهد العثماني، المكتبة الحيدرية، النجف، 1427 هـ، ص 217.

فقد تعرض سكان العراق عامة، ومن ضمنه لواء الحلة، بصورة خاصة في أثناء الحكم العثماني للعديد من الكوارث والمجاعات، ونتيجة لذلك أصبحت الحلة تعاني من الركود والتأخر⁽¹⁾. وإن ما زاد المعاناة انتشار الجهل والامية وانخفاض المستوى المعيشي والفقر، مما زاد من انتشار الأوبئة والأمراض المعدية، ومنها مرض الطاعون عام 1831م، والذي فتك بأهالي الحلة حتى وصل عدد الموتى إلى ما بين (9 – 10) أشخاص كل يوم⁽²⁾.

وفي تلك الأحيان استعانت الإدارة العثمانية في بغداد (داود باشا انموذجا) بالانصليية البريطانية لدرء الخطر، ومن ثم قدمت له طبيبا بريطانيا قدم بعض الإرشادات الصحية الخاصة بالمرض، إذ ترجمه للتركية والعربية ووزعت على المناطق المنكوبة، وقد حصلت الحلة على نصيب من تلك الإرشادات⁽³⁾. ليس فقط ذلك المرض وإنما انتشار مرض الجدري والتيفويد، مما دفع الوالي (علي رضا باشا) إلى تأسيس الحجر الصحي في عام 1838م للتخفيف من وطأة المرض والاهتمام بالأمر في كافة المدن المصابة، ومنها الحلة⁽⁴⁾.

لا بُدَّ من الإشارة إلى أن هناك فروقا بين المجتمع البدوي والمجتمع الريفي هو قلة الأمراض في الأول وكثرتها في الثاني، فإن الأمراض قليلة جداً في البادية، بالرغم من قلة اعتناء البدو بنظافة أبدانهم وملابسهم ومسكنهم⁽⁵⁾. والسبب في ذلك أنهم عاشوا في خيام مُنقَّلة، فلم يبقوا في مكان واحد مدة طويلة، فضلاً عن أن الرمال التي كانوا ينتقلون فوقها هي طاهرة تالفحها الشمس والرياح دائماً⁽⁶⁾، ومن النادر أن تنتشر بينهم أوبئة كاسحة أو أمراض معدية. ومن الأسباب الرئيسة لحدوث الأوبئة المرضية:

1- مياه الشرب وعدم تعقيمها: لعدم توافر وسائل التعقيم أو للجهل بها، فإن مسببات توطن المرض أصبحت سهلة ومتيسرة.

(1) جميل موسى النجار، التعليم في العراق في العهد العثماني الأخير 1969 - 1918، دار الشؤون الثقافية العامة، 2001، ص30.

(2) علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، مطبعة المعارف، بغداد، 1974، ص100؛ أحلام فاضل عبود، السيد حيدر الحلبي حياته وادبه، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب، جامعة بغداد، 1976، ص28.

(3) رسول حاوي الكركوكلي، المصدر السابق، ص298، عبد الرزاق الحسني، موجز تاريخ البلدان العراقية، مطبعة دار السلام، بغداد، 1933، ص ص77-78.

(4) عثمان بن سند البصري، مطالع السعود بطيب اخبار الوالي داود، اختصره امين بن حسن الحلواني، المطبعة السلفية، القاهرة، 1371هـ، ص143.

(5) رسول حاوي الكركوكلي، المصدر السابق، ص298.

(6) عبد الرزاق الحسني، المصدر السابق، ص ص77-78.

- 2- نقل جثث الموتى: استفحلت قضية نقل جثث الموتى لدى الإيرانيين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين .
- 3- سوء التدبير الصحي: كانت الحكومة العثمانية عاجزة عن توفير التدابير الصحية وإقامة الحجر الصحي، ولانشغالها بأمور الحكم والحرب والانقسامات الداخلية .
- وعلى هذا الأساس فقد ظهر في مدينة الحلة أطباء حليون خلال القرن التاسع عشر، توارثوا صنعة الطب عن الآباء والأجداد على أسس شعبية قديمة، وحافظوا على سر مهنتهم، ولا بُدَّ لنا من ذكر شيء من ملامح الطب الشعبي على سبيل التخليد والتراث الطبي⁽¹⁾.

(1) عبد الرضا عوض، تاريخ الطب والأطباء في الحلة، ص33.

ثالثاً: الطب الشعبي

1- طب الصلبة

الصلبة فئة من البدو الرحّل الذين لا مقر لهم، ولم يعرف أحد سبباً قاطعاً في تسميتهم، ولكن الأرجح أنهم بقايا جنود الحملات الصليبية أيام صلاح الدين الأيوبي، والصلبة يختلفون عن بقية البدو، فهم على اتصال دائم بالمدن والقرى، يعرضون بضاعتهم على سكانها، إضافة لما يجيدونه من صناعة للخناجر والأسنان الذهبية فإن لهم خبرة واسعة بالتنجيم والطب القديم. ولهم في هذه العلوم وراثه محاطة بسور من التكتّم، ويجهدون أنفسهم كي لا تفشى أسرار مهنتهم، ويستعمل الصلبة في عقاقيرهم عظام طير الهدهد أو لحوم الأفاعي أو سموم العقارب، ويغلب على مداواتهم الكي بالنار أو الوخز بالأبر على موضع الألم حسب الطريقة الطبية الشهيرة (الوشم)، وتخلط أحياناً هذه الوسائل بتعويذات وطقوس سحرية خاصة، والظاهر أن وسائلهم بالطب والمعالجة لها شبه كبير مما وجد على ألواح الطين البابلي، وقد انتعشت بضاعتهم ولاقت رواجاً كبيراً أيام العصر العثماني لعدم توفر الطرق الصحية الصحيحة، وقد تحملها الناس على الرغم من مساوئها وأخطارها⁽¹⁾.

2- العشابون

لهذه الأنواع من الطرق الطبية القديمة أدوية يحصل عليها المريض من (صيدلية) أو معشب الأطباء الشعبيين وهم العطارون فيحوي كل عطار في متجره على كافة أنواع الأعشاب والنباتات البرية وما يلحق بها، والتي يعمل فيها العقاقير الطبية بموجب ما يراه الطبيب الشعبي ملائماً للحالة التي يطلع عليها⁽²⁾ وتؤخذ كمية من البذور أو الأعشاب أو جذور النباتات وتحضر فيما أن تسحق ناعماً وتمزج مع مواد غذائية أخرى ويتناولها المريض أو تغلى بواسطة النار ثم تبرد فيتناولها المريض على شكل شراب دوائي، وقد برع العراقيون منذ قديم الزمان بمعرفة أنواع النباتات وتأثيرها على جسم الإنسان⁽³⁾

رابعاً: أهم العوائل الطبية في النصف الأول من القرن التاسع عشر في الحلة

على الرغم من الوضع الصحي المزري، فقد عرفت مدينة الحلة الكثير من الأسر الطبية التي نبغ أبناؤها في علاج بعض الأمراض المتفشية آنذاك، ومن أشهر تلك الأسر

1- آل ربيع :

(1) عبد الرضا عوض، أوراق حلية، مكتبة الصادق، الحلة، 2005، ص 201.

(2) محمد علي اليعقوبي، المصدر السابق، ج 3، ص 69.

(3) عذراء شاعر هادي الهلالي، الحلة من 1800 – 1869 دراسة في الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية، رسالة ماجستير، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة بابل، 2009، ص 137.

كانت البلاد، إبان العهد العثماني، معرضة لهجمات وبائية عاتية بين مدة وأخرى، ومن تلك الأوبئة أمراض العيون مثل (التراخوما) و(الرمد)، ولعدم توفر اللقاحات الصحية اللازمة، فقد ظهرت في مدينة الحلة أسرة آل ربيع، الذين كانت دورهم قريبة من مشفى الحلة الأول، العائد للحاج حسين رضا الخواجة، وكان يطلق على طبيب العيون لقب (كخّال)، لاستعماله مادة (الكحل) لتطبيب العين في أغلب الحالات، كذلك كانت خبرة معالجة نزول ماء العين، ولهم بهذه المعالجة طريقة خاصة، وكان يقصدهم لغرض التطبيب كثير من الناس من بقية مدن العراق لشهرتهم⁽¹⁾.

2- أسرة سلمان البوزاجر الخفاجي :

منهم سلمان بن باقر بن نصير، وسعيد بن سلمان، وشريف بن سعيد بن سلمان، وناصر بن سعيد بن سلمان، الذي يطلق عليه لقب (الميرزا ناصر) لكون أمه علوية، وهي من آل سيد ربيع الأسرة الحلية المعروفة والمشهورة بطب العيون، والميرزا ناصر هو أكثر من ذاع صيته من بين أفراد أسرته، ومازال المعمرين من أهالي الحلة يتذكرون مواقفه، ويستعينون بها، ويمتدحون خبرته ومهارته⁽²⁾.

3- أسرة آل سليمان الحلي :

أسرة آل سليمان الحلي : من الأسر التي سكنت الحلة في القرن الثاني عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، ومارست أنواع الطب المختلف، كالكسور، والطب العام، والأمراض الأخرى، ومن أشهر أعلامها سليمان بن داود الحلي، وحسين بن سليمان بن داود الحلي⁽³⁾.

خامسا : اهم النشاطات الطبية للمتصدين لمهنة الطبابة

1- القبالة والتوليد :

كان اعتماد الناس على القبالات وتسمى (الحبوبة أو الجدة)، وتحوي كل محلة من محلات الحلة القديمة على (قابلة) مختصة بالولادات، فضلاً عن معالجتها ما يعتري المرأة بعد عملية الولادة من التهاب أو نزف بموجب طرق بدائية قديمة.

(1) كريم مطر حمزة الزبيدي، الحلة في عصر المماليك 1749 – 1831، مؤسسة نائر العصامي للطباعة والنشر، بغداد، 2018، ص ص 134 – 135، عبد الرضا عوض، تاريخ الطب والأطباء في الحلة، ص 32.

(2) محمد علي اليعقوبي، المصدر السابق، ج 3، ص 111؛ علي الخاقاني، شعراء الحلة أو البابليات، المطبعة الحيدرية، النجف، 1953، ج 2، ص 501؛ يوسف كركوش، تاريخ الحلة، المطبعة الحيدرية، النجف، 1965، ج 2، ص 137.

(3) عبد الرضا عوض، أوراق حلية، ص 202.

والجدة إضافة لعملها هذا تتمتع بمكانة اجتماعية محترمة من قبل أبناء المحلة رجالاً ونساءً، وأغلب الحال أن هذه المهنة يتوارثها النساء عن أمهاتهن. وكثيراً ما كانت تعالج الجدة حالة العسر بطريقة خاطئة فينتج عنها الوفاة⁽¹⁾.

2- طب الأسنان والختان :

كان الطبيب في الحلة يعالج مرض الأسنان وقلعها، ولما كان الجهد عليه كثيراً، فقد قام بهذه الطريقة المهمة الحلاقون . والحلاق في المحلة عليه ثلاث مهمات في عمله، فهو يحلق شعر الرأس، ويقلع الأسنان، ويقوم بعملية الختان للأولاد. أما عملية الختان فهي من العمليات الجراحية فيقوم بها الحلاق أو رجال أخصاء بهذا العمل، فكما علمنا أن للختان موسماً في مدينة الحلة، ويحضر في هذا الموسم رجال من أراضي الدولة العثمانية من مدينة (سعرت) ولهذا يطلق عليهم كلمة السعرتي وهم يمتازون بملابسهم وعمائمهم الخاصة⁽²⁾.

3- تجبير الكسور:

كان في كل محلة من محلات الحلة هناك من يعمل على تجبير الكسور، ويطلق لقب (المجبري) على من يقوم بتلك الخدمة، وهي غالباً ما تكون مجاناً. وفضلاً عن تجبير الكسور فإن المجبري له خبرة في معرفة أنواع الرضوض وآلام عرق النسا والتهاب المفاصل والتشنجات العصبية⁽³⁾.

4- الحجامة :

يقوم بهذا العمل كل من الرجال والنساء على السواء، وتعتمد على المشرط (النشتر والقدح)، إذ يقوم الحجام بتشريح جزء من الظهر ثم يوضع قدح فيها نار ممزوجاً ببعض المواد، فتخرج كمية من الدم ويطلق عليه (الدم الفاسد) وتستعمل هذه الحجامة للمصاب بضغط الدم، والحجامة طريقة قديمة يستفاد منها في تقليل ضغط الدم في الجسم⁽⁴⁾.

قائمة المصادر

أولاً: الرسائل الجامعية

- أحلام فاضل عبود، السيد حيدر الحلبي حياته وادبه ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، 1976 .

-عذراء شاكر هادي الهلالي ا، الحلة من 1800 – 1869 دراسة في الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كلية التربية للعلوم الإنسانية ، جامعة بابل ، 2009

(1) عذراء شاكر هادي الهلالي ، المصدر السابق ، ص 136 .

(2) سندرسن، المصدر السابق، ص303.

(3) عبد الرضا عوض، تاريخ الطب والأطباء في الحلة، ص ص 37 – 38.

(4) المصدر نفسه ، ص38.

ثانياً: الكتب العربية والمعربة

- إبراهيم الوائلي، الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر ، مطبعة العاني ، بغداد ، بغداد ، 1961
- جعفر خياط، صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة ، بيروت ، مطبعة دار الكتب ، 1971 .
- جميل موسى النجار، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 2001
- جميل موسى النجار، التعليم في العراق في العهد العثماني الأخير 1969 - 1918 ، دار الشؤون الثقافية العامة ، 2001.
- جواد عبد الكاظم محسن، من تراث المسيب الشعبي ، مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية ، جامعة بابل ، 2002.
- جيمس ريموند وليستيد ، رحلتي الى بغداد في عهد الوالي داود باشا ، ترجمة سليم طه التكريتي ، مكتبة النهضة العربية ، بغداد ، 1984
- حسن الاسدي ، ثورة النجف على الإنكليز ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1975 .
- رسول حاوي الكركوكلي، المصدر السابق، ص298، عبد الرزاق الحسيني، موجز تاريخ البلدان العراقية، مطبعة دار السلام، بغداد ، 1978
- ستيفن هيمسلي لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر خياط ، منشورات مكتبة التحرير ، بغداد ، 1955 0
- سندرسن، مذكرات سندرسن باشا، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي، منشورات مكتبة اليقظة العربية، بغداد، 1982
- عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين ، شركة التجارة والطباعة المحدودة ، بغداد ، 1955 .
- عبد الرزاق الحسيني، موجز تاريخ البلدان العراقية، مطبعة دار السلام، بغداد، 1933
- عبد الرضا عوض، أوراق حلية، مكتبة الصادق ، الحلة ، 2005
- عبد الرضا عوض ، تاريخ الطب والأطباء في الحلة ، مكتبة الصادق ، الحلة ، 2004 0
- عبد العظيم عباس نصار، بلديات العراق في العهد العثماني ، المكتبة الحيدرية ، النجف ، 1427 هـ
- عثمان بن سند البصري ، مطالع السعود بطيب اخبار الوالي داود ، اختصره امين بن حسن الحلواني ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، 1371 هـ
- علي الخاقاني ، شعراء الحلة او البابليات ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، 1953.
- علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، مطبعة المعارف ، بغداد ، 1974 .
- علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ، بيروت ، دار الراشد ، 2005 .
- علي هادي عباس المهداوي، الحلة في السالنامات العثمانية، مكتبة الرياحين ، الحلة، 2005.
- كريم مطر حمزة الزبيدي ، الحلة في عصر المماليك 1749 – 1831 ، مؤسسة نائر العصامي للطباعة والنشر ، بغداد ، 2018 .

- محمد علي اليعقوبي، البابليات ، المطبعة العلمية ، النجف ، 1954 .
-محمود الحاج قاسم محمد ، الإدارة الصحية في ولاية بغداد في أواخر العهد العثماني ، الكاردينيا مجلة ثقافية عامة ،
دون معلومات طبع
-يوسف كركوش، تاريخ الحلة ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، 1965 .

الإجراءات والتدابير الصحية للوقاية من انتشار الأوبئة في العصر العباسي

Health procedures and measures to prevent the spread of epidemics in the Abbasid era

د. حمادوش بولخراس . جامعة ابن خلدون – تيارت (الجزائر)

boulakhlas.hammadouche@univ-tiaret.dz

ملخص:

إن تفشي الأوبئة في العالم وانتشارها كان متزامنا مع ظهور الإنسان على وجه الأرض، ففي عهد الرسول (ص) وبعده أثناء حكم الخلفاء الراشدين مروراً بالدولة الأموية إلى الدولة العباسية، بذل الخلفاء والأمراء كل ما في وسعهم للتخفيف والقضاء من حدة الأوبئة وإيقاف انتشارها، وذلك عبر اتخاذ كل الإجراءات والتدابير الصحية للوقاية منها، بالاعتماد على أمهر الأطباء والصيادلة في كل فترة، خاصة في العصر العباسي بعد تطور حركة الترجمة واحتكاك العرب بالفرس والعجم مما ساعد في تأسيس المستشفيات وتطويرها.
الكلمات المفتاحية: الأوبئة؛ الوقاية؛ العصر العباسي؛ الخدمات الصحية؛ أشهر الأطباء.

summary:

The outbreak of epidemics in the world and their spread coincided with the appearance of man on Earth. During the era of the Messenger, may God bless him and grant him peace, and after him during the era of the Rightly Guided Caliphs, passing through the Umayyad state to the Abbasid state, the caliphs and emirs did everything in their power to mitigate. From the severity of epidemics, eliminating them and stopping their spread, by taking health measures and measures to prevent them, and relying on the most skilled doctors and pharmacists in every way. Especially the Abbasid period after the development of the translation movement and the contact of the Arabs with the Persians and others, this helped in the establishment and development of hospitals.

Key words: Epidemics; Protection; Abbasid era; Health Services; The most famous doctors.

مقدمة:

حاولنا في هذه الدراسة الوقوف على الآثار السلبية التي سببتها الأوبئة في الدولة العباسية، مع ذكر أسباب تفشيها منها الأزمات الاقتصادية والحروب التي خلفت العديد من القتلى والجثث المتعفنة المتبقية في العراء بدون دفن، وعلى ضوء ما ذكر كانت الإشكالية في ما هي أهم الإجراءات والتدابير التي اعتمدها الخلفاء العباسيين للحد من انتشار الوباء وإيقافه؟

1- تعريف الوباء:

الوباء هو ظهور عدد من حالات المرض في مجتمع أو إقليم ما على نطاق واسع أكثر من المعتاد، وعندما يوصف الوباء لابد من التحديد النوعي الواضح للفترة الزمنية والإقليم الجغرافي وخصوصياته الاجتماعية التي تحدث لديها الحالات.

2- الخدمات الصحية الطبية :

هي كل عمل قائم على المعالجة والوقاية من الأمراض التي تصيب الإنسان ومحاولة الحد منها ومن ثم مساعدة الجسم للرجوع إلى حالته الطبيعية، وهي العلاج المقدم للمرضى سواء كان تشخيص أو إرشاد أو تدخلا طبياً، يرجع الحالة الصحية للمريض بشكل أفضل¹، كما تشكل الخدمات التشخيصية العلاجية والتأهيلية، الاجتماعية والنفسية، وخدمات الإسعاف والطوارئ، والتمريض والخدمات الصيدلانية²، والمنطلق الأساس في هذه الخدمات الصحية هو المجال الطبي فهو العلم الوحيد الذي يدرس كيفية معالجة الأمراض والحد منها وتحسين الأوضاع الصحية لمن يتلقى العلاج كما أن مفهوم الخدمات الصحية له ارتباط بمجمل المصطلحات الخاصة بالطب ومهنة الطب من أجل وأشرف المهين منذ الخليقة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لأنها تقوم على تخفيف آلام المتألمين والذين يعانون من المرض³، وقد ألح الطب على عدة طرق لإحلال الصحة والتخلص من المرض، ومنها: الحمية أو الوقاية، فهي كف ما يزيد به المرض أو يؤدي فإذا احتسب الإنسان وقف مرضه وأخذت القوة في دفع المرض، أما الإفراط في الحمية يؤدي خصوصاً من ليس في بدنه أخلاط رديئة لأنه إذا زادت الحمية أخذت النفس من الرطوبة التي في البدن وهي

¹ ثامر ياسر البكري، تسويق الخدمات الصحية، الأردن، دار اليازور العلمية، 2005، ص. 168.

² عبد العزيز المخيمر، محمد الطعامنة، الإتجاهات الحديثة في إدارة المستشفيات المفاهيم والتطبيق، القاهرة، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، 2003، ص. 09.

³ ابن أبي اصيبعة موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم، عيون الأنباء في طبقة الأطباء، ج. 1، تح: عامر النجار، القاهرة، دار المعارف، 1996، ص. 11.

الرتوبة الأصلية فيعود المرض¹، أما عن حال الطب في الحضارة الإسلامية فقد صار بوتيرة التطور، من حيث التأكيد على الطب الوقائي والحرص على سلامة البدن، فقد كانت عدة أحاديث نبوية تولي العناية بالصحة العامة، وفق توجيهات وإرشادات تؤكد على النظافة، وترغب بالعادات الصحية الصحيحة التي يجب أن يمتثل لها المسلم، وقد بلغت الأحاديث النبوية التي تحث على التوجهات الوقائية والصحية الثلاث مائة حديث²، والتي منها قول رسول الله صلي الله عليه وسلم (أيها الناس، تداووا فإن الله لم ينزل داء إلا أنزل الدواء³)، وفي أيام الدولة العباسية، تطور علم الطب كثيراً، بعد أن شجعت حركة الترجمة، وبرز العنصر العربي وكان هذا كله بدعم وتشجيع الخلفاء، فمثلاً الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور-136 (157 هـ) 775 - 754 / والخليفة المأمون 218-198 (هـ 828 - 813 م) قاما بشراء المخطوطات اليونانية وحفظوها في المكتبة المعروفة بـ (بيت الحكمة) والتي اعتبرت من أعظم دور العلم في بغداد، حيث حوت على عدد لا يحصى من نفائس الكتب ولاسيما الطبية منها مثل كتب أبقراط، وجالينوس وديسقوريدس: طبيب حشاشي، ولد سنة 20 م وكان بعد أبقراط، اشتهر بعنايته بالعقاقير المفردة⁴.

قسم الأطباء العلميون إلى مجموعتين: مجموعة الممارسين الذين اهتموا في المقام الأول بتشخيص المرض وعلاجه، معتمدين على المشاهدات والملاحظات، وتأتي الفلسفة عندهم وسيلة لبلوغ هذه الغاية، ويمثل هذه المجموعة الطبيب أبو بكر الرازي 320 هـ (901 م)، أما الفريق الثاني فهو فريق المدرسين الذين درسوا الطب على أنه جزء من المعرفة لا غنى عنه، وسعيهم إلى استكمال المعرفة هو الذي دفعهم إلى تحصيل الطب بأسلوب منطقي وأطلق عليهم الفلاسفة الأطباء ويمثلهم ابن سينا 428 هـ (1036 م)، وكلا الفريقين اتبع المنهج التجريبي، بصرف النظر كونه غاية أو وسيلة⁵.

3- أشهر الأطباء:

من أشهر أطباء العرب الرازي ويعد كذلك من علماء الكيمياء وله عدة أعمال في الفلسفة والتاريخ، أشهر كتبه " الحاوي " و " المنصوري " المؤلف من عشرة أقسام، كتبه انتشرت واعتمدت في الجامعات الأوروبية، والتي ترجم بعضها منها كتاب الحصبة إلى اللاتينية ولا سيما في البندقية وباريس، كانت كتب

¹ ابراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر الأزرق، الطب النبوي، تج: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تركيا، مكتبة الحقيقة دار الشفقة، 2011، ص. 07.

² عبد الرزاق أحمد، الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى (العلوم النقلية)، القاهرة، دار الفكر العربي، 1991، ص. 144.

³ البيهقي أبو بكر بن الحسين بن علي، الآداب، تج: مجدي منصور سيد الشوري، بيروت، دار الكتب العلمية، 2004، ص. 272.

⁴ محمد البشير العامري، نهاد عباس زينل، الإنجازات العلمية للأطباء في الأندلس وأثرها على التطور الحضاري في أوروبا، القرون الوسطى، العراق، جامعة الدول العربية، 2012، ص. 85.

⁵ المرجع نفسه، ص. 86.

الرازي وكنب ابن سينا تدرس في جامعة لوقان في القرن 17 ميلادي¹ عهد إلى الرازي مهمة اختيار إقامة مشفى في حي من أفضل أحياء بغداد، لجأ فيه الرازي إلى طريقة عجيبة وذلك انه علق قطعة لحم في كل حي وأعلن أن أصلح حي يقام عليه المشفى هو الحي الذي يتأخر فيه فساد قطعة اللحم المعلقة (نظرية المكروب الحديثة)². ونذكر من أطباء العرب على بن العباس المعاصر للرازي تقريبا، أشهر كتبه "الملكي" والذي اعتمد فيه على الطب النظري والعملي، استند فيه على ملاحظاته في المستشفيات لا على الكتب، أظهر فيه عدة مغالطات لأبقراط وجالينوس وأريباسيوس وبولس الأجيئي³.

ابن سينا أشهر أطباء العرب الملقب بأمير الطب، أشهر كتبه "القانون" نقلت كتبه إلى عدة لغات عالمية وظلت مرجعا طبيا لمدة ستة قرون خاصة في جامعات فرنسا وإيطاليا⁴.

أبو القاسم القرطبي من أشهر جراحي العرب وابن زهر الإشبيلي الذي جمع بين الطب والصيدلة والجراحة⁵.

4- المجاعات وتفشي الأمراض والأوبئة:

كلما ترددت المجاعات إلا وتتبعها أمراض وأوبئة، والسبب أن المجاعات تساهم بشكل أو بآخر في اعتلال الجسم، وقد تختلف حدة الأمراض والأوبئة حسب فئات المجتمع وأجناسهم وأعمارهم، فالفئة المستضعفة أكثر عرضة للإصابة لعدة أسباب منها السلوك الغذائي⁶ وغنى عن القول إن كل مجاعة كانت تعقبها أوبئة غالباً ما أدت إلى الموت⁷، لأنه متى كان الغذاء موجوداً وصحياً، كانت الفائدة أعم لجسم الإنسان وعافيته، والعكس صحيح، وتتدخل عدة عوامل في ظهور المجاعة وانتشار الأمراض، ومنها ما ذكره ابن خلدون حينما (قبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر... إلا أن الناس واثقون في أوقاتهم بالاحتكار فإذا

¹ غوستاف لوقان، حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، المملكة المتحدة، الناشر محمد هندواوي، 2013، ص. 505.

² غوستاف، مرجع سابق، ص. 508.

³ المرجع نفسه، ص. 505.

⁴ المرجع نفسه، ص. 506.

⁵ المرجع نفسه، ص. 507.

⁶ لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تق: يوسف علي الطويل، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003، ص. 47.

.48

⁷ ابراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عهد المرابطين، بيروت، دار الطليعة، د.ت، ص.

.201

فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فعلى الزرع وعجز عنه أولوا الخصاصة فهلكوا، وكان بعض السنوات الاحتكار مفقوداً، فشمّل الناس الجوع¹. كما يمكن أن يكون الجوع أو المجاعة نتيجة للكوارث الطبيعية كالجفاف الذي يصيب الأرض، وذلك بسبب أن المطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر، والزرع والثمار على نسبته، وتكون النتيجة الحتمية للمجاعات هي ظهور الأمراض وانتشارها. قد يتسبب الفقر وانخفاض المستوى المعيشي في تفشي الأمراض²، وكذلك إذا عمت المجاعة ونقص الغذاء اضطر الناس لأكل الفاسد من الطعام الذي يضر الصحة ويعمل على تفشي الأمراض والأوبئة، وقد يكون فسادها بقدمها أو تعفنها³، إن الهواء والماء هو ما يشترك فيه الإنسان والحيوان والنبات، فهما يعمان كل مجالات الحياة، لذا فإن نقاؤهما كان من متطلبات الحياة والتواجد، يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنبياء "أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ"، أما إذا فسد أحدهما أو كلاهما فقد كان من مسببات الأمراض وانتشار الأوبئة "سورة الأنبياء، الآية رقم 30" ثم إن فساد الهواء المحيط قد يكون بمجاورة جثث الموتى المتغيرة، كما يفسد إذا كانت في البلد مستنقعات للمياه القذرة حتى يشتم ننتها وبالجملة فمتى خرج الهواء عن المعهود الطبيعي حدثت البليات بحسب خرجه⁴، والهواء إذا كان فاسداً عم المرض أهل الموضوع أو عم أكثرهم⁵، أما المياه: فإنها إذا كانت راکدة حتى تتن وتكون عكرة مما تحتها من حماة وأقذار⁶، فتكون سبباً مباشراً لحدوث العلة والسقم، فكل الأمراض والأوبئة لها علاقة وطيدة بالهواء ومدى صفائه ونقاؤه، كما يحدث نزول المطر في زمن الحر الشديد ودوام نزوله⁷، أمراضاً وأوبئة خاصة الطاعون؛ فالمطر إذا كان في فصل الصيف والحر شديد ودوام نزوله أيام متعددة في هذه الحالة يفسد الهواء ويعم الوباء أهل الموضوع. ويدرج ابن الخطيب أن من أسباب المرض ما يلي: سبب أقصى: وهو الأمور الفلكية من القرانات التي تأثر في العالم، حسبما يزعمه أصحاب صناعة النجوم، وسبب أدنى: وهو فساد الهواء الخاص بمحل

¹ عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج.6، تح: سهيل زكار، بيروت، دار الطباعة للنشر والتوزيع، ط.4، 2000، ص.282.

² حمولة فيروز، المتغيرات الاجتماعية لتصور المرض واساليب علاجه، أطروحة دكتوراه، بسكرة، جامعة محمد خيضر، 2013-2014، ص.33.

³ ابن زهر عبد المالك، كتاب الأغذية، تح: الكيراتيو نغارتيا، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية مجلس التعاون مع العالم العربي، 1992، ص.429.

⁴ المرجع نفسه، ص.421.

⁵ المرجع نفسه، ص.143.

⁶ المرجع نفسه، ص.422.

⁷ المرجع نفسه، ص.143.

ظهوره ابتداءً أو انتقالاً¹، والأکید أن الهواء والماء من العوامل الضرورية للحياة، وبفسادها تحدث العلل. ويرجع ابن خلدون أن العوامل التي تتسبب في فساد الهواء، هو كثرة العمران فيقول:....وقوع البواء وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن و الرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران ووقوع آخر الدولة، لما كان في أولها من حسن الملكة ورفعتها وقلّة المغرم²، كما أن الفوضى وانعدام النظافة والتعفن الذي يصيب أماكن الأوساخ، تكون آخر الدولة لضعفها وتركيزها على الجبايات فترهق العامة ذلك. أما نقاء الهواء وصفائه فإنه يعود بال صحة والعافية على الإنسان، للمناخ علاقة مباشرة بصحة الإنسان، فهو يؤثر بدوره على توزيع الأمراض، بحيث تنتشر بعض الأمراض في عروض رطوبة مناخية بينما ينتشر البعض الآخر في عروض باردة، كما أن تباينها عبر فصول السنة له تأثير على صحة الإنسان ونوعية الأمراض التي يمكن أن يصاب بها، حتى صارت توصف بأسماء الفصول كأعراض الصيف مثل الإسهال، وضربات الشمس، وأمراض الشتاء، والربيع مثل الرمد وغيرها³، وتعتبر درجة الحرارة والبرودة من أكثر العناصر المناخية التي لها تأثير مباشر ومحسوس على صحة البدن، ولا يقتصر تأثير المناخ على شخص دون الآخر وإنما يقع على البشر بدون استثناء. ومع ذلك فإن تأثيره قد يختلف من شخص إلى آخر حسب بعض المتغيرات مثل العمر ودرجة الإرهاق في مختلف الأعمال، ومتى التعود على نوع معين من المناخ، كما تعتبر الرطوبة من عناصر المناخ التي تؤثر في الصحة⁴. فالرطوبة المرتفعة تحول دون تبخر، مما يجعل الجسم لا يبرد بسرعة، وبالتالي الشعور الإنسان بالإجهاد والتعب والاضطرابات النفسانية، كما أن الجو الرطب يساعد على نمو الجراثيم⁵، التي ولقد بنيت النظرية العامة للطب على أربعة أركان منها: اثنان خفيان هما النار والهواء واثنان ثقيلان هما الأرض والماء، وأن جميع الأجساد والأشياء تتكون من هذه العناصر، ولها صفات أربع هي: الحرارة، والبرودة، والجفاف، والرطوبة، بتوازن هذه الأخلاط 3 في الجسم يكون في حالة صحة، وبانحراف توازنها وعدمه تحدث الأمراض، وهذه الأخلاط في مفهومها هي أجسام سيالة يستحيل إلها الغذاء⁶.

5- الرؤية الدينية لأسباب الأمراض:

¹ لسان الدين ابن الخطيب، مرجع سابق، ص. 65.

² عبد الرحمن ابن خلدون، مرجع سابق، ص. 499.

³ فتيحة فيلح عبد الكريم نجار، الأمراض والخدمات الصحية في مناطق مختارة من محافظة رام الله والبيرة، دراسة في الجغرافيا الطبيعية، رسالة ماجستير، فلسطين، جامعة النجاح الوطنية، 2008، ص. 73.

⁴ صديقي محمد، الأمراض والخدمات الصحية في بلاد المغرب الإسلامي، أطروحة دكتوراه، الوادي، جامعة حمة لخضر، 2020-2021، ص. 75.

⁵ فتيحة فيلح عبد الكريم نجار، مرجع سابق، ص. 73.

⁶ إبراهيم القادري بوتشيش، مرجع سابق، ص. 132.

وكما تتعدد الأمراض وتظهر الأوبئة فإن أسبابها تتعدد وتختلف، لكن يمكن التنويه إلى جانب يعد سبباً في حدوث الأمراض والأوبئة، ألا وهو تفشي الفواحش وارتكاب المعاصي، فقد تكون هذه الفاحشة سبباً وجهاً وحقيقاً في إحداث المرض لقوله صلى الله عليه وسلم " يامَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيْتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضُوا وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَثُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمَطَّرُوا وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَذَابًا مِنْ غَيْرِهِ م فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَمَا لَمْ تَحْكَمْ أَنْتُمْهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ"¹، أخرج ابن ماجة والبيهقي يذكر البيروني أن الصيدلي هو المحترف بجمع الأدوية على أحمد صورها واختيار الأجود من أنواعها مفردة أو مركبة على أفضل التركيب التي خلدها مبرزا أهل الطب ، والصيدلة هي معرفة العقاقير المفردة بأجناسها وأنواعها وصورها المختارة لها وخلط المركبات في الأدوية واستخراج الأجود منه . كما تعتبر فتاً علم يا يبحث في أصول الأدوية سواء كانت نباتية أو حيوانية أو معدنية، من حيث تركيبها وتحضيرها ومعرفة خواصها الطبيعية وتأثيرها الطبي وكيفية استحضر الأدوية المركبة منها.

6- الصناعة الصيدلانية:

يذكر البيروني أن الصيدلي هو المحترف بجمع الأدوية على أحمد صورها واختيار الأجود من أنواعها مفردة أو مركبة على أفضل التركيب التي خلدها مبرزا أهل الطب ، والصيدلة هي معرفة العقاقير المفردة بأجناسها وأنواعها وصورها المختارة لها وخلط المركبات في الأدوية واستخراج الأجود منها . كما تعتبر فتاً علم يا يبحث في أصول الأدوية سواء كانت نباتية أو حيوانية أو معدنية، من حيث تركيبها وتحضيرها ومعرفة خواصها الطبيعية وتأثيرها الطبي وكيفية استحضر الأدوية المركبة منها²، إن صلة العرب بعلم الأدوية كانت معرفة قديمة تعود إلى معرفة الإنسان بالعقارات النباتية التي يعالج بها نفسه، ولكنها معرفة بسيطة لم تتوسع إلا بعد اقترانها بالمعرفة الطبية، وقد ورث المسلمون هذه الحرفة عم ن سبقهم، وأضافوا إليها عقاقير جديدة للعلاج لم تكن معروفة عندهم من قبل مثل الكافور والتمر الهندي، وعرفوا مصادر جديدة للأدوية لأنهم عاشوا في أقاليم فيها من النباتات والحيوانات ما لم تكن تعرفه المصادر الإغريقية، ومن المصادر الصيدلة هو ديوسقوريدس الذي ترجم كتابه (المادة الطبية) إلى اللغة العربية في القرن الثالث للهجرة، كما ترجم كتاب آخر (كتاب الحشائش)، وأصبح المصدر الأساس لمن يعمل في مجال العقاقير،

¹ صديقي، مرجع سابق، 73.

² شحاتة القنواني، تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والوسيط، بيروت، دار أوراق الشرقية، 1996، ص. 11.

كما عرف المسلمون رسالة جالينوس فيالعقاقير، وغيرهم من المؤلفات اليونانية التي ترجمت إلى العربية، بحيث وضعت تلك المؤلفات الأساس الذي قام عليه علم العقاقير الإسلامي كمدرسة مستقلة¹، وقد كان الطبيب هو الصيدلاني إلا أن قلة فضلوا الصيدلة والتحضير الدوائي عن الطب، حتى نهاية ق 3 هـ/9 م وكان كل طبيب في العالم الإسلامي هو نفسه صيدلياً، حيث كانت الصيدلة في بداية أمرها متصلة اتصالاً وثيقاً بالطب، وكان الطبيب يحضر بنفسه الأدوية ثم أخذت شيئاً فشيئاً تنفصل عنه²، فلما كثرت العقاقير وتعددت أصنافها تفرعت مهنة الطب إلى قسمين الطب والصيدلة³، وأصبح كل علم مستقل عن الآخر وأول من أطلق عليه اسم صيدلاني هو أبو قريش كان صيدلانيا يجلس على موضع نحو باب قصر الخليفة المهدي العباسي، وكان دينا صالحا في نفسه، قربه المهدي إلى القصر وكناهه أبا قريش أي أبا العرب، فصار أبا قريش نظير جرجس بن جبرائيل⁴، الصيدلاني فأصبح متداولاً، أماكن الصناعة الصيدلانية وتجدر الإشارة إلى أنه قبل القرن الخامس للهجرة كان الطبيب يتكفل بصناعة الأدوية⁵، ثم أصبح أغلب الأطباء يعتمدون على صيادلة يتخذون دكاكين لهم في الأسواق لصناعة وبيع الأدوية، بناء على وصفة يحملها المريض من طبيبه⁶، أما اهتمام المغاربة بالصيدلة، فكان خلال القرن الرابع للهجرة كما ذكرنا لعلاقته الوثيقة بالطب إذ أنه لابد لكل مريض يتم تشخيصه، من علاج مناسب ليحصل الشفاء، ومن ثم كان معظم الأطباء صيادلة. فابن الجزار كان قد خصص في داره مكاناً لصرف الأدوية للمرضى⁶، فالصيدلة هي بيت الصرف والعيادة بيت الوصف⁷، يذكر ابن جلجل أنه كان قد وضع على باب داره سقيفة أقعد فيها غلاماً له يسمى رشيق، وضع بين يديه جميع المعلومات والأشربة والأدوية فإذا رأى القوارير بالغداة أمر للجواز إلى الغلام وأخذ الأدوية منه كما وجدت ظاهرة في بلاد المغرب الإسلامي تخص حرفة الصيدلة⁸، فقد انتشرت أسواق كثيرة للعطارين والعشابين في كل مدينة وقرية من البلاد مثلها مثل أسواق الخضر واللحوم،

¹ بشار جبار الجابر، علم الصيدلة في الحضارة العربية الإسلامية، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، مج. 07، ع. 03، 2012، ص. 403.

² شحاتة، مرجع سابق، ص. 12.

³ صديقي، مرجع سابق، ص. 121.

⁴ ابن أبي أصيبعة، مرجع سابق، ص-ص. 215-216.

⁵ رمضان الصياغ، العلم عند العرب وأثره على الحضارة الأوروبية، الإسكندرية، دار الوفاء، 1998، ص. 218.

⁶ ابن أبي أصيبعة، مرجع سابق، ص. 104.

⁷ الصياغ، مرجع سابق، ص. 512.

⁸ ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تح: فؤاد سيد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط. 2، 1985، ص. 30.

وكانت مهنة المحتسب تتضمن الإشراف على بائعي الأعشاب والعطور الطبية ومراقبتهم مراقبة دقيقة لضمان الدقة والجودة¹.

7- الوقاية:

لقد حث الدين الإسلامي كثيراً عن سبل الوقاية والأخذ بالحيلة والحذر، وأوضحت أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم أساليب الوقاية عندما يحل الوباء أو يكون المرض المعدي حيث أرشد إلى ضرورة عزل المصاب عن غيره من الأشخاص الأصحاء وعدم اختلاطه بهم لا يُورد: « لیتم حصر المرض وعدم انتشاره، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "الْمُمْرِضُ عَلَى الْمُصِحِّ²، كما دعا الإسلام إلى طهارة الأعضاء المختلفة من الجسم واهتم الأعضاء التي تكثر فيها الأمراض ففي طهارة الفم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَفِي حَدِيثٍ زُهٍ عَلَى أُمَّتِي لِأَمْرِهِمْ بِالسَّوَالِكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةِ الْفِطْرَةِ حَمْسٌ، أَوْ حَمْسٌ مِنَ الْفِطْرَةِ³» وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخِتَانُ، وَالْإِسْتِحْدَادُ، وَتَنْفُ الْإِنْطِ، وَتَقْلِيمُ الْأَطْفَارِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ⁴، من طرق الوقاية المتبعة في بلاد المغرب هو العزل. فقد أوضحت قبله الأحاديث النبوية بالأساليب المتبعة عند إصابة الأشخاص بمرضٍ أو وباءٍ معين قاتل، حيث يتم عزل الأصحاء وعدم اختلاطهم بالمرضى وذلك لیتم منع انتشار المرض، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة: " لا يُوردَنَّ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحِّ⁵، وكذلك في حالة الطاعون فقد حثت أحاديث كثيرة على الوقاية منه لقول رسولٍ إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا: « اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ⁶ أدى إلى بروز ظواهر سلبية في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية وغيرها، كما كانت الدولة الإسلامية في الفترة الوسيطة، تشكل منارة علمية حضارية متطورة ساهم هذا في بروز علماء في مختلف المجالات والطب من أبرزها. فما هي أهم الآثار المترتبة عن الأمراض والأوبئة في المجتمع، وما هي انعكاسات التطور الطبي على أوروبا؟ للأمراض والأوبئة تأثير على حياة الناس الاجتماعية، فهي تجعلهم يقومون بأعمال

¹ الصياغ، مرجع سابق، ص. 516.

² ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، ج. 2، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار إحياء الكتب، د.ت، ص. 1171، رقم: 3541.

³ الإمام مسلم بن الحاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله، ج. 1، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت، ص. 220، رقم: 252.

⁴ إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، ج. 7، د.ت، ط. 1، ص. 160، رقم: 5889.

⁵ البخاري، مرجع سابق، ص. 138، رقم: 5771.

⁶ المرجع نفسه، ص. 26، الرقم: 6973.

تتراوح بين القبول والنفور؛ ويمكن أن تكون لها آثار إيجابية أخرى سلبية، والسبب هو حجم الكارثة الصحية التي يصل إليها الإنسان عند انتشارها؛ فالحياة على المحك، ولا يوجد سبيل لاختيار كيفية العيش في مثل هذه الظروف، فنجد الكثير من الناس يلجؤون إلى طرق مختلفة تكفل لهم على الأقل حياة مؤقتة، كما كان للحضور الصوفي في مساعدة المحتاجين من الفقراء والمساكين صورة من صور التكافل الاجتماعي. الأثر النفسي للأمراض والأوبئة لقد ركز الأطباء والمعالجون على الحالة النفسية للمريض، فالعلاج يحتاج إلى أن يكون المريض مستعداً لتلقى مختلف الأدوية، كما كان لبعض الأمراض تأثير كبير على تطور صحة المرضى. لكن يبقى للحضور الديني تأثير على استقرار نفسية المريض، والصبر على مختلف المصائب التي منها الأمراض فعن عبد الله بن مسعود: [١] أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرَضِهِ، وَهُوَ يُوعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا، وَقُلْتُ: أَجَلٌ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ: « إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا، قُلْتُ: أَنْ ذَاكَ بَ أَنْ لَكَ أَجْرٌ نِيْن؟ قَالَ أَدَى إِلَّا حَاتَّ اللَّهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ، كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُّ الشَّجَرِ¹.

علاقة التكافل بين الدولة والعام ساهمت الأمراض والأوبئة في وجود علاقة بين السلطة والعام، حيث كان هناك تكافل من الدولة إلى جموع المحتاجين زمن الشدة، وذلك لعدة مآرب، منها اكتساب الشرعية وإعادة الثقة التي تهتز زمن الضعف، أو تكون المساعدة والقيام بأمور العامة عند زمن الرخاء الاقتصادي قصد تباين مدى قوة الدولة ونجاعة حكامها في تسير أمور المجتمع. كما تكمن مظاهر التكافل الاقتصادي والاجتماعي والاهتمام بشؤون الرعية في من خلال التدخل في تحديد أسعار السلع الغذائية المرتفعة أثناء حدوث الأزمات، غير أن هذا الإجراء في معظم الأحيان لم يكن فعالاً لأن التجار كانوا غالباً ما يخفون بضاعتهم فترتفع الأسعار وتجبر الدولة عن التراجع عن قرارها²، وقد أورد صاحب الحلل الموشية وابن عذارى وابن خلدون أن الدولة كانت تقوم بتخزين وادخار الطعام بطرق أكثر نجاعة، وقد خصصت الدولة قائمين على هذا العمل، كما أغدقوا على ولاية المخازن بقدر ما تشددوا في معاقبة المتهاونين منهم³، فالوباء من أسبابه الغلاء في كل السلع الضرورية، وقد يكون من نتائج الغلاء كذلك استفحال الوباء فابن هيدور يقول نقلاً عن عبد الهادي البياض <>: إذا كان الغلاء وطال لزم عنه الوباء وهذا علم صحيح 6 <<، إن الأوبئة تستفحل مع المجاعات، وتنتعش في أوقات غلاء الأسعار، وتدهور الوضع الصحي ينتج عن سوء التغذية في أوقات ما تكون الدول عادة ما تحتضر⁴، لقد ساهمت الكوارث الطبيعية والأوبئة بنصيب وافر في اضمحلال

¹ البخاري، مرجع سابق، ص. 115، الرقم: 5667.

² بوتشيش، مرجع سابق، ص. 211.

³ عبد الهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس، الرياض، المجلة العربية، 2013،

ص. 203.

⁴ المرجع نفسه، ص. 124.

التجارة من خلال قلة المواد والسلع، وارتفاع التزيف البشري في صفوف التجار، فضلاً عما ترتب على هذه الأوضاع من سلوكيات الاحتكار والادخار، وغلاء الأسعار واختلال التوازن الغذائي¹، وكثرت أعمال النهب وقطع السابلة واختل الوضع الأمني فتخوف التجار وأغلقوا دكاكينهم مما زاد في حدة الغلاء². اهتم العرب في فترة ازدهار الدولة الإسلامية بنشر الثقافة الطبية وتطويرها، وذلك بترجمة التراث الطبي اليوناني، وتأسيس البيمارستانات والمدارس الطبية لتخريج الأطباء وعلاج المرضى. ولم تلبث المدارس الطبية أن انتشرت في جميع أرجاء الدولة الإسلامية، وحنق المسلمون بصناعة الطب ومرنوا عليها وبرعوا في تشخيص الأمراض، واعتمدوا على علاج المرض على ما اكتسبوه من تجارب، وما وجد في المؤلفات الطبية وفي الأدوية والعقاقير³.

في عهد الناصر العباسي ارتفعت الأسعار في مصر بسبب الجفاف الذي أصاب نهر النيل بعد انخفاض منسوب المياه فيه، نجم عن ذلك وباء شديد هلك فيه بشر كثير، أكل الناس فيه الميتة وحتى لحوم البشر. كان ذلك في انتشار الوباء خاصة في دمياط التي كانت محاصرة من قبل الفرنجة، ولعل السكان سلموا المدينة للمحتل الذي عاث فيها فساداً حتى أنهم حولوا المسجد إلى كنيسة. وحتى في الموصل بالعراق حدثت المجاعة انجر عنها الوباء بسبب ارتفاع الأسعار رغم أن الأمطار تساقطت لكن الأسعار ازدادت في الارتفاع مما زاد من شدة الوباء الذي أدى إلى انتشار المرض وهلك فيه الكثير من الناس، حدث كل هذا في فترة الخليفة العباسي الظاهر⁴، وفي عهد المستنصر بالله أصاب بغداد الوباء، خلفه أبنه المستعصم بالله الذي قتل على يد التتار سنة 356هـ، يعرف ابن سينا الطب في كتابه القانون "هو علم تعرف به أحوال بدن الإنسان من جهة الصحة والسلامة، وزوال السقم ليحفظ الصحة الموجودة أو ليسترجع صحة زائلة"⁵، أما ابن خلدون يعرفه بأنه "صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح، ويحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بأدوية والأغذية، بعد أن يتبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن والأسباب التي ينشأ عنها"⁶، ومع ظهور حركة الترجمة تزايد اهتمام المسلمين بعلم الطب، فترجموا أعمال

¹ البياض، مرجع سابق، ص-ص، 90-91.

² المرجع نفسه، ص. 117.

³ العكاوي رحاب لخضر، الوجيز في تاريخ الطب عند العرب، بيروت، دار المنهل، 2000، ص. 232.

⁴ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، مج. 13، تح: بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2003، ص. 284.

⁵ أبو الحسن على الحسين بن علي بن سينا، القانون في الطب، وضع حواشيه: محمد أمين الضناوي، ج. 3، ط. 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1999، ص. 13.

⁶ ابن خلدون، مرجع سابق، ص. 436.

السابقين وأعمالاً من الحضارات السابقة¹، يقال أن ترجمة كتب الطب بدأت مع خالد بن يزيد بن معاوية، الذي تتلمذ على يد الراهب الرومي مريانس، وتعلم منه صنعة الطب والكيمياء، لذا يعتبر خالد أو لمن نقل المؤلفات الطبية إلى العربية، إذ أمر جماعة من اليونانيين الذي درسوا بالإسكندرية ترجمة الكتب اليونانية والقبطية إلى العربية منها كتب جالينوس²، وازدادت الترجمة بشكل كبير في عهد الخلفاء العباسيين وخاصة في عهد هارون الرشيد وابنه المأمون من بعده³.

يعتبر الوليد بن عبد الملك أول من أنشأ المستشفيات، وجمع الأطباء وحدد مرتباتهم، لكن الاهتمام الكبير ازداد في العهد العباسي، خاصة هادرون الرشيد الذي قام ببناء البيمارستانات في بغداد لتعليم الطب والعلاج⁴، كما أنشأت أول نقابة طبية في الإسلام لتسجيل الأطباء والترخيص لهم بممارسة مهنة الطب⁵.

أهم المستشفيات في العصر العباسي: المستشفى العضدي في بغداد، بناه عضد الدولة بن بويه باختيار المكان من قبل الطبيب الرازي، كان به أربعة وعشرون طبيباً ومكتبة علمية⁶، كما أصبحت هذه المستشفيات كليات لتعليم الطب إلى جانب دورها العلاجي، كما كانت تقام إلى جانب المستشفيات المزراع التي تنمو فيها النباتات الطبية، من أجل إمداد المستشفى بما يحتاجه من الأدوية، وعند دخول المريض ويوضع في مكان خاص حسب كل مرض لتسلم له ملابس جديدة وذلك لتجنب العدوى⁷، كما ظهرت المستشفيات المتنقلة في عدة مناطق مثل العيادة التي كانت ببغداد⁸، أصدر الخليفة المقتدر بالله أمراً بالتحقيق مع كل الأطباء واستثنى من ذلك الأطباء التابعين للحكومة، وذلك بالتأكد من إجازاتهم التي تسمح لهم بممارسة مهنة الطب⁹.

خاتمة:

لقد سبب الوباء آثار سلبية على المجتمع الإسلامي في العصر العباسي، نتيجة انتشار المجاعة التي خلفها الجفاف مما جعل الوضع الاجتماعي كارثي، أدى كل ذلك إلى تدهور الوضع الصحي في وسط المجتمع

¹ السرحاني، قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، ط.1، القاهرة، مؤسسة إقرأ، 2009، ص. 36.

² حمدي شاهين، الدولة الأموية المفترى عليها دراسة الشبهات ورد المفتريات، القاهرة، كلية دار العلوم، د.ت، ص. 460.

³ السرحاني، مرجع سابق، ص. 36.

⁴ أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، د.ط، بيروت، دار الرائد العربي، 1981، ص. 06.

⁵ محمد حسين محاسنة، أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين، ط.1، الإمارات العربية المتحدة، دار الكتاب الجامعي، 2001، ص. 208.

⁶ السرحاني، مرجع سابق، ص. 575.

⁷ زيفريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب أثر الحضارة العربية على أوروبا، تر: فاروق بيضون، كمال دسوقي، ط.8، بيروت، دار الجيل، 1999، ص. 231.

⁸ المرجع نفسه، ص. 232.

⁹ المرجع نفسه، ص. 235.

الإسلامي، وحتى الوضع الاقتصادي شهد ارتفاعا صارخا لأسعار المواد الاستهلاكية، مما نتج عنه ظهور الفتن التي أدت إلى نشوب الحروب داخليا وخارجيا، هذه الصراعات خلفت الكثير من الجثث التي لم يعتنى بها وتدفن وتركت في العراء تتعفن مما تسبب في انتشار المرض وتفشيته، وبالرغم من كل ذلك عمل الخلفاء والأمراء العباسيين على الاعتناء بالجانب الصحي والعمل على الحد من انتشار الوباء بالوقاية ثم التداوي، وذلك بتأسيس المستشفيات والمراكز الصحية ودعم الأطباء وتكوينهم، خاصة مع ظهور حركة الترجمة وتشجيعها في العصر العباسي، كان نتيجته بروز أطباء مميزين لهم سمعة عالمية اقتدت بهم الأمم الأوروبية واعتبرت أعمالهم من أرقى ما خلفته العلوم في مجال الطب.

قائمة المصادر والمراجع:

- غوستاف لوغان، حضارة العرب، تر. عادل زعيتر، المملكة المتحدة، الناشر مؤسسة هنداوي، 2013.
- ثامر ياسر البكري، تسويق الخدمات الصحية، الأردن، دار اليازور العلمية، 2005.
- عبد العزيز مخيمر ومحمد الطعمانة، الاتجاهات الحديثة في إدارة المستشفيات المفاهيم والتطبيق، القاهرة، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، 2003.
- ابن أبي أصيبعة موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج.1، تح: عامر النجار، القاهرة، دار المعارف، 1996.
- عبد الرزاق أحمد، الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى (العلوم النقلية)، القاهرة، دار الفكر العربي، 1991.
- بشار جبار الجابر، علم الصيدلة في الحضارة العربية الإسلامية، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، م. 7، ع. 3، 2012.
- ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ج. 2.
- الإمام مسلم بن الحاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله، ج. 1، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- ابو الحسن علي الحسين بن علي بن سينا، القانون في الطب، وضع حواشيه. محمد أمين الضناوي، ج.3، ط.1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1999.
- السرحاني، قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، ط.1، القاهرة، مؤسسة اقرأ، 2009.
- أحمد عيسى، تاريخ البيماريستانات في الإسلام، د.ط، بيروت، دار الرائد العربي، 1981.
- محمد حسين محاسنة، أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين، ط.1، الإمارات العربية المتحدة، دار - الكتاب الجامعي، 2001.
- البيهقي أبو بكر بن الحسين بن علي، الآداب، تح: مجدي منصور سيد الشوري، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.
- إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر الأزرق، الطب النبوي، تح: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تركيا، مكتبة الحقيقة دار الشفقة، 2011.

- محمد البشير العامري، نهاد عباس زينل، الإنجازات العلمية للأطباء في الأندلس وأثرها على التطور الحضاري في أوروبا، القرون الوسطى، العرلق، جامعة الدول العربية، 2012.
- لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تق: يوسف على الطويل، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003.
- إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عهد المرابطين، بيروت، دار الطليعة، د.ت.
- عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج.6، تح: سهيل زكار، بيروت، دار الطباعة للنشر والتوزيع، ط.4، 2000.
- حمولة فيروز، المتغيرات الاجتماعية لتصور المرض واساليب علاجه، أطروحة دكتوراه، بسكرة، جامعة محمد خيضر، 2013-2014.
- ابن زهر عبد المالك، كتاب الأغذية، تح: الكيراتبونفارتيا، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية مجلس التعاون مع العالم العربي، 1992.
- صديقي محمد، الأمراض والخدمات الصحية في بلاد المغرب الإسلامي، أطروحة دكتوراه، الوادي، جامعة حمة لخضر، 2020-2021.
- فتيحة فليح عبد الكريم نجار، الأمراض والخدمات الصحية في مناطق مختارة من محافظة رام الله والبيرة، دراسة في الجعراغيا الطبيعية، رسالة ماجستير، فلسطين، جامعة النجاح الوطنية، 2008.
- شحاتة فنوتي، تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والوسيط، بيروت، دار أوراق الشرقية، 1996.
- رمضان الصياغ، العلم عند العرب وأثره على الحضارة الأوروبية، الإسكندرية، دار الوفاء، 1998.
- ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تح: فؤاد سيد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط.2، 1985.
- الإمام البخاري إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (ص) وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، ج.7.
- عبد الهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس، الرياض، المجلة العربية، 2013.
- العكاوي رحاب لخضر، الوجز في تاريخ الطب عند العرب، بيروت، دار المناهل، 2000.
- زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب أثر الحضارة العربية على أوروبا، تر: فاروق بيضون، كمال دسوقي، ط.8، بيروت، دار الجيل، 1999.
- شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، مج.13، تح: بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2003.
- حمدي شاهين، الدولة الأموية المفترى عليها دراسة الشبهات ورد المفتريات، القاهرة، كلية دار العلوم، د.ت.

المنظومة الصحية الفرنسية بالجزائر ودورها في ترسيم السياسة الاستعمارية The French health system in Algeria and its role in defining colonial policy

د. حسين مجاود، جامعة سعيدة – دكتور مولاي الطاهر (الجزائر)

medjaoudhocine22@gmail.com

الملخص:

يكتب كانت المنظومة الصحية الفرنسية بالجزائر خلال الفترة الاستعمارية غير شاملة وغير عادلة، تهدف في المقام الأول الحفاظ على صحة المستوطنون الأوروبيون. كما تؤكد على الآثار المفيدة لـ"الرسالة الحضارية"، حيث أصبحت عنصرًا قويًا لإضفاء الشرعية على القانون الاستعماري. بالنسبة للأوروبيين، يصبح طمهم أداة للتقدم نحو نظام اجتماعي وبيئي أكثر حضارة. أنشأ الفرنسيون في الجزائر، منذ عام 1830، منظومة طبية ترجع إلى كونها مستوطنة تم استيعابها كليًا. ومنه فإن العودة بالدراسة للمشكلة الصحي في الجزائر خلال الحقبة الكولونيالية، واحد من المواضيع التي لا بد أن تطرح بشكل جدي في ميدان بحثنا التاريخي والاجتماعي الأكاديمي. لهذا الغرض توجهنا إلى اختيار موضوع "المنظومة الصحية الفرنسية بالجزائر ودورها في ترسيم السياسة الاستعمارية" باعتباره حلقة مهمة من حلقات تاريخنا الوطني. وأهمية منا للموضوع فإننا حاولنا طرح الواقع الصحي بالجزائر خلال الحقبة الاستعمارية للدراسة محددتين مخلفاته وتأثيراته المختلفة على المستوى الاجتماعي، الصحي، الاقتصادي والمعنوي للجزائريين.

الكلمات المفتاحية: الأوبئة، الأمراض، المستشفيات، الصحة، الطب.

Abstract:

The French health system in Algeria during the colonial period was inexhaustible and unfair, primarily aimed at preserving the health of European settlers. It also emphasizes the beneficial effects of the "civilizing message", as it became a powerful legitimizing element of colonial law. For Europeans, their medicine becomes a tool for progress towards a more civilized social and environmental order. The French established in Algeria, since 1830, a medical system due to the fact that it was a completely assimilated settlement. Hence, returning to the study of the health problem in Algeria during the colonial era is one of the topics that must be raised seriously in the field of our historical and social academic research. For this purpose, we decided to choose the topic "The French health system in Algeria and its role in defining the colonial policy" as an important episode of our national history. Due to our importance to the subject, we tried to present the health situation in Algeria during the colonial era for study, defining its repercussions and its various impacts on the social, health, economic and moral levels of the Algerians.

Key words: Care, epidemics, diseases, hospitals, health, medicine.

مقدمة:

يعد استغلال الفقر والعوز وضعف صحة الإنسان من أبشع المعاملات والسلوكات للإنسانية، وهذا ما سلكته السياسة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر، إذ قامت بإفراغ مهنة الطب من محتواها - كمهنة نبيلة ووسيلة لتخفيف ألام الناس ومعاناتهم- ، وحولتها إلى أداة في يد الإدارة الاستعمارية من أجل بسط سيطرتها وهيمنتها على الأهالي الجزائريين وخدمة لأغراضها السياسية ومصالحها الاستعمارية، وذلك من خلال جلب الأهالي الجزائريون بواسطة الأعمال الخيرية (الإحسان، الأعمال الطبية الإسعافية، زيارة القرى للمعالجة وتعليم الأطفال...) والتغلغل في الأسرة المسلمة تحت شعار الخدمات الإنسانية والعلاجية كان من بين اهتمامات الحكام الفرنسيين في الجزائر، والذي سيسمح لهم بنشر أفكارهم وتوجهاتهم ومن ثم تحقيق ما يعرف الاستيعاب المنشود.

على ضوء هذا حولنا من خلال هذه الدراسة إضافة لبنة حول الدراسات التاريخية الخاصة بالطب في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية 1830-1962، والذي يعد من المواضيع التي لا بد أن تطرح بشكل جدي في ميدان بحثنا التاريخي والاجتماعي الأكاديمي. لهذا الغرض توجهنا إلى اختيار موضوع " المنظومة الصحية الفرنسية بالجزائر ودورها في ترسيم السياسة الاستعمارية " .

من هذا المنطلق بلورنا إشكالية موضوعنا على النحو التالي: ما طبيعة الواقع الصحي بالجزائر خلال الحقبة الاستعمارية وما مدى مساهمته في ترسيم السياسة الكولونيالية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

ولالإجابة على هذه الإشكالية وجب علينا الاعتماد على المنهج التاريخي الوصفي بالإضافة إلى المنهج التحليلي، الذي يمكننا من التسليط الضوء على الجذور التاريخية لإفرازات القطاع الصحي الاستعماري الفرنسي على الأهالي الجزائريين، وما مكان القوى لدى الشعب الجزائري في مقاومة هذه السياسة.

1- المنظومة الصحية مع بداية الاحتلال

1-1- استراتيجية العنف

اعتمدت فرنسا عند احتلالها للجزائر على استراتيجية العنف، لنقل سلسلة من الرسائل إلى ضحاياها وإلى جمهور الجزائري الأبعد عن سيطرتها، إذ يذكر في هذا الصدد ويليام جالوا William Gallois . من خلال كتابه: " A History of violence in the Early Algerian " " كان العنف انعكاسيًا، لقد تسبب في شكل من أشكال الحوار الداخلي في الروح الاستعمارية الفرنسية، حيث الجزائريون كضحايا، حتى كفاعلين ... يصبحون غائبين بشكل متزايد، أو يتم ترميزهم في مجموعات عامة تمحو الفروق ... كمقاتلين ومدنيين " ¹.

¹William Gallois, A History of violence in the Early Algerian, new york ; palgrave Macmillan, 2013, p 5.

تولدت عن هذه الاستراتيجية ثقافة عنف أثرت على الإدراك وعلى النهج السياسي وترجمت بوضوح سياق العمل، ويعد الحاكم العام المارشال "توماس روبرت بوجو" 1841-Thomas Robert Bugeaud Nicolas Jean-de-1847، المروج الرئيسي لهذه الثقافة، وبدعم من المارشال نيكولاس جان دي ديو سولت-Dieu Soult، الذي كان إما رئيس الوزراء أو وزير الحرب لمعظم هذا الوقت. نظم الفرنسيون "نظام عنف" استهدف المقاومين. القبائل بشكل مباشر (قتال) وغير مباشر (الحرمان)، يقول جالوا-William Gallois: "كان الفرنسيون مهووسين بالعنف - في أفكارهم وأفعالهم - في العقدين الأولين من حياة المستعمرة"¹، نتيجة لذلك "لم يكن للعنف الفرنسي سبب أو شكل، بل كان مدفوعًا بنظام متطور ومتشابك بمنطقه الأبدي"².

ومن بين أشكال الإبادة الجماعية في الجزائر المستعمرة، ما قام به الكولونيل "بيليسيه Aimable Pélissier"، بأمر من الجنرال "بيجو Bugeaud" ضد قبائل أولاد رياح بمرتفعات الظهرة (شمال شرق مستغانم)، حيث قام في 17 جوان 1845 بتعقب هذه القبائل التي لجأت بنسائها وشيوخها وأطفالها وحيواناتها وأمتعتها للاختباء داخل مغارة محاذية لوادي "الفراشيش"، هربا من بطش الجيش الاستعماري، الذي طوق المغارة وقام بإضرام النار بمدخل المغارة والتي راح ضحيتها قرابة 1200 شخص ماتوا حرقا أو اختنقا إلى جانب حيواناتهم³، وذلك باعتراف الضباط الذين اقترفوا هذه المحرقة أنفسهم، وهذا ما صرح به الضابط الإسباني الذي كان رفقة الكولونيل بيليسيه: "لا يوجد ثمة ما يمكن لأن يصور حقيقة المشهد المرعب، الذي كان في المغارة فكل الجثث التي كانوا يعينونها قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة... كان الدم يسيل من أفواههم"⁴. يؤكد جالوا أن العنف الفرنسي المبرمج قد بلغ أبعاد الإبادة الجماعية. ستتجلى وتتضح معالمه أكثر من خلال السياسات الاستعمارية والقوانين والتشريعات التي أصدرتها في حق الجزائريين طوال الفترة الاستعمارية.⁵

2-1- واقع القطاع الصحي في عهد الحاكم العام الجنرال بيجو

أثرت ثقافة العنف الممارسة من طرف الجيش الاستعماري الفرنسي بالجزائر على جميع القطاعات، من بينها القطاع الصحي، حيث اعتمدت الإدارة الفرنسية على مبدأ العلاج من أجل الاحتلال (Guérir pour conquérir). وكلفت الأطباء العسكريين والمدنيين على تبني هذه الأفكار الاستعمارية. وهذا ما أكده "الدوق

¹William Gallois, Op.cit, p 4

² Ibid, p 5.

³ بوعزة بوضرساية وآخرون، الجزائر الفرنسية والإبادة الجماعية في الجزائر خلال القرن 19، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 1 نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 126.

⁴Claire Messud, 'The Professor's History', June 1, 2006, by Picador Shots, Broché, pp 1-44.

⁵William Gallois, Op.cit, p 6.

دومال (Duc d'Aumale) " - حاكم عام ما بين 1847-1848- في خطابه لضباطه: " أن العمل الإنساني مهم ولكن الأولوية للعمل السياسي -المبني على ثقافة العنف"¹.
ونفس التوجه طرحه وزير التكوين العمومي سالفاندي (Narcisse-Achille Salvandy) خلال زيارته إلى مستشفى الداى بالعاصمة الجزائر سنة 1846، أين ألقى كلمة أمام الأطباء العسكريين أكد فيها: "أن حكومة الملك تعول كثيرا على التفاني المهني في التأثير المعنوي لأطباء الجزائر على حضارة العرب لتعزيز الهيمنة الفرنسية في إفريقيا... لديك مهمة أخرى لا تقل أهمية وهي المساهمة إلى حد كبير في جلب حضارتنا إلى وسط القبائل العربية والقبائل ... من جانبنا سنبدل جهودنا لوضعك في موقع لنشر التعليم الطبي بين السكان الأصليين والذي سيكون مفيداً للإيمان بالإنسانية ولتأسيس قوتنا في هذا البلد"².

وبهذا شكل الأطباء العسكريون خلال العقود الأولى من الغزو جزءاً أساسياً من البيئة الطبية الأوروبية للمستعمرة، حيث تم تدريب نسبة كبيرة من ضباط الصحة في الجيش. إنهم يشاركون بشكل كامل في عملية الاستعمار، ومهمتهم حماية الجندي والمستوطن، كانت المستشفيات العسكرية لفترة طويلة العمود الفقري للمساعدة في المستشفيات. ومع ذلك، أثار وصول المستوطنين طلبات أكثر إلحاحاً لفتح مستشفيات مدنية. لكن المؤسسات العسكرية استمرت في استقبال المرضى المدنيين من كلا الجنسين، الأوروبيين وكذلك "المواطنين". مستوصفات الفتيات العامة هي أيضاً جزء من هذا النظام الصحي...³
لعبت الإمبريالية العلمية أو ما يسمى بالعلوم الاستعمارية دوراً كبيراً في إخضاع المستعمرات وساكنيها، حيث جعل الطب كأداة للسيطرة متعددة الأوجه، وأداة فكرية واجتماعية ومصدر لإضفاء الشرعية على النخب الحضرية أو المحلية، التي تشكل مراحل فعالة للسلطة السياسية، التي عمدت على فرض تمثيلات على السكان الذين لم يكونوا على دراية بها حتى ذلك الحين، ويقع الطب في نقطة عصب الجهاز للهيمنة، لأنه يمثل الهيمنة المباشرة التي تمارس على الجسم، إما جسدياً (من خلال ممارسات جديدة، مثل التطعيم على سبيل المثال)، أو من حيث التمثيلات. وهكذا يشرح قانون (1952) أن الطبيب الاستعماري يعد أكثر من أي سلطة أخرى كأداة للسيطرة، فأسلوب القداسة الذي استمر فيه الطب - كأداة

¹Yvonne Turin, *Affrontement culturels dans l'Algérie coloniale, écoles médeccines, religion, 1830-1880*, Alger, éd.Houma, 2003, p 150.

²Ibid, p 197.

³Claire Fredj, « L'organisation du monde médical en Algérie de 1830 à 1914 », Dans *Histoire de l'Algérie à la période coloniale* (2014), Sous la direction de Abderrahmane Bouchène, Jean-Pierre Peyroulou, Ouanassa Siari Tengour, Sylvie Thénault, Éditeur : La Découverte, 2014, pages 286 à 289.

لأنقاد الأرواح وإسعاف السكان المتخلفين والمحرومين من الخراب الجسدي والمعنوي ، أصبح في السياسة الاستعمارية الذريعة المثالية والمبرر الرئيسي للعمل الاستعماري.¹

2- الخدمات الصحية للاحتلال الفرنسي اتجاه الأهالي الجزائريين

مع بداية 1953 ، قامت الإدارة الإستعمارية الفرنسية بالجزائر بإنشاء مصلحة الطب المدني، تتكفل بعلاج المستوطنين الأوروبيين وضمان المراقبة الطبية على الجزائريين. إلا أن الواقع أثبت غياب الرعاية الطبية للأهالي وهذا بإعاز من الإدارة الفرنسية، حيث كان يفصل كل من لا يحترم هذه القواعد والضوابط التي حددتها السلطة الاستعمارية.

يقدم لنا مرة أخرى وليام جولوا William Gallois ، من خلال كتابه « Local responses to French Medieval Imperialism in Nineteenth-Century Algeria » "ردود الفعل المحلية على الإمبريالية الطبية الفرنسية في الجزائر أواخر القرن التاسع عشر" ، من خلال وصفه لحياة أطباء من أصل جزائري يعملون في الخدمة الصحية الاستعمارية الفرنسية بين عامي 1870 و 1900. تكشف قصصهم كيف انهارت فكرة الإمبريالية الطبية في الجزائر، ومن هذه الشواهد ما جرى مع أحد الأطباء الجزائريين "محمد العربي الصغير" الذي وضع تحت المراقبة الإدارية بسبب تعامله مع الأهالي الجزائريين وتقديم لهم العلاج وإعطائهم الأدوية اللازمة وتوعيتهم بضرورة الوقاية من الأمراض.²

1-2 المسوحات الطبوغرافية وأعمال التنمية الحضرية

بعد الانتقال من الاحتلال الجزئي إلى الاحتلال الكلي، انتقلت السلطة الفرنسية الاستعمارية إلى التركيز على الاستيطان، فعمدت على بناء مراكز استيطانية في مختلف المناطق التي تم السيطرة عليها، ويجب فهم تخطيط المدن من قبل السلطات العسكرية الفرنسية في الجزائر على أنه استيلاء على المساحة. يُظهر تساكوبولوس (P.Tsakoponlos) ، مهندس معماري ومؤرخ ، أن المسوحات الطبوغرافية وأعمال التنمية الحضرية التي قام بها الفرنسيون في الجزائر ، هي جزء من عملية الاستيلاء على الأراضي المحتلة أو مشغولة³. ومن أجل استمالة الجزائريين المحادين لهذه المراكز الاستيطانية، تم انشاء مؤسسات استشفائية بالقرب من الدواوير والتجمعات السكانية الجزائرية، إذ يحتل المستشفى مكانة بارزة في النظام

¹Hugues Moussy, « Le regard des médecins topographes sur l'Algérie coloniale », Revue Européenne des Migration Internationales, VOL. 31 - N°3 ET 4 | 2015, p. 231-251. voir le lien : <https://doi.org/10.4000/remi.7449>

²William Gallois, « Local responses to French Medieval Imperialism in Nineteenth-Century Algeria », Social History of Medicine, www.academia.edu, publication, 2006.

³Tsakoponlos, P. « Techniques d'intervention et appropriation de l'espace traditionnel. L'urbanisme militaire des expéditions françaises en Méditerranée », Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée, n.73-74, 1996, p. 226.

الحضري. مثال على ذلك مخطط إنشاء مدينة سيدي بلعباس عام 1843 ، الذي يعد موقع عسكري استراتيجي ، يقع في جنوب وهران ، على الطريق الذي يربط تلمسان بمعسكر. منذ عام 1847 ، كان موضوع مشروع تطوير حضري وضعه رئيس الهندسة. يقسم المخطط المستطيل المساحة الحضرية إلى قطع متناسقة تمامًا مخصصة لوظائف مختلفة. إذا كانت القطع المخصصة للمستوطنين متساوية في الحجم ، فإن الأمر نفسه لا ينطبق على القطع المخصصة للمباني الرسمية أو المدنية أو العسكرية: الأكبر منها هو المخصص للمستشفى العسكري. وبالتالي فإن التطور العسكري الحضري للجزائر يحتفظ بمكان مفضل للمعدات الطبية. بغض النظر عن المكانة الملموسة الممنوحة لها في المدن أو المعامل ، فإن وجود المرافق المخصصة للأطباء العسكريين ينتمي إلى مجموعة أكبر. بشكل عام.¹

2-2- بروز القطاع الصحي المدعم للسياسة الكولونيالية

أشرفت جماعات الآباء البيض على عدة مؤسسات إستشفائية ، عمدوا من خلالها على نشر المسيحية الكاثوليكية وسط الجزائريين مقابل العلاج. حيث قامت إدارة بيجو (Bugeaud) سنة 1945 باستدعاء جماعات الأخوات البيض وتم توزيعهم على العمالات الثلاث ، منهن أخوات القديس جوزيف بعمالة الجزائر ، وأخوات سان فانسون دو بول اللواتي أقمن مستوصف في بيوتهن بشارع سالوست بمدينة الجزائر ، كما أشرفن على تسيير عدة مستشفيات مثل مستشفى مصطفى باشا منذ 1842 ، ومستشفى الحجوط سنة 1850. وزاد نشاط الجمعيات التبشيرية بعد مجاعة 1868-1869 التي استغلها الكاردينال لافيغري (Lavigerie) لنشر المسيحية بين أوساط المعوزين والفقراء والذين يحتاجون الرعاية الصحية من الجزائريين... بتوفير الغذاء والمأوى والمعالجة الصحية.²

قام لافيغري - باعتباره أسقف الجزائر- بالإشراف على افتتاح مستشفى لرجال الدين بسهل شلف في فيفري 1876 ، كتب على بابه كلمة "بيت الله" باللغة العربية وهذا لاستمالة الجزائريين ، طاقمه الإداري من الأخوات البيض ، وتعمل عدة راهبات ممرضات ذوات شهادة ، وتمكن من استقبال العديد من المرضى الجزائريين.³

استغلت جماعة الآباء والأخوات البيض (Les missionnaires d'Afrique) المستشفيات التي أنشأوها وأشرفوا عليها ، كقاعدة للسياسة التنصير ، وذلك بدعوة المرضى لاعتناق النصرانية مقابل العلاج ،

¹Rodes Étienne (1847) Essai topographique sur Sidi-bel-Abbès (Province d'Oran), Recueil de mémoires de médecine, de chirurgie et de pharmacie militaires, série 2, 2, pp. 1-91.

²O.C.O.B, La France charitable et prévoyance tableau des ouvres et institution de department d'Alger, imp.éd.E.Plon Nourrit et Cie, Paris, 1896, pp 14-17.

³G.G.A, l'assistance et l'hygiène publiques en Algérie, Alger, ancienne maison Bastide-Jourdan, Jules Carbonel, 1927, p 133.

وكان مستشفى سانت أوجيني (Sante-Eugénie) ببلاد القبائل أحد الشواهد لذلك، حيث كانت عملية الاعتناء بالمرضى وغداهم مرهون بالتخلي عن الإسلام واعتناق المسيحية الكاثوليكية. حيث يشهد أحد الأطباء العاملين هناك قائلاً: "يتلقى المرضى، الذين يتغرضون لسوء المعاملة عموماً، طعاماً غير كاف وسيئاً، باستثناء أولئك الذين يشهدون على نيتهم في التحول إلى الدين الكاثوليكي، الذي يحفظ لهم نظام ملائم..."¹.

هذه المعاملة السيئة من طرف الأخوات البيض دفعت بالجزائريين إلى العزوف عن الذهاب إلى المستشفيات والإبقاء على الطب البديل للتداوي، وترسيخ لديهم أن المنظومة الطبية الفرنسية بالجزائر هي مظهر من مظاهر السياسة الاستعمارية. هذه الأخيرة زادت من معاناة الجزائريين وزاد انتشار الأمراض (أمراض الحمى: حمى المستنقعات أو الملاريا Paludisme, Malaria؛ حمى التيفوئيد Typhoïde، الأمراض الصدرية: السل الرئوي La phtisie Pulmonaire؛، الأمراض الجلدية، الجدري Variole، أمراض العيون: المرض الحبيبي Ophthalmie Granuleuse...) والأوبئة (الكوليرا Choléra، الطاعون la peste، التيفوس Typhus...) التي كانت تحصد الآلاف منهم دون أن تتمكن المؤسسات الاستشفائية الاستعمارية من وقف هذا التزيف.²

ومن أحد المشاهد للسلوكات الإنسانية في مجابهة مجاعة 1867-1868، التي تولدت عنها كارثة ديمغرافية³، هي الإجراءات التي اتخذتها السلطات الاستعمارية والمتمثلة في جمع الأهالي في أماكن خارج المدن على شكل مجموعات صغيرة يتم تقييدهم بسلاسل أو حبال حتى لا يهربوا. وسماها صالح العنترى في مؤلفه "مجاعات قسنطينة" بعام "الحبل"، ولم تقدم لهؤلاء أي مساعدات سواء غذائية أو طبية⁴. مما ساعد على انتشار الأمراض والأوبئة وتسبب في مقتل ما يقارب 300000.⁵

3- التحولات التي عرفتها المنظومة الطبية في عهد الجمهورية الثالثة الفرنسية

1-3 إمكانات أيديولوجية للطب

¹A.W.A, Boite 1 V 229, Réglementation des hopitaux 1903-1961, regroupement des hopitaux. Fonctionnement de l'hôpital Beni Menguelette, 06/08/1903.

ينظر كذلك: محمد الطاهر وعلي، التعليم التبشيري في الجزائر من 1830-1904، دراسة تحليلية تاريخية، منشورات دحلب، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2009، ص 87.

² مصطفى خياطي، الأوبئة والمجاعات في الجزائر، تر: حضرية يوسف، منشورات ANEP، 2013، ص ص 13-15.

³Djilali Sari, Le désastre démographique en Algérie 1867-1868, édition ENAG, 2010, p7.

⁴ محمد صالح العنترى، مجاعات قسنطينة، تحقيق: راجح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، ص ص 51-53.

⁵ نفسه.

أصبح الطب في العقود الأولى من الحكم المدني مكاناً لمعارضة هيمنة القطاع العسكري. والتحول من الفكرة السابقة للطب كرمز للمهمة الحضارية إلى إمكانات أيديولوجية للطب ينظر إليها بطريقة أكثر دقة من قبل المستوطنين الفرنسيين والجزائريين. وعرف النظام الصحي تطوراً كبيراً بفضل تأثير المستوطنين الأوروبيين، الذين أسسوا العديد من المؤسسات الاستشفائية المدنية تضاهي في إمكاناتها وخدماتها المؤسسات الاستشفائية العسكرية.¹ فأنشأت مقاطعات صحية متمركزة في البلديات كاملة الصلاحيات والمختلطة، الأهلة بالأوروبيين، كما تم إنشاء مستويات متنقلة، تهدف إلى تقديم العلاج الضروري إلى الأوروبيين العاملين خارج الدوائر الحضرية كقطاعات المناجم... أما العناية الطبية بالجزائريين فكانت ضئيلة لا توازي في إمكاناتها وخدماتها ما يقدم للمستوطنين.

عرفت المدرسة الطبية في الجزائر تحولات وتغيرات كبيرة تزامنت مع ازدياد تدفق المستوطنين الأوروبيين بالجزائر، والمكانة التي أصبحوا يحتلون في الساحة السياسية والاقتصادية والاجتماعية... فأثروا بشكل واضح على القطاع الصحي، إذ التطورات التي حدثت فيه، جاءت للإستجابة لمطالب المستوطنين من جهة، ومن جهة أخرى فإن تطور الإجراءات التي أدخلت على النظام الصحي العسكري وكذا المدني، كانت مجرد وسيلة إستراتيجية للإدارة الفرنسية كمحاولة لكسب تأييد الجزائريين لمشروع الاحتلال، لأن المستشفيات ومراكز العلاج التي سمح للأهالي الاستفادة من خدماتها، كانت تلامي حذراً وتخوفاً كبيراً من قبل المرضى الجزائريين.² بحيث كانت المؤسسة الصحية تشبه في تنظيمها للتنظيم الموجود بالمتربول، والذي تم إدخاله عن طريقه الأول يعرف بالطب الليبرالي. فكان كل من الطب العسكري والمدني موجه للأوروبيين. وفئة من الجزائريين العاملين في القطاعات التالية: البريد والمواصلات السكك الحديدية عمال المناجم، النقل الورشات الصناعية، فكان يقدم خدمات صحية مرضية بصفة عامة أو كما يسمى بطب المستعمر (Médecine de l'Occupant) بالإضافة إلى بعض الإطلاقات والتنقلات الطبية المتباعدة المرفوقة بمساعدات موجهة للسكان الأصليين المحرومين.³

2-3 المدارس الطبية الاستعمارية الفرنسية بالجزائر

مرت المدرسة الطبية الاستعمارية بالجزائر بعدة مراحل، تم إنشاء أول مدرسة للطب سنة 1833 بمستشفى مصطفى باشا بالجزائر العاصمة، يشرف عليها عسكريون، التحق بها بعض الأتراك واليهود

¹ مصطفى خياطي، الطب والأطباء في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية، منشورات ANEP، الجزائر، 2011، ص 380.
² Mohamed Amir Bennis, contribution à l'étude de l'histoire de la santé en Algérie autour d'une expérience vécue en ALN, Wilaya 5, réflexions sur son développement, OPU, Alger 1986, p219

³ نور الدين حاروش، إدارة المستشفيات العمومية الجزائرية، ط1، دار كتامة للكتاب، 2000، ص 113.

الجزائريين، اقتصر على تدريس علم التشريح والفيزيولوجيا لكنها توقفت مع بداية سنة 1835¹، وبعد ذلكتم إنشاء إعدادية الطب والصيدلة في الجزائر سنة 1857²، وكلية الدراسات العليا في الطب والصيدلة سنة 1879³، ثم كلية الطب والصيدلة سنة 1909 تابعة لجامعة الجزائر. بالإضافة إلى المعهد باستور Institut Pasteur d'Algerie) الذي أنشئ في سنة 1894. و كان يعمل على الوقاية والحماية الصحية ومراقبة الأمراض المعدية والطفيلية على غرار والسل والملاريا والكوليرا⁴.

فقد أظهر المؤرخون أنه حتى عندما تمكن الطب منذ تسعينيات القرن التاسع عشر من تجهيز نفسه بأدوات علاجية فعالة، فإن عمله الملموس على السكان المقهورين دائماً ما يكون متأخراً (نادراً قبل فترة ما بين الحربين) ومحدود (يركز على قطاعات حساسة معينة من السكان).

سمحت هذه المدارس بتكوين مساعدين طبيين من الجزائريين عام 1904، سيكون لهم اسهاماتهم كمجندين+ في الحرب العالمية الأولى والثانية⁵. كان إلتحاق الطلبة الجزائريين – الأهالي- بكلية الطب ضئيلاً وهذا لعدة اعتبارات منها اعتماد جامعة الجزائر على تصفية طلبات الإلتحاق بها من الطلبة الجزائريين، حيث قدر عددهم بـ 29 طالب سنة 1909⁶.

كان هدف تأسيس جامعة الجزائر من الوجهة الفرنسية هو تطوير معارف واستقطاب طلبة شمال إفريقيا، وإتمام المشروع الاستعماري المتمثل في تكوين الطالب الجزائري وفق الإيديولوجية الاستعمارية الراضية للاعتراف بالطرف الجزائري كشريك لها، والسعي لقطع الصلة بين الجزائريين وهويتهم من جهة وعزلهم عن كياناتهم العربي وامتدادهم الإسلامي حينما حرمت التعامل والتخاطب باللغة العربية من جهة أخرى⁷.

وقد أقر الفرنسيون أنفسهم بذلك التفوق والجبروت الذي حققوه على حساب الجزائريين، وذلك ما أوضحه أستاذ القانون بجامعة الجزائر "يميل لرشى" سنة 1903 بقوله: "إن وضع الفرنسيين اليوم

¹Yvonne Turin, Affrontement culturels dans l'Algerie coloniale, écoles medecines, religion, 1830-1880, Alger, éd.Houma, 2003, p336.

²Paoli Louis, L'enseignement supérieur à Alger, Alger, 1905, Revue Africaine, N°49, pp 406-437.

³مصطفى خياطي، الطب والأطباء في الجزائر...، المرجع السابق، ص 313.

⁴مجاود حسين، "المؤسسات التعليمية ودورها في ترسيم السياسة الكولونيالية الفرنسية بالجزائر- جامعة الجزائر 1909 أنموذجاً-"، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، المجلد 14، العدد 01، جويلية 2022، جامعة سيدي بلعباس، دار كنوز للانتاج والنشر والتوزيع، تلمسان، الجزائر، ص ص 102-120.

⁵مصطفى خياطي، الطب والأطباء في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية، المرجع السابق، ص 287.

⁶غي بارفلي، النخبة الجزائرية الفرنكوفونية (1800-1962)، دار القصب للنشر، 2007، ص 47.

⁷مجاود حسين، المرجع السابق، ص ص 102-120.

بالجزائر شبيه بوضع الإفرنج في غالبا القديمة، جنس غالب يفرض هيمنته على جنس مغلوب، هناك إذا أسياد ورعايا، وأصحاب امتيازات وأناس لا امتيازات لهم، فلا محل هنا للمساواة¹. لهذا سعت السلطات الفرنسية إلى إنشاء مؤسسات طبية بحجم كلية الطب والصيدلة، تثري المجال العلمي والمعرفي يخدم الاستعمار وتعمل على ترسيخ أطروحاته وإنماء الهزيمة والأفكار التخديرية والشعور بالدونية لدى السكان الأصليين .

لقد عرفت الجزائر مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ميلاد نمط ثقافي جديد متمثل في فئة النخبة الجزائرية المثقفة ثقافة فرنسية، سع فيها الحظ في مزاوله الدراسة النظامية بالمدارس الابتدائية والإعدادية الفرنسية أو بالمعاهد العليا والجامعات بأوروبا وبالخصوص في باريس، واستطاعت أن تحقق مكانة علمية واجتماعية محترمة، سيكون لها دور كبير في الحركة الوطنية الجزائرية والثورة التحريرية من بينها الأمير خالد، فرحات عباس، بن يوسف بن خدة وآخرون....

4- مخلفات سياسة المنظومة الصحية للاحتلال الفرنسي على الأهالي الجزائريين

1-4- انتشار الأوبئة والأمراض في أوساط الأهالي الجزائريين

عرفت الجزائر خلال الفترة الاستعمارية نوبات وبائية وانتشار مرعب للأمراض، تسبب في هلاك مئات الآلاف من الجزائريين بإضافة إلى التشوهات الجسدية والعقلية. ولعبت الإدارة الاستعمارية دورا هاما في تفاقم الأوضاع ولم تعمل على الحد منها.. حيث همشت منظومتها الصحية الجزائريين ومنعت عنهم العلاج، فجعلت من الفرد الجزائري إنسانا ضعيف البنية ومحطم نفسيا، مما جعله عرضة لمختلف أنواع الأمراض والأوبئة، وازدادت حدته مع سنوات الجفاف والمجاعة، أو مع ظروف الحرب مثل الحريين العالميتين التي رافقهما انتشار رهيب لوباء التيفويس المعروف بمرض الفقر والفقراء.²

تشير التقارير الصحية إلى تدهور الوضع الصحي بالجزائر خلال القرن التاسع عشر بشكل لافت، حيث لوحظ نقص للأدوية ورداءة العناية الصحية بالنسبة لمناطق عديدة من البلاد. ويذكر ايفون توران في هذا الصدد: " يكاد السكان الأصليون بسطيف 1858 محرومون من الرعاية الطبية ، ولكن يمكن أن يكونوا في أماكن أخرى. لم تعد هناك زيارات للقبائل ، لا في ثينيت الحد ولا في قالمة ولا في تيس في 1865-1867 ، على الرغم من أن تسبب الوباء بعد ذلك في 1731 حالة وفاة في هذه الدائرة من أصل 16444 نسمة. وينطبق الشيء نفسه في مدينة أورليان ، شرشال ، مليانة ، فونت نابليون ، تلمسان ، قسنطينة. يحدد

¹ أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1900)، دار الغرب الجزائري، بيروت، 1992، ص 87.

² مصطفى خياطي، الأوبئة والمجاعات في الجزائر، المرجع السابق، ص 13.

الجنرال DOEM لتقسيم مديّة في عام 1863: "الخدمة الصحية ليست منظمة في المكاتب العربية ، لأنه لا يجوز استدعاء الخدمة النظامية الحضور المؤقت لطبيب في القبائل بمناسبة رفع الجثة"¹. ومثال على السياسة الاستعمارية معتمدة في مجال الصحي ، وهو ما تم إنشاؤه من مصالح طبية على مستوى المكاتب العربية، والذي كان له هدفين أساسيين ذلك المتعلق بمساعدة الأهالي المرضى، وكذلك نشر أفعال الخير في أوساطهم التي من شأنها أن تجلبهم إلينا من باب الاعتراف أو على الأقل من باب الحاجة... 4-2- تعامل الجزائريين مع التدابير الوقائية والصحية الفرنسية المصاحبة للسياسة الكولونيالية وكان غالبية السكان خاصة في المرحلة الأولى من الاحتلال يقاومون التدابير الوقائية والصحية، أو على الأقل يهابونها ولا يثقون فيها لأنها تمثل بصورة أو بأخرى الوجود الاستعماري، وفي ذلك يقول الدكتور بارتراوند بعد قيامه بجولات في أنحاء دائرة العاصمة سنة 1849 لقد واجهنا معارضة شديدة من قبل الأهالي الذين تحدثنا إليهم لمحاولة الدعاية الصالح إجراء الوقاية من المستحسن تركهم يصلون لإدراكها بمحض إرادتهم. ولم تغير فترات الأوبئة من موقف أغلب الجزائريين من مسألة قبول الطب الاستعماري. فمثلا سجل وباء الجدري انتشارا خطيرا في خريف سنة 1851 بدائرة بونة بنسبة وفيات عالية. وكان الأمر مشابها في عين تموشنت سنة 1862. وقتل نفس الوباء 150 طفلا من بين 400 مصاب في تلمسان سنة 1885. وفي كل هذه المناطق وغيرها ظل الرفض تاما لكن سرعان ما سجل تباين في هذه المواقف حيث أظهر سكان بعض المناطق قبولا تدريجيا للمعالجات الفردية والتلقيح الجماعي في ظل قدرات الأطباء الفرنسيين على علاج المرضى، هذه الاستجابة الجزئية جعلت بعد سنة 1862 ظهور محتشم لعملية التلقيح بمنطقة سيدي بلعباس جاء في تقرير لرئيس مكتب العيادة العسكرية لها ما يلي: نحن نميل إلى الاعتقاد أن الأهالي بدأوا يعجبون بفضائل التلقيح"².

5- خاتمة

نستنتج أن تطور النظام الصحي في الجزائر لم يكن برينا ولا إنسانيا لصالح السكان والأهالي، بقدر ما كان سياسة استعمارية جديدة تهدف من خلالها فرنسا إلى توطيد علاقتها مع الجزائريين وذلك للقضاء على الثورات الشعبية من جهة، والحركة الوطنية من جهة أخرى. وأمام سوء الأحوال الصحية ورفض العلاج في المصحات والمستشفيات الفرنسية إلى جالب رفض العلاج ورفض التلقيح ضد الأوبئة والأمراض الخطيرة، ولتفادي تسرب العدو في صفوف المعمرين لجأت السلطات الاستعمارية الفرنسية إلى إجراء آخر والمتمثل في انشاء مدرسة للطب (كلية الدراسات العليا في الطب والصيدلة سنة 1879، ثم جامعة الطب

¹ ابفون توران، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة: المدارس والممارسات الطبية والدين 1830-1880، ترجمة: محمد عبد الكريم أوزغلة؛ مراجعة والإشراف: مصطفى ماضي، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007، ص 343.

² نفسه، ص 346.

والصيدلة في الجزائر سنة 1909)، بالإضافة إلى إقامة مستشفيات ومصحات صحية في المدن الرئيسية. ولكن هذه المرافق كانت متواضعة جداً ومخصصة فقط للفرنسيين والدوائر الحكومية. كما كانت الخدمات الطبية مقتصرة على الفئات الاجتماعية العليا ولم تصل للفئات الفقيرة والفلاحين والسكان الأصليين. بالإضافة إلى ذلك، فإن معظم الطواقم الطبية كانت فرنسية وليست جزائرية، وكانوا يفتقرون إلى المعرفة الثقافية واللغوية اللازمة للتفاعل مع المجتمع المحلي. وبالتالي، لم يكن هناك تبادل معرفي مهم بين الطاقم الطبي والمرضى. بشكل عام، كانت المنظومة الصحية الفرنسية في الجزائر في فترة الاستعمار غير شاملة وغير عادلة وغير فعالة في الوقاية من الأمراض والتعامل معها في المجتمع.

بصفة عامة فإن الإدارة الاستعمارية من خلال منظومتها الصحية الموجهة للأهالي كانت تسعى إلى تحقيق جملة من الأهداف يمكن لنا تحديدها فيما يلي:

- تعليم جماعة من الأهالي لتوظيفهم في خدمة مصالحها وأهدافها الخاصة في الجزائر.
- إن الغزو السياسي والعسكري يجب أن يكون مقترنا بغزو تعليمي معنوي وذلك بتحبيب الدولة الفرنسية للأهالي، وحملهم بذلك على الاستسلام إلى حكمها وخدمة مصالحها عن طواعية.
- لم تقم بالعناية الصحية اللازمة لأنها أدركت مدى الخطورة التي يشكلها ذلك على مصالحها، فهي مارست تطبيقاً بسيطاً لأجل تسهيل عملية الاستعمار وشعارها في ذلك ضرورة تقزيم وإضعاف الأهالي لقتل روح المقاومة فيهم، وتعليمهم تعليماً يجعل منهم آلات صالحة في المعامل والحقول، بدون توسيع آفاقهم وأفكارهم.
- نشر التأثير الفرنسي ثقافياً وحضارياً من خلال زرع العديد من المدارس في الجزائر.
- التعاون مع كل ما يخدم ثراء فرنسا وتوسعها بمعنى توجيه الأبحاث نحو الاستغلال الاقتصادي والتوسع الاستعماري.

على الرغم من كل الأفعال المنافية للمبادئ القانونية والأخلاقية التي مارستها فرنسا الاستعمارية في حق الجزائريين جسدياً ومعنوياً، والسعي إلى إدماجه مدنياً وسياسياً واجتثاثه من مكوناته وأصوله العربية والإسلامية... إلا أن تمسك المجتمع الجزائري بكيانه كان يعكس بحق مدى تعلقه بالحياة، فهياً بعمله ذلك الظروف الملائمة لعملية التحرير الوطني؛ عبر توفير شروط ميلاد جيل نوفمبر؛ الذي فجر الثورة في وجه العدو الفرنسي؛ وأثر على باقي النخب الجزائرية التي تبنت الفكرة وأمنت بها وعملت على الدفاع عنها، ففضوا بذلك على أحلام وأوهام الاستعمار الفرنسي!؟

6- قائمة المصادر والمراجع

• الأرشيف

- ✓ A.W.A, Boite 1 V 229, Réglementation des hopitaux 1903-1961, regroupement des hopitaux. Fonctionnement de l'hopital Beni Menguette, 06/08/1903.

• كتب

- ✓ بارفلي غي، النخبة الجزائرية الفرنكوفونية (1800-1962)، دار القصب للنشر، 2007.
- ✓ بوضرساية بوعزة وآخرون، الجزائر الفرنسية والإبادة الجماعية في الجزائر خلال القرن 19، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 1 نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.
- ✓ توران ابفون، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة: المدارس والممارسات الطبية والدين 1830-1880، ترجمة: محمد عبد الكريم أوزغلة، مراجعة والإشراف: مصطفى ماضي، دار القصب للنشر، الجزائر.
- ✓ حاروش نور الدين، إدارة المستشفيات العمومية الجزائرية، ط1، دار كتامة للكتاب، 2000.
- ✓ خياطي مصطفى، الأوبئة والمجاعات في الجزائر، تر: حضرية يوسف، منشورات ANEP، 2013.
- ✓ خياطي مصطفى، الطب والأطباء في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية، منشورات ANEP، الجزائر، 2011.
- ✓ سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1900)، دار الغرب الجزائري، بيروت، 1992.
- ✓ العنثري محمد صالح، مجاعات قسنطينة، تحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974.
- ✓ وعلي محمد الطاهر، التعليم التبشيري في الجزائر من 1830-1904، دراسة تحليلية تاريخية، منشورات دحلب، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2009.
- ✓ Bennis Amir Mohamed, contribution à l'étude de l'histoire de la santé en Algérie autour d'une expérience vecue en ALN, Wilaya 5, réflexions sur son développement, OPU, Alger 1986.
- ✓ G.G.A, l'assistance et l'hygiène publiques en Algérie, Alger, ancienne maison Bastide-Jourdan, Jules Carbonel.
- ✓ Gallois William, A History of violence in the Early Algerian, new york ; palgrave Macmillan, 2013
- ✓ Messud Claire, 'The Professor's History', June 1, 2006, by Picador Shots, Broché.
- ✓ O.C.O.B, La France charitable et prévoyance tableau des ouvres et institution de department d'Alger, imp.éd.E.Plon Nourrit et Cie, Paris, 1896.
- ✓ Rodes Étienne, Essai topographique sur Sidi-bel-Abbès (Province d'Oran), Recueil de mémoires de médecine, de chirurgie et de pharmacie militaires, série 2, 1847
- ✓ Sari Djilali, Le désastre démographique en Algérie 1867-1868, édition ENAG, 2010.
- ✓ Turin Yvonne, Affrontement culturels dans l'Algerie coloniale, écoles médecines, religion, 1830-1880, Alger, éd.Houma, 2003.

• مقالات

- ✓ مجاود حسين، "المؤسسات التعليمية ودورها في ترسيم السياسة الكولونيالية الفرنسية بالجزائر- جامعة الجزائر 1909 أنموذجا"، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، المجلد 14، العدد 01، جويلية 2022، جامعة سيدي بلعباس، دار كنوز للانتاج والنشر والتوزيع، تلمسان، الجزائر.
- ✓ Fredj Claire, « L'organisation du monde médical en Algérie de 1830 à 1914 », Dans Histoire de l'Algérie à la période coloniale (2014), Sous la direction de Abderrahmane Bouchène, Jean-Pierre Peyroulou, Ouanassa Siari Tengour, Sylvie Thénault, Éditeur : La Découverte, 2014.
- ✓ Gallois William, « Local responses to French Medieval Imperialism in Nineteenth-Century Algeria », Social History of Medecine, www.academia.edu, publication, 2006.

- ✓ Moussy Hugues, « Le regard des médecins topographes sur l'Algérie coloniale », Revue Européenne des Migration Internationales, VOL. 31 - N°3 ET 4 | 2015, p. 231-251. voir le lien : <https://doi.org/10.4000/remi.7449>
- ✓ Paoli Louis, L'enseignement supérieur à Alger, Alger, 1905, Revue Africaine, N°49.
- ✓ Tsakoponlos, P. « Techniques d'intervention et appropriation de l'espace traditionnel. L'urbanisme militaire des expéditions françaises en Méditerranée », *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*, n.73-74, (1996).

إسهامات علماء الجزائر العثمانية في المجال الطبي والصيدلي
خلال القرن الثامن عشر الميلادي.

Contributions of scholars of Ottoman Algeria in the medical and
pharmaceutical field During the eighteenth century AD

د. بوجلال قدور.

جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر (الجزائر).

boudjellal.kadour@univ-mascara.dz

الملخص:

على الرغم من أن علم الطب لم يحظى باهتمام العلماء خلال العهد العثماني، إلا أنه ظهرت إرادة من البعض الذين مارسوا التداوي بالأعشاب وطوروا المستشفيات، وقد كان سبب هذا التطور هو الترجمات الأولى للكتب الطبية من اليونانية إلى العربية، ومن الملاحظ أن تدوين علماء الجزائر العثمانية في الطب والصيدلة لم يكن ناتج من فراغ فأغلبهم كتبوا عن وباء الطاعون ولم تركز كتاباتهم عن الأمراض العادية مثل الحمى وأمراض المعدة وبالتالي فقد ساروا على نهج الأطباء العرب والمسلمين الذين طوروا العلوم الطبية وأضافوا إليها الكثير لا يزال معمولاً به إلى يومنا هذا.

في هذه الورقة سنتحدث عن إنجازات علماء الجزائر العثمانية وإسهاماتهم في مجال الطب الصيدلة و من خلال المصنفات التي تركوها لنا في وقتنا الحالي ونخص بالذكر العالم حمدان خوجة ومحمد أحمد بن الشريف الحسيني ومحمد بن علي بن باديس الصنهاجي وغيرهم. فكتاباتهم شملت الطب مع ذكر الأمراض والأعشاب الطبية، كما شملت أيضا الطب النفسي أو الروحاني.
الكلمات المفتاحية: علماء، طب، صيدلة، الجزائر، أمراض.

Abstract :

Although the science of medicine did not receive the attention of scholars during the Ottoman era, there was a will from some who practiced herbal medicine and developed hospitals. The reason for this development was the first translations of medical books from Greek into Arabic. Medicine and pharmacology were not the result of a vacuum. Most of them wrote about the plague epidemic, and their writings did not focus on ordinary diseases such as fever and stomach diseases. Therefore, they followed the approach of Arab and Muslim doctors who developed medical sciences and added to it a lot that is still in practice to this day.

In this paper, we will talk about the achievements of the scholars of Ottoman Algeria and their contributions in the field of medicine through the works they left for us at the present time, especially the scholar Ibn Hamadush Al-Jazaery and Hamdan Khoja.

Key words: Scientists, medicine, pharmacy, Algeria, diseases.

المقدمة:

على الرغم من أنّ علم الطب لم يحظى باهتمام العلماء خلال العهد العثماني، إلاّ أنّه ظهرت إرادة من البعض الذين مارسوا التداوي بالأعشاب وطوّروا المستشفيات، وقد كان سبب هذا التطور هو الترجمات الأولى للكتب الطبية من اليونانية إلى العربية، ومن الملاحظ أنّ تدوين علماء الجزائر العثمانية في الطب والصيدلة لم يكن ناتج من فراغ فأغلبهم كتبوا عن وباء الطاعون ولم تركز كتاباتهم عن الأمراض العادية مثل الحمى وأمراض المعدة وبالتالي فقد ساروا على نهج الأطباء العرب والمسلمين الذين طوروا العلوم الطبية وأضافوا إليها الكثير لا يزال معمولاً به إلى يومنا هذا.

في هذه الورقة سنتحدث عن إنجازات علماء الجزائر العثمانية وإسهاماتهم في مجال الطب من خلال المصنفات التي تركوها لنا في وقتنا الحالي ونخص بالذكر العالم ابن حمادوش الجزائري وحمدان خوجة وغيرهم من العلماء، فكتاباتهم شملت الطب مع ذكر الأمراض والأعشاب الطبية، كما شملت أيضاً الطب النفسي أو الروحاني.

1- أحوال الجزائر العلمية زمن العثمانيين:

إنّ التأليف في ترجمة علم أو مجموعة أعلام، لا تكتمل صورته ما لم يُعرض فيه لإبراز مشاهد العصر الذي عاش فيه. وذلك باعتبار أنّ الإنسان مدني بطبعه لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن ظروف محيطه الزماني والمكاني، لأنّه محكوم بالنظام السائد في عصره، فقد يكون عوناً له حال عدله واستقراره، وقد يكون عائقاً له ومنغصاً عليه حياته حال جوره واضطرابه. ومحكوم بواقع اجتماعي يكون فيه درب المعالي سهلاً إذا كان ضمير هذا المجتمع يحيي لها، أو قد يضطر للمجاهدة في سبيل ما ينشده، إذا كان المجتمع خاملاً أو مغلوباً على حاله، وهكذا بقية ظروف الحياة التي يكون لها أثر في شخص الأعلام إما عوناً فيغتنمونها وإما عقبة فيغالبنها⁽¹⁾.

لذا كان لابد من عرض ملخّص لأهم المشاهد والظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بل وحتى الثقافية العلمية التي يبرز فيها المحيط، أو بالأحرى البيئة التي عاش فيها علماء الجزائر العثمانية، ليُستشف من خلال ذلك أثر تلك الظروف في تكوين شخصية هؤلاء العلماء.

وزيادة على هذا، فالتعرض لخصائص التطور الثقافي والحضاري الذي مرت به، توجي بأنّ هناك عاملين أساسيين هامين يمكن البحث فيهما. الأول مرتبط بحياة هؤلاء العلماء وظروف عصرهم، وذلك لكونهم عايشوا فترة مليئة بالأحداث خلال القرن الثامن عشر (18م) والنصف الأول من القرن التاسع عشر

¹: المهدي البوعبدلي، "إهتمام علماء الجزائر بعلم الحديث قديماً وحديثاً"، كتاب الأصاله. ج4، ملتقى السنة النبوية الشريفة: محاضرات ومناقشات ملتقى الفكر الإسلامي السادس عشر المنعقد بتلمسان، 1982، ص: 349، 350.

(19م)، والمتعلقة بانتشار الفساد في الجهاز الإداري وكثرة الاضطرابات والفوضى والاعتقالات بين الحكام العثمانيين، انعكست كلها سلبا على الإيالة الجزائرية. أما عن العامل الثاني فيمكن في قيمة ما كتبه هؤلاء العلماء وأهمية ذلك فيما يتعلق بالأحداث التي أزعجوا لها، ومن هنا كانت المحاولة ألا تخرج هذه الدراسة عن هذا الإطار، باعتباره محور البحث من جهة وباعتبار أن دراسة البيئة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بل وحتى الثقافة ما هي إلا انعكاس على الإرث الحضري والعلمي لهاته الإيالة⁽¹⁾.

وإذا أراد الباحث أن يتحدث عن العصر الذي عاش فيه العلماء، فيبدو له أن حياتهم تزامنت مع فترة حرجة عرفتها الإيالة في شتى المجالات من سياسية، اقتصادية واجتماعية، بل وحتى ثقافية. باعتبار أن لهذه الأحداث والأوضاع والظروف تأثير في كتاباتهم وآراءهم من جهة، وعلى البيئة التي يكون لزاما على علماء المنطقة أن يؤرخوا لها على حسب وضعيتها من جهة أخرى. وبالتالي يكون لزاما علينا التطرق إلى مختلف الأحداث والأوضاع التي عايشها العلماء ولعل من بينها:

1-1- الثورات الدينية:

ظهرت ثورات عديدة في العهد العثماني بالإيالة الجزائرية، لاسيما بالبايلك الغربي اتخذت وسائل مختلفة وطرقا متنوعة. فبعضها كان له طابع ديني وبعضها كان له طابع سياسي، ضف إلى ذلك من كان له دوافع اقتصادية. ومن هذه الثورات ما كان قصير المدى محدود المكان، وما كان طويل المدى واسع المجال. بالإضافة إلى أن هذه الثورات كانت أحيانا ثورات طرقية صوفية بأسرها أو ثورات قبلية كاملة، وأحيانا كانت ثورات لطبقات اجتماعية معينة. ولعل من بين هاته الثورات ثورة درقاوة⁽²⁾، التي بدأت حوادثها سنة 1805م مست انعكاساتها عدة حواضر علمية، والتي رأت في تلك الثورة سوى وسيلة للتعبير عن مدى الضعف والاضطراب، الذي كان يمس الإيالة الجزائرية عموما والبايلك الغربي خصوصا.

¹: مولاي بالحميسي، "دراسات على عصر أبي راس الناصري"، محاضرة أقيمت في ملتقى أبي راس الناصر بمعسكر بتاريخ: 28/27 أكتوبر، 1998، ص: 03.

²: الدرقاوية: أو ثورة درقاوة التي قامت سنت 1805م، نسبة إلى الشيخ محمد العربي الدرقاوي، الذي توفي بالمغرب سنة 1808م وهو من فقراء المغرب الأقصى. كان الشيخ عبد القادر بن الشريف هو مقدم طريقته في وهران ونواحيها والذي يعود نسبه إلى قرية أولاد بليل قرب فرنده، حيث أسس معهد أو زاوية إستقبل فيها أتباعه أين كانت تلقى الأذكار والأوراد ودراسة شتى العلوم. وبالتالي عُين الشيخ عبد القادر بن الشريف كمقدم للطريقة الدرقاوية بالجزائر. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي: من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16-20م)، ج1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص: 218.

للمزيد عن الدرقاوية أنظر: بونقاب مختار، تاريخ الطريقة الدرقاوية في الجزائر. أطروحة ماجستير في التاريخ الحديث، الجزائر، جامعة وهران أحمد بن بلة، 2002، ص-ص: 16-33.

إنّ من نشأ في وطن تكثرت فيه الفتن والاضطرابات، وتتحكم فيه الأطماع السياسية وتتعاقد فيه مشاهد صراع البايات والدايات على عرش الحكم، نتاجه في غالب الأمر اقتتال أبناء البلد أو الملة الواحدة، لاشك أنه يؤثر في نفسية العلماء. ولا محالة أن يكون لهذه الأحوال أثر في تفكيرهم وفي رسم تصورهم للحياة، وفي المسار الذي ينبغي أن يسلكوه في ظروف كهذه. وفي مثل هذه الظروف يكون العلماء بين فئتين: فئة من العلماء تبحث عن سلامة نفسها، غايتها أن تتجنب كل ما يمكن أن يؤدي بها إلى الإصابة بشيء من هذه الفتن التي تلوح في عصرها، وفئة ثانية من العلماء صاحبة عزيمة وضمير متوقد تحزنها ما تعانيه حاضرتها وإيالها على سبيل الخصوص، فتعمل جاهدة إلى إصلاح ما استطاعوا عليه سبيلا بما يتاح لهم من فرص. حيث تمكنت هاته الفئة في ظل هذه الظروف من طلب العلم غير مبالية بآثار تلك الفتن والاضطرابات، متولية نشر العلم بين طلابها وعلماءها، ومن هذا نخلص إلى أن علماء الجزائر العثمانية كانوا ذا همّة عالية في الاشتغال بالعلم، لم تصرفهم عنه الأحوال السياسية المضطربة في عصرهم⁽¹⁾.

ولا نحسب المؤرخ أبوراس الناصر، وابن سحنون الراشدي، وغيرهم من علماء الجزائر المحروسة إلا من هذا الصنف الموالي للنظام العثماني وسلطانة بالجزائر. حيث تمكنوا في ظل هذه الظروف من طلب العلم غير آبهين- مبالين- بآثار تلك الفتن والاضطرابات، لدرجة أنهم امتهنوا أسمى الوظائف، فها هو أبوراس الناصر يمتن مهنة القضاء.

وما يستنتج من خلال ما سبق، أنه رغم تلك الأوضاع والاضطرابات السياسية، إلا أنّ ذلك لم يمنع من وجود مساهمة فعالة للعلماء في شتى المجالات، لاسيما المتعلقة بالمجال العلمي. حيث برز دورهم في الإنتاج العلمي الطبي، لاسيما ما تعلق، إذ انكب العديد من العلماء إلى تأليف العديد من الكتابات حول هذا.

من الواضح أنّ الاضطرابات السياسية، قد كانت مجرد مرحلة تمهيدية للحالة الاجتماعية والاقتصادية آنذاك، لاسيما خلال المرحلة الأخيرة من العهد العثماني. تلك المرحلة الأصعب في تاريخ إيالة الجزائرية، فلقد كانت الفترة الممتدة ما بين: 1711م-1830م من الناحية الاجتماعية والاقتصادية جد مضطربة باضطراب النظام السياسي، وهو ما أدى إلى سوء الأحوال الاجتماعية وتدني المستوى المعيشي للمجتمع المعسكري بمختلف طبقاته، بسبب انتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة كالطاعون الذي أودى بحياة

¹: طالي عطاء الله، علاقة الحكام الأتراك برجال الدين والعلماء في الجزائر: 1656-1830م: بحث في منهجية الدراسات المعمقة، الجزائر: معهد العلوم الاجتماعية، دائرة الدراسات التاريخية، 1980، ص: 13.

الكثير من السكان على اختلاف فئاتهم. ولعل من بينهم فئة العلماء الذين كانوا ضحية هذا الوباء، إلى جانب انتشار الفقر والمجاعة، الذين كان لهما الأثر الكبير في زيادة معاناة المجتمع في حواضر الإيالة⁽¹⁾. ومما يلاحظ أنّ الحياة الثقافية بإيالة الجزائر كانت متدهورة للغاية وتتسم بالخمود والجمود والتحجر⁽²⁾. ذلك أن اهتمام السكان كان منصبا بالدرجة الأولى نحو التجارة بخاصة والاقتصاد بعامة، باعتبار أن التجارة كانت تدر عليهم أرباحا طائلة، إلى جانب أنهم كانوا يضمنون بواسطتها حصولهم على حاجياتهم اليومية. ولعل هذا راجع بالدرجة الأولى إلى التدهور السياسي والتأزم الاقتصادي والتفكك الاجتماعي، الذي عاناه البايليكات خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين (16م و17م)⁽³⁾. وزيادة على هذا، فلقد كان التعليم ينقصه وسائل التشجيع والتنشيط المعنوي و المادي، ، باعتبار أن المدن والحواضر الرئيسية التي اشتهرت بالعلم كادت أن تكون خالية من مؤسسات التعليم وأدواته من جهة⁽⁴⁾ كما كان لانتشار الأمية، أثر كبير في ذلك من جهة أخرى. حيث لم يكن مجال العلم مفتوحا أمام عامة الناس بل كان يقتصر فقط على بعض الخاصة، لأنه كان يتطلب نفقات باهضة لم تكن في استطاعة كل واحد يرغب في التعليم أو الدراسة، حيث كان قلة من السكان هي التي تحتكر هذا الجانب الثقافي وتتميز به دون غيرها⁽⁵⁾.

ويبدو أنّ الحياة الثقافية والعلمية كانت تعيش الخمود والركود والجمود الفكري، إذ يصف أبو راس الناصر ذلك الخمود الثقافي بقوله: "...إذ في زمن عطلت فيه مشاهد العلم ومعاهده وسدّت مصادره وموارده، وخلت دياره ومواسمه وعفت أطلاله ومعالمه، لا سيما فن التاريخ والأدب وأخبار الأوائل والنسب قد طرحت

¹: حيث عرفت معسكر مثلا وبياء سنة 1794م أدى إلى سوء الأحوال الصحية بهاته الحاضرة ضيف إلى ذلك الكوارث الطبيعية كالجفاف و الزلازل و الجراد و الفياضانات مثل زلزال وهران سنة 1790م هذا بغض النظر عن طاعون سنة 1823م و الذي كان منتشرا بكثرة في الناحية الغربية.مسلم بن عبد القادر الوهراني، تاريخ بايات وهران المتأخر أو خاتمة أنيس الغرب والمسافر، تحقيق وتقديم: راجح بونار، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، ص: 25.

للمزيد أنظر: ناصر الدين سعيدوني و المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ: العهد العثماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص: 91.

²: صالح فركوس، "الباي محمد الكبير وبعث الحركة الثقافية ببايلك الغرب الجزائري" الثقافة، العدد: 71: الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، سبتمبر- أكتوبر، 1982، ص: 16.

³: ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم: المهدي البوعبدلي، الجزائر، مطبعة البعث، 1973، ص: 135.

⁴: المصدر نفسه، ص: 133.

⁵: صالح فركوس، المرجع السابق، ص: 16.

في زوايا الهجران، ونسجت عليها عناكب النسيان، وأشرفت شمسها على الأفول، و إستوطن فحولها زوايا الخمول يتلهفون عن أنداس العلم والفضائل، ويتأسفون من إنعكاس أحوال الأذكفاء والأفاضل...."⁽¹⁾. وما يستنتج مما سبق، أنه قد عانت حواضر الإيالة من ذلك الركود الثقافي والجمود الفكري والمعرفي، وبالخصوص طيلة القرنين الأولين من الحكم العثماني. ذلك أنه قبل مجيء العثمانيين كانت معظم المدن والحواضر بالجزائر مسرحا للمجاهبات الدينية والتعليمية التي أصبحت تضيء بنور معرفتها جميع أرجاء حواضر الإيالة الجزائرية⁽²⁾.

وزيادة على هذا، فيبدو أن الحواضر العلمية لم تكن تحظى باهتمام الحكام العثمانيين في بعث وإحياء الثقافة بها، الذين لم يهتموا كثيرا بالثقافة والعلوم أكثر مما اهتموا بالشؤون السياسية والعسكرية والاقتصادية بها، والتي تمثلت في رد الهجمات وقمع الثورات وفرض الضرائب على السكان ولهذا طغت العلوم النقلية الشرعية والدينية على العلوم العقلية مثل الطب وعلم الفلك والصيدلة⁽³⁾.

2- المخطوطات الطبية:

كان للطب ثلاثة أضلاع هي: الطبيب، المخطوطة، المنشأة الطبية، لكن عندما تناول الباحثون العهد العثماني أقرروا أن الجانب الطبي في إيالة الجزائر بلغ منتهى السوء والتدهور، وذلك لافتقار ذلك العهد إلى منشآت طبية ضخمة تقدم الخدمات الطبية للرعية لكن بالرغم من ذلك وجب علينا البحث في أضلاع المثلث الثلاثة وليس ضلعا واحدا حتى يكون الحكم قاطعا وبالخصوص ضلع الأطباء بأسمائهم الذين هم عماد تلك المهنة والضلع الثاني مؤلفاتهم الطبية التي دلت على وجود حركة علمية طبية نشطة طيلة هذه الفترة وأن هناك علماء أخذوا على عاتقهم مهمة الحفاظ على هذا التراث ومحاولة توصيله إلى أكبر عدد ممكن من طلاب العلم ومن هؤلاء نذكر:

2-1- عبد الرزاق ابن حمادوش واهتمامه بالطب والصيدلة:

2-1-1- التعريف بابن حمادوش:

هو أبو الحسن عبد الرزاق بن الحاج محمد بن امحمد المعروف بابن حمادوش الدار، الأشعري عقيدة، المالكي مذهبا، الشريف نسبا⁽⁴⁾، مؤرخ، نسابة وطبيب، ولد سنة 1107هـ/1695م في مدينة الجزائر

¹: أبوراس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 1632، ص: 18.
²: يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر و العرب، ج1، الجزائر، دار الهدى للطباعة و النشر والتوزيع، 2004، ص: 131.

³: صالح فركوس، المرجع السابق، ص: 16.

⁴: عبد الرزاق ابن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983، ص: 29.

أين تلقى بها مبادئ علوم الدين واللغة، حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، كان والده يلقب بالدباغ لامتهانه الدباغة، مارس ابن حمادوش حرفة تجليد الكتب ونسخها. ولقد برع الشيخ ابن حمادوش في العلوم الشرعية قراءة وإجازة بالحديث وعلومه، وكان بجانب ذلك عالماً بالقراءات، إماماً بالفقه، لديه معرفة بالأدب. كما اشتهر بالفتوى والتحقيق على غرار التأليف⁽¹⁾.

نشأ الشيخ عبد الرزاق بن حمادوش بمدينة الجزائر أين تلقى تعليماً وتكويناً أدبياً تماشياً وشروط الفقيه العالم، حيث كان كثير التنقل بين أهم المراكز العلمية في القطر الجزائري فقرأ على شيوخ كثيرين أمثال العلامة الشيخ محمد بن ميمون. كما أخذ عن علماء المشرق والمغرب فأجازوه ولعل من بينهم الشيخ محمد بن السلام البناني الفاسي وأحمد الورززي التطواني وأحمد السرائري ومن تونس أخذ عن الشيخ محمد زيتونة والشيخ محمد الشافعي وغيرهم من علماء عصره⁽²⁾. كما كان ميالاً إلى العلوم الرياضية والطبية حتى أصبح صيدلي وطبيب وفلكي حيث ألف في هذه العلوم مخالفاً بذلك ما شاع عن معاصريه الذين عرفهم من التأليف الأدبية والفقهية أمثال محمد ابن ميمون وأحمد بن عمار والمفتي بن علي ومحمد الطيب بن محمد الفاسي. وظل يؤدي مهمته العلمية إلى أن توفي سنة 1197هـ/ 1783م وهو بالمشرق بمكان مجهول بعد أن عاش حوالي تسعين سنة. تاركاً وراءه ثروة علمية ضخمة أودعها في مؤلفاته المفيدة التي كان معظمها حول الطب والصيدلة⁽³⁾.

2-1-2- إسهامات ابن حمادوش في الطب والصيدلة:

خلف ابن حمادوش الكثير من المصنفات في الطب والصيدلة خلال العهد العثماني لعل أبرزها: الجواهر المكنون في بحر القانون: وهو تأليف في الطب أو مصنف وموسوعة طبية ضخمة أوجدية حيث رتب ابن حمادوش فيها الموضوعات ترتيباً أبجدياً بعد أن فصلها إلى أربعة كتب التي بدورها تنقسم إلى عدة شعب وهي كالآتي:

الكتاب الأول: في السموم وذوات السموم وطرق العلاج منها.

الكتاب الثاني: في الترقيات وما يجري مجراها وبعض المعاجين الذي يظهر إليه المرء.

الكتاب الثالث: في الأمراض، مرتباً ابن حمادوش ذلك على جدول ابن اسحاق الطيب.

¹: بكاري عبد القادر، "عبد الرزاق ابن حمادوش والكتابة التاريخية من خلال رحلته الموسومة ب: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، عصور الجديدة، العدد: 26، أبريل، 2016، ص: 237.

²: فريدة مقالاتي، "صورة الآخر المغربي في رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، العدد: 04، 2019، ص: 445.

³: بحري نصيرة، "استقراء التاريخ من خلال رحلة ابن حمادوش الجزائري"، مدارات تاريخية، العدد الثالث، سبتمبر، 2019، ص: 392.

الكتاب الرابع: في شرح ألفاظ المصطلحات وتعريفها ما أمكن، وفي هذا المقام يقول ابن حمادوش: "فهذا جوهر مكنون من بحر القانون، يتوشح به الأصاغر، ولا تمجه الأكابر...وقد جعلته مرتبا على أربعة كتب...تأليف حسن في الطب"⁽¹⁾.

كشف الرموز في بيان الأعشاب: وهو تأليف خصصه ابن حمادوش لدراسة الأعشاب الطبية وتصنيفها وذكر منافعها الطبية، وهو بمثابة قاموس طبي شعبي ضمنه أوصاف طبية وأسماء لنباتات وعقاقير ومعادن وحيوانات، ومن المرجح أنه الجزء الرابع من كتاب الجوهر المكنون الذي سار فيه ابن حمادوش على طريقة المعاجم الأبجدية، وللكتاب أهمية كبيرة وكان أول من اكتشفه الطبيب الفرنسي لوسيان لوكليرك Loucien Leclerc الذي قام بترجمته إلى اللغة الفرنسية سنة 1874م في حدود 397 صفحة بعد أن كان قد كتب بالجزائر تحت عنوان كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب، هذا وقد أشاد لوسيان لوكليرك Loucien Leclerc بأهمية كتاب كشف الرموز حيث قال أن ابن حمادوش قد كانت له بصمة وإضافة جديدة في مجال الطب بفضل هذا الكتاب الذي لم يعتمد فيه ابن حمادوش حسب قوله على الخرافة حيث اعتبره الطبيب الفرنسي من آخر الممثلين للطب العربي الإسلامي⁽²⁾.

كما قام غبريال كولان Gabriel Colin (1825-1896م) بدراسة كتاب كشف الرموز الطبي والذي حصل به على دكتوراه في الطب حيث أشاد بهذا الكتاب مشيرا على أنه مرجع لا يمكن لأي طبيب أن يستغني عنه في ذلك العصر خصوصا وأن ابن حمادوش قد اعتمد في تأليف هذا الكتاب على مصادر عديدة للأنتاكي وابن البيطار وابن سينا كما وظف مصادر أجنبية لعدة علماء طب يونانيين. وبالتالي يكون ابن حمادوش قد سار على منهج علمي واضح في تأليف كتابه كشف الرموز فمباشرة بعد تطرقه لمدخل باشر في تعريف الدواء ووصفه، وذكر الأسماء الأخرى التي تطلق عليه في مختلف البقاع، مع التطرق إلى خصائصه وفوائده العامة والخاصة، وكيفية استعماله والكمية الضرورية منه، ناهيك عن ذكره للأمراض مع تشخيص الأعراض والأدوية المناسبة للعلاج، وما لوحظ هو ذكر ابن حمادوش لخصائص النباتات بالتفصيل لمنافع ومضار كل نبات على حدى. وبالتالي فهو يقدم موسوعة طبية صيدلية صالحة لكل زمان ومكان⁽³⁾.

كتاب تعديل المزاج بقوانين العلاج: هو كتاب في الطب ألفه ابن حمادوش سنة 1748م بمدينة الرشيد في مصر، الموضوع الرئيسي لهذا الكتاب هو دراسة وظائف الأعضاء التناسلية والاضطرابات التي

¹: بكاري عبد القادر، المرجع السابق، ص: 239.

²: عز الدين بن سيدي، "منهج ابن حمادوش الجزائري في علوم الطب والصيدلة"، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، العدد: 02، ديسمبر، 2020، ص: 59.

³: المرجع نفسه، ص: 60.

تصحيحها وعلاجها وطرق المحافظة عليها⁽¹⁾، كما عالج فيه ابن حمادوش موضوع المزاج البشري وأحوال النفس ومزاجها معتمدا في ذلك على الطب النبوي والأحاديث النبوية مجتهدا في تفسير ظاهرة المزاج والطبائع والسلوكيات لدى الإنسان وعلاقتها بالجنس عند الذكر والأنثى وبذلك يكون ابن حمادوش قد مزج بين الطب العضوي والطب النفسي الروحاني ولم يتحقق له ذلك إلا بعد توظيفه لعدة مصادر وكتابات طبية لابن سينا وابن اسحاق وغيرهما⁽²⁾.

وفيما يخص منهج ابن حمادوش في علم الطب والصيدلة فقد وظف المنهج التجريبي في تجربة بعض الأدوية وتجهيز الدواء لنفسه وخير دليل على ذلك هو إصابته بحمى شديدة وهو بالمغرب الأقصى حيث قام بوصف الدواء لنفسه ثم عزم على شربه على مراحل قائلا: "أصابتني حمى شديدة فلم أستطع القراءة حتى ألهمني الله أن أشتري ثلاثة أثمان من سكين كينة فاشتريتها بستة موزونات فلما أخذتني واشتد بي بردها... دقت الثمن الأول وشربته في فنجال قهوة من البن، فلما استقر في بطني أمسكت الأعضاء كلها من الاختلاج إلا عرقا واحدا في يدي اليمنى بقي يختلج اختلاجا يسيرا، فلما شربت الثمن الثاني انقطع من كل عضو، ثم شربت الثمن الثالث فلم يبق بي ألم منها إلا أنها كسر سورتها الدواء كأنها تعاندا وتدافعا فثقلت من شدة الحرارة والزمي النوم فبقيت كذلك إلى غروب الشمس فانصرفت تلك الحرارة عني والحمد لله...". وبذلك يكون ابن حمادوش قد وظف تقنيات البحث العلمي من ملاحظة وتشخيص للمرض وتجهيز للدواء المناسب له⁽³⁾.

2-2- مساهمة حمدان بن عثمان خوجة في الطب:

لقد كتب حمدان خوجة في موضوع الطاعون بحكم أن الجزائر قد عانت من هذا الوباء الذي كان يضرب إيالة كل عشر سنوات تقريبا إلى خمسة وعشرين سنة تتزامن معها موجة جفاف تسبب المجاعات وعدة كوارث طبيعية أخرى، حينها عزم حمدان خوجة على تأليف كتاب عن وباء الطاعون عالج ووصف فيه الاحترازمات المعمول بها في أوروبا للتقليل من حدة الأوبئة خصوصا وأن دراسته لم تقتصر على إيالة الجزائر فحسب بل شملت العالم العربي والإسلامي وكل الولايات العثمانية⁽⁴⁾.

هذا ويعتبر حمدان بن عثمان خوجة أحد المفكرين والمصلحين العرب الأوائل خلال القرن التاسع عشر عاصر أواخر العهد العثماني وشهد الاحتلال الفرنسي فخاض نضالا طويلا للدفاع عن القضية

¹: بكاري عبد القادر، المرجع السابق، ص: 239.

²: عز الدين بن سفي، المرجع السابق، ص: 60.

³: وافية نفطي، "مسألة علوم الطب والصيدلة عند علماء الجزائر خلال العهد العثماني"، أفاق فكرية، العدد: 10، ماي، 2019، ص: 37.

⁴: المرجع نفسه، ص: 44.

الجزائرية حتى نفي من الجزائر واستقر في اسطنبول. وعلى العموم فحمدان بن عثمان خوجة من مواليد سنة 1773م بمدينة الجزائر من أصل كرغلي، نشأ في وسط أسرة علمية صاحبة وظائف سامية في حكومة الداى فوالده كان قد تقلد منصب مكتابي أي المشرف على سجلات الدولة أما خاله الحاج محمد فكان أميناً للسكة حيث صاحبه حمدان بن عثمان خوجة في عدة رحلات⁽¹⁾.

تعلم حمدان مبادئ العلوم على والده بادئ الأمر، حيث حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة ثم التحق بالمدرسة أين تفوق بها الأمر الذي جعل من والده أن يوليه اهتماماً خاصاً ويلقنه أصول الإدارة والحكم والسياسة، كما كان كثير الترحال والسفر إلى أوروبا والمشرق أين تكون تكويناً سياسياً حمل على إثر ذلك هم القضية الجزائرية بعد الاحتلال الفرنسي عام 1830م⁽²⁾.

تمثلت مساهمة حمدان خوجة في الطب بعد تأليفه لكتاب بعنوان: "إنحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز من الوباء" وهو بمثابة رسالة حث فيها حمدان العالم الإسلامي على اليقظة والأخذ بمعالج الحضارة الأوروبية والتجارب التي توصلوا إليها في مجال الوقاية من تفشي الأوبئة وانتشارها مع الأخذ بطرق العلاج والتداوي أي وجوب الوقاية والاحتماء. حيث انطلق حمدان في الرسالة من نظام الكرتينية أو الحجر الصحي الذي يستمر لمدة أربعين يوماً كإجراء صحي وقائي، ولقد انتهى حمدان من تأليف الكتاب عام 1836م حيث ترجم إلى اللغة التركية وأهديت نسخة منه على السلطان العثماني محمود الثاني 1808-1839م بعد أن تم طبعها بالقسطنطينية⁽³⁾.

ومن الدوافع التي جعلت حمدان يؤلف هذه الرسالة الطبية ماجاء على لسانه قائلاً: "ولما رأيت الخلل الداخل على المسلمين بإهمال هذه القواعد وإنكارها... والتزام التقشف والتعصب في عدم دفع المضرة وملاحظة أغوارها في كثير مما ابتكره الإفرنج بدعواهم ورأيت بالبلاد الفرنجية انتظام أمورهم حيث التزموا لدفع الوباء عنهم ما جبروه من الاحتماء والاحتراز بالاستقرار في عدم ادخال الداخل إليهم إلا بعد تحقيق البراءة والاستبراء وجعلوا لذلك حكماً في أماكن حصينة مع غاية الاحتياط وسمو ذلك كرتينية"⁽⁴⁾. ومن كلامه هذا الذي يوجي بسعة اطلاعه من خلال رحلاته على النظم الغربية في العناية بصحة المجتمع والقواعد والاجراءات الطبقة لمواجهة الوباء كما تحدث حمدان عن وقوع وباء الطاعون ببلده الجزائر مرات عدة نتج

¹: المرجع نفسه، ص، ص: 40، 41.

²: المرجع نفسه، ص: 41.

³: حنيفي هلايلي، "موقف علماء الجزائر من الأوبئة والإجراءات الصحية الاحترازية من خلال كتاب إنحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء لحمدان خوجة 1773-1840م"، ضمن كتاب جماعي موسوم ب العلم، العلماء والنخب في المغرب، مطبعة بشير بويجرة عمر، سيدي بلعباس، الجزائر، 2020، ص: 16.

⁴: المرجع نفسه، ص: 25.

عنه فقر البلاد وتشوش أحوال العباد واضمحلال العلم لاسيما عام 1810م الذي كان عام وباء الطاعون وخسائره الفادحة على العمران والمجتمع والثقافة⁽¹⁾.

تتألف رسالة حمدان بن عثمان خوجة من مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة حيث تضمنت المقدمة تسع مقالات هي كالآتي:

المقالة الأولى: في إقامة الأدلة النقلية والعقلية على أن الله هو الخالق لعباده وأفعالهم.

المقالة الثانية: أن حكمة الله إخفاؤه أفعاله عن عباده وجعله الأسباب والعلل مظهرا لكل ما ظهر في الوجود.

المقالة الثالثة: أن دفع الأذى باليد أو السلاح واجب قد حث عليه ولا يجوز أن يتهاون فيه.

المقالة الرابعة: إن صدق التوكل المطلق ونبذ الأسباب وكون الإنسان بين يدي الله كالميت بين يدي مغسلة مقام لا ينكر لكنه خاص بالرجل الكمل والخواص من عباده⁽²⁾.

المقالة الخامسة: أن سببية الأسباب وعلية العلة وشرطية الشروط لا يتوقف ثبوتها ومعرفتها على الشرع بل قد ثبت بعضها بالشرع وبعضها بالإلهام وبعضها بالتجربة.

المقالة السادسة: كون الشيء علة لشيء آخر أو سببا في وجوده أو شرطا فيه لا يقتضي عدم تخلف ذلك الشيء عند وقوع شرط وسببه وعلته لاحتمال وقوع مانع أو انعدام شرط آخر إذ قد يكون للشيء الواحد شروط متعددة غير معلومة.

المقالة السابعة: أن ثبوت تقدم الأفرنج وأن تمههم في العلوم الرياضية والطبيعية والصناعية ناتج عن عدم تقديمهم بما يتعلق بأمور دينهم وثواب أخراهم. وأن تأخر المسلمين ناتج عن تقيدهم بأمور دينهم وإهمالهم لشؤون دنياهم.

المقالة الثامنة: فيما يجب على أولي الأمر نحو رعيتهم وما يجب على الرعية تجاه أمراءهم.

المقالة التاسعة: في بيان حقيقة الكرنتينة وضرورة تطبيقها في العالم الإسلامي⁽³⁾.

أما أبواب الكتاب الرئيسية فهي:

الباب الأول: الأدلة النقلية والعقلية على جواز الفرار من الوباء والضرر الفتاك بالاستناد على العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي حثت على إباحة الفرار من الوباء. وذكر معنى الاحتراز وأخذ الحيطة والحذر.

الباب الثاني: جواز الاحتراز من الوباء شرعا، مع تعريف الوباء وأسبابه وذكر طرق وأساليب الاحتراز منه⁽⁴⁾.

¹: وافية نفطي، المرجع السابق، ص: 42.

²: وافية نفطي، المرجع السابق، ص: 44.

³: وافية نفطي، المرجع السابق، ص: 44.

⁴: وافية نفطي، المرجع السابق، ص: 44.

الباب الثالث: بيان تطبيق الكرتينة وفيه ناقش حمدان ما إذا كان ذلك يتعارض مع الدين الإسلامي مع الإشارة إلى طريقة تطبيق الغرب للحجر الصحي الكرتينة⁽¹⁾.
الخاتمة: حث فيها حمدان المسلمين على ضرورة تطبيق الاحتراز من الوباء مع الاستعانة بتجارب الغربيين في هذا المجال والرد القاطع على من يزعم أنه لا يجوز الاستفادة من الأجانب. مع تقديمه لحلول مناسبة لإنجاح الكرتينة منها ضرورة وجود إرادة سياسية من سلاطين آل عثمان في تفعيل وتطبيق نظام الحجر الصحي الكرتينة، مع وجوب وجود أطباء قادرين على التفرقة والتشخيص بين الأمراض العادية والأمراض الوبائية، وكذلك القيام من بناء مراكز صحية مجهزة خاصة بالحجر الصحي بالمدن الساحلية، مؤكداً ومنوهاً على ضرورة الاستفادة من خبرة الغربيين في قضية الكرتينة⁽²⁾.

3- مصنفات طبية أخرى في علم الطب والصيدلة خلال العهد العثماني:

وعلى العموم فالرسائل والمصنفات الطبية التي ألفها علماء الجزائر العثمانية كان موضوعها يدور حول الأمراض والأعشاب الطبية والصيدلة بل وحتى الطب النفسي الروحاني ولعل من بينها أيضاً:
1-3- سعيد بن أحمد المقرئ: الذي كان يجمع بين العلوم النقلية والعقلية حيث اهتم هذا العالم بالطب والتشريح والهندسة والفلاحة بل وحتى بعلم التنجيم⁽³⁾.
ولد بتلمسان وكان مفتياً وخطيباً بمسجدها لمدة 45 سنة حيث أخذ العلم عن أبيه وعن الونشريسي وغيرهما من شيوخ عصره⁽⁴⁾.

2-3- عبد الله بن عزوز المراكشي التلمساني: وهو طبيب وُفِّقَ في الجمع بين التصوف وعلم الطب والفلك ومختلف علوم العصر من العلوم النقلية والعقلية، من مؤلفاته مخطوط يحتوي على 118 صفحة موجود بمكتبة باريس تحت رقم 4758 يحمل عنوان: "ذهب الكسوف ونفي الظلمة في علم الطب والطبائع والحكمة" انتهى من تأليفه في رمضان 1194هـ/1779م⁽⁵⁾. هذا وينقسم الكتاب إلى حوالي سبعين فصلاً وكل فصل يختص بموضوع في الطب وعلى العموم فأبوابه كانت كالآتي:
الباب الأول: في موضوع الطبيعة وعناصرها.

الباب الثاني: في علم الحكمة و علم التوليد والطب حيث فصل في التطرق للعلاج لكل مرض على حدى.

¹: حنفي هلايلي، المرجع السابق، ص: 25.

²: فؤاد بن أحمد عطاء الله، "إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء لحمدان بن عثمان خواجه الجزائري الحنفي: دراسة وتقديم"، مجلة الباحث، العدد: 04، 2020، ص، ص. 69، 70.

³: مصطفى خياطي، الطب والأطباء في الجزائر العثمانية، الجزائر، منشورات ANEP، 2013، ص، ص: 117، 118.

⁴: وافية نفطي، المرجع السابق، ص: 26.

⁵: مصطفى خياطي، المرجع السابق، 417.

الباب الثالث: في الحديث عن الطب التجريبي والطب النفسي الروحاني
الباب الرابع: في موضوع وصف المعدة وأمراضها وطرق علاجها. حيث خصص لكل مرض من أمراض المعدة
علاجاً له فأعتبر بذلك هذا المصنف مرجعاً لطلاب علم الطب⁽¹⁾.

هذا وقد كان للعالم الطبيب عبد الله بن عزوز المراكشي مؤلفات أخرى مثل "باب الحكمة في علم
الحروف وعلماء الأسماء الإلهية"، وبالتالي يكون عبد الله بن أحمد بن عزوز المراكشي داراً ومنشأً السوسي
أصلاً العباسي نسباً التلمساني أبو محمد المعروف بسيدي بلة من أهل مراكش من أبرز العلماء الذين أتقنوا
الطب وألفوا فيه كتباً ومؤلفات كانت بمثابة مرجعية طبية لطلبة علم الطب خلال العهد العثماني حتى توفي
في سيدي بلال عام 1204هـ/ 1790م⁽²⁾.

3-3- محمد بن علي بن باديس الصنهاجي: ألف كتاباً في الأدوية ومنافعها أطلق عليه اسم "المنافع البينة
وما يصلح بالأربعة أزمان" مقسماً عمله هذا إلى ثمانية أبواب مستدلاً بعدة أحاديث نبوية في الطب النبوي⁽³⁾.
3-4- محمد بن أحمد الشريف الحسني: عالم من تلمسان عرف عنه حبه للتصوف وممارسة الطب، كتب
العديد من الرسائل الطبية في الطب النبوي لعل أبرزها "المن والسلوى في تحقيق معنى حديث لا عدوى"،
وهي عبارة عن رسالة طبية تتكون من ثلاثة عشر صفحة انتهى من كتابتها عام 1149هـ/ 1736م شرح فيها
الحديث المتعلق بالحماية من الأوبئة وبذلك قد يكون هذا العالم قد دافع عن الطب النبوي وانتصر له
وبعدها قام بإهداء تلك الرسالة الطبية بنفسه للسلطان العثماني أحمد باشا سنة 1149هـ/ 1736م⁽⁴⁾.

3-5- أحمد بن قاسم البوني: هو الشيخ أحمد بن قاسم بن ساسي التميمي أبو العباس من مواليد سنة
1036هـ/ 1627م بعنابة، أعتبر أحد علماء الجزائر العثمانية، عرف عنه اهتمامه بمجال الطب والكتابة فيه
بحكم رحلاته المتعددة إلى الحجاز والمشرق ومصر على غرار مزاولته لمهنة التدريس بعنابة التي توفي بها
عام 1139هـ/ 1726م⁽⁵⁾، كما اشتهر أيضاً بمؤلفاته التي بلغت أكثر من خمسة وأربعين كتاباً في مجالات
متنوعة لعل أبرزها مؤلفاته الطبية التي كانت يجمع فيها البوني بين الطب والروحانيات حيث انتهى عام
1116هـ/ من تأليفه لكتاب سماه "أعلام أهل القريحة بالأدوية الصحيحة" ذكر فيه أمراض العيون والأذن

¹: وافية نفطي، المرجع السابق، ص: 27.

²: وافية نفطي، المرجع السابق، ص: 27.

³: وافية نفطي، المرجع السابق، ص: 27.

⁴: عثمان بوحجرة، الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني 1519-1830م: مقارنة اجتماعية، رسالة ماجستير في
التاريخ الحديث، الجزائر، كلية العلوم الانسانية والعلوم الاسلامية، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، 2014، ص: 26.

⁵: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982، ص:

والأنف والأسنان والفم والسعال، ثم تطرق للحديث عن الأدوية والحجى ولدغات الحيات منتهيها بوصف الأمراض ودواء تلك الأمراض كل على حدى⁽¹⁾.

كما وجد للبوني تأليف آخر بعنوان "مبين المسارب في الأكل والطب مع المشارب" وهو عبارة عن موسوعة طبية صغيرة حول الأدوية وطرق العلاج ومختلف المأكولات والمشروبات حيث قام البوني إلى تقسيمها على مجموعة فصول واضعا ذلك على شكل نظم شعري احتوى على أكثر من ألف بيت جاء في بدايته:

الحمد لله الذي أباها الطيبات زادنا أرباها

جاعل علم الطب نصف العلم كما أتى عن النبي نصف الحلم⁽²⁾

كما كان للبوني حديث عن علم الطب أيضا في كتاب آخر له سماه "اتحاف الأنباء بأدوية الأطباء ومنظومة حول منافع الثوم"⁽³⁾.

3-6- محمد بن سليمان: عالم عاش في منتصف القرن الحادي عشر، عرف عنه حبه للتصوف، جمع بين علم الطب والتصوف، نظم قصيدة شعرية في الموازين والمكاييل الطبية والشرعية اعتبرت كمرجعية طبية عند طلبة علم الطب.

3-7- محمد ابن أحمد المعروف بابن مريم التلمساني: هو محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم أبو عبد الله الشريف المليتي نسبا المديوني أصلا، كان حيا سنة 1025هـ/1611م وهو عالم مؤرخ كتب في عدة علوم واستطاع أن يجمع بين العلوم النقلية والعقلية حيث ألف عدة كتب طبية لعل أبرزها الكتاب الذي سماه "فتح الجليل في أدوية العليل"⁽⁴⁾.

الخاتمة:

نستنتج في الأخير أنّ علماء الجزائر العثمانية قد مزجوا بين العلوم النقلية الشرعية والعقلية وألفوا مصنفاً ورسائل في علم الطب والصيدلة بعدما كان الاهتمام الأول لهم هو التفقه في الأمور الدينية وفي علم التصوف الذي كان سمة ذلك العصر على غرار العلوم العقلية التي كانت غائبة في تلك الفترة الأمر الذي جعل من بعض العلماء في زيادة عزيمتهم ورجبتهم في تعلم بعض العلوم العقلية خصوصا الطب والصيدلة لاسيما العالمين ابن حمادوش وحمدان بن عثمان خوجة

¹: مصطفى خياطي، المرجع السابق، ص: 117.

²: بن رمضان شاوش محمد وبن حمدان الغوثي، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، مج2، د.ت، ص: 453.

³: عادل نوميض، معجم أعلام الجزائر، بيروت، مؤسسة نوميض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، 1980، ص: 49.

⁴: مصطفى خياطي، المرجع السابق، ص: 119.

ومن أعظم مفاخر الحضارة الإسلامية ذلك الكم المتواضع من المخطوطات الطبية التي تناولت شتى مجالات العلم والمعرفة الصحية مثل الحمى وأمراض المعدة وغيرها وكانت تلك المصنفات كمراجع لطلاب علم الطب والصيدلة، ومما تجدر الإشارة إليه هو تركيز هؤلاء العلماء في مصنفاتهم الطبية على موضوع وباء الطاعون وطرق الوقاية منه والذي تكرر أزيد من عشرين سنة في النصف الأول من بداية القرن التاسع عشر على غرار الطب النفسي والروحاني.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن حمادوش عبد الرزاق، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983.
- بن سيفي عز الدين، "منهج ابن حمادوش الجزائري في علوم الطب والصيدلة"، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، العدد: 02، ديسمبر، 2020، 66.49.
- بن أحمد عطاء الله فؤاد، "إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء لحمدان بن عثمان خواجه الجزائري الحنفي: دراسة وتقديم"، مجلة الباحث، العدد: 04، 2020، ص.ص. 76.61.
- بوحجرة عثمان، الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني 1519-1830م: مقاربة اجتماعية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، الجزائر: كلية العلوم الانسانية والعلوم الاسلامية، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، 2014.
- بونقاب مختار، تاريخ الطريقة الدرقاوية في الجزائر. أطروحة ماجستير في التاريخ الحديث، الجزائر، جامعة وهران أحمد بن بلة، 2002.
- البوعبدلي المهدي، "إهتمام علماء الجزائر بعلم الحديث قديما وحديثا" كتاب الأصالة ج4، ملتقى السنة النبوية الشريفة: محاضرات ومناقشات ملتقى الفكر الإسلامي السادس عشر المنعقد بتلمسان، 1982.
- بوعزيز يحيى، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر و العرب ج1، الجزائر، دار الهدى للطباعة و النشر والتوزيع، 2004.
- بالحميسي مولاي، "دراسات على عصر ابي راس الناصري". محاضرة أقيمت في ملتقى أبي راس الناصر بمعسكر بتاريخ: 28/27 أكتوبر، 1998.
- بكري عبد القادر، "عبد الرزاق ابن حمادوش والكتابة التاريخية من خلال رحلته الموسومة ب لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، عصور الجديدة، العدد: 26، أبريل، 2016، ص.ص. 259.235.
- هلايلي حنفي، "موقف علماء الجزائر من الأوبئة والإجراءات الصحية الاحترازية من خلال كتاب إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراز عن الوباء لحمدان خوجة 1773-1840م"، ضمن كتاب جماعي موسوم ب العلم، العلماء والنخب في المغرب، مطبعة بشير بويجيرة عمر، سيدي بلعباس، الجزائر، 2020، ص.ص. 33.14.
- الوهراني مسلم بن عبد القادر، تاريخ بايات وهران المتأخر أو خاتمة أنيس الغريب والمسافر، تحقيق وتقديم: رايح بونار، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974.

- مقلاتي فريدة، "صورة الآخر المغربي في رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، العدد: 04، 2019، ص.ص. 462.443.
- الناصر أبو راس، عجائب الأسفار و لطائف الأخبار. مخطوط بالمكتبة الوطنية، رقم 1632.
- نصيرة بحري، "استقراء التاريخ من خلال رحلة ابن حمادوش الجزائري"، مدارات تاريخية، العدد الثالث، سبتمبر، 2019، ص.ص. 402.391.
- نفطي وافية، "مسألة علوم الطب والصيدلة عند علماء الجزائر خلال العهد العثماني"، أفاق فكرية، العدد: 10، ماي، 2019، ص.ص. 53.20.
- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي: من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16-20م). ج1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981.
- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982.
- سعيدوني ناصر الدين والبوعبدلي المهدي، الجزائر في التاريخ: العهد العثماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.
- عطاء الله طالبي، علاقة الحكام الأتراك برجال الدين والعلماء في الجزائر: 1656-1830م: بحث في منهجية الدراسات المعمقة، الجزائر: معهد العلوم الاجتماعية، دائرة الدراسات التاريخية، 1980.
- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، بيروت، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، 1980.
- فركوس صالح، "الباي محمد الكبير وبعث الحركة الثقافية ببابك الغرب الجزائري" الثقافة، العدد: 71، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، سبتمبر- أكتوبر، 1982.
- الراشدي أحمد ابن سحنون، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم: المهدي البوعبدلي، الجزائر، مطبعة البعث، 1973.
- شاوش محمد بن رمضان والغوثي بن حمدان، (د.ت). إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، مج2.
- خياطي مصطفى، الطب والأطباء في الجزائر العثمانية، الجزائر، منشورات ANEP، 2013.

المؤلفات الطبية دراسة في التكليف بالتأليف والاهداء

بين القرنين الثالث ونهاية التاسع الهجريين

**Medical literature: A study of authorship and dedication
Between the third and the end of the ninth century AH**

أ.د. يوسف كاظم جغيل الشمري ، م.م. فاطمة حيدر حسين المرشدي

كلية التربية، جامعة بابل، جمهورية العراق

hum.yousif.kadhumi@uobabylon.edu.iq

hydrf0731@gmail.com

الملخص

يعد علم الطب من العلوم التطبيقية المهمة، وقد عمل عدد من الخاصة، وكذلك طلبة العلم بتكليف المتخصصين في الطب ان يؤلفوا كتباً في هذا العلم، وقد استجاب عدد من الاطباء إلى ذلك على سبيل المثال لا الحصر الطبيب والفيلسوف المشهور ابن سينا، الذي ألف كتاباً بتكليف الوزير السهيلي، والف البغدادي كتاب تقدمية المعرفة في الطب. أما ظاهرة الاهداء فهي الأخرى كانت قد سجلت حضوراً في الساحة الإسلامية، والف العديد من العلماء كتبهم لهدوها إلى غيرهم من الخاصة، مرة لغرض الحصول على المكافأة زاخري للحصول على الحضوة، فقد أهدى الطبيب ابن جزالة كتاباً في الطب إلى الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله، أما الطبيب محمد بن محمود الشيرواني الف كتاب في الطب من أربعين باباً، وأهداه إلى ناصر الدين، وقد مثل القرن الثالث الهجري مرحلة ازدهار علمي كبير، الأمر الذي حدى بنا إلى دراسة النطاق الزمني المحصور بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين، كون هذه المدة الزمنية شهدت كتب في الطب الف بتكليف، وأخرى الفت لهدى.

الكلمات المفتاحية: الطب، ابن سينا، العالم الإسلامي، التكليف، الاهداء.

Summary

Medical science is one of the important applied sciences, and a number of elites, as well as science students, commissioned medical specialists to write books on this science, and a number of doctors responded to that, for example but not limited to the famous physician and philosopher Ibn Sina, who wrote a commissioned book Al-Wazir Al-Suhaili, and Al-Baghdadi wrote the book Advancement of Knowledge in Medicine. As for the phenomenon of gifting, it also had a presence in the Islamic arena, and many scholars wrote their books to dedicate them to others from the private, once for the purpose of obtaining the reward, Zakhari, to obtain favor. The physician Muhammad bin Mahmoud al-Shirwani wrote a book on medicine of forty chapters, and dedicated it to Nasir al-Din. The third century AH represented a stage of great scientific prosperity, which prompted us to study the time range confined between the third and ninth centuries AH, since this period of time witnessed books in Medicine was commissioned, and the other was written to guide.

key words :Medicine- Ibn Sina- the Islamic world- assignment- dedication.

المقدمة

دأب العرب المسلمون على نشر علومهم في مختلف الفنون والعلوم وانتشرت تلك المعارف المتنوعة في مشارق ارضهم ومغارها، ولعلّ ما يزيد عملية التأليف ازدهاراً وتفاعلاً هو ظاهرتا التكليف أي ان يكلف احدهم عالماً من العلماء بان يؤلف او يصنف في فن من الفنون العلمية، والإهداء وليس المقصود بالإهداء هنا الاهداء الشخصي من المؤلف لبعض نسخ كتابه الى اساتذته واصدقائه بقصد الترويج لكتابه، وانما يقصد به ذلك الاهداء الذي غالباً ما يتصدر الصفحات الاولى من مقدمة المؤلف للكتاب بكلمات مختصرة ومعبرة لشخص معين او اشخاص يحدددهم المؤلف نفسه ووفقاً لما تنسجه رغباته وذائقته، ويبقى الإهداء أمراً ذاتياً بحثاً ومساحة خاصة للكاتب لا يمكن التغافل عنه او عدّه شيئاً هيناً، وبشكل عام فهي تشير الى الشكر والامتنان والعرفان لأشخاص او جهات قدمت تسهيلات للمؤلف، او قد يكون بدافع مادي كأن يهدي احدهم كتابه الى احد من الخاصة سواء أكان خليفة او وزير او قاضي... الخ.

قسّم البحث الى مقدمة، ومتن يتكون من مبحثين، ونتائج، وقائمة لأهم المصادر والمراجع التي ذُيّل فيها البحث، اما المبحثين فالاول عنون ب: (المؤلفات الطبية دراسة في التكليف بالتأليف)، وتناولنا فيه امثلة من الكتب الطبية التي الفت بتكليف من الخاصة او من طلاب العلم، وسمينا فيه عدد من الاطباء التي شملتهم هذه الظاهرة في الدولة العربية الاسلامية، اما المبحث الثاني، فقد وسمناه بعنوان: (المؤلفات الطبية، دراسة في الاهداء)، واشرنا فيه الى نماذج من المؤلفات الطبية التي اهديت من قبل مؤلفيها الى بعض الخواص والذوات، واصحاب السلطة والنفوذ،

اعتمدنا على مجموعة من المصادر المهمة التي افادت البحث، ولعل اهمها هي كتب الطب، التي ثبت فيها مؤلفيها معلومات بمقدمات كتيمهم، عن سبب تأليف الكتاب، وغالباً ما يكتبون في المقدمة ان الكتاب الف بتكليف، او انه تم تأليفه ليهدي، وهكذا افدنا من هذه الكتب، كما ان المؤلف الذي لم يكتب ذلك، وجدنا مقدمات المحققين لتلك الكتب الطبية، قد ذكروا هذا، وبالتالي فان مقدمات المؤلفين وتقدمات المحققين رفدتنا بمعلومات مهمة بهذا الخصوص، ومن هذه المصادر: كتاب القانون في الطب، لابن سينا (ت:428ه/1036)، وكتاب اخبار العلماء باخبار الحكماء للقفطي (ت:646ه/1248م)، وكتاب عيون الانبياء في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة (ت:668ه/1269م)، وغيرها من المصادر الاخرى.

1- التمهيد

لقد حظي علم الطب ومنذ القدم باهتمام وعناية العرب بشكل كبير، ولا سيما العلماء والاطباء المختصين منهم، والذين ساهموا بشكل او بأخر في ازدهار حركة التأليف، وما كان لظاهرتا التكليف بالتأليف،

والاهداء الى ان تدفع بهذه العجلة الى الامام اذ ساهم التكليف بالتأليف من الخاصة والعامه في نشأت اغلب هذه المؤلفات والمصنفات الطبية نتيجة لحاجات ومتطلبات حياتية ملحة استدعت قيام مثل هذه المصنفات.

1-1-1-التعريف بمصطلحات البحث.

1-1-1-التكليف لغة : كلف الأمر وكلف به إذا تكلفه، وكلف بالمرأة كلفاً شديداً. وليس عليه كلفة في هذا أي مشقة⁽¹⁾، كلف هذا الأمر وتكلفته، بمعنى ان كل مكلف من قبل جهة معينة عليه القيام بما كلف به. والكلفة: "ما تكلفت من أمر في نائبه أو حق، والجميع: الكلف"⁽²⁾.

1-1-2-اصطلاحاً: حدده بعض أهل العلم بأنه إرادة المكلّف من المكلّف فعل ما يشق عليه⁽³⁾، بمعنى إلزام الكلفة على المخاطب⁽⁴⁾، ومن اقتران القدرة بالمقدور، فلا ينبغي على المكلّف تكليف من هو دون ذلك، على معنى أنه لا يكلف إلا قادر متمكن من تحقيق التكليف، وإن أطلقنا أنه لا يكلف إلا متمكن فإننا لا نريد به انه لا يكلف في الواقع الا من لا يتحقق عجزه عن إيقاع المطلوب⁽⁵⁾.

1-1-3-التأليف: هو جمع الأشياء المتناسبة؛ من الألفة وهو حقيقة في الاجسام ومجاز في الحروف⁽⁶⁾ وهو جعل الأشياء الكثيرة بحيث لا يطلق عليها اسم الواحد سواء أكان لبعض أجزائه نسبة الى البعض بالتقدم والتأخر أم لا، فعلى هذا يكون التأليف أهم من الترتيب⁽⁷⁾.

1-1-4-الهدى: بالتشديد: كالهدى بالتخفيف، وهو ما يهدي إلى البيت الحرام من النعم لتنجر⁽⁸⁾ واحده هدية، وأنشد: "حلفت برب مكة والمصلّى وأعناق الهدى مقلدات وهو من الإهداء"⁽⁹⁾ ويقال: أهديت له وإليه والمهدى بكسر الميم، ما يهدى فيه، مثل الطبّق ونحوه قال ابن الأعرابي: ولا يسعى الطبّق مهدي إلا وفيه ما يهدى والمهداء بالمد: الذي من عادته أن يهدى والتهادي: أن يهدي بعضهم إلى بعض⁽¹⁰⁾، كما جاء في

(1) الزمخشري، اساس البلاغة، 14/2.

(2) الفراهيدي، كتاب العين، 5/372.

(3) الزركشي، البحر المحيط في اصول الفقه، 2/50.

(4) ابو منصور الماتريدي، تفسير الماتريدي، 1/67.

(5) اللببائي، التحقيق والبيان في شرح البرهان في اصول الفقه، 1/351.

(6) ابو البقاء الكفوي، الكليات، 288.

(7) الجرجاني، التعريفات، 50.

(8) ابن منظور، لسان العرب، 15/359.

(9) ابن سيده، المخصص، 4/60.

(10) ابو نصر الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصرح العربية، 6/2534.

الحديث الشريف للرسول الاعظم محمد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، قال: (تهادوا تحابوا)⁽¹⁾، وفي الهدية معنى آخر، وهو أن الباعث عليها أحد أمرين، إما المحبة، وإما لغرض يتوصل إليه من المهدي إليه، ودليل الاول قول رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ): "تَهَادُوا فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُضَعِّفُ الْحُبَّ" فإن إضعاف الحب يدل على وجوده بين المهتادين، ودليل الثاني قوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، "نِعْمَ السَّيِّئُ الْهَدِيَّةُ أَمَامَ الْحَاجَةِ"، ثم تلك الحاجة وذلك الغرض المطلوب من المهدي إليه؛ إما أن يكون ممدوحاً شرعاً، أو مذموماً⁽²⁾.

2- المؤلفات الطبية، دراسة في التكليف بالتأليف.

2-1- التكليف بالتأليف في علم الطب:

الطب: علاج الجسم والنفس. رجل طب وطبيب: عالم بالطب؛ تقول: ماكنت طبيباً، ولقد طببت بالكسر والمتطبب: الذي يتعاطى علم الطب. والطب، لغتان في الطب. وَقَدْ طَبَّ يَطْبُ وَيَطَّبُ، وَطَبَّ وَقَالُوا تَطْبُ لَهُ: سَأَلَ لَهُ الْأَطْبَاءُ وَجَمْعُ الْقَلِيلِ: أَطْبَةُ، وَالْكَثِيرِ: أَطْبَاءُ؛ الطَّبِيبُ فِي الْأَصْلِ: الْحَاذِقُ بِالْأُمُورِ، الْعَارِفُ بِهَا، وَبِهِ سَمِيَ الطَّبِيبُ الَّذِي يُعَالِجُ الْمَرَضَى⁽³⁾.

لقد حظي علم الطب ومنذ القدم باهتمام وعناية العرب بشكل كبير، ولا سيما العلماء والاطباء المختصين منهم، والذين ساهموا بشكل او بآخر في ازدهار حركة التأليف والتصنيف، وما كان لظاهرة التكليف الى ان تدفع بهذه الحركة الى الامام اذ ساهم ابن سينا في تطور الحركة الفكرية بإنتاجاته العلمية الغزيرة في مختلف فنون وصنوف المعرفة، ومما لا شك فيه ان أبو علي الحسين بن عبد الله ابن سينا العالم الطبيب، والذي اشتهر بمؤلفاته القيمة في الطب والفلسفة، ومن أبرز كتبه في الطب مصنف ابن سينا في الطب وقوانينه الكلية والجزئية بالتماس من اخوانه كما جاء في خطبة كتابه، قال: "وَبَعْدَ فَقْدِ التَّمَسِّ مِنِّي بَعْضَ خَلَصِ إِخْوَانِي، وَمَنْ يَلْزَمُنِي إِسْعَافَهُ بِمَا يَسْمَحُ بِهِ وَسَعِي أَنْ أَصْنَفَ فِي الطَّبِّ كِتَابًا مُشْتَمَلًا عَلَى قَوَانِينِهِ الْكُلِّيَّةِ وَالْجَزْئِيَّةِ اشْتِمَالًا يَجْمَعُ إِلَى الشَّرْحِ وَالِاخْتِصَارِ وَإِلَى إِيفَاءِ الْأَكْثَرِ حَقَّهُ مِنَ الْبَيَانِ الْإِيجَازِ فَاسْعَفْتَهُ بِذَلِكَ"⁽⁴⁾.

ان ما انتجه ابن سينا في تطور الحركة الفكرية بإنتاجاته العلمية الغزيرة في مختلف فنون وصنوف المعرفة بصورة عامة، وفي الطب بصورة خاصة، انماز به ما لهذا العلم من منافع واسرار، كشف عنها ابن سينا في الكثير من مصنفااته، التي نتج عنها النفع الكبير للامة، ومن كتبه مصنفه الذي جعله على سبع مقالات،

(1) السيوطي، الجامع الكبير، 4/455.

(2) نجم الدين الغزي، حسن التنبيه لما ورد في التشبيه، 3/181.

(3) ابن منظور، لسان العرب، 1/544.

(4) القانون في الطب، 1/9.

وصنّفه بالتماس من الوزير أحمد بن محمد السهيلي⁽¹⁾، كما جاء في مقدمة كتابه، قال: "فإن الشيخ أبا الحسن أحمد بن محمد السهيلي من عرف بعلو الهمة، وشرف الأمانة، ومحبة العلوم الحقيقية، والأخذ منها بالحظ الأوفر وأنباط المدونين فيها، وتحصيلهم عنده، من حيث كانوا واحداً بعد واحد لما اصنعني بنظمي في عقد جملته، وضممني إلى زمرته، أمرني لم فيما أمر من الأوامر الحكيمة، أن أعمل كتاباً في دفع المضار الكلية للأبدان الإنسانية"⁽²⁾.

ومن الكتب القيمة والكبيرة من تراثنا التي يبرز عبرها مدى تفوق العرب وتطورهم الطبي والمعرفي، فالطب العربي من أشهر أنواع العلوم الطبية المعروفة عالمياً، إذ اعتمد الأطباء العرب على البحث، والاكتشاف، والتجربة، ومتابعة الحالة المرضية للمرضى، كما تميز الأطباء العرب برحلاتهم العلمية، فكان السفر والترحال من بلدانهم إلى دول العالم الأخرى، حليف العرب في التعرف على العالم، ليضع العرب بذلك أبرز وأضخم الانتاجات الطبية، كتاب (تقدمة المعرفة)، من الكتب اليونانية لأبقراط⁽³⁾ الذي نقله العرب ضمن ما نقل من المؤلفات الطبية وترجموه إلى العربية، وجعلوه أحد المقررات الدراسية التي لا بد أن يدرسها كل من أراد الاشتغال بالطب والتداوي، وكلمة (تقدمة المعرفة)، تعني التنبؤ بما سيكون عليه المرض في المستقبل كما يشار إليه باصطلاح آخر يعني الإنذار المرضي، إذ كان الأطباء يعتمدون في هذا الإنذار على العرافة⁽⁴⁾ والكهانة⁽⁵⁾ والتنجيم حتى جاء أبقراط، حتى جاء أبقراط واعتمدوا على الملاحظة الإكلينيكية، فكتاب (تقدمة المعرفة)، عبارة من مجموعة من الفقرات الطبية الموجزة، الأمر الذي دفع الأطباء في مختلف العصور على تقديم الشروح المختلفة لتوضيح معانيه وشرح عبارته، ومن أهم هذه الشروح العربية،

(1) السهيلي: أبو الحسن أحمد بن محمد السهيلي الخوارزمي الأديب نزيل بغداد صنف الروضة السهيلية في الأوصاف والتشبهات، (ت: ١٨٤١ هـ/ 1027 م). البيهقي، هدية العارفين، 72/1.

(2) دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية، 11.

(3) أبقراط: أبقراط بن أيراقليدس بن أبقراط بن غنوسيديقوس بن نبروس بن سوسطراطس بن ثاودروس بن قلاوموطاداس بن قريساميس الملك الفاضل نسباً لأنه التاسع من قرياسميس الملك والثامن عشر من أسقليبيوس والعشرون من زاوس، كان ملوك اليونانيين والعظماء منهم ولم يكونوا يمكنوا غيرهم من تعليم صناعة الطب بل كانت الصناعة فيهم خاصة يعلم الرجل منهم ولده أو ولد ولده فقط، كان تعليمهم بالمخاطبة ولم يكونوا يدونونها في الكتب، وما احتاجوا إلى تدوينه في الكتب دونوه بلغز حتى لا يفهمه أحد سواهم. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأباء، 43-44.

(4) العرافة: العرافة حق والعرفاء في النار أراد بالعراف المنجم أو الحازي الذي يدعي علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه، وأن العراف يخبر عن الأمور الماضية والكاهن يخبر بالأمور المستقبلية. وذلك أن العرافة معرفة الآثار والاستدلال منها على مؤثرها، ابن مسكويه، الهوامل والشوامل، 379-380؛ ابن منظور، لسان العرب، 9/238.

(5) الكهانة: هي قوة في النفس تطالع الأمور الكائنة بتخلّيها عن الحواس، تكهن تكهنًا: قضى له بالغيب، فهو كاهن. ابن مسكويه، الهوامل والشوامل، 379-380؛ الفيروزآبادي، القاموس المحيط، 1228.

شرح الطبيب العربي المسلم موفق الدين عبد اللطيف البغدادي⁽¹⁾ الذي الفه بتكليف من استحق الاجابة عنده، لم ينشر هذا الكتاب بعد، اما مرتبته فتأتي بعد كتاب الفصول، لان معرفته مقصورة على تعرف على توابع الامراض الحادة ولوازمها ويجب ان يقرأ بعد التعرف على هذه الامراض، لأنه يتضمن علاجها، واما عنوانه فتقدمة المعرفة، ثم يتطرق البغدادي الى ان ابقرط ابتداء من هذا التعليم الى اخر الكتاب في وصايا نافعة للطبيب، تفيده في التحذق والاستقصاء، وان لا يهمل ولو كان بالشيء اليسير، وان ينظر الى معرفة الأمر من كل جوانبه وجهاته للتوصل والمعرفة، ابتداء البغدادي بمقدمة شرحه، انه الفه بتكليف، اذ صرح قائلاً: "وبعد فراغي من (شرح) كتاب بقراط المعنون بكتاب الفصول، رغب الي من بعض من يجب حقه علي.. ان انهج ذلك المنهج في كتاب تقدمه المعرفة... فأجبت سؤاله وارتسمت ما قاله رجاء الاجر وحسن الذكر"⁽²⁾. والى بالتكليف بالطب للعامه، فقد شمل التكليف بالتأليف الخاصة ايضاً، اذ الف الطبيب المشهور ابي الفصائل اسماعيل بن الحسين الحسيني الجرجاني⁽³⁾ كتابه (الأغراض الطبية والمباحث العلاجية)، وهو كبير، في مجلدين، مرتب على ست وعشرين مقالة في كل منها ابواب كثيره اوله: (اما بعد حمدا لله سبحانه الخ)، ذكر فيه انه لما اهدى الى نصره الدين اتسز بن خوارزم شاه (522 هـ / 1128 م)، مختصراً في الطب سألته وزيره مجد الدين ابو محمد صاحب ابن محمد البخاري ايضاحه وبسطه؟ فأجاب بتأليف الاغراض ملخصاً من تأليفه (الذخيرة الخوارزمشاهية)⁽⁴⁾.

ترك لنا الأطباء العرب النابغون منهم، مؤلفات ومصنفات في الطب وفي مختلف الاختصاصات منه تعد من المراجع والمصادر العلمية المهمة التي تقدم معلومات وشروحات وافية حول مختلف انواع

⁽¹⁾ موفق الدين: الشيخ الامام الفاضل موفق الدين ابو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي بن ابي سعد ويعرف بابن اللباد موصلبي الأصل بغدادي المولد مشهوراً بالعلوم متحلياً بالفضائل مليح العبارة كثير التصنيف متميزاً في النحو واللغة العربية عارفاً بعلم الكلام والطب وله مائة تصنيف وثلاثون تصنيفاً أكثرها في النحو وبعضها في الفقه والأصولين وفي التصوف والزهد والفقه سافر إلى حلب وقصد بلاد الروم، وأقام بها سنين كثيرة وكان في خدمة الملك علاء الدين داؤد بن بهران صاحب أرزنجان، صنف له العديد من الكتب، كان متطرفاً ولكنه أمعن في كتب الكيمياء والطلاسمات وما يجري مجراها وأتى على كتب جابر بأسرها وعلى كتب ابن وحشية، (ت: 446هـ/ 1054 م). ابن ابي اصيبعة، عيون الانبياء في طبقات الاطباء، 683-690؛ حاجي خليفة، سلم الوصول الى طبقات الفحول، 98/4.

⁽²⁾ يوسف زيدان، التراث المجهول، 160-162.

⁽³⁾ أبو إبراهيم إسماعيل بن الحسن بن محمد بن أحمد الجرجاني الطبيب العلوي الحسيني من أهل جرجان، سكن خوارزم وأقام بها، ثم آخر عمره انتقل عنها إلى مرو، وتوفي بها، وكان أوحده زمانه في الطب، والتصانيف الحسان باللسانين العربية والعجمية وكان حسن الأخلاق، رقيقاً مكرماً، طلق المحيا، شقيقاً على الناس كافة، (ت: 1136 م). السمعي، المنتخب من معجم شيوخ السمعي، 386-387/531هـ.

⁽⁴⁾ حاجي خليفة، كشف الظنون، 199/1.

الامراض والعلاجات، كما ان هنالك اسر بجملتها ابدعت و برزت في الطب فأنجبت من الاطباء الذين عملوا جاهدين في انتاج مؤرخات حاربوا بها كل ما يعارض العلم من اقوال المنجمين والاباطيل والخرفات، بأسلوب علمي دقيق، واضح العرض، يشعر القارى وكأنه في درس علمي حي يستعمل العقل ويقوم على التجربة، ولا سيم ممن سبقهم من العلماء القدامى، ومن هؤلاء الذين تخصصوا في الطب وقدموا به كتاباً خاصاً ابن زهر الاندلسي⁽¹⁾ الذي صنف في الطب كتاباً ذكر فيه الكثير من الامراض وعرض فيه طرق المعالجة لها والادوية اللازمة لذلك ، والادوية التي وصفها الكتاب في غالبها أدوية طبيعية مأخوذة من الأغذية التي اعتاد الناس على تناولها واستعمالها لمختلف الامراض والالام ، صنفه بأمر من العزيز⁽²⁾ في تصنيف علاجات للأسباب الممرضات كما جاء في مقدمة المصنف: "وبعد فإني ملب بامتثال الأمر العزيز في تصنيف علاجات للأسباب الممرضات، خفيفة المئونة تصلح لعباد الله الأبرار، سهلا في غاية الإيجاز والاختصار، لا على ما كان ينفق عند المترفين الذين انفقوا طبيبتهم في حياتهم"⁽³⁾.

وشمل التكليف بالتصنيف هو الآخر حيزاً في علم الطب، فقد صنف عبد الملك بن زهر الاندلسي كتاباً في الأغذية، يحتوي على معلومات وافرة وغنية عن الأعشاب والنباتات الطبية واللحوم والأسماك والحليب والحماية من العين والحماية من السحر وعلاج لبعض الأمراض المعروفة قديماً وحديثاً، كما أن الكتاب يمتاز بأنه يرد كل فائدة وعلاج إلى آيات من القرآن الكريم والحديث الشريف، صنفه بتكليف من الخليفة عبد المؤمن بن علي⁽⁴⁾، اذ ذكر في مقدمة كتابه، قال: "بدأت ممتثلاً وكتبت مطيعاً وان كنت عارياً

(1) ابن زهر: ابو بكر محمد بن ابي مروان عبد الملك بن ابي العلاء زهر بن ابي مروان عبد الملك بن ابي بكر محمد بن مروان بن زهر الإيادي الأندلسي الأشبيلي، طبيب الاندلس، وصاحب التصانيف، كان من اهل بيت كلهم علماء رؤساء حكما وزراء، نالوا المراتب العلية وتقدموا عند الملوك ونفذت اوامرهم، اشتهر بالتقدم في علم الطب حتى فاق اهل زمانه، ومات بمدينة دانية. ابن خلكان، وفيات الاعيان، 4/434-437؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 6/124.

(2) العزيز: ابو منصور نزار بن المعز بالله معد بن المنصور إسماعيل بن القائم محمد بن المهدي العبيدي الباطني، صاحب مصر والشام والمغرب، ولي الأمر بعد ابيه، وكان شجاعاً جواداً حليماً قريباً من الناس، لا يحب سفك الدماء، له ادب وشعر، وكان مغرمًا بالصيد، قيل انه الذي اختط اساس الجامع بالقاهرة مما يلي باب الفتوح، وفي ايامه بني قصر البحر بالقاهرة إنه لم يبين مثله شرقاً ولا غرباً، وقصر الذهب، وجامع القرافة (ت: 386 هـ / 996م). الطبيب بامخرم، قلادة النحر في وفيات اعيان الدهر، 3/266.

(3) التيسير في المداوة والتدبير، 13.

(4) عبد المؤمن بن علي: عبد المؤمن بن علي بن علوي الكومي القيسي المغربي، استدعى ابن تومرت قبل موته الرجال المسمين وخطب بهم وقال: وأشار الى عبد المؤمن وقال فاسمعوا له واطيعوا ما اطاع ربه، فان بدل ففي الموحدنين بركة وخير والامر امر الله يقلده من يشاء، فبايع القوم عبد المؤمن، ودعا لهم ابن تومرت ، فأول ما اخذ من البلاد وهران ، ثم تلمسان ثم فاس، ثم سلا، ثم سبتة، ثم حاصر مراكش احد عشر شهراً، فأخذها، في سنة 542 ، وامتد ملكه وافتتح كثيراً من الاندلس وعدى لبحر وامتد ملكه وافتتح كثيراً من الاندلس ودخل الاندلس فاخذ الجزيرة الخضراء ثم

من كتبي ل144 كنت لما علم من طول محنتي. وارجو ان يكون كلامي اول قول رفع في علم الطب الى الدولة الظاهرة العلية وجمع للطائفة الكريمة فأرجو بذلك شرفاً يخلد وذكراً في طاعة الله يحمد والله أسأل التوفيق بقدرته"⁽¹⁾.

استمرت عملية التكليف بالتأليف ففي القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، اشار ابن البيطار⁽²⁾ في كتابه الى ان كتاب (ميزان الطبيب)، هو كتاب في المداوة والعلاج اساسا، وضعه المؤلف بطلب من الأمير شهاب الدين أحمد بن عيسى⁽³⁾، وقسمه إلى ثمانين بابا مرتبة بحسب الأعضاء الألية⁽⁴⁾ ونستنتج مما مضى بأن التكليف بالتأليف والتصنيف في علم الطب قد اخذ حيزا كبيرا وصدى واسع كان التكليف به قد شمل الخاصة والعامة كما مر بنا على سبيل الأمثلة لا الحصر وهذا دليل على حاجة المختص لهذا النوع من العلم لارتباطه بصحتهم وسلامتهم.

3- المؤلفات الطبية، دراسة في الاهداء.

يعد علم الطب من اقدم وابرز العلوم في آن واحد، ذلك لما يقدمه هذا العلم من منفعة ملموسة تفوق كافة المنافع الاخرى، كيف لا وهو ما يتعرف به على بدن الانسان من جهة وما يحفظ به صحة ووقاية للابدان من جهة اخرى، اضافة الى ما يعود به على صاحبه من المكانة العالية والمنزلة الرفيعة في اعين الناس والمجتمع بصورة عامة، لما يقدمه من الخدمات الانسانية والعلاجات بشقيها الدوائية العلاجية والجراحية، ولقد ساهم اكتشافه من القدم الى مروره بمختلف العصور والقرون التي ساهمت بنشوئه وتطوره، ليصبح بما هو عليه الآن من الدرجة العالية، ومما لا شك فيه ان علم الطب قد اسهم في الحركة الفكرية بشكل او

رندة ثم اشبيلية وقرطبة ثم سار عبد المؤمن بجيوشه وعدى البحر من زقاق سبتة، فنزل جبل طارق، وسماه جبل الفتح، فاقام اشهرًا، وبني هناك قصورًا ومدينةً، ولمَّا دخلت سنة ثمان وخمسين، أمر الجيش بالجهاد لجهاد الروم، وأستنفر الناس عامًا، ثم سار حتى نزل بسلا، فمريض، وجاءه الاجل بها سنة (ت: 558 هـ / 1162 م). الذهبي، سير اعلام النبلاء، 20/366-375.

(1) النشاط والقوة والشفاء في الاغذية، 7.

(2) ابن البيطار: العلامة ضياء الدين عبد الله بن احمد المالقي، النباتي، الطبيب، ابن البيطار، مصنف كتاب الادوية المفردة، وما صنف في معناه مثله، انتهت اليه معرفة الحشائش، وسافر الى اقاصي بلاد الروم، وحر النبات، وكان احد الاذكيا، وخدم الملك الكامل، وابنه الملك الصالح، (ت: 646 هـ / 1236 م). الذهبي، سير اعلام النبلاء، 23/257.

(3) احمد بن عيسى: الأمير شهاب الدين الكامل، وكان من كبار الدولة وفي جمادى الأولى بالقاهرة (ت 634 هـ / 1236 م). الذهبي، تاريخ الاسلام، 14/129.

(4) ابن البيطار، تفسير كتاب دياسقوريدوس، 39.

باخر لما قدمة من النتاجات الفكرية من مؤلفات ومصنفات خاصة اذ صنف العلامة ثابت بن قرّة⁽¹⁾ كتابا في الطب العربي والتداوي بالأعشاب والنباتات الطبية، عرض في مصنفه مختلف الامراض التي قد تصيب الانسان، مشيراً الى علاجها بالعقاقير والاعشاب والنباتات الطبية، وهو ما يعرف بالطب القديم، الذي لم يعرف اطبائه الميكروبات والفيروسات، وعلى الرغم من التطور الكبير الحاصل في علم الطب الحديث الا ان هنالك الكثير من الامراض التي يجهلها، ولا يعرف عنها شيئاً، كمرض السرطان وأنواعه، والجذام وصنوفه، وكذلك مرض الايدز الذي اثار ضجة كبيرة وانتشاراً في الولايات، وغيرها من الامراض التي استعصى على الاطباء علاجها، وقد شمل كتابه كل ما يحتاج اليه من علم الطب، في وصف الداء والدواء على أوجز ما يتيحاً أن يكون منه، جمعه في أيام حياته لابنه سنان بن ثابت بن قرّة⁽²⁾ وجعله على أحد وثلاثين باباً متنوعة في مختلف الامراض وعلاجها⁽³⁾.

ويعد علم الطب من اوسع مجالات العلوم الحياتية التي كان للمسلمين فيها اسهامات بارزة، وكانت تلك الإسهامات لا تقتصر على تخصص معين في علم الطب دون الآخر، كما أنه في أحيان أخرى صنف أصحابها كتب جامعة، فقد صنف علي بن عباس الاهوازي⁽⁴⁾ كتاباً في الطب، عرف بالكتاب الملكي ضم 25

(1) ابن قرّة: ثابت ابن قرّة الحراني الحكيم، ان في ابتداء أمره صيرفيا، ثم انتقل إلى بغداد وله نحو عشرين مؤلفاً في فنون من العلم، وهذب كتاب اقليدس الذي عربه حنين بن إسحاق العبادي، ونقحه، وأوضح منه ما كان مستعجماً واشتغل بعلوم الأوائل، فمهر فيها، وبرع في الطب، وكان الغالب عليه الفلسفة، وكان من أعيان عصره في الفضائل، جرى بينه وبين أهل مذهبه أشياء أنكروها عليه في المذهب، فرفعوه إلى رئيسهم، فأنكر عليه مقالته، فتاب ورجع عن ذلك، كان فكاكاً للمعاني، وله تصنيف في التاريخ أحسن فيه، وكان ببغداد في أيام معز الدولة بن بويه، (ت: 288 هـ/900م). الطيب بامخرمة، قلادة النحر في وفيات اعيان الدهر، 637/6-638.

(2) ابن ثابت: سنان بن ثابت بن قرّة الحراني أبو سعيد كان طبيباً مقدماً كآبيه وكان طبيباً المقندر خصيصاً به سنة 319 هـ اتصل بالمقندر أن رجلاً من الأطباء غلط على رجل فمات فأمر بمنع جميع الأطباء إلا من امتحنه سنان وكتب له رقعة بما يطلق له التصرف فيه من الصناعة وأمر سناناً بامتحانهم ثمّ خدم القاهر وإليه يرجع وعلى وصفه يعتمد، اذ اطمن له ووثق به ولكثرة اغتباط القاهر به أرادته على الإسلام فامتنع امتناعاً كثيراً فتهدهد القاهر فخافه لشدة سطوته فأسلم وأقام مدة ثم رأى من القاهر أنه إذا أمره أمراً أخافه فانهزم إلى خراسان (ت: 331 هـ / 942م). القفطي، اخبار العلماء، باخبار الحكماء،

(3) الذخيرة في الطب، 4-11.

(4) الاهوازي: علي بن العباس، طبيب فاضل كامل فارسي الأصل يعرف بابن المجوس، من الأهواز وكان طبيباً مجيداً متميزاً في صناعة الطب، وهو الذي صنف الكتاب المشهور الذي يعرف بالملكي صنفه لعضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة أبي علي حسن بن بويه الديلمي وهو كتاب جليل مشتمل على اجزاء الصناعة الطبية علمها وعملها على أبي ماهر موسى

بأباً، في عشرين مقالة جعله جامعاً لكل ما يحتاج إليه المتطببون وغيرهم، من حفظ الصحة على الأصحاء وردها على المرضى، ذلك انه قد ذكر انه على الرغم من تعدد المؤلفات في كل نوع من انواع هذا العلم، فأنا لم نجد مؤلفاً جامعاً يسد حاجة الناس الى مثل هكذا كتاب جامع لكل ما يخص هذه العلم، فألفه واهداه لعضد الدولة⁽¹⁾، كما ذكر في مقدمته، قال: "اما بعد فقد اسعد الله الملك...عضد الدولة أطل الله بقائه وكبت اعداءه وادام دولته...الطب افضل العلوم واعظمها قدرا واجلها خطرا واكثرها منفعة لحاجة جميع الناس اليها أحببت ان اصنف لخزائنه كتاباً كاملاً في صناعة الطب جامعاً لكل ما يحتاج اليه المتطببون وغيرهم من حفظ الصحة على الاصحاء وردها على المرضى"⁽²⁾.

وكان للطبيب محمد بن أحمد التميمي⁽³⁾ دور في التصنيف بهذا الباب من الفن، فقد صنف كتاباً أسماه: (مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء)، ويُسمى أيضاً مادة البقاء للتميمي وهو من أمهات الكتب التراثية العربية حول البيئة وتلوّثها، صنّفه للوزير الذي صحبه يعقوب بن كلس⁽⁴⁾ وزير

بن سيار وتلمذ له. القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، 178/1؛ ابن ابي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 319-320.

(1) عضد الدولة: أبو شجاع فناخسرو، الملقب عضد الدولة بن ركن الدولة أبي علي الحسن ابن بويه الديلمي تسلم مملكة فارس بعد عمه معز الدولة، تلقب بعدة القاب منها تاج الملة ولما صنف له أبو إسحاق الصابي كتاب التاجي في أخبار بني بويه أضافه إلى هذا اللقب لم يبلغ أحد في أقاربه ما بلغه عضد الدولة من سعة الملك، والاستيلاء على الملوك وممالكهم، وهو أول من خوطب بالملك في الإسلام، وأول من خُطب له على المنابر ببغداد بعد الخليفة، وكان فاضلاً، محباً للفضلاء، مشاركاً في عدة فنون، قصده فحول الشعراء في عصره، ومدحوه بأحسن المدائح، فمنهم أبو الطيب المتنبي، (ت: 372 هـ/ 982م). ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 4/50-54؛ مجير الدين العلي، التاريخ المعترف في أنباء من غير، 111/3.

(2) كامل الصناعة الطبية، 2.

(3) التميمي: ابو عبد الله محمد بن سعيد التميمي، كان مقامه اولاً بالقدس ونواحيها وله معرفة جيدة بالنبات وماهياته، متميزاً أيضاً في أعمال صناعة الطب والاطلاع على دقائقها وله خبرة فاضلة في تركيب المعاجين والأدوية المفردة واستقصى معرفة أدوية الترياق الكبير الفاروق وتركيبه، وله في الترياق عدة تصانيف ما بين كبير ومتوسط وصغير، صحب الوزير يعقوب بن كلس وزير المعز والعزیز وصنف له كتاباً كبيراً في عدة مجلدات سماه مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء وكل ذلك بالقاهرة المعزية، وللتميمي من الكتب رسالة إلى ابنه علي بن محمد في صناعة الترياق الفاروق. ابن ابي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 546-548.

(4) يعقوب بن كلس: أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داود بن كلس، ولد ببغداد ونشأ بها وتعلم الكتابة والحساب وسافر به أبوه بعد ذلك إلى الشام وأنفذه إلى مصر، كان يعقوب أولاً يهودياً يزعم

المعز (341-365هـ/ 951-975م)، والعزیز (365-386هـ/ 975-996م)⁽¹⁾، الفاطميين وهو كبير يقع في عدة مجلدات كان ذلك في القاهرة المعزية⁽²⁾. وأهدى الطبيب أبو سهل المسيحي⁽³⁾ للملك العادل خوارزمشاه أبي العباس⁽⁴⁾ كتاباً بالوباء⁽⁵⁾.

اتسم القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، بظهور علماء عرب مسلمون في علم الطب والحكمة، قاموا بوضع اللبنة الأساسية، لتوسيع هذا العلم وتطوره، فالف الطبيب ابو علي يحيى بن عيسى المعروف بابن جزلة⁽⁶⁾ كتاباً في الطب يعد احد اهم كتب التراث الطبية، قدم فيه علاجات للعديد من الأمراض، في صيغة جداول كما اقدم على تحديد العلاجات اللازمة لكل مرض، بطريقة منتظمة في متابعة اعضاء جسم الإنسان وامراضها، اذ وضعه كوضع التقويم، وجعل الامراض بيوتاً، ولكل مرض منها اثنا عشر

أنه من ولد هارون بن عمران أخي موسى بن عمران عليهما السلام، كما زعم أنه من ولد السمؤال بن عادي اليهودي صاحب الحصن المعروف بالأبلق، ثمَّ إنَّه أسلم يَوْمَ الإثنين لثمانٍ عشرة ليلة حلت من شعبان سنة ست وخمسين وثلاثمائة ولزم الصلاة ودراسة القرآن ورتب لنفسه شيخاً عارفاً بالقرآن والنحو حافظاً السيرافي وكان يبيت عنده ويصلي به، (ت: 380 هـ/ 990م). ابن خلكان، وفيات الاعيان، 7/ 27-32؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 28/ 87.

(1) شهاب الدين النويري، نهاية الارب في فنون الادب، 28/ 120-163.

(2) القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، 86.

(3) ابو سهل المسيحي: أبو سهل عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني هذا طبيب منطقي فاضل عالم بعلوم الأوائل المذكور في بلده كان بخراسان متقدماً عند سلطانها بارع في صناعة الطب علمها وعملها فصيح العبارة جيد التصنيف، وكان حسن الخط متقناً للعربية، ولأبي سهل المسيحي ومن كتبه كتاب المائة في الطب وهو من أجود كتبه وأشهرها، كتاب تعبير الرقيا، كتاب في الوباء ألفه للملك العادل خوارزمشاه مات وله من العمر أربعون سنة. القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، 300؛ ابن ابي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 436.

(4) خوارزمشاه: ابو العباس مأمون بن مأمون، ملك خوارزم والجرجانية، خطب الى يمين الدولة، فزوجه اخته ثم ان يمين الدولة أرسل اليه يطلب أن يخطب له على منابر بلاده، فأجابه الى ذلك، وأحضر أمراء دولته واستشارهم في ذلك، فأظهرو الامتناع ونهوه عنه، وتهددوه بالقتل إن فعله فعاد الرسول وحكى ليمين الدولة ماشاهدوه، ثم إن الامراء خافوه حيث ردوا أمره فقتلوه غيلة، ولم يعلم قاتله، وأجلسوا مكانه احد اولاده، وعلموا ان يمين الدولة يسوءه ذلك، وربما طالبهم بثاره، فتعاهدوا على ومارعته، (ت: 407 هـ/ 1016م). ابن الاثير، الكامل في التاريخ، 7/ 611.

(5) ابن ابي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 437.

(6) ابن جزلة: ابو علي يحيى بن عيسى بن جزلة البغدادي، كان نصرانياً فاسلم في كهولته على يد قاضي القضاة الدامغاني، لازم ابو علي بن الوليد في المنطق وله منهاج البيان في الطب في الادوية المفردة والمركبة، وكتاب تقويم الابدان، كان يطبب الناس بلا اجر، وربما ركب لهم الادوية من مله تبرعاً، وقد اوصى بكتبه ان تكون وقفا بمشهد ابو حنيفة (ت: 493 هـ/ 1099م). الذهبي، سير اعلام النبلاء، 14/ 193؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 12/ 159.

بيتاً، البيت الاول في اسم المرض، والثاني في سبب ذلك المرض، والثالث في علامته وتابع في تقسيم باقي الابواب، وقدمه الى الخليفة المقتدي بأمر الله (٤٦٧-٤٨٧هـ/1074-1094م)⁽¹⁾، كما ذكر في مقدمة، كتابه قال: "ولما تحقق سيدنا ومولانا الامام العادل المقتدي بأمر الله امير المؤمنين القائم مقام رسول الله في المسلمين... اطال الله في العز الدائم بقاه وادام في النصر والظفر ايامه... احب العبد الخادم ان يخدم بها خزائن الحكمة المقتديه اعلى الله شائها... من علم الطب يستغني به عن الكثير من اطالة الاطباء وعن كتبهم المدونة فيه... قسم بعد ذلك لكل مرض بيوتاً اثنا عشر"⁽²⁾.

ويبدو ان لابن جزالة باع طويل في هذا الفن من العلوم، اذ انه الف كتاباً اخرأ في الطب ايضاً، نفهم من خلاله حال الطب خلال فترة القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، تلك الفترة التي تميزت بازدهار العلم، وتطوره، فمن خلال تصفحي لهذا الكتاب، الذي قدم صورة جلية عن حال الطب (الصيدلة)، تحديداً، وافرادها بالتأليف، والكتاب يعد من الكتب الاولى التي خصصت بالأدوية تحديداً، وطرق صناعتها باعتماده التجربة والابتكار، والاستعانة في الكيمياء في تكوين وتركيب ادوية جديدة، لم تكن معروفة من قبل، هذا الامر يحسب لابن جزالة، ذلك ان في افراده كتاب خاص بالأدوية فصل علم الطب عن الصيدلة وخصها بالتأليف، بصورة وافية، وبمفردات سهلة وواضحة، قدم خلالها معلوماته، مما جعل الاعتماد عليه آنذاك، امر لا غنى عنه، ومصدر للأحقين في تأليفاتهم، أهدها ايضاً الى الخليفة المقتدي بأمر الله كما ذكر في مقدمة كتابه، قال: "في خدمة خزائن سيدنا ومولانا الامام العادل المقتدي بأمر الله امير المؤمنين القائم مقام رسول الله صلى الله عليه... بيده ازمة الامر وله مقاليد الامة والعصر اطال الله في التأييد بقائه... وضمنته ذكر جميع الادوية والاشربة والاغذية وكل مركب من ذلك"⁽³⁾.

كان الطيب سعيد بن هبة الله⁽⁴⁾ احد الاطباء المتميزين في صناعة الطب، اذ صنف في القرن ذاته كتاباً مختصراً يعرض فيه ام الامراض واسبابها وعلاماتها ومداواتها، يمكن فيه للعامل في صناعة الطب الرجوع اليه بسهولة ويسر للتعرف على الحالات المرضية المعروفة في زمانه ومعالجتها، دون حاجة طلابه الى الرجوع والغوص في ضخامة الكتب الطبية في عصره، وابتدأ كما جاء في مقدمته بالأمراض الحادثة بالرأس

(1) السيوطي، تاريخ الخلفاء، 301.

(2) تقويم الابدان، 1-2.

(3) منهاج البيان فيما يستعمله الانسان، 1.

(4) سعيد بن هبة الله: سعيد بن هبة الله بن الحسين، من الاطباء المتميزين بصناعة الطب، كان ايضاً فاضلاً في العلوم الحكيمية مشتهراً بها، وكان في ايام المقتدي بأمر الله، وخدمه بصناعة الطب وخدم ايضاً ولده المستظهر بالله، ولد في ليلة السبت سنة 436 هـ وألف كتباً كثيرة طبية ومنطقية وفلسفية وغير ذلك، (ت: 495 هـ/1109م). ابن ابي اصيبعة، عيون الانبياء في طبقات الاطباء، 342.

الظاهرة والباطنة منها كالثعلبية وتساقط الشعر والصداع وغيرها، وقدمه الى خزانة الخليفة المقتدي بأمر الله أيضاً كما ذكر في مقدمة كتابه: "وبعد فالرغبة الى الله تعالى (في ادامة ايام من خصه من خلقه بتدبير الامم) ومحبة العلوم والحكم، سيدنا ومولانا (الإمام المقتدي) بأمر الله، امير المؤمنين (اطال الله تعالى في العز الدائم بقاءه)...وبعد رأى العبد الخادم ايامه (الطاهرة) الزاهرة (ومناقبه الباهرة) احب ان يصنف له كتاباً طبياً مختصراً (مغنياً) في معرفة الامراض واسبابها وعلامتها ومداواتها، لإضطرار الناس الى وجود الصحة"⁽¹⁾.

وللطبيب محمد بن محمود الشيرواني⁽²⁾ إسهاماً واضحاً في علم الطب يتضح من خلال تأليفه كتاباً في هذا العلم جعله على مقدمة اربعة واربعين باباً، كتبه مجتمعاً من كتباً شتى، كالقانون، والذخيرة، ومختارات ابن هبل، والإرشاد، والملكي، والموجز، ومفردات المالقي، والمنهاجين، والحاوي، والكفاية، والزهرراوي، وبستان الأطباء، الأقرباديين لابن تلميذ، الدستور المارستاني، واطاف اليه ما سمعه عن ثقافات الفن واهداه الى ولي الدين كما جاء في مقدمته: "وكان صنعة الصيدلاني المعروفة اليوم بصنعة العطر، والشراب: جزءاً من علم الطب، لان الطب علم يتعرف منه كيفية حفظ الصحة... وسميته روضة العطر لان يرتاض فيه العطار...وجعلته على مقدمة وعلى اربعة واربعين باباً...ناصر الدنيا والدين غياث الاسلام والمسلمين...ولي الدين"⁽³⁾.

يعدّ كتاب: (الأسباب والعلامات)، من الكتب القيمة في الطب التي ألفها الطبيب نجيب الدين السمرقندي⁽⁴⁾، وقد جمع فيه جميع العلل، والأمراض الجزئية، على سبيل الاستقصاء، حتى لا يشذ منها علة،

(1) المغني في الطب، 19.

(2) الشيرواني: محمد بن محمود بن حاجي الشيرواني، ارتحل من وطنه الى بلاد الروم واتصل بخدمة السلطان محمد خان وتقرب عنده لاجل الطب وكان طبيباً حاذقاً صاحب مروءة وكانت له معرفة بالتفسير والحديث والعلوم العربية ولما حج أقام بمصر مدة وقرأ الحديث على علمائها منهم الشيخ السخاوي وسمع الحديث بالروم من المولى احمد الكوراني وكلهم اجازوه اجازة ملفوظة مكتوبة رأيت صور اجازاتهم بخطهم وكلهم شهدوا له بالفضل والعلم والصلاح ومات في أيام دولة السلطان محمد خان. طاشكيري زاده، الشقائق النعمانية، 135.

(3) روضة العطر، 4.

(4) السمرقندي: نجيب الدين أبو حامد محمد بن علي بن عمر السمرقندي، طبيب فاضل بارع وله كتب جلييلة وتصانيف مشهورة، وقتل مع جملة من الناس الذين قتلوا بمدينة هراة لما دخلها التتر وكان معاصر لفخر الدين الرازي بن الخطيب، ولنجيب الدين السمرقندي من الكتب كتاب أغذية المرضى وقسمه على حسب ما يحتاج إليه في التغذية لكل واحد من سائر الامراض، كتاب الأسباب والعلامات جمعه لنفسه ونقله من القانون لأبي علي بن سينا ومن

مع أسبابها، وعلاماتها، وأردف كل نوع بعلاج مجمل، نقلاً من كتب الطب وقد اشتهر هذا الكتاب، بسبب شرح المحقق برهان الدين، نفيس بن عوض بن حكيم المتطبب، الكرمانى، وهو شرح لطيف، ممزوج، حقق فيه فأجاد، وأوضح المطالب فوق ما يراد فرغ من تأليفه بسمرقند، في أواخر صفر، 827هـ/1423م، وأهداه إلى السلطان ألوغ بك⁽¹⁾ كما ذكر حاجي خليفة⁽²⁾.

كان من جملة الذين أهدى إليهم كتاباً في الطب هو: ممهد الدين عمر⁽³⁾ (694-696هـ/1294-1296م)⁽⁴⁾، ابن السلطان شمس الدين يوسف بن علي بن رسول، الذي أهداه الطبيب كمال الدين محمود بن الحسن الموصلي كتاباً في الطب، الفه وأهداه إليه، وعنوان الكتاب هو: (كنز الطبيب وبغية اللبيب)، في أمراض مخصوصة ورتبه على سبعة عشر باباً⁽⁵⁾.

المعالجات البقرائية وكامل الصناعات، كتاب الأقربا الذين الكبير والصغير (ت: 619هـ/1222م). ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، 472.

⁽¹⁾ ألوغ بك: اسمه محمد، وقيل تيمور، على اسم جده، ولهذا سمي ألوغ بك، العلامة فريد دهره ووحيد عصره في العلوم العقلية والهيئة والهندسة، طوسي زمانه، صاحب سمرقند، ابن القان معين الدين شاه رخ صاحب هراة، بن الطاغية تيمورلنك كوركان، لما مات جده تيمور، وآل الملك إلى أبيه شاه رخ بعد مدة، ولاء سمرقند وأعمالها، فحكمها نيافاً على ثلاثين سنة، كل عالم عنده هو إمام في علم واحد، بخلاف ألوغ بك هذا، فإنه يشارك في علوم كثيرة، كالهيئة والهندسة والتقويم الفلكيات فيه يضرب المثل، وانتهت إليه الرئاسة في ذلك في عصره، (ت: 850هـ/1446م). ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، 92/3-93؛ ابن طولان، إنباء الأمراء بأنباء الوزراء، 100.

⁽²⁾ كشف الضنون، 1/1.

⁽³⁾ ممهد الدين: عمر ابن الملك المظفر شمس الدين يوسف ابن الملك المنصور عمر بن علي بن رسول، صاحب اليمن، اتصل خبر ملكه بأخيه الملك المؤيد أقبل من الشجر لطلب الملك، ولما قرب من اليمن وصل إليه كتاب من أخيه الملك المنصور يحذره التقدم إلى جهة اليمن، وعرض عليه حصن السمدان، وكان بيد المنصور، ولم يقع بينه وبين أخيه الأشرف اتفاق، فمال إلى المؤيد، ثم وصله كتاب الوزير موفق الدين على بن محمد يخبره أن الملك الأشرف أرسل إليه نفرين من الفداوية، وأوصاه أن يحترز على نفسه، فعند ذلك جهز حريمه وأثقاله إلى السمدان، وتوجهه إلى عدن، فاستولى عليها في مدة ثلاثة عشر يوم، ولما اتصل الخبر بالملك الأشرف جهز ولده الملك الناصر جلال الدين في ثلاثمائة فارس، وألحقه بجيوش صنعاء منهم الأمير الشريف جمال الدين على. النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 33/140؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 8/58.

⁽⁴⁾ ابن الأحنف اليمني، البستان في اعراب مشكلات القرآن، 1/22.

⁽⁵⁾ حاجي خليفة، كشف الضنون، 2/517.

اما طبيب العيون خضر بن علي الخطاب⁽¹⁾، فقد صنف كتابا في الطب ورتبه على اربع مقالات، الاولى في كليات جزيء الطب، والثاني في في الأغذية والأشربة، والثالث في الأمراض المختصة بعضو دون عضو، من الرأس إلى القدم، والرابع في الأمراض العامة، التي لا تختص بعضو دون عضو، واهداه الى الامير عيسى بن محمد بن أيدين⁽²⁾ وذكر هذا حاجي خليفة⁽³⁾.

وعرف و تميز علماء الطب المسلمون، بتطور طب العيون الكحالة: هي جزء من الطب التي موضوعها عين الانسان، وغايتها حفظ صحتها ومعالجة من فقدتها ما امكن، فالكحل إذا صناعة موضوعها العين من الانسان، وغايتها حفظ صحة العين ما امكن الحفظ، ولكل واحد من الناس قبول استعداد لفنّ هو مطبوع فيه⁽⁴⁾، فلم يطاوعهم فيه احد وبرز فيه منهم شخصيات بارزة، استطاعت ان تقدم اعظم الخدمات الانسانية، فيما توصلت اليه من اكتشافات للعديد من امراض العيون، لاسيما بعد ان عد القرآن الكريم حاسة البصر نعمة كبيرة كما جاء في قوله تعالى: (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)⁽⁵⁾، أي بمعنى خلقنا الانسان مريدين ابتلائه، بان نخبره بالأمر والنهي فجعلناه ذا سمع وبصر⁽⁶⁾، من ثم فقد دفع هذا الامر الاطباء الى البحث والدراسة في علم العيون الكحالة، فالف مؤمن بن مقبل السينوي⁽⁷⁾

(1) جلال الدين خضر بن علي بن الخطّاب، المعروف بحاج باشا مصنف الشفاء، كان من ولاية أيدين وارتحل إلى القاهرة وقرأ على الأكمل وقرأ العلوم العقلية على مبارك شاه المنطقي، ثم إنه عرض له مرض اضطره الى الاشتغال بالطب حتى مهر فيه وفوض له مارستان مصر، وصنّف قبل ذلك حواشي على شرح المطالع وله شرح على الطوالع للبيضاوي، وكان السيد يرد عليه في بعض المواضع ويشهد له بالفضيلة، ثم عاد إلى بلده وتولى قضاء أياثلوغ. حاجي خليفة، سلم الوصول الى طبقات الفحول، 79/2.

(2) لم اجد له ترجمة في المصادر التي تم الاطلاع عليها.

(3) حاجي خليفة، كشف الضنون، 1049/2.

(4) الحريري، نهاية الأفكار ونزهة الأنصار، 41/1.

(5) سورة الانسان، الآية 2.

(6) مجير الدين العليبي، فتح الرحمن في تفسير القرآن، 232/7.

(7) السينوي: مؤمن بن مقبل السينوي الرومي الطبيب، له ذخيرة مرادية في الطب، مفتاح الثور في علم الكحالة صنّفه باسم اسفنديار بن بايزيد من ملوك سلاجقة الروم (ت: ٨٤١هـ / 1437م)، الباباني، هدية العارفين، 483/2.

كتاباً في علم الكحالة، وسمه بعنوان: (مفتاح النور في علم الكحالة)، صنفه باسم اسفنديار بن بايزيد⁽¹⁾ من ملوك سلاجقة الروم وكان ذلك في حدود سنة (٨٤١هـ/1437م)⁽²⁾.

4-الخاتمة:

وختاماً لبحثي فقد توصلت الى جملة من النتائج موضحة كالتالي:.

ذلك إن ما يزيد من عملية التأليف ازدهاراً وتفاعلاً هو ظاهرة التكليف فقد كشفت الدراسة عن عدد كبير من الكتب المؤلفة والمصنفة بالتكليف من الخاصة والعامة وعن تعدد وتنوع الدوافع القائمة وراء ظاهرة التكليف، فعادة ما يقوم الخاصة من الخلفاء والوزراء وغيرهم من اصحاب المهن الشرعية والمناصب الرفيعة، بتكليف من هو مشهور باختصاصه في مجال الطب بان يؤلف كتاباً يعالج فيه ظاهرة او مرض معين، او قد يكون المصنف شاملاً لفئة معينة من الامراض كما شمل التكليف العامة من الافراد والجماعات من الابناء والاصدقاء والاخوان ايضاً.

كما رصدت الدراسة شمولية اهداء الكتب من مؤلفات ومصنفات مختلف أنواع وطبقات المجتمع فلم يتم اهداء فيها على معيار او صفة معينة، كما انماز بكونه ذاتياً من نفس المؤلف ودون اكرامه او اجبار من أحد، وتجلت أهمية إهداء الكتب من مؤلفات ومصنفات في الدولة العربية الاسلامية بما لها من الدور الواضح والكبير في اقامة العلاقات وتوثيق الصلات بين الهادي والمهدى اليه ولا سيما فيما يتعلق بإهداء الكتب للخاصة وحاجة كل طرف منهم للآخر، ذلك انه على الرغم من حاجة المؤلف من الإهداء سواء أكانت مادية او معنوية او غير ذلك.

5-قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الكتب القديمة

- الابياري، علي بن إسماعيل، (ت: 616 هـ/1219م)، التحقيق والبيان في شرح البرهان في أصول الفقه، تح: علي بن عبد الرحمن بسام الجزائري، دار الضياء، الكويت (طبعة خاصة بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية)، 1434 هـ/2013 م .

(1) اسفنديار بن بايزيد: أحد ملوك الروم، اذ ورث الملك عن أبيه وكان مستقلاً بالحكم، وبينه وبين الملوك العثمانية عداوة موروثية، وتحت حكمه بعض مدن وقلاع، منها مدينة سينوب الملقبة بجزيرة العشاق، ومنها قسطنطينية تحت ملكه، وبحر فلکه، وسامسون، وهي قلعة على جانب البحر للمسلمين، ويعد اسفنديار من أواخر الملوك الذين وفدوا على تيمور، (ت: 843 هـ/1439م)، واستولى بعده على ممالكه ولده إبراهيم بك. ابن عريشاه، عجائب المقدور في اخبار تيمور، 281-282.

(2) حاجي خليفة، كشف الضنون، 2/1771.

- ابن الاثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد (ت: ٦٣٠هـ/1232م)، الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- ابن الاحنف اليميني، أحمد بن أبي بكر بن عمر (ت: ٧١٧هـ/1317م)، البستان في إعراب مشكلات القرآن، تح: أحمد محمد عبد الرحمن الجندي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م.
- ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة (ت: 668هـ/1269م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- بامخرمة، ابو محمد الطيب بن عبدالله (ت: 947هـ/1540م)، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، تح: بو جمعة مكري، خالد زواري، دار المنهاج، جدة، د.ت.
- ابو البقاء الكوفي، أيوب بن موسى الحسيني القريبي (ت: 1094هـ/1682م)، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تح: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت.
- ابن البيطار، ابي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد (ت: 656هـ/1248م)، تفسير كتاب دياسقوريدوس، تح: ابراهيم بن مراد، دار الغرب الاسلامي، بيروت، د.ت.
- ابن تغري بردي الاتابكي، ابو المحاسن جمال الدين يوسف (ت: 874هـ/1469م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، د.ت.
- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت.
- ثابت بن قره، (ت: 288هـ/900م)، الذخيرة في علم الطب، تح: احمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، (ت: ٨١٦هـ/1413م)، التعريفات، تح: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ابن جزلة، ابو علي يحيى بن عيسى البغدادي (ت: 493هـ/1100م)، تقويم الأبدان في تدبير الإنسان، الدار الثقافية للنشر، 2007م.
- منهاج البيان فيما يستعمله الانسان، تح: محمود مهدي بدوي، القاهرة، 1431هـ/2010م.
- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، (ت: ٣٩٣هـ/1002م)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت: ١٠٦٧هـ/1656م)، سلم الوصول الى طبقات الفحول، تح: محمود عبد القادر الأرنؤوط، مكتبة إرسیکا، إستانبول، 2010م.

- كشف الضنون عن اسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، بغداد، 1941م.
- الحريري، عبدالله بن قاسم(ت:516ه/1122م)، نهاية الأفكار ونزهة الأنصار، تح: حازم البكري، مصطفى شريف العاني، وزارة الثقافة والاعلام، دار الرشيد للنشر، 1979.
- ابن خلكان، شمس الدين احمد بن محمد بن ابراهيم (ت:681 هـ /1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1900.
- الذهبي، ابو عبدالله محمد بن احمد(ت:748 هـ/1347م)، تاريخ الاسلام، تح: عمر عبد السلام التدميري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1413هـ/1993م.
- سير أعلام النبلاء، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، 1405هـ/1985م.
- الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد (ت:794هـ/1391م)، البحر المحيط في أصول الفقه، دار الكتبي، 1414هـ/1994م.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (ت:538هـ/1143م)، اساس البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419 هـ / 1998
- ابن زهر الأندلسي، ابي مروان عبد الملك بن زهر(ت:557هـ/1161م)، التيسير في المداوة والتدبير، أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- النشاط والقوة والشفاء في الأغذية، تح: محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور(ت:562 هـ /1166م)، المنتخب من معجم شيوخ السمعاني، تح: موفق بن عبدالله بن عبد القادر، دار عالم الكتب، الرياض، 1417 هـ /1996م.
- ابن سيده، ابو الحسن علي بن اسماعيل(ت:458هـ/1065م)، المخصص، تح: خليل ابراهيم جفال، دار إحياء التراث العرب، بيروت، 1417 هـ /1996م.
- ابن سينا، ابي علي الحسين بن عبدالله(ت:428هـ/1036م)، القانون في الطب، تح: محمد امين الضناوي، دار الكتب العلمية، 1420هـ/1999م.
- دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية، تح: احمد فريد المزيدي، منى السيد شبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- السيوطي، عبد الرحمن بن ابي بكر(ت:911هـ/1505م)، تاريخ الخلفاء، تح: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، 1425هـ/2004م.
- الشيرواني، محمد بن محمود بن حاجي(ت:912هـ/1506م)، روضة العطر، د.ط، د.ت.

- الصفدي, صلاح الدين خليل بن أبيك (ت:764 هـ/1362م)، الوافي بالوفيات, تح: أحمد الأرنؤوط , تركي مصطفى, دار احياء التراث, بيروت, 1420 هـ/2000م.
- طاشكبري زادة، أحمد بن مصطفى بن خليل، أبو الخير، عصام الدين (ت: 968هـ/1560م)، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية, دار الكتاب العربي، بيروت, د.ت.
- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه، (ت:953 هـ/1546م)، إنباء الأمراء بأنباء الوزراء، تح: مهنا حمد المهنا، دار البشائر الاسلامية، بيروت، ١٤١٨ هـ/١٩٩٨م.
- ابن عربشاه، أبو محمد أحمد بن محمد، (ت:854 هـ/1450م)، عجائب المقدور في أخبار تيمور , طبعة كلكتا، 1817 .
- ابن العماد الحنبلي, عبد الحي بن أحمد بن محمد(ت:1089هـ/1678م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب, تح: عبد القادر الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، 1406 هـ/1986م.
- الفتني، محمد طاهر بن علي الهندي (ت: ٩٧٦ هـ/1568م ، المغني في ضبط الأسماء لرواة الأنباء، تح: زين العابدين الأعظمي، الرحيم أكاديمي، كراتشي ، ١٤٢٨ هـ.
- الغزي، نجم الدين محمد بن محمد الغزي (ت: 1061 هـ/1650م)، حسن التنبيه لما ورد في التشبه، تح: لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين طالب، دار النوادر، سوريا، ١٤٣٢ هـ/ ٢٠١١ م.
- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم(ت:170هـ/786م)، كتاب العين، تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ت.
- الفيروزآبادي، محب الدين محمد بن يعقوب(ت:817 هـ/1414م)، القاموس المحيط، تح: مكتب تح: التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، ط8، 1426 هـ/2005م.
- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، (ت: ٦٤٦ هـ/1248م)، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1426 هـ/2005م .
- ابن كثير، ابو الفداء إسماعيل بن عمر(ت:774 هـ/1372م)، البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار احياء التراث العربي، بيروت، 1408 هـ/1988م.
- ابن المجوسي، علي بن العباس(ت:994هـ/1585م)، كامل الصناعة الطبية المعروف بالملكي، تح: خالد حربي، د.ط، 911 هـ.
- الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود، (ت:333 هـ/944م)، تفسير الماتريدي، تح: مجدي باسلوم ، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1426 هـ / 2005 م .

- مجير الدين العليمي, عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن (ت: 928 هـ / 1521 م), التاريخ المعتبر في أنباء من غير, تح: لجنة مختصة من المحققين, دار النوادر, سوريا, 1431 هـ / 2011 م.
- ابن مسكويه, احمد بن محمد بن يعقوب (ت: 421 هـ / 1030), الهوامل والشوامل, تح: سيد كسروي, دار الكتب العلمية, بيروت, 1422 هـ / 2001 م.
- المناوي, زين الدين محمد (ت: 1031 هـ / 1621 م), التوقيف على مهمات التعاريف, عالم الكتب 38 عبد الخالق ثروت, القاهرة, 1410 هـ / 1990 م.
- ابن منظور, محمد بن مكرم بن علي (ت: 711 هـ / 1311 م), لسان العرب, تح: ليازي وجماعة من اللغويين, ط3, دار صادر, بيروت, 1414 هـ.
- النويري, أحمد بن عبد الوهاب بن محمد (ت: 733 هـ / 1332 م), نهاية الارب في فنون الادب, دار الكتب والوثائق القومية, القاهرة, 1423 هـ.
- ابو هلال العسكري, الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد, (ت: نحو 395 هـ / 1004 م), الفروق اللغوية, تح: محمد إبراهيم سليم, دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع, القاهرة.
- ابو اليمن العليمي, مجير الدين بن محمد (ت: 927 هـ / 1520 م), فتح الرحمن في تفسير القرآن, تح: نور الدين طالب, دار النوادر (إصدارات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية, إدارة الشؤون الإسلامية, 1430 هـ / 2009 م).
- الكتب الحديثة
- البغدادي, إسماعيل بن محمد أمين, هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين, طبع بعناية وكلاء المعارف, المطبعة الهيئة استانبول 1951.
- يوسف زيدان, التراث المجهول اطلالة على عالم المخطوطات, دار الأمين, ط2, 1418 هـ / 1997 م.

تطور الجهاز الصحي لجيش التحرير الوطني إبان الثورة التحريرية
قراءة وتعليق على ضوء أرضية مؤتمر الصومام

The development of the health system of the National Liberation Army
during the liberation revolution
Read and comment on the basis of the fasting conference

د. حسني حمرة، المركز الجامعي مغنية (الجزائر)

Housny.hamra@cu.maghnia.dz

د. عبد الحفيظ موسم، جامعة سعيدة (الجزائر)

abdelhafid.mousssem@univ-saida.dz

ملخص:

تتناول هذه الدراسة جوانبا مهمة عن واقع الجهاز الصحي لجيش التحرير الوطني إبان الثورة التحريرية الجزائرية، إذ تسلط الضوء على أهم التطورات التي عرفتھا المنظومة الصحية للثورة بناء على مقررات الصومام التي ساهمت في دعم أجهزة الثورة وتنظيمها، لا سيما في المجال الصحي الذي تدعم بهياكل ومراكز صحية قادرة على رفع شعار التحدي؛ من خلال الإحاطة بالمقومات البشرية لثورة التحرير والسهير على رعايتها الصحية في كل المقاطعات التي استحدثها مؤتمر الصومام.

الكلمات المفتاحية: الجهاز الصحي، جيش التحرير الوطني، مؤتمر الصومام، الثورة الجزائرية، المصالح الصحية

summary:

This study deals with important aspects of the reality of the health system of the National Liberation Army during the Algerian liberation revolution, as it sheds light on the most important developments witnessed by the health system of the revolution based on the fasting decisions that contributed to supporting and organizing the revolutionary apparatus, especially in the health field, which is supported by health structures and centers. Able to raise the slogan of challenge; By understanding the human components of the liberation revolution and ensuring its health care in all the provinces created by the Fasting Conference.

Keywords: health system, National Liberation Army, Fasting Conference, Algerian Revolution, health services.

مقدمة:

مثل الجهاز الصحي أحد أبرز اهتمامات قيادة الثورة التحريرية الجزائرية؛ ذلك أنه يمثل جانبا أساسيا في دعم تأطيرها وتنظيمها على المستويين السياسي والعسكري. فكما هو معلوم أن الثورة التحريرية قد اندلعت في ظل ظروف صعبة بعدما قرّرت قيادتها تأخير مسألة التنظيم إلى ما بعد الانطلاقة، الأمر الذي جعل المرحلة الأولى منها؛ أي من الثورة تعاني من مشاكل كثيرة على المستوى الصحي، فبقت بذلك الحاجة الماسة للتنظيم الصحي مطروحة بشكل جدّي من أجل تأكيد استمرارية الثورة في ظل التطورات التي يشهدها الكفاح المسلح، وهو ما تجسد فعليا عقب انعقاد اللقاء التاريخي لقيادة الثورة بوادي الصومام في صائفة 1956.

إن أهمية مؤتمر الصومام كمعلم تاريخي مفصلي يخص الجوانب التنظيمية لثورة التحرير الجزائرية، دفعتنا إلى البحث في هذا الموضوع الذي يخص تطور الجهاز الصحي لجيش التحرير الوطني على ضوء أرضية الصومام؛ بغية الوقوف على أهم التطورات التي شهدتها المنظومة الصحية للثورة بناء على مقررات الصومام التي أوجدت الهياكل الصحية الضرورية التي تفي بمتطلبات الكفاح المسلح، محاولين بذلك الإجابة على الإشكالية التالية: فيما تتمثل أهم المستجدات التي شهدتها الجهاز الصحي لجيش التحرير الوطني عقب مؤتمر الصومام التاريخي؟

1- نظرة موجزة عن واقع الجهاز الصحي للثورة التحريرية قبيل مؤتمر الصومام:

تتفق غالبية الكتابات التاريخية التي أُرخت للمنظومة الصحية إبان الثورة التحريرية، على كون المرحلة الأولى منها الممتدة من 1954 إلى 1962 من أصعب المراحل التي ميزت القطاع الصحي¹، إذ لم تكن إمكانيات الواقع الصحي عند بداية الثورة بأحسن حالٍ من إمكانيات القطاع العسكري²، خاصة في ظل النقص الفادح للإطارات الطبية والمستلزمات العلاجية التي غلب عليها الطابع التقليدي والبدائي آنذاك³.

¹ - مصطفى خياطي، المآزر البيضاء خلال الثورة الجزائرية، منشورات ANEP، الجزائر، 2013، ص ص 15، 21.

- Mohammed Guentari, organisation politico – administrative et militaire de la révolution algérienne de 1954 – 1962, O.P.U, Alger, T , pp 300 – 308.

- Mohammed Guentari, les services de la santé de l'Armée de libération nationale pendant la révolution Algérienne (1954 – 1962), pour D.E.A en histoire, S/ la direction du pr. André Martel, université Paul Vallery – Montpellier 3, centre d'histoire militaire et études de défense nationale, juin 1985, pp 98 – 106.

² - علامة صليحة، المنظومة الصحية لجيش التحرير الوطني (1954 – 1962)، مجلة قضايا تاريخية، العدد 08، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر، 2017، ص 171.

³ - Ahmed Benkhaled, les années de braises, chroniques médicales Algériennes, éd: houma, alger, 2004, p 34.

لا سيما بعدما أقدمت السلطات الاستعمارية على اتخاذ جملة من الإجراءات التي تحدّ من المبادرات الفردية التي باشرتها قيادة الجبهة للتكفل بالجرحى والمرضى وطرق نقلهم وعلاجهم وإيواءهم في ظل الافتقار لمتطلبات العلاج من الأطباء والممرضين والأدوية... الخ¹.
ويمكننا الوقوف على مميزات وخصائص الواقع الصحي للثورة التحريرية في مرحلته الأولى بإيجاز من خلال النقاط التالية:

- غياب المصالح الصحية المنظمة مع تسجيل نقص فادح في الإمكانيات البشرية والمادية بعموم التراب الوطني، الأمر الذي جعل قيادة الثورة في كل منطقة تتدبّر أحوالها بما توفر لديها من إمكانيات محلية²، معتمدة في ذلك على روح المبادرة الفردية للمرضى أو شبه الممرضين ممّن تفاعلوا في أداء مهمتهم بكلّ ما أوتوا من قوة رغم نقص مهاراتهم وتكوينهم، علماً أن جهدهم كان يأتي بنجاحات كثيرة لا تفسّر إلاّ بالمعجزة فغي كثير من الأحيان³.
- الاعتماد على العلاج البدائي (الطب التقليدي) الذي يعتمد بالدرجة الأولى على التداوي بالأعشاب واستخدام بعض الأدوات المنزلية في الجراحة والخياطة⁴ لمواجهة العدد الهائل من الجرحى والمرضى خاصة في المناطق المحاصرة أو المحرمة نتيجة انعدام التموين، علماً أن هذا الأسلوب من العلاج قد ساهم في انقاذ حياة العديد من الجرحى والمصابين⁵.

¹ - من بين الإجراءات الاستعمارية المتخذة في هذا الشأن قيام الحاكم العام الفرنسي جاك سوستيل بالتوقيع على مرسوم 24 أكتوبر 1955 الذي يلزم الصيادلة بالتصريح شهرياً بما توفر لهم من أدوية مع تبرير المبيعات منها، وكذا مرسوم 21 نوفمبر 1955 الذي يمنع في مادته الثانية بيع ونقل الأدوية والاتجار فيها. ينظر:

Houne Bouzaher, Algerie 1954 – 1962, la guerre d'indépendance au jour le jour, édition Houma, Alger, 2004, p 359.

² - Farouk Ben Atia, les actions humanitaires pendant la lute de liberation (1954 – 1962), ed: dahleb, Alger, 1997, p 72.

³ - Mohammed Guentari, les services de la santé ..., op. cit, p 11.

⁴ - يستحسن الإشارة في هذا السياق إلى أهم الأدوات المنزلية التي استخدمت وبفعالية ناجحة في علاج وإسعاف المصابين على غرار المنشار الخاص بقطع الحديد (scie à métaux) لبيت الأعضاء وقطع العظام، وسكاكسن المطبخ، والإبر وخيط الخياطة وشفرة الحلاقة... مع العلم أن كل الأدوات المنزلية التي كانت تستخدم في العلاج يتم تعقيمها عن طريق الغلي في الماء. ينظر إلى:

Mohammed Guentari, l'armée de libération nationale en wilaya IV, préface par : Madleine Rébérioux, éd Casbah, Alger, 2006, p 70, 71.

⁵ - مصطفى خياطي، المصدر السابق، ص 44.

ينظر أيضاً: Mohammed Guentari, Organisation..., Op. Cit, p 292.

- الاعتماد على المستشفيات المتنقلة في علاج المصابين بهدف تفويت الفرصة على العدو في الاستيلاء على الأدوية والأجهزة الطبية عند اقتحامه لأي موقع استشفائي¹، فغالبا ما كان يتم الاتصال بالأطباء والمرضى² للذهاب إلى الجبال خفية لمعالجة عناصر جيش التحرير الوطني ثم العودة إلى أماكن عملهم، هذا فضلاً على جعل بيوت الوطنيين الجزائريين مآناً ليست لديهم سوابق عدلية مع المستعمر الفرنسي مصحات لمداداة وعلاج مصابي جيش التحرير الوطني³. وكذا إجراء العديد من العمليات الجراحية في الكهوف والغابات تحت حراسة جيش التحرير⁴.

- الاستفادة من خدمات الطب الشعبي بصفة خاصة خلال المرحلة الأولى من الثورة الجزائرية، فالجرحى الذين أصيبوا إصابات بليغة في ميادين المعارك، كان من الضروري أن يتلقوا علاجاً أولياً لإخراجهم من مرحلة الخطر. وبهذا شارك الأطباء الشعبيين في التخفيف من حدة المشاكل الصحية التي تعرض لها مجاهدي جيش التحرير الوطني، خصوصاً وأن غالبية الأطباء الشعبيين كانوا متواجدين بالقرى و المشاتي القريبة حيث تنتشر أفواج جيش التحرير، كما أن الشعب الجزائري قد ظل بصفة خاصة متمسكاً بخصوصياته الاجتماعية التي تميزه عن الاستعمار من خلال تمسكه بخصوصياته الصحية ومعارفه الطبية التقليدية⁵.

2- إضراب الطلبة الجزائريين وانعكاساته على الجهاز الصحي للثورة التحريرية:

إنّ الدارس لواقع الجهاز الصحي إبان الثورة التحريرية سيقف على التحديات الكبرى التي واجهته خاصة خلال المرحلة الأولى، وقد ظلّ الوضع على ما هو عليه إلى غاية التحاق الطلبة الجامعيين والثانويين بصفوف ثورة نوفمبر بعد إضراب الطلبة شهر ماي 1956، بما فهم طلبة الطب والصيدلة والتمريض⁶.

¹ - يمينه مجاهد، تاريخ الطب في الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي 1830 – 1962، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران 01، 2017 – 2018، ص 282.

² - تجب الإشارة في هذا السياق إلى الاستعانة في كثير من الأحيان بجهود الأطباء والمرضى الفرنسيين ممن تحلّوا بروح الإنسانية من أمثال الدكتور كلود ستيفانييني (stifanini) والدكتور كوبر (coubert) والدكتور بالاسكا (balaska)... نقلا عن الدكتورة يمينه مجاهد، المرجع السابق، ص 283.

³ - جيلالي تکران، تطوّر المنظومة الصحية أثناء الثورة التحريرية الجزائرية 1954 – 1962: الولاية الرابعة التاريخية أ نموذجاً، مجلة المصادر، المجلد 01، العدد 01، المركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 30 جوان 2009، ص ص 206، 207.

⁴ - Mohammed Guentari, Organisation..., Op. Cit, p 293.

⁵ - عبد الجليل شرفي، بوبكر حفظ الله، دور الطب الشعبي في تدعيم الجانب الصحي للثورة التحريرية الجزائرية بمنطقة تبسة (1954 – 1962)، مجلة دراسات، المجلد 07، العدد 01، جامعة قسنطينة 02، جوان 2020، ص ص 57، 58.

⁶ - Mohammed Guentari, les services de la santé ..., op. cit, p 112.

فكما هو معلوم أن قيادة الثورة قد دعت الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين إلى إضراب عام عن الدروس يوم 19 ماي 1956، وترتب عن ذلك أن التحق عدد كبير من الطلبة الجامعيين والثانويين بصفوف ثورة نوفمبر المجيدة مقدمين بذلك مساهمات كبيرة ومتعددة المجالات لجيش التحرير الوطني¹ لا سيما في القطاع الصحي الذي شهد نهوضاً قوياً بفضل إلتحاق طلبة الطب بصفوف الثورة التحريرية، إذ تدلنا الدراسة الأكاديمية للباحثة مجاهد يمينة على استفادة الثورة من طلبة الطب بالناحية الغربية للوطن، حيث فضل عدد منهم الاستقرار بالحدود المغربية بينما قرّر البعض التوجه نحو جبال الغرب الجزائري لدعم جيش التحرير هناك، أمّا من كانت لديهم عيادات خاصة سواء جزائريين أو أوروبيين (ممن اختاروا مساعدة الثورة) فقد بقوا في عياداتهم وأدّوا أدواراً عظيمة هناك، مساندة ومساعدة لجيش التحرير وتدعيم الوحدات الصحية في الجبال. فلم يعد بذلك الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين مجرد تنظيم نقابي و فقط، بل تحوّل إلى منظمة ثورية ساهمت في جلب الطلبة من مختلف التخصصات الطبية لدعم نشاطات جبهة وجيش التحرير الوطني².

3- قراءة في واقع التطور الذي شهده الجهاز الصحي للثورة عقب مؤتمر الصومام:

إنّ الدارس في واقع الجهاز الصحي لثورة التحرير الجزائرية؛ سيقف على مدى التطور الذي عرفته المنظومة الصحية لجيش التحرير عقب انعقاد مؤتمر الصومام التاريخي في 20 أوت 1956³، ذلك أن هذا المؤتمر قد ساهم في التأسيس لأرضية ذات تنظيم مؤسّساتي؛ تستهدف بالدرجة الأولى ضمان استمرارية الثورة ونجاحها على المستويين المحلي والدولي⁴، حيث شهد القطاع الصحي تطوراً ملحوظاً عقب تطبيق قرارات الصومام التي شدّدت على ضرورة تنظيم المصالح الصحية للثورة بشرياً ومادياً من خلال تنظيم العيادات وتكوين الأطباء والجراحين والصيدالّة، مع ضمان توفير الأدوية بما يضمن علاجاً منظماً للجرحى

¹ - Ahmed Benkhaled, Op. cit, p 197.

² - يمينة مجاهد، المرجع السابق، ص 299.

³ - انعقد مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956 بقرية إيفري بأوزلاقن بغابة إكفادو فوق مدينة أقبو، جنوب غرب مدينة بجاية على الضفة الغربية لوادي الصومام، وذلك من أجل البحث عن استراتيجية جديدة للتعاطي مع البعد الجديد الذي بدأت تأخذه الثورة من حيث الاتساع والشمول، بما يستلزم الإسراع في إيجاد تنظيم جديد محكم يستجيب لمتطلبات الكفاح المسلح على المستويين الداخلي والخارجي. ينظر: الغالي غربي، فرنسا والثورة الجزائرية 1954 - 1962: دراسة في السياسات والممارسات، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 437.

⁴ - محمد بلعباس، الوجيز في تاريخ الجزائر، دار المعاصرة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 163.

والمصابين¹. إذ يمكننا الوقوف بنوع من الدقة والإيجاز على أهم التطورات التي ميّزة الجهاز الصحي بناءً على أرضية الصومام من خلال ما يلي:

- وضع قواعد صحّية منظمة على مستوى الجبال عقب مؤتمر الصومام، حيث انطلق جيش التحرير الوطني في تحديد صلاحيات أفراد الجهاز الصحي بموجب المنشور رقم 02 المؤرخ في 09 ديسمبر 1956 الذي سمح بتحديد المسؤوليات في القطاع الصحي من خلال تعيين مسؤول للصحة على مستوى كل القيادات بدءاً بالولاية والمنطقة ثم الناحية والقسم، وأصبح التنظيم الصحي -تبعاً لذلك- موحداً ومتشابهاً في جميع الولايات باستثناء بعض الاختلافات الطفيفة التي فرضتها الظروف المتعلقة بالإمكانات الخاصة بعدد أفراد الصحة ومستواهم التكويني².

- إسناد قاعدة الهرم الصحي المتمثل في "القسم" - بمقتضى قرارات مؤتمر الصومام - إلى المحافظ السياسي، الذي كان يجمع بين وظائف عدة لصالح الثورة. إضافة إلى جهاز الصحة ومستلزماته من أدوات طبية وأدوية... الخ³. علماً أن المسؤول الأول عن القسم هو الوحيد الذي كان له الحق في أخذ القرارات المتعلقة بالجانب الصحي عكس الناحية التنظيمية فإن الكل يخضع للقوانين المعمول بها تحت إشراف المسؤول الصحي الأعلى رتبة مباشرة⁴.

- انتشار المراكز الصحية في جميع القسمات والنواحي والمناطق المكونة للولاية مع العلم أن هذه المراكز كانت تندرج من حيث الأهمية وفي حجمها المادي والبشري حسب التسلسل الهرمي للتقسيم الجغرافي المنبثق عن مؤتمر الصومام، فكانت مصلحة الصحة تتبع في سلمها التدريجي التنظيم العسكري الذي كان يتماشى والمصالح الأخرى لجيش التحرير مما ساهم في إيجاد سلطة إدارية صارمة على مستوى الولاية⁵. ولا بأس أن نشير في هذا السياق إلى أن قيادة الثورة المسؤولة عن القطاع الصحي قد خصصت بناءً على توصيات لقاء الصومام فرقا من الممرضات والممرضين لزيارة البيوت وتقديم الخدمات الصحية للمواطنين

¹ البرنامج السياسي لمؤتمر الصومام (الميثاق)، نقلاً عن الأستاذ: عبد الله مقلاتي، المرجع في تاريخ الثورة الجزائرية ونصوصها الأساسية 1954 - 1962، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009، ص 229.

² علامة صليحة، المرجع السابق، ص 175.

³ عائشة مرجع، عوامل التطور والتنظيم الصحي للثورة التحريرية (1956 - 1962)، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، المجلد 03، العدد 04، ص 247.

⁴ - يمينة مجاهد، المرجع السابق، ص 301.

⁵ علامة صليحة، المرجع السابق، ص 175.

دون تنقلهم إلى المراكز الصحية، هذا فضل ا على استحداث بعض المراكز في البيوت الخاصة بالمواطنين لاستعمالها كمراكز استشفائية خاصة بالمناطق الحضرية¹.

- تطوّر عمليات التكوين في مجال التمريض بمختلف الولايات التاريخية، بعد أن كانت بطيئة ومقتصرة على بعض المناطق دون الأخرى، كما التحق بعض الجزائريين الشباب بمدارس التمريض الفرنسية وحصلوا على تكوين في المجال الصحي لينضموا بعدها إلى صفوف جيش التحرير بعد إتمام دراستهم وتدريبهم، هذا وقد عمدت قيادة الثورة التحريرية عقب مؤتمر الصومام إلى تأسيس مدارس لتكوين الممرضين ببرامج دقيقة محدّدة بفترة زمنية تلبية لمتطلبات الكفاح المسلح، مع العلم أن التكوين كان يتم باللغتين: العربية والفرنسية وذلك على مستوى مراكز تدريب جيش التحرير الوطني²، تحت إشراف جيش التحرير الوطني ويتأطّر من أطباء أكفاء من أمثال: اسماعيل محفوظ دهلوك بالولاية الأولى، ومحمد تومي بالولاية الثانية، ومصطفى لاليام وحمد عبّيد وعمران خليل ونفيسة حمود بالولاية الثالثة، ويحي فارس ويوسف الخطيب بالولاية الرابعة، ويوسف دمرجي بالولاية الخامسة والرائد الشريف خير الدين بالولاية السادسة، هكذا كان يتم التكوين في كل منطقة تقريبا وبصفة سريعة للمرضين الذين يُختارون في الغالب من بين الجنود³.

- خصّص مؤتمر الصومام رواتب موظفي وإطارات قطاع الصحة، حيث تم منح الأجور حسب درجة ومستوى كل موظف بالمصلحة الطبية وفق الشبكة التالية (الممرضون والممرضات مثل العريف بمبلغ مالي قيمته 1500 فرنك فرنسي قديم كل شهر، مساعدوا الأطباء مثل الملازم بمبلغ شهري قيمته 2500 فرنك فرنسي قديم، الأطباء المصنفين من حيث الأجر ضمن صنف الضباط "ضباط صف" براتب شهري يقدر ب 21500 فرنك فرنسي قديم)⁴.

- تأسيس إدارة حقيقية للعناية بشؤون الصحة مع نهاية سنة 1957 حسب ما نصت عليه مقررات الصومام وهي الإدارة التي أوكلت مهمتها للدكتور "محمد نقاش" للعناية بإدارة المراكز الصحية وضبط خطة محكمة لتسييرها، حيث أصبحت هذه المراكز عبارة عن وحدات إدارية قائمة بذاتها، لها سجلات خاصة بدخول المرضى وخروجهم، ورخص خاصة بإلحاق المريض بوحدته العسكرية وأخرى لتحويل المريض على مراكز الدعم أو مركز صحي آخر وتعيين مسؤول التموين للتكفل بتموين المستشفى وصيدلي يتكفل بحفظ الأدوية وغيرها من التنظيمات⁵

¹ - GILBERT Meinier, histoire intérieure du F.L.N 1954 – 1962, édition casbah, Alger, 2003, p 495.

²- دون مؤلف، "القطاع الصحي إبان الثورة التحريرية... تخطي المراحل الصعبة ومواكبة تطوّرات الثورة"، المرجع السابق.

³ - Mohammed Guentari, les services de la santé ..., op. cit, p 125.

⁴- عائشة مرجع، المرجع السابق، ص ص 244، 245.

⁵- علامة صليحة، المرجع السابق، ص ص 176 - 177.

- إصدار القانون الداخلي لمصلحة الجيش؛ جيش التحرير الوطني في نوفمبر 1957 الذي نصّ على تكفل الجيش بعلاج المرضى والجرحى من المجاهدين مع توسيع دائرة تقديم الخدمات الطبية لتشمل المدنيين في القرى والمداشر، وحتى اللاجئيين الجزائريين في تونس والجزائر¹.

خاتمة:

يمكننا القول في خاتمة هذه الدراسة أنّ واقع الجهاز الصحي إبان الثورة التحريرية قد عرف نقلة نوعية على ضوء مقررات الصومام، التي ساهمت في إرساء تنظيماً صحياً متعدّد الهياكل والأجهزة في كامل ربوع الوطن، لتتوسع بذلك الخدمات الصحية المقدمة للجزائريين؛ سواء كانوا مجاهدين أو مدنيين، خاصة بعدما تدعّم الجهاز الصحي بإطارات صحية قادرة على تسيير وتطوير القطاع من جراحين وأطباء وممرضين، هذا فضلاً على التوجهات التي أقرّها المؤتمرين لمواكبة تطوّر المصالح الصحية والتشديد على حقوق المرضى في العلاج والتداوي. ولعلّ هذا ما يجعلنا نُقرّ بكون أرضية الصومام البداية الحقيقية لتبلور الجهاز الصحي لجيش التحرير الوطني.

²-Ali Aleg, la guerre d'Algérie, tome 2, éditions temps actuels, Paris, 1981.

قائمة المصادر والمراجع:

- خياطي مصطفى، المآزر البيضاء خلال الثورة الجزائرية، منشورات ANEP، الجزائر، 2013.
- علامة صليحة، المنظومة الصحية لجيش التحرير الوطني (1954 – 1962)، مجلة قضايا تاريخية، العدد 08، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر، 2017.
- مجاهد يمينة، تاريخ الطب في الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي 1830 – 1962، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران 01، 2017 – 2018.
- تكران جيلالي، تطوّر المنظومة الصحية أثناء الثورة التحريرية الجزائرية 1954 – 1962: الولاية الرابعة التاريخية أ نموذجا، مجلة المصادر، المجلد 01، العدد 01، المركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 30 جوان 2009.
- شرفي عبد الجليل، بوبكر حفظ الله، دور الطب الشعبي في تدعيم الجانب الصحي للثورة التحريرية الجزائرية بمنطقة تبسة (1954 – 1962)، مجلة دراسات، المجلد 07، العدد 01، جامعة قسنطينة 02، جوان 2020.
- غربي الغالي، فرنسا والثورة الجزائرية 1954 – 1962: دراسة في السياسات والممارسات، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
- بلعباس محمد، الوجيز في تاريخ الجزائر، دار المعاصرة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
- مقالاتي عبد الله، المرجع في تاريخ الثورة الجزائرية ونصوصها الأساسية 1954 – 1962، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009.
- مرجع عائشة، عوامل التطوّر والتنظيم الصحي للثورة التحريرية (1956 – 1962)، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، المجلد 03، العدد 04.
- Guentari Mohammed, organisation politico – administrative et militaire de la révolution algérienne de 1954 – 1962, O.P.U, Alger, T .
- Guentari Mohammed, les services de la santé de l'Armée de libération nationale pendant la révolution Algérienne (1954 – 1962), pour D.E.A en histoire, S/ la direction du pr. André Martel, université Paul Vallery – Montpellier 3, centre d'histoire militaire et études de défense nationale, juin 1985.
- Guentari Mohammed, l'armée de libération nationale en wilaya IV, préface par : Madleine Rébérioux, éd Casbah, Alger, 2006.
- Aleg Ali, la guerre d'Algérie, tome 2, éditions temps actuels, Paris, 1981 p 145. - Ahmed Benkhaled, les années de braises, chroniques médicales Algériennes, éd: houma, alger, 2004.
- Houne Bouzaher, Algerie 1954 – 1962, la guerre d'indépendance au jour le jour, édition Houma, Alger, 2004, p 359.
- Ben Atia Farouk, les actions humanitaires pendant la lute de liberation (1954 – 1962), ed: dahleb, Alger, 1997.

إسهامات أبي بكر الرازي الطبية وتأثيرها في أوروبا Abu Bakr al-Razi's medical contributions and Their impact on Europe

د. محمود زياد، وزارة التربية والتعليم، فلسطين
mah8670@yahoo.com

ملخص:

يعد الرازي (أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المولود بالري نحو سنة 250هـ = 864م) من الرواد الأوائل للطب ليس بين العلماء المسلمين فحسب، وإنما في التراث العالمي والإنساني بصفة عامة. وقد ذاعت شهرته في عصره حتى وصف بأنه جالينوس العرب، وقيل عنه: "كان الطب متفرقا فجمعه الرازي؟". ولقيت بعض كتبه الطبية رواجاً كبيراً وشهرة عظيمة، وانتقلت نظرياته العلمية إلى أوروبا، وقد ترجم العديد من كتبه إلى اللغات الأوروبية، واعتمدت عليها جامعات أوروبا، وظلت مرجعها الأول في الطب حتى القرن السابع عشر مثل كتابه الحاوي في علم التداوي، وكتابه المنصوري. فأبو بكر الرازي يُذكر في مجال الطب الإسلامي، ضمن الشخصيات المؤثرة في أوروبا؛ حيث لم يعرف أطباء أوروبا التعاليم الطبية الإغريقية – من ضمنها تعاليم أبقراط وجالينوس- إلا من خلال الترجمات العربية، وعلماء الطب الإسلامي. ولذلك سوف تسعى هذه الورقة إلى محاولة بيان تأثير الرازي في مجال الطب في أوروبا من خلال دراسة سيرته، وأبرز مؤلفاته وإسهاماته الطبية، وكيف استفاد الغرب من هذه المؤلفات الطبية؟ وقد استخدم الباحث المنهج الوصفي، وخلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج، من أهمها: 1. أفاد الأوروبيون من الطب العربي الكتب الطبية الجامعة التي تتناول جميع العلوم الطبية ككتاب الحاوي للرازي وغيرها من كتب الطب. 2. أفاد الأوروبيون الطب الكلينيكي الذي برع فيه الرازي وضمنه في كتابه الحاوي؛ حيث ابتدع علم التشخيص المقارن، واستقصاء الدلالات، والتمييز بين الأمراض المتشابهة.

الكلمات المفتاحية: الرازي، الطب، أوروبا، تأثير، الحاوي

Abstract:

Al-Razi (Abu Bakr Muhammad ibn Zakariya al-Razi, born in Rai around 250 H \ 864 AD) is one of the early pioneers of medicine not only among Muslim scholars, but also in world and human heritage in general. His fame spread in his time until he was described as Galenus of Arabia, and it was said about him : "Medicine was scattered until Al-Razi collected it" Some of his medical books were very popular and famous, and his scientific theories moved to Europe, and many of his books were translated into European languages, and European universities relied on them as their first reference in medicine until the seventeenth century, such as his book Al-Hawi on therapeutics, and his book Al-Mansouri. In the field of Islamic medicine, Abu Bakr al-Razi is mentioned among the

influential figures in Europe, where European physicians knew Greek medical teachings – including those of Hippocrates and Galenus only through Arabic translations and Islamic medical scholars. Therefore, this paper will attempt to show the influence of Al-Razi in the field of medicine in Europe by studying his biography, his most prominent books, and medical contributions, and how the West benefited from these medical literatures. The researcher used the descriptive approach, and the study concluded a set of results, the most important of which are: 1. Europeans benefited from Arab medicine written in comprehensive medical books dealing with all medical sciences, such as Al-Razi's Al-Hawi book and other medical books. 2. The Europeans benefited from clinical medicine, which Al-Razi excelled in and included in his book Al-Hawi, where he invented the science of comparative diagnosis, semantic investigation, and distinguishing between similar diseases.

Key words: Al-Razi, Medicine, Europe, Impact, Al-Hawi

1. مقدمة:

تتناول هذه الدراسة إسهامات أبي بكر الرازي الطبية وتأثيرها في أوروبا؛ حيث تسعى هذه الدراسة إلى تبيان كيف تأثرت أوروبا، وثقافتها وعلومها بالثقافة الإسلامية، وبخاصة أن هناك بعض المستشرقين يشيرون إلى هذا التأثير. فإلى أي مدى تأثر الغرب بالعلوم الطبية العربية والإسلامية؟ تحاول هذه الدراسة إلقاء الضوء على دور الأطباء العرب المسلمين، وما قدموه في هذا المجال؛ من خلال التركيز على أبي بكر الرازي صاحب المؤلفات الكثيرة، وبخاصة كتاب الحاوي، وكتاب المنصوري، اللذين يعدان من أهم مؤلفاته في مجال الطب؛ حيث تحاول هذه الورقة الإجابة عن إشكالية الدراسة المتمثلة في السؤال المركزي التالي: ما تأثير الرازي في مجال الطب في أوروبا؟ وكيف استفاد الغرب من هذه المؤلفات الطبية؟ وسيتم ذلك من خلال دراسة سيرته، وأبرز مؤلفاته وإسهاماته الطبية؟ فالرازي يعد من الرواد الأوائل للطب ليس بين العلماء المسلمين فحسب، وإنما في التراث العالمي والإنساني بصفة عامة. وقد ذاعت شهرته في عصره حتى وصف بأنه جالينوس العرب، وقيل عنه: "كان الطب متفرقا فجمعه الرازي؟".

وتسعى الدراسة لتحقيق الأهداف التالية:

1. إبراز شخصية أبي بكر الرازي.
 2. إبراز دور أبي بكر الرازي وتأثيره في مجال الطب في الغرب.
 3. إبراز دور الثقافة العربية الإسلامية في نهضة أوروبا.
- وتنبع أهمية الدراسة من كونها تتناول الطبيب الرازي، الذي ينظر إليه باعتباره أعظم أطباء القرون الوسطى، فهو أحد أعلام العرب في العلوم الطبية، ويعتبره المؤرخون أعظم أطباء الحضارة العربية الإسلامية، بالإضافة إلى كونه حجة في الطب والكيمياء في أوروبا حتى القرن السابع عشر. أما أسباب اختيار الموضوع؛ فتتمثل في:

أ. أسباب ذاتية،

1. الاهتمام بالتعرف إلى شخصية أبي بكر الرازي الطبيب الفيلسوف الموسوعي.
2. المشاركة في مؤتمر الطب عبر العصور.
- ب. أسباب موضوعية:
1. الرازي من موسوعات الطب الإسلامية.
2. نظرة الغرب للعرب والمسلمين واتهامهم بالتخلف، وإنكار البعض لإنجازات المسلمين عبر التاريخ.
3. دور الأطباء المسلمين وبخاصة الرازي في نهضة الطب في أوروبا حتى القرن السابع عشر.

ولتحقيق أهداف الدراسة؛ فقد استخدم الباحث المنهج الوصفي من خلال الاعتماد على النصوص المختلفة التي تناولت إسهامات الرازي ودوره في الحياة العلمية الإسلامية، بالإضافة إلى دوره في المجال الطبي وأثر ذلك في الغرب.

وانطلاقاً من ذلك، تم تقسيم الدراسة إلى مجموعة من المحاور منها: سيرته، ومؤلفاته، وتأثير الثقافة العربية الإسلامية في الغرب، وإنجازاته الطبية، وتأثيره في الغرب، بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة التي تحوي أهم النتائج.

2. أثر الثقافة العربية الإسلامية في الغرب

أفادت أوروبا من ثقافة المسلمين العلمية، وهو ما أكده بعض المؤرخين، فأوروبا مدينة للمسلمين بالكثير؛ حيث إن المسلمين هم الذين حملوا مصباح العلم في زمن كانت أوروبا غارقة فيه في دياجير الجهل. وقد عبر العالم "دريبر" المدرس في جامعة هارفرد عن ذلك حين أشار إلى أن جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الأوروبيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم. وكان الملوك الأوروبيون يذهبون إلى بلاد المسلمين من أجل العلاج، وأول مدرسة أنشئت للطب في أوروبا هي المدرسة التي أسسها العرب في "بالروم" من إيطاليا¹.

أشار الكاتب ت. "كولريونج" (T.C. Young) في حديثه عن أثر الثقافة الإسلامية في الغرب المسيحي بقوله: "إن الدّين الثقافي العظيم الذي ندين به للإسلام منذ أن كنا نحن المسيحيين، داخل هذه الألف سنة، نساfer إلى العواصم الإسلامية، وإلى المعلمين المسلمين ندرس عليهم الفنون والعلوم وفلسفة الحياة الإنسانية، يجب التذكير به دوماً. وفي جملة تراثنا الكلاسيكي الذي قام الإسلام على رعايته خير قيام حتى استطاعت أوروبا مرة أخرى، أن تتفهمه وترعاه. هذا كله يجب أن يمازج الروح التي نتجها بها نحن المسيحيين - نحو الإسلام، نحمل إليه هدايانا الثقافية والروحية، فلنذهب إليه إذًا - في شعور بالمساواة نؤدي إليه الدّين القديم. ولن نتجاوز حدود العدالة إذا نحن أدينا ما علينا بربحه. ولكننا سنكون مسيحيين حقًا إذا نحن تناسينا شروط التبادل، وأعطينا في حب واعتراف بالجميل"².

أما المستشرق الفرنسي "جوستاف لوبون" (Gustave Le Bon) في كتابه "حضارة العرب" فيقول: إن تأثير العرب في الغرب عظيم، وأن أوروبا مدينة للعرب بحضارتها، فلم يقتصر الغرب على ترجمة مؤلفات علماء العرب، كالرازي وأبي القاسم وابن سينا وابن رشد وغيرهم إلى اللغة اللاتينية، وإنما نقل إلى اللاتينية

¹ السائح، أحمد عبد الرحيم (2006)، علم الطب والجراحة، من التراث، ج 52، ع 2، القاهرة، ص 90

² الناييف، حسام جميل (2018)، "أثر الحضارة العربية في النهضة الأوروبية" مجلة جامعة دمشق، المجلد 34 ع 2، كلية

الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، دمشق، ص 159

كذلك كتب علماء اليونان، التي كان المسلمون قد ترجموها إلى لغتهم الخاصة، وهي كتب جالينوس وأبقراط، وأفلاطون، وأرسطو واقليدس وأرشميدس وبطليموس؛ وقد زاد ما ترجم من كتب العرب على ثلاثمائة كتاب كما روى "لوكلير" (Leclerc) في كتابه تاريخ الطب العربي¹.

فالثقافة العربية أنتجت كثيرًا ممّا لم تستطع الثقافة اليونانية إنتاجه في الحقول كلّها، من حيث الإضافات والتعليقات والابتكارات والاكتشافات العربية التي لم يعرفها اليونان. فحركة النقل من الثقافة العربية الإسلامية التي خرجت بها أوروبا من عصورها المتوسطة المظلمة إلى عصورها الحديثة المتنورة، لم تقتصر على نقل المعارف القديمة من يونانية وهندية وبابلية ومصرية من كتب باللغة العربية إلى اللغة اللاتينية فحسب، بل إن أوروبا المسيحية نقلت معارف عربية خالصة كذلك، كما نقلت أنماطاً من الحضارة الإسلامية، ومن الإيمان الإسلامي إلى حياتها العامة وحياتها الخاصة².

وقد ورد في كتاب "حاضر العالم الإسلامي" لشكيب أرسلان بحسب السايح، أن مؤرخ الطب لوكلير قال: إن من التراجم كان يوجد تسعون كتاباً مترجماً من العربية إلى اللاتينية في الطب منها أربعة تأليف لأبقراط، وخمسة وعشرون لجالينوس، والباقي لحكماء الإسلام كالرازي وأبو القاسم وابن سينا وابن زهر³. فالترجمات لكتب العرب وبخاصة العلمية ظلت مصدراً وحيداً، تقريبا، للتدريس في جامعات أوروبا؛ خمسة قرون أو ستة قرون، فتأثير العرب في بعض العلوم، كعلم الطب على سبيل المثال، دام إلى أيامنا؛ حيث شرحت كتب ابن سينا في مونبيلية في أواخر القرن الماضي، بحسب تعبير لوبون⁴.

ويعتبر المنهج العلمي التجريبي، الذي تدين له الحضارة الحديثة بما وصلت إليه من اكتشافات واختراعات، بعد أن تبنته واعتمده طريقاً للوصول إلى حقائق العلوم، يعتبر أحدث منجزات هذه الثقافة. فقد كانت الثقافة القديمة وبخاصة اليونانية تجهل الطريقة التجريبية، ولم تكن تُعنى إلا بالدراسات النظرية المجردة⁵.

وقد ذكر العقاد أن العرب لما تناولوا "الطب كانت هذه الصناعة في المرحلة بين تناسي النظريات القديمة ونشأة النظريات الحديثة، ولم تكن العلوم في طور يسمح بابتكار هذه النظريات، أو ابتكار الجديد

¹ لوبون، جوستاف (2013)، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ص 587

² الناييف، حسام جميل (2018)، أثر الحضارة العربية في النهضة الأوروبية، مصدر سبق ذكره، ص 160

³ السايح، أحمد عبد الرحيم (2006)، علم الطب والجراحة، مصدر سبق ذكره، ص 90

⁴ لوبون، جوستاف (2013)، حضارة العرب، مصدر سبق ذكره، ص 589

⁵ السايح، أحمد عبد الرحيم (2006)، علم الطب والجراحة، مصدر سبق ذكره، ص 87

منها، وتصرفوا في العلاج، فلم يتقيدوا برأي جالينوس في علاج الحرارة بالبرودة، والبرودة بالحرارة، بل كان منهم من يعالج البرد بالبرد في بعض الحالات، أو يجمع بين الحمية والتبريد والترطيب¹.

استطاع علماء العرب والمسلمين أن يضيفوا إلى علم الطب الكثير باكتشافهم بعض الأمراض التي لم يسبقهم أحد إلى معرفتها كالجدري وأمراض العيون، كما أضافوا الكثير إلى علم الطب في الأغذية والتوليد واكتشاف الدورة الدموية على يد العالم العربي ابن النفيس وغيرها، وظهرت براعتهم الفائقة في كشف صنوف الأدوية. كما سبق العرب غيرهم إلى فرض امتحان يجتازه الطبيب قبل منحه ترخيصاً بمزاولة مهنة الطب، كما انشؤوا نظام الحسبة الذي يفرض الرقابة على الأطباء والصيادلة منعاً للغش وتفادياً للكسب الحرام، وصيانة لكرامة المهنة، وقرروا توقيع العقوبة على من يسيء إلى مصالح الأمة. ويكفي أن نشير إلى أشهر طبيبين وهما الرازي وابن سينا، وإلى ثالث هو علي بن العباس المجوسي الذي اشتهر في أوروبا باسم هالي عباس. غير أنه يجدر بنا أن نذكر، أنه قد وصلت إلينا من تلك القرون الخمسة بين عامي 800 و1300 كتابات عربية في الطب ألفها أكثر من سبعين مؤلفاً، معظمهم من المسلمين².

3. أبو بكر الرازي (266 هـ/840 م-313 هـ/925 م)

أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، أطلق عليه لقب جالينوس العرب، أو طبيب العرب الأول، ويسميه كتاب اللاتينية رازيس "Rhases". وقد اختلف المؤرخون في تاريخ ميلاده ووفاته. وُلد في الري بفارس، ونشأ محباً للعلم، مشهوراً بالذكاء والفتنة، وعُرف عنه حب العلم والأدب والشعر، والفلسفة، والمنطق، والكيمياء. تعود شهرته، بشكل أساس، إلى كتابه الحاوي، حيث تُرجم إلى اللاتينية باكراً، وتعرفت أوروبا إلى الطب العربي من خلاله، وهو من أهم ما كتب العرب في الطب القديم. وللرازي كتاب آخر مشهور في الطب، هو الطب المنصوري، الذي ترجم إلى اللاتينية أيضاً، وأسهم إسهاماً كبيراً في شهرة الرازي في أوروبا في عصر نهضتها، وتميز كتاب الطب المنصوري في أنه كان أصغر حجماً من الحاوي؛ مما ساعد على انتشاره في العالم الإسلام³.

انطلق الرازي سعياً وراء تحقيق آماله وطموحه، إلى مدينة الشفاء ومدينة السلام، إلى بغداد عاصمة الدنيا قاطبة وكعبة كل ذي طموح وكل ذي قلب كبير يبغى الرفعة والسمو! وبكل قواه وتصميمه الأكيد اندفع في دراسة الطب. فتعلم على يد تلميذ تلامذة حنين بن اسحق، رئيس مترجمي ابن موسى وكثير

¹العقاد، محمود عباس (2013)، أثر العرب في الحضارة الأوروبية، كلمات للترجمة والنشر، القاهرة، ص 37

²النايف، حسام جميل (2018)، أثر الحضارة العربية في النهضة الأوروبية، مصدر سبق ذكره، مصدر سبق ذكره، ص (169).

³الرازي.. صاحب الحاوي وطبيب العرب الأول، الجزيرة، بتاريخ: 2022 /2/24، شوهده بتاريخ: 2023/4/12، في الموقع:

<https://bit.ly/3UuzaAY>

من الخلفاء ، وتعلم فن العلاج الإغريقي والفارسي والهندي والعربي الحديث العهد ، وعب منه عباً ، حتى إذا ما ارتوى قفل راجعاً إلى بلده الأم فتولى تدبير مارستان الري، ثم رئاسة أطباء البيمارستان المقتدري في بغداد؛ وبهذا تفتحت أمامه أبواب قصور الخليفة؛ ليعمل فيها طبيباً خاصاً ولم يمض وقت طويل حتى ذاعت شهرته في طول البلاد وعرضها وطبقت الأفاق، فزحف طلاب العلم من كل أطراف الامبراطورية رغبة منهم في تلقي المعرفة على أيدي الرازي، وتعلم فنون المعالجة والكشف، والمعاينة الطبية كلما سار بين مرضاه في مستشفياته الكبير. فكان ان ازدحمت قاعات التدريس بالأطباء وتلاميذهم وتلامذة غيرهم وكان هذا حدثاً جديداً. وأصبح الرازي حجة في علم الطب، ومرجعاً أخيراً لكل الحالات المستعصية ومعايناً لا يعرف الخطأ، ويسعى وراءه الجميع من كل حذب وصوب¹.

للرازي تصانيف، سعى أبو أصيبعة منها ٢٣٢ كتاباً ورسالة منها: "الهاوي" في صناعة الطب، وهو أجل كتبه، ترجم إلى اللاتينية وطبع فيها، و"الطب المنصوري" طبع باللاتينية، و"الفصول في الطب" ويُسمى "المرشد" نشر في مجلة معهد المخطوطات².

4. منجزات الرازي الطبية

كان الطب، كما أشار البعض، يعتبر في شرق البلاد الإسلامية وغربها من أرفع العلوم شأنًا، وأسماءها مقاماً. وما لا شك فيه أنه كان للمسلمين بحوث عميقة في الطب، وحصلوا على نتائج كبيرة فيه؛ فطوروا علم الطب، وفن الجراحة إلى أعلى الدرجات. وقد بقيت أوروبا تعتمد على تصانيفهم في الجراحة حتى الأزمنة المتأخرة، وكذا استعمالهم البنج في الجراحة، وغير ذلك كثير، كما اكتشفوا الكثير من المعالجات. ويعتبر الرازي هو أول من استعمل السبيرتو، والفتيلة ذات الطرفين في معالجة الجراح، كما أنه أول من استعمل الماء البارد في الحمى الدائمة³.

ويُعدّ الرازي أول من ميّز بدقة فائقة بين الجدري والحصبة. وعزل المصابين بالجدري في مشفاه، وأمر بعزلهم في البيوت، ويقول فيليب حتي: "وقد ألف الرازي أقدم كتاب طبي يميز فيه بين الحصبة والجدري، ولسنا نعلم: أن الإغريق أو غيرهم من الشعوب توصل إلى هذه المعرفة قبل عهد الرازي"⁴.

1 هونكه، زيفريد(1993)، شمس العرب تسطع على الغرب أثر الحضارة العربيّة في أوروبا، ط 8، ترجمة، فاروق بيضون وكمال دسوقي، مراجعة، مارون عيسى الخوري، دار الجيل، ودار الافاق الجديدة، بيروت، ص 244- 245

2 محمد، المصطفى عبد المقصود محمد (2018)، "دور علماء المسلمين في النهضة الأوروبية"، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، مج 3، ع 2، كفر الشيخ، مصر، ص 569

³ العاملي، جعفر مرتضى (1403 هـ). الآداب الطبية في الإسلام مع لمحة عن تاريخ الطب، جامعة المدرسين في الحوزة

العلمية (قم)، إيران، ص 48

⁴ المصدر السابق نفسه، ص 48

وكان الرازي أول من استخدم أمعاء الحيوان للحصول على الفتائل وخيوط الجراحة، ووصف جراحة استخراج الماء الأبيض، واستخدم المحاجم في علاج داء السكتة، ووصف الطاعون، وما نسميه اليوم بحمى الدريس، وكان أول من استخدم الزئبق في علاج الأمراض الجلدية. وقد خلف كتابات جمّة في الموضوعات كلّها العلمية والفلسفية التي كانت تدرس في زمانه، غير أنه من المجمع عليه أن علم الطب كان أكثر العلوم موافقة لنبوغه. ولا يزال بين أيدينا أكثر من خمسين مؤلّفًا له، من أفضلها رسالة في الجدي والحصبة ترجمت إلى اللاتينية واليونانية والفرنسية والإنكليزية، وأعظم كتبه هو كتاب (الحاوي) الذي كان بمنزلة موسوعة للمعارف الطبية كلّها حتى زمنه، والذي أكمله تلامذته بعد وفاته¹.

واكتشف الرازي زيت الزاج المسى اليوم حامض الكبريتيك، ويسمونه في اللغة العربية الزاج الأخضر، وكان قديماً يسمى زيت الرازي، وقد استخرجه من كبريتات الحديد، وطريقة استعماله لا تزال مستعملة كما هي. وقد استخرج الكحول "السيبرتو"، واستحضرها من المواد النشوية والسكرية المختمرة. وعرف الأمراض السارية، واخترع خلال المعروف عند أطباء العرب، وهو أن يثقب الجلد، ويمرر فيه خيطاً غليظاً ليسيل الصدود من الدنبلية، أو أي ورم آخر. ويكون الرازي باكتشافه السيبرتو، وأسيد السولفوريك قد قدم خدمة جليلة للطب، أما الفتائل ذات الطرفين؛ فإنها كانت لا تزال مستعملة إلى أواسط النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري². وكان الرازي أول من دوّن ملاحظاته على مرضاه ومراتب تطور المرض، وأثر العلاج فيه، وقال بالعدوى الوراثية، واستخدم الحيوان في تجارب الأدوية، وقد اهتم الرازي أيضاً بالعلوم التي لها علاقة بالطب؛ كعلم الكيمياء والأعشاب³.

كما إن الرازي هو أول من شرح تشعبات الأعصاب في الرأس والرقبة بشكل واف وواضح، وهو أول من أجرى عملية خياطة جرح المعدة بواسطة المصران المعوج في الغنم، كما أنه أول من اكتشف الطب المفصلي سريراً، واستعمل القطن. إن "علم الرازي وفضله على العلوم الطبية يرفعان من قدره ويجعلانه يحتل مرتبة بين عظماء المفكرين الخلاقين في أوروبا الوسيطة". ولست أدري أين هؤلاء العظماء الخلاقون في أوروبا الوسيطة؟! وهل كان في أوروبا آنذاك عظيم؟! أو ليست أوروبا لا تزال تعتمد على علم الرازي وعلماء المسلمين حتى أمس القريب؟! بحسب فيليب حتى⁴.

5. أثر الرازي في الغرب

¹ الناييف، حسام جميل (2018)، "أثر الحضارة العربية في النهضة الأوروبية"، مصدر سبق ذكره، ص 169-170
² العاملي، جعفر مرتضى (1403 هـ). الآداب الطبية في الإسلام مع لمحة عن تاريخ الطب، مصدر سبق ذكره، ص 49
³ محمد، المصطفى عبد المقصود محمد (2018)، "دور علماء المسلمين في النهضة الأوروبية"، مصدر سبق ذكره، ص 612
⁴ العاملي، جعفر مرتضى (1403 هـ). الآداب الطبية في الإسلام مع لمحة عن تاريخ الطب، مصدر سبق ذكره، ص 49

أشاد بعض المستشرقين الغربيين ببراعة الرازي، حيث كانوا يصفونه (Rhazes)؛ فقال عنه ستابلتون الإنجليزي بأنه: "بقي بلا ندد حتى بزوغ فجر العلم الحديث بأوروبا"، وعلقت مدرسة الطب بباريس صورة ملونة للرازي إلى جانب ابن سينا وابن رشد، وخصصت جامعة برنستون الأميركية أفخم ناحية في أجمل مبانيها لعرض مآثره¹.

وقد قدّم ريتشارد وولزر (Richard Walzer) أحد أهم مؤرخي الفلسفة العربية رأيه في الرازي حيث يقول: إننا نشعر عند قراءة كل سطر كتبه الرازي بأننا أمام فكر عال، ورجل يعرف قدره الخاص دون أن يؤدي به ذلك إلى الغرور، وهو لا يحسب نفسه أدنى مستوى لا في الفلسفة ولا في الطب، وحسب رأيه ليس بالإمكان التفوق على سقراط أو أفلاطون أو أرسطوطاليس، أو أبقراط، أو جالينوس، لكنه لا يتردد في تغيير استنتاجاتهم الفلسفية عندما يشعر بأنه قد تجاوزها معرفة، كما لا يتردد في أن يضيف إلى مجموعة العلوم الطبية المتراكمة ما اكتشفه بنفسه بواسطة أبحاثه وملاحظاته الشخصية، ففي كل مرة عندما كان يدرس مرضاً خاصاً، كان يبدأ بتلخيص جميع المعطيات التي يستطيع الحصول عليها حول هذا الموضوع من المصادر اليونانية والهندية المتوفرة في الترجمات العربية، ومن أعمال الأطباء العرب المحدثين، ولم يكن يفوته أبداً إضافة رأيه الخاص أو حكمه الشخصي، ولم يكن يعترف بكفاءة أية شخصية استناداً إلى شهرتها فقط².

وقد ذاعت شهرته في عصره حتى وصف بأنه جالينوس العرب، وقيل عنه: "كان الطب متفرقاً فجمعه الرازي؟". ولقيت بعض كتبه الطبية رواجا كبيرا وشهرة عظيمة، وانتقلت نظرياته العلمية إلى أوروبا، وقد ترجم العديد من كتبه إلى اللغات الأوروبية، واعتمدت عليها جامعات أوروبا، وظلت مرجعها الأول في الطب حتى القرن السابع عشر مثل كتابه الحاوي في علم التداوي والذي ترجم إلى اللاتينية وطبع لأول مرة في بريشيا في شمال إيطاليا عام 891هـ = 1486م، وهو أضخم كتاب طبع بعد اختراع المطبعة مباشرة، ثم أعيد طبعه مراراً في البندقية في القرن 10هـ = 16م، وقسم كتاب الحاوي في الطبعة اللاتينية إلى خمسة وعشرين مجلداً³.

فكتاب الحاوي يستعمل ككتاب مدرسي في المعاهد الطبية الأوروبية، إن علم الرازي وفضله على العلوم الطبية يرفعان من قدره، ويجعلانه يحتل مرتبة بين عظماء المفكرين الخلاقين في أوروبا الوسيطة".

¹أيوب، محمد شعبان، أبو بكر الرازي.. طبيب مسلم لن يحدثك عنه الغرب، الجزيرة، في: 2018/3/10، شوهده بتاريخ:

https://bit.ly/3nXWlls، في الموقع: 2023/4/12

²أيوب، محمد شعبان، أبو بكر الرازي.. طبيب مسلم لن يحدثك عنه الغرب، مصدر سبق ذكره، موقع الكتروني

³حلي، سمير، أبو بكر الرازي.. أبو الطب العربي والعالم الموسوعي، إسلام أون لاين، د. ت، شوهده بتاريخ: 2023-4-12، في

الموقع: https://bit.ly/3mnUUIA

ولم يقتصر الأمر على كتاب الحاوي من مصنفات الرازي؛ بل إن أكثر مصنفاته قد ترجمت إلى اللاتينية وطُبعت مرارا ابتداء من سنة 1509 ميلادية¹. ويعتبر "الحاوي" أضخم كتاب عربي وصل إلينا كاملاً، وهو ما زال ضخماً غنياً بالمعلومات الطبية لم يسبر غوره، ولم يدرس بدقة وتأصيل؛ لكثرة ما تضمنه من أسماء الأدوية وصيدلية تركيبها، وأسماء الأطباء من العرب وغير العرب، الذين أخذوا في مؤلفاتهم من هذا الكتاب. ولضخامة الكتاب بهذا الشكل، لم يقرضه طبيب من الذين أعقبوا الرازي، وكل ما فعله الممارسون من بعده أن تداولوا صوراً مختصرة منه. اشتهر "الحاوي" بذكر عدد كبير من الحالات السريرية التي تجاوز عددها المائة حالة. وبذلك فقد تميز على كتاب "القانون" لابن سينا، وعلى "كامل الصناعة الطبية" لعلي بن العباس، وعلى كتب الرازي الأخرى ككتاب "المنصوري" وغيره. فالحاوي موسوعة طبية اشتملت على كل ما وصل إليه الطب إلى وقت الرازي، ففيه أعطى لكل مرض وجهة النظر اليونانية، والسريانية، والهندية، والفارسية، والعربية، ثم يضيف ملاحظاته "الإكلينيكية"، ثم يعبر عن ذلك برأي نهائي؛ ولذلك اعتبر "الحاوي" من الكتابات المهمة في مجال الطب، التي أثرت تأثيراً بالغاً على الفكر العلمي في أوروبا؛ إذ ينظر إليه عادة على أنه أعظم كتب الطب قاطبة حتى نهاية العصور الحديثة.

وقد كانت الملاحظات المتعلقة بالمرضى تدون، فكل شيء يسجل ويعطى حقه من البحث، حتى أقل الظواهر قيمة وأكثرها غموضاً، ثم يحفظ في محضر خاص ابتداء من الأحاديث المخطوفة إلى سلسلة الملاحظات التي تتوالى فيما بعد كلما أمعن الطبيب في المعاينة. وكان لدى المستشفيات محاضر عن الفحوص بكاملها وعن الكشف بأجمعه مختلف العقاقير التي وصفت وتأثير كل منها وعن تطور حالة وعن المريض.. الخ. وبكلمة واحدة تاريخ المرض، كما نسميه في أيامنا الحاضرة. ومن هذه المحاضر والتقارير عن المرضى في مستشفيات بغداد الكبيرة وغيرها خلال الربع الأول من القرن العاشر، خرجت إلى الوجود موسوعة طبية ضخمة، استعملها الأطباء الأوربيون خلال مئات السنين ككتاب للتعليم، واستعان بها أصحابها في تصريف أموره الخاصة وتعليم تلاميذه. وكان واضح تلك الموسوعة الهائلة رجل ذاعت شهرته في الأفاق حتى أنه لقب "بأعظم طبيب في القرون الوسطى" و"بأحد أطباء العصور كلها، إنه الرازي أحد أعظم أطباء الإنسانية اطلاقاً.

تحدثت هونكة عن الرازي في كتابها شمس العرب تطلع على أوروبا بالقول: كانت كلية الطب الباريسية قبل ٦٠٠ عام أصغر مكتبة في العالم، ولم تكن تحتوي إلا على مؤلف واحد، وهذا المؤلف كان لعربي كبير. وكان هذا الأثر العظيم ذا قيمة كبيرة، وما يدل على ذلك أن لويس الحادي عشر ملك المسيحية الشهير، اضطر إلى دفع اثني عشر ماركاً من الفضة ومائة تالر (Taler) من الذهب الخالص مقابل استعارة

¹ العاملي، جعفر مرتضى (1403 هـ). الآداب الطبية في الإسلام مع لمحة عن تاريخ الطب، مصدر سبق ذكره، ص 36

هذا الكنز الغالي، رغبة منه في أن ينسخ له أطباؤه نسخة، كي يرجعوا إليها في حال أصابه مرض أو هدد صحته أو صحة عائلته داء¹.

كان هذا الأثر العلمي الضخم "الحاوي" يضم كل المعارف الطبية منذ أيام الإغريق حتى عام ٩٢٥ بعد الميلاد، وظل المرجع الأساسي في أوروبا لمدة تزيد على الأربعمائة عام بعد ذلك التاريخ، دون أن يزاخمه مزاحم أو تؤثر فيه أو في مكانته مخطوطة من المخطوطات الهزيلة التي دأب في صياغتها كهنة الأديرة قاطبة، وهو العمل الجبار الذي خطته يد عربي قدير، ولقد اعترف الباريسيون بقيمة هذا الكنز العظيم وبفضل صاحبه عليهم وعلى الطب إجمالاً؛ ولذلك أقاموا له نصباً في باحة القاعة الكبيرة في مدرسة الطب لديهم، وعلقوا صورته وصورة عربي آخر في قاعة أخرى كبيرة تقع في شارع سان جرمان، حتى إذا ما تجمع فيه اليوم طلاب الطب وقعت أبصارهم عليها، ورجعوا بذاكرتهم للوراء يسترجعون تاريخه² (هونكة، 1993، ص 442). كما لا تزال جامعة "برنستون" الأمريكية تحتفظ بكتب الرازي في قاعة أفخم قاعاتها، أطلق عليها اسمه اعترافاً بفضلته ومآثره على علم الطب في العالم أجمع³.

ويقول الدكتور فيليب حتي: "في القرن العاشر للميلاد ظهر أطباء مسلمون من المرتبة العالية أغنوا بمؤلفاتهم التراث الطبي في الشرق وفي الغرب. وكان معظم أولئك الأطباء من الفرس إنما كانوا يؤلفون كتبهم باللغة العربية"⁴.

ويذكر جوستاف لوبون: أن كتب الرازي قد ترجمت إلى اللاتينية، وطبعت مراراً، وبخاصة في البندقية سنة 1509 م، وسنة 1528 م وسنة 1748 م في باريس، كما أعيد طبع الترجمة الخاصة بكتابه "في الجدري والحصبة" سنة 1745 م، وظلت جامعات أوروبا تعتمد على كتبه مدة طويلة، بالإضافة إلى ذلك كانت كتبه وكتب ابن سينا، أساساً للتدريس في جامعة لوفان في القرن السابع عشر الميلادي⁵. فعلم الرازي وفضلته على العلوم الطبية يرفعان من قدره، ويجعلانه يحتل مرتبة بين عظماء المفكرين الخلاقين في أوروبا الوسيطة.

¹ المصدر السابق نفسه، ص 442

² المصدر السابق نفسه، ص 442

³الناصر، فيصل عبد اللطيف. (2018). "أبو بكر محمد ابن زكريا الرازي: حياته وانجازاته الطبية". المجلة الدولية للأداب

والعلوم الانسانية والاجتماعية، ع11، ص 30. مسترجع من: <http://search.mandumah.com/Record/946165>

⁴ العاملي، جعفر مرتضى (1403 هـ). الآداب الطبية في الإسلام مع لمحة عن تاريخ الطب، مصدر سبق ذكره، ص 44

⁵لوبان، جوستاف (2013)، حضارة العرب، مصدر سبق ذكره، ص 505

6. خاتمة

قام العلماء العرب في العصور الإسلامية بدورهم في بناء النهضة العلمية الأوروبية، وقدموا لأوروبا زاد نهضتها، وكانوا آباء العلم الحديث، وأنه كان لا بدّ من وجود ابن الهيثم، وابن سينا، والخوارزمي والبيروني، لكي يظهر جاليليو، وكبلر، وكوبرنيك، ونيوتن¹.

وقد أسهم الأطباء المسلمون بالارتقاء بالطب علماً وصناعة، فقد أفاد الأوروبيون من الطب العربي الكتب الطبية الجامعة التي تتناول جميع العلوم الطبية ككتاب الحاوي للرازي وغيرها من كتب الطب. وكذلك الطب الكلينيكي الذي برع فيه الرازي وضمّنه في كتابه الحاوي؛ حي ابتدع علم التشخيص المقارن، واستقصاء الدلالات، والتمييز بين الأمراض المتشابهة.

قامت الثقافة العربية الإسلامية بدورها في بناء النهضة العلمية العالمية، فأثر العلماء العرب والمسلمون في النهضة الأوروبية. فكان طابع الثقافة العربية الإسلامية غالباً وواضحاً ومؤثراً في عديد من المجالات العلمية والفكرية والثقافية. فالثقافة العربية الإسلامية كانت واسطة العقد بين العلوم والثقافات القديمة وبين النهضة الأوروبية. تأثر علماء المسلمين بمن سبقهم، وهم بدورهم أثروا فيمن لحقهم من علماء النهضة الأوروبية الذين قرؤوا أعمال العلماء العرب في كتبهم المترجمة إلى اللغة اللاتينية واللغات الأوروبية. ظهرت النهضة الأوروبية الحديثة امتداداً للنهضة العربية الإسلامية؛ إلا أن النهضة العربية توقفت عن التطور في الاتجاه الذي يجعلها قادرة على أن تحقق ما كان كامناً فيها، في حين أن الحضارة الأوروبية الحديثة قامت على أساس واضح من الحضارة الإسلامية.

أما فيما يخص الرازي فليس أفضل من أن نختم بشهادة زيغرد هونكة التي قالت عنه: "في شخصية الرازي الطبيب، تتجسد، كما في المرأة، كل ما امتاز به الطب العربي وما حققه من فتوحات علمية باهرة. فهو الطبيب الذي عرف واجبه حق المعرفة، وقدس رسالته كل التقديس فملأت عليه نفسه وجوانب قلبه وهو ينقذ المعوزين ويساعد الفقراء! وهو الموسوعي الشمولي الذي استوعب كل معارف سالفه في الطب وهضمها وقدمها للإنسانية أحسن تقديم! وهو الطبيب العملي الذي يعطي للمراقبة السريرية أهميتها وحقيقتها! وهو المراقب المفكر والباحث الكيماوي المستقل والمجرب الناجح! وهو أخيراً المنهج في عمله الذي أضفى على الطب في عصره، نظاماً رائعاً ووضوحاً يثير الإعجاب!"².

¹ الناييف، حسام جميل (2018)، "أثر الحضارة العربية في النهضة الأوروبية، مصدر سبق ذكره، ص 176

² هونكة، زيغرد (1993)، شمس العرب تسطع على الغرب أثر الحضارة العربيّة في أوربتة، مصدر سبق ذكره، ص 256

7. المراجع

حسني، أحلام محسن (2015)، الطب العربي وأثره على المعرفة الطبية في أوروبا، مجلة التراث العلمي العربي، ع 3، مركز إحياء التراث العلمي، جامعة بغداد، بغداد.

السائح، أحمد عبد الرحيم (2006)، علم الطب والجراحة، من التراث، ج 52، ع 2، القاهرة.
العالمي، جعفر مرتضى (1403 هـ). الآداب الطبية في الإسلام مع لمحة عن تاريخ الطب، جامعة المدرسين في الحوزة العلمية (قم)، إيران.

العقاد، محمود عباس (2013)، أثر العرب في الحضارة الأوروبية، كلمات للترجمة والنشر، القاهرة.
الفاقي، محمد. (1981). "مجموعة من العلماء والاطباء والفلاسفة العرب كان لهم أثر كبير على النهضة الأوروبية". مجلة الجامعة الإسلامية، ع 9، 32 - 40. مسترجع من <http://Search.Mandumah.Com/Record/377666/>

لوبون، جوستاف (2013)، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتير، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر.
محمد، المصطفى عبد المقصود محمد (2018)، "دور علماء المسلمين في النهضة الأوروبية"، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، مج 3، ع 2، كفر الشيخ، مصر.

الناصر، فيصل عبد اللطيف. (2018). "أبو بكر محمد ابن زكريا الرازي: حياته وانجازاته الطبية". المجلة الدولية للآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية، ع 11، 12 - 32. مسترجع من: <http://search.mandumah.com/Record/946165>
النايف، حسام جميل (2018)، "أثر الحضارة العربية في النهضة الأوروبية" مجلة جامعة دمشق، المجلد 34 ع 2، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، دمشق.

هونكة، زيفريد (1993)، شمس العرب تسطع على الغرب أثر الحضارة العربيّة في أورويّة، ط 8، ترجمة، فاروق بيضو وكمال دسوقي، مراجعة، مارون عيسى الخوري، دار الجيل، ودار الافاق الجديدة، بيروت.
وديع، أمين (2006) "أبو بكر الرازي الطبيب الفيلسوف". أدب ونقد، مج 23، ع 250، 74 - 64. مسترجع من <http://search.mandumah.Com/Record/354918>

المواقع الإلكترونية

أيوب، محمد شعبان، أبو بكر الرازي.. طبيب مسلم لن يحدثك عنه الغرب، الجزيرة، في: 2018/3/10، شوهده بتاريخ: 2023/4/12، في الموقع: <https://bit.ly/3nXWlls>

حربي، خالد أحمد، علوم حضارة الإسلام ودورها في الحضارة الإنسانية، إسلام ويب، د. ت، شوهده بتاريخ: 2023/4/12، في الموقع: <https://bit.ly/3zQdnKr>

حلي، سمير، أبو بكر الرازي.. أبو الطب العربي والعالم الموسوعي، إسلام أون لاين، د. ت، شوهده بتاريخ: 2023-4-12، في الموقع: <https://bit.ly/3mnUUIA>

الرازي.. صاحب الحاوي وطبيب العرب الأول، الجزيرة، بتاريخ: 2022 /2/24، شوهده بتاريخ: 2023/4/12، في الموقع: <https://bit.ly/3UuzaAY>

دور التأليف الطبية ومساهمتها في تقدم الحضارة الغربية -طب الفقراء والمساكين لابن الجزار القيرواني أنموذجا-

The role of medical authors and their contribution to the progress of Western civilization The Medicine of the Poor and Needy by Ibn al-Jazzar al-Qayrawani as a model-

د.ة. خليلي بختة، د.ة. رحمانى فاطمة الزهراء

جامعة غليزان، (الجزائر)

bakhta.khelili@univ-relizane.dz

ملخص:

ان لكتب الطب دور واسهام كبير في تقدم الحضارة الغربية ، فلا يخفى علينا ان الحضارة العربية الاسلامية كانت رائدة في مجال الطب خلال العصور الوسطى ، مقارنة بالطب الأوروبي خلال هذه المرحلة. كان لتلك التأليف الطبية اثر كبير وواضح في تنمية وانتشار سلوكيات صحية لدى الأروبيين، ومن بين تلك الاسماء التي لمعت في هذا المجال العالم والطبيب ابن الجزار القيرواني صاحب العديد من التأليف الطبية ، منها كتاب طب الفقراء والمساكين .

عرف هذا الطبيب بمزاولته لمهنة الطب الذي سعى من خلاله الى اعطاء وصفات طبية يسهل وجودها باقل ثمن وايسر كلفة .

وعليه سنروم من خلال هذه الورقة البحثية الى محاولة التطرق لمختلف التأليف الطبية، واثرها في تقدم الحضارة الغربية، وتقديم قراءة لكتاب طب الفقراء والمساكين كعينة من الكتب التي ساهمت في تقدم الغرب في مجال العلوم الطبية .

الكلمات المفتاحية: الطب، الحضارة الغربية، الحضارة العربية، ابن الجزار القيرواني، التأليف الطبية.

summary:

Medical books have a great role and contribution to the progress of Western civilization, so it is clear to us that the Arab-Islamic civilization was a pioneer in the field of medicine during the Middle Ages, compared to European medicine during this stage.

These medical writings had a significant and clear impact on the development and spread of healthy behaviors among Europeans. Among those names that shone in this field were the scholar and physician Ibn al-Jazzar al-Qairwani, the author of several medical publications, including the book Medicine of the Poor and Needy.

This doctor was known for his practice of the medical profession, through which he sought to give medical prescriptions that are easy to find at the lowest and most affordable price.

Accordingly, we will aim through this paper to try to address the various medical writings and their impact on the progress of Western civilization, and to present a reading of the book Medicine of the Poor and Needy as a sample of books that contributed to the progress of the West in the field of medical sciences.

Keywords: Medicine, Western civilization, Arab civilization, Ibn al-Jazzar al-Qayrawani, medical writings.

مقدمة:

إن لكتب الطب دور واسهام كبير في تقدم الحضارة الغربية، فلا يخفى علينا ان الحضارة العربية الاسلامية كانت رائدة في مجال الطب خلال العصور الوسطى، مقارنة بالطب الأوروبي خلال هذه المرحلة. كان لتلك التأليف الطبية أثر كبير وواضح في تنمية وانتشار سلوكيات صحية لدى الأوروبيين. ومن بين تلك الاسماء التي لمعت في هذا المجال العالم والطبيب ابن الجزار القيرواني صاحب العديد من التأليف الطبية، منها كتاب "طب الفقراء والمساكين". عرف هذا الطبيب بمزاويلته لمهنة الطب الذي سعى من خلاله الى اعطاء وصفات طبية يسهل وجودها باقل ثمن وايسر كلفة.

وعليه سنروم في هذه الورقة البحثية الى محاولة الاجابة على الطرح التالي: الى اي مدى ساهمت التأليف الطبية العربية المغاربية في تقدم الحضارة الغربية وازدهارها، ومن هم أبرز هؤلاء الاطباء الذين كان لهم دور فعال في ذلك، وكيف انتقلت تلك التأليف الى الغرب الأوروبي؟ وللإجابة على هذا الطرح اعتمدنا في هذا البحث على المنهج التاريخي السردى التحليلي والمنهج الوصفي الذي يلائم الموضوع المدروس حيث يصف لنا الظاهرة ويثبتها.

1- الحضارة العربية وأهم عوامل تفوقها وازدهارها:

1-1 ماهية الحضارة:

الحضارة بمفهومها العام تشمل مجموعة العلوم والفنون والقوانين والآداب والرسوم والعادات التي تميز الحالة الفكرية والسياسية والاقتصادية والصناعية، وسائر المظاهر المادية والمعنوية في حياة امة من الامم ضمن حقبة معينة من الزمن، والحضارة بمفهوم اخر هي مرحلة سامية من مراحل التطور الانساني، وتعني جملة مظاهر الرقي العلمي والادبي والفني التي تنتقل من جيل إلى اخر في مجتمع او مجتمعات متشابهة، ولكل حضارة نطاقها ولغاتها وطبقاتها، كما تعرف على انها مجموعة ظواهر اجتماعية مركبة، ذات طبيعة قابلة للتناقل، تتسم بسمه دينية واخلاقية وجمالية وفنية وتقنية وعلمية¹.

1- المنهج عبد الله عبد الهادي سؤال الثقافة والمثقف، بغداد، 2014، مجلة آداب المستنصرية، المجلد 38، العدد 66، ص 34-01

كما يعرفها ابن خلدون في قوله "الحضارة نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير"¹، فالحضارة بالمعنى الخلدوني مرافقة للمدنية، حيث إنها تعني درجة عالية من التقدم، التي تبلغه الأمم التي تنتقل من مستوى الفساد إلى مستوى اللاتعقل مارة بشيء من الرفه لتكمل دورة حضارية ثم تعود من جديد إلى حالتها الأولى التي كانت عليها، وفي تعريف آخر. هي "أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه المادي"²....

وبعد ان تطورت فلسفة التاريخ عند المسلمين انتقل مفهوم الحضارة من التفسير البطولي إلى التفسير العلمي. وما يظهر من القول السابق هو ان الحضارة في نظر ابن خلدون مرحلة من الرقي تمنح الإنسان تفكيراً مبدعاً، يتجرأ من خلاله على الإنجازات الخالدة، كالعمران وحسن التصرف ثم يتدرج منحدرًا إلى اللاحضارة متى يحين موعد السقوط والتولي والانحطاط. فالحضارة دورة مكتملة تبدأ من النهوض والتعقل، فالإبداع والازدهار والتشبع والاستقرار والترف، ثم تخلد إلى معطيات الفناء والنكوس من ترف وفساد

واستبداد، ومنه إلى الاضمحلال والزوال. وعليه فالحضارة في التفكير الخلدوني هي مجموع العوامل المحققة للاستقرار بأنواعه،

2-1 الحضارة العربية الاسلامية وتطورها:

الحضارة الاسلامية هي حضارة بنيت على الاسلام فالفكر الاسلامي هو الذي بناها وشيدها فيمكن تسميتها حضارة انسانية لكونها تشمل مختلف جوانب الحياة كما تستحق بجدارة ان تسمى حضارة ربانية لأنها تعود إلى العلم الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام.

قامت هذه الحضارة من تفاعل مجموعة الثقافات الخاصة بالشعوب التي دخلت إلى الاسلام، كما انها خلاصة تفاعل الحضارات الموجودة في المناطق التي وصل اليها الاسلام اثناء الفتح الاسلامي، لذا يمكن ان تعد هذه الحضارة ارثًا تشارك فيه جميع الشعوب والامم التي انضوت تحت لواء الاسلام، واسهمت في بنائها وازدهارها.³

1- ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة لكتاب يوان المبتدا والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الاكبر. دار الفكر، 2007، بيروت، ص 137،

2 - المصدر نفسه، ص 405.

3 - سيد عبد الماجد الغوري، اثر الحضارة الاسلامية في الغرب، بحث مقدم في المؤتمر "المعاني الحضارية في الاسلام"، 2019، ص 05--

الحضارة الإسلامية عملت على بذل المجهود من أجل تكميل النوع الانساني وتحقيق الازدهار والتقدم في كثير من المجالات في احوال الانسانية وفي احوال العالم الواقعي¹
1-3 مرتكزات وعوامل تطور الحضارة الإسلامية:

وارتكزت الحضارة الإسلامية على ركائز مهمة منها: ركيزة التوحيد التي تعتبر اعظم خاصية منحها الله للإنسانية جمعاء فهي عقيدة متدفقة بالقوة والحياة، وركيزة العدل التي لها اهمية كبيرة في تحقيق الامن والاستقرار في المجتمع، والحث على الطاعات فهذه الركيزة من اهم القواعد السياسية في المجتمع الإسلامي ومن اهم ميزات الحضارة الإسلامية، وركيزة العلم التي تعتبر من اعظم خصائص الإسلام التي حث عليها حثا كبيرا اذ اول ما انزل به الله سبحانه وتعالى على رسوله سورة العلق " اقرا باسم ربك الذي خلق"²، كما حثنا النبي عليه الصلاة والسلام على طلب العلم ونشره مصداقا لقوله عليه الصلاة والسلام " من سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله له طريقا إلى الجنة"³، اما العوامل التي ساهمت في تطور الحضارة العربية الإسلامية فنذكر:

- 1- حرية الراي العلمي- فلم يتعرض عالم لمحنة بسبب رأيه العلمي
- 2- رعاية الحكام والساسة للعلم والعلماء، وتقديم لهم افضل العطايا وتسخير وتجنيد كل الظروف للبحث في شتى العلوم.
- 3- استعلاء العلماء بعلمهم، وزهدهم عن الدنيا والسلطة
- 4- الاستعداد الذهني مع الصبر والمصابرة والمثابرة، حتى ان اعمال العالم منهم من المؤلفات تعد بالعشرات، في اغلب الاحيان.⁴

1-4 أماكن ازدهار الحضارة العربية الإسلامية:

قامت الحضارة العربية الإسلامية بمكة والمدينة المنورة مع بداية قيام الدولة المحمدية بشبه الجزيرة العربية، ثم تعددت مراكزها على حسب قيام الدول التي تعاقبت على خلافة الامة الإسلامية فكانت كل دولة او خلافة تترك بصمتها الخاصة في ازدهار الحضارة ليزداد رونقها وعظمتها بأساليب مختلفة. ففي عصر الخلافة الاموية وبالضبط في عاصمتها دمشق نبغت حضارتنا بمظاهرها المختلفة، وفي بغداد عاصمة الخلفاء العباسيون نضجت ووصلت مستوى مرموقا منذ اواخر القرن الثاني بعد الهجرة، وفي المغرب

1 - مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا. دار الورق، الرياض، 1999، ص38.

2 - سورة العلق، الآية:01

3 - اخرجه الترميذي في الجامع، ابواب العلم، باب: فضل العلم برقم 2642، وقال هذا حديث حسن.

4 - أحمد علي الملا، اثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 1981، ص116.

الإسلامي تعاضمت مع تعاقب الدول عليه واختلفت حضارة كل دولة عن الأخرى، وفي الأندلس ازدهرت وانتقلت منها إلى الغرب.¹

2- أوروبا في العصور الوسطى قبل النهضة:

عمد الكثير من المؤرخين إلى تقسيم التاريخ إلى أربعة عصور مختلفة تتباين فيما بينها في مختلف المظاهر الحياتية وهذه العصور هي - القديم والوسيط والحديث والمعاصر - ومن الطبيعي ان يمتد الانتقال من عصر إلى آخر لسنوات طويلة.

وحدثنا اليوم هو عن العصور الوسطى، هذه الفترة التي تألفت فيها الحضارة العربية الإسلامية يمتد زمنها من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر الميلادي، بدأت بعد سقوط الامبراطورية الرومانية سنة 476م، وامتدت إلى عصر النهضة الأوروبية، عرفت حضارة أوروبا خلال هذه الفترة الانحطاط والتراجع، ولم يتبق من حضارة الرومان القدامى سوى ما بقي من قلة قليلة من مدارس الاديرة والكاتدرائيات، والبلاط و القصور الملكية، ويمكن ان نسي فترة من نهاية القرن الرابع إلى القرن السادس فترة موت المدن الأوروبية لكثرة الحروب والدمار الشامل والخراب الذي حل بها، واستمر الوضع باضمحلال الكثير من المدن إلى غاية القرن الحادي عشر الميلادي.²

أطلق الأوروبيون هذا المصطلح (العصور الوسطى) على تلك الفترة المظلمة من تاريخهم التي ساد فيها الضعف والانحطاط وهي الفترة ما بين 400 إلى 1400، حيث لم يبق من معارف الرومان والاغريق التي ازدهرت في أوروبا سوى القليل، وتميزت هذه الفترة بتفشي الجهل والتشدد الديني وتعاضم دور الكنيسة في مختلف اطوار الحياة وانتشار الحروب الطاحنة بين الشعوب الأوروبية والجرمانية.³

كانت أوروبا في العصور الوسطى تعيش في ظلام، فكان العقل والفكر يغطان في نوم عميق وصراع دامي بين السلطة الدينية والسلطة الحاكمة وبين بعض الملوك والامراء.⁴

دخلت المسيحية في صراع عنيف مع الدولة الرومانية استمر عدة قون، خرجت المسيحية في النهاية منتصرة لتبح الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية، وهكذا سيطرت الكنيسة على حياة الأوروبيين في تلك

1 - سيد عبد الماجد الغوري، مرجع سابق، ص 08.

2 - صبر انتظار جاسم، خصائص مدن العصور الوسطى في اوروبا الغربية، الانبار، العراق، مجلة جامعة الانبار للعلوم الانسانية، المجلد 1/ العدد 3، ص 172-195.

3 - المصباحي حسونة، هل كانت القرون الوسطى مظلمة حقاً، (2015/10/01)، للتصفح: <https://alarab-co-uk.translate.goog>، تاريخ الزيارة: 2023/04/10، الساعة: 22:00.

4 - جلال مظهر، حضارة الاسلام واثرها في الترقى العالمي، دار مصر للطباعة، مصر، 1984، ص 14

العصور، فكانت الكنيسة صاحبة الصدارة الفكرية وأصبح رجل الدين هو الوحيد الذي يفهم في كل شيء (القراءة، الكتابة، الحساب ليوم القيامة، شؤون الإدارة)¹.
إلا أنَّ الحقبة التي تبدأ من القرن الثامن الميلادي حتى عصر النهضة الأوروبية الحديثة في القرن 15 الميلادي والتي احتك فيها الإسلام بأوروبا سياسياً وحربياً وأسس مراكز لحضارته في جنوب أوروبا وغربها الجنوبي ووقف فيها المعلم يلقي أوروبا حضارة خصبة الجوانب، كثيرة الروافد، امتزج فيها التراث العربي بتراث غيرهم من الأمم التي اعتنقت الإسلام، وكان موقف أوروبا آنذاك أشبه بموقفنا نحن من الحضارة الغربية اليوم.

3- جسور ومعابر انتقال الحضارة العربية إلى الغرب الأوروبي:

من أهم المعابر التي انتقلت عبرها الحضارة الإسلامية إلى أوروبا هي ثلاث معابر رئيسية كبرى:

1-3 الأندلس:

كانت أهم طريق لانتقال الحضارة الإسلامية إلى الغرب، فقد بدأ فيها حكم المسلمين في القرن الثامن الميلادي، وانتقلت بالتدريج إلى مرحلة الاستقرار فأولت الاهتمام بالبناء والتشييد، فأعطوا أهمية بالغة للزراعة وتعمير المدن المخربة، وتشيد القلاع والحصون المنيعه، وإنشاء المدارس والجامعات والمكتبات² فبلغت الحضارة ذروتها بالأندلس في النصف الثاني من القرن العاشر ميلادي وكانت تضم عدد كبير من الطلاب المسيحيين واليهود الأمر الذي جعلهم يعتنقون الإسلام متأثرين بتعاليمه وسماحته الكبيرة، وظلت الأندلس خلال هذه الفترة معبراً لكل العلماء والعلوم إلى أوروبا إلى غاية سقوطها سنة 1492 م.³

2-3 الحروب الصليبية:

مثلت معبراً هاماً، انتقلت عليه الحضارة العربية الإسلامية من بلاد الشام إلى الغرب الأوروبي، وكان عصر الحروب الصليبية بالذات يمتاز بنوع من النضوج الفكري في بلاد المشرق الإسلامي، فقد استفاد الصليبيون من الآداب والعلوم والفنون والطب والصيدلة من الحضارة العربية الإسلامية، وقد نقلوا علوم العرب من بلاد المشرق إلى الغرب الأوروبي، وكان لعامل التجارة دور كبير حيث كانت على درجة كبيرة من

¹ - عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة العربية، مدينة مصر، دط، ص 146.

² - جوستاف جرونباوم، حضارة الإسلام، تر: عبد العزيز جاويد وتغ: عبد الحميد العبادي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ص 81، 82.

³ - سيد عبد الماجد الغوري، مرجع سابق، ص 09.

الاهمية لنقل الحضارة الاسلامية إلى الغرب الأوروبي فأصبح التجار الايطاليون يمثلون الوسيط التجاري بين الشرق والغرب¹.
3-3 صقلية:

والظاهر ان صقلية لعبت دورا كبيرا في انتقال الحضارة العربية إلى الغرب الأوروبي، والتي فتحها المسلمون سنة 212 هـ التي كانت تحت النفوذ البيزنطي، عملوا خلال تواجدهم بها على نشر العلوم في كافة المجالات كالزراعة والتجارة والعمارة ودام حكمهم لها حوالي قرنين ونصف من الزمن².
4-3 حركة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية:

شهد العصر العباسي ترجمة لكثير من الكتب القديمة للحضارات السابقة كالحضارة الاغريقية واليونانية من كتب للفلسفة والعلوم الطبيعية والطبية إلى اللغة العربية اذ اصبحت العربية لغة العلم والمعرفة، ولما شهدت أوروبا نهضة علمية ما بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر الميلادي، لم يكن لدى علماءها اي خيار سوى تعلم اللغة العربية لمعرفة ما تضمنته مؤلفات ومصنفات العلماء العرب في مختلف المجالات لاسيما الطبية منها، وترجمتها إلى اللغة اللاتينية³ ظلت أوروبا في المجال الطبي حتى القرنين 10-9هـ/15-16م تعتمد على الطب الغربي ففي عام 877هـ طبع كتاب القانون في الطب، ثم طبع مرة اخرى سنة 889هـ واستمر هذا الكتاب يدرس حتى بعد عام 1060هـ وبعده طبعت عدة كتب اخرى مترجمة من العربية إلى اللاتينية ككتب الرازي وابن البيطار وابن رشد وغيرها من الكتب الطبية⁴، ومن اشهر مراكز الترجمة نذكر: مدرسة ساليرنو الطبية، بلاط روجر، مدرسة الترجمة بطليطة وقرطبة⁵.
4- الطب:

1-4 مفهومه:

يعتبر الطب من العلوم التي اولتها البشرية اهتماما كبيرا، وذلك للدور المهم الذي يمثله في حياة الانسان، اذ استطاع ان يتجاوز الصعاب التي تحل بجسده من الام واوراجاع، وتعتبر صناعة الطب " من أشرف الصنائع وأربح البضائع، فقد جعل علم الأبدان قرينا لعلم الأديان، وقد قال الحكماء: إن المطالب

¹ - خدير رتيبة، فضل الحضارة العربية الاسلامية وتأثيرها في الفكر العربي، مجلة الحكمة للدراسات الاسلامية العدد 02، ص76-91.

² - سيد عبد الماجد الغوري، مرجع سابق، ص09.

³ - جوستاف جرونباوم، حضارة الاسلام، مرجع سابق، ص439، 432.

⁴ - صديقي محمد، الطب الاسلامي واثره على اوروبا، مجلة قيس للدراسات الانسانية والاجتماعية، العدد02، 2020، ص709-

نوعان: خير ولذة، وهذان الشيطان إنما يتم حصولهما للإنسان بوجود الصحة. لأن اللذة الاستفادة من هذه الدنيا، والخير المرجو في الدار الآخرة، لا يصل الواصل إليهما إلا بدوام صحته وقوة بنيته"¹، والطب حسب تعريف ابن منظور هو "علاج الجسم والنفس"²، وفي معجم الوسيط هو "الرفق وحسن الاحتيال، والسحر والداب والعادة"³،

واصطلاحاً هو: علم بقوانين تعرف منها احوال ابدان الانسان من جهة الصحة وعدمها، وصاحب هذا العلم يسمى طبيباً"⁴، كما ان الطب هو علم وفن، وموضوعهما علاج المرض او منعه"⁵.
وحسب الأكفاني فإن "علم الطب يبحث في بدن الإنسان من جهة ما يصح ويمرض والتماس حفظ الصحة وإزالة المرض"⁶، ويقول عنه ابن خلدون "هو صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح، فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية بعد أن يتبين المرض الذي يخص عضوا من أعضاء البدن، وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ عنها وما لكل مرض من الأدوية"⁷.

5- دور التأليف الطبية في تقدم الحضارة الغربية

1-5 أهم الاطباء والتأليف الطبية:

لا شك أن حركة الترجمة التي قام بها العلماء العرب للعديد من الكتب اليونانية والفارسية والسريانية والهندية⁸ ساهمت في تقدم العلوم الطبية والصيدلية بالعالم الاسلامي نظرياً وميدانياً، من خلال تعريفهم للكثير من المصنفات ذات الأهمية الكبيرة. فإذا ما تحدثنا عن الطب والأطباء بالمغرب الاسلامي عامة، نقول عنه أنه استمر وتواصل لما عرفته إفريقية خلال العهود السابقة، إذ كانت مقر مدرسة طبية إسلامية هامة بالقيروان، كان مؤسسها الاول اسحاق بن عمران في زمن الاغالبة، وكان ابن الجزائر من خريجي هذه المدرسة العريقة، هذه الشخصية التي لا يمكن تجاوز الحديث عنها، إذ يعد هذا

¹ - ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دت، ص 7

² - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2004، ص 549.

³ - ابن منظور، لسان العرب، ط3، احياء التراث، بيروت، 1991، ج3، ص 133.

⁴ - محمد علي التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تح/ علي دحروج، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، 1991، ج2، ص 41.

⁵ - محمد حبش، المسلمون وعلوم الحضارة، ط1، دار المعرفة، دمشق، 1996، ص 27

⁶ - ابن الأكفاني الأنصاري: إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، نشر فؤاد سزكين وآخرين، معهد تاريخ العلوم العربية-فرانكفورت -ألمانيا، 2005، ص 221.

⁷ - ابن خلدون، المقدمة، ص 490

⁸ - ابن جلجل ابي داوود سليمان، طبقات الاطباء والحكماء، تح: فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، ص(ح) - من المقدمة.

الطبيب ومؤلفاته مصدرا ومرجعا مهما للكثير من الأطباء الذين ظهوروا بعده، فمن مؤلفاته البارزة، كتابه "طب الفقراء والمساكين" وهو محل دراستنا هذه. بعدها زاد انتشار الطب في بلاد المغرب أكثر اواخر القرن الثالث الهجري، وذلك لتشجيع السلطة على دراسة علم الطب وتوفير الامكانيات الضرورية لذلك، فضلا على حثهم للترجمة والاطلاع على الكتب القديمة لليونان منهم كتاب: القراط وكتاب جالينوس، ديسقوريدس. وكان للتأليف المشرقية الطبية التي عرفت طريقها إلى بلاد المغرب الإسلامي دورا كبيرا ايضا في تطور العلوم الطبية، كمؤلفات الطبيب أبي بكر محمد بن زكريا الرازي (ت 320هـ/932م)¹ وكتابه الحاوي في الطب، ومؤلفات الطبيب ابن سينا (ت 428/1037)² وكتابه القانون في الطب وتأليف أبو الوليد ابن رشد³، فضلا عن مساهمة الأطباء الأندلسيون في بعث الحركة العلمية بالمغرب الإسلامي خاصة وأن الأندلسيين قد عرفوا تطورا كبيرا في المجال الطبي منذ العصر المرابطي⁴. كلها عوامل ساعدت على بروز وتكوين أطباء أكفاء منهم: الطبيب ابن البيطار (ت 646هـ/1248م)⁵ الذي ألف كتاب "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" والذي

¹ - هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب والفيلسوف الإسلامي الكبير، ولد ونشأ بالري ثم انتقل إلى بغداد، واختلف المؤرخون في تاريخ وفاته وذكرها أنها كانت سنة 311هـ أو سنة 320هـ. كان طبيبا مارستانيا، ألف في الطب كتبا كثيرة بديعة منها: كتابه الجامع سبعون مقالة، وكتابه الأقطاب، وكتابه الطب الملوكي، وكتاب التقسيم والتجسيد ومنها كتابه في الطب الروحاني وعدة كتب يطول ذكرها، كان منذ صغره متطلعا وشغوفًا بدراسة العلوم العقلية والآداب وقول الأشعار، أما الطب فقد تعلمه عندما كبر، واختاره عضد الدولة ببغداد أن يكون الرازي ساعور البيمارستان العضدي / ينظر: ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص 77. / ينظر: ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص 517.

² - هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا، كان من أهل بخارى، تلقى تعليمه الأول في المسجد عن معلم القرآن ومعلم الأدب، طالع العديد من كتب المنطق حتى صار أحسن من معلمه، وله العديد من المؤلفات منهم: الحاصل والمحصل في عشرون مجلدة، البر والإثم، القضاء والقدر، والقانون في الطب، وغيرها من الكتب الكثيرة/ المصدر نفسه، صص 437-441، 438.

³ - هو القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد؛ ولد ونشأ بقرطبة، كان متميزا في علم الطب، هو جيد التصنيف حسن المعاني، وله في الطب كتاب الكليات، وقد أجاد في تأليفه. فلما ألف كتابه هذا في الأمور الكلية قصد من ابن زهر أن يؤلف كتابا في الأمور الجزئية لتكون جملة كتابيهما ككتاب كامل في صناعة الطب، ولأبي الوليد بن رشد من الكتب: كتاب التحصيل، المقدمات في الفقه، كتاب نهاية المجتهد في الفقه، كتاب الكليات، شرح الأرجوزة المنسوبة إلى الشيخ الرئيس ابن سينا في الطب، كتاب الحيوان وغيرها من الكتب العديدة / ينظر: المصدر نفسه، صص 530-532.

⁴ - محمد الأمين بليغث: الحركة الفكرية في الأندلس في عصر المرابطين (479-539هـ/1085-1144م)، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 2002/2003، ص 465.

⁵ - هو الحكيم العالم أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقي النباتي، ويعرف بابن البيطار، أوجد زمانه، وعلامة وقته في معرفة النبات وتحقيقه واختياره، ومواضع نباته اخذ هذا العلم عن جماعة من الإغريق، واجتمع أيضا بكثير من فضلاء المغرب وأتقن دراية كتاب ديقوريدس اتقانًا، ذاع صيته في معرفة الأدوية والنباتات والحشائش المساعدة على الشفاء، تنقل بين

انتقد فيه كثيرا من الأخطاء عن خصائص الأدوية وتحديد فاعليتها العلاجية التي وقع فيها العديد من الأطباء كالطبيب الصيدلي ابن سينا والرازي، كما تميز الطبيب أبو العلاء زهر¹ (ت:525هـ/1131م) بدوره في صناعة أدوية جديدة²، فضلا عن مساهمة الطبيب أبو بكر بن مروان بن زهر³ (ت: 595هـ/1197م) في اكتشاف الترياق الخمسيني والمركب من خمسين مادة للخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور⁴

2-5- أبرز الأطباء الذين مارسوا هذه المهنة بالمغرب الاسلامي نذك

| الاسم واللقب | المصدر والمرجع | المؤلفات |
|----------------|--|---|
| اسحاق بن عمران | - حلاق حسان، دراسات في تاريخ الحضارة الاسلامية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط2، بيروت 1999، 250 / ابن جلجل أبي داود سليمان، طبقات الأطباء والحكماء، تح: فؤاد سنيد، مؤسسة الرسالة، ص ص85 / سيد عبد السلام، موسوعة علماء العرب، الطب والصيدلة، الرياضيات والفلك، الاهلية للنشر، ط2، بيروت، 2007، ص25/ حميدان زهير، اعلام الحضارة العربية الاسلامية في العلوم الاساسية والتطبيقية، وزارة الثقافة دط، دمشق، 1995، مج1، ص170 كتاب الادوية المفردة /كتاب العنصر والالتمام في الطب /مقالة في المالنخوليا (خاصة بأمراض الوسواس) /مقالة في الاستقصا/ مقالتي في علل القولنج/ كتاب فيالنبض/كتاب في الفصد/ رسالة في الطب /كتاب في بياض المعدة ورسوب البول وبياض المني /كتاب فيالبول من كلام ابقراط وجالينوس | كتاب الادوية المفردة /كتاب العنصر والالتمام في الطب /مقالة في المالنخوليا (خاصة بأمراض الوسواس) /مقالة في الاستقصا/ مقالتي في علل القولنج/ كتاب فيالنبض/كتاب في الفصد/ رسالة في الطب /كتاب في بياض المعدة ورسوب البول وبياض المني /كتاب فيالبول من كلام ابقراط وجالينوس |

دمشق والقاهرة فكان محظيا لدى الملوك، وكانت وفاته بدمشق سنة ست وأربعين وست مائة وله العديد من المؤلفات منها: كتاب الإبانة والإعلام، الجامع في الأدوية المفردة وغيرها من التصانيف المهمة. / ينظر: ابن أصبعية، مصدر سابق، ص 602.

¹ - هو أبو العلاء زهر بن أبي مروان عبد الملك بن محمد بن مروان، مشهور بالحدق، والمعرفة، وله علاجات مختارة تدل على جدارته في الطب وقدرته على المعالجة، وكان في دولة المثلثين، فنال المنزلة الرفيعة، والذكر الجميل، وفي زمانه وصل كتاب القانون إلى المغرب،، وله العديد من التصانيف منها: كتاب الخواص، كتاب الأدوية المفردة، كتاب الإيضاح بشواهد الافتضاح في الرد على ابن رضوان / المصدر نفسه، ص 519.

² - نور الدين زرهوني، مرجع سابق، ص 125.

³ - هو الوزير الحكيم الأديب الحسيب أبو بكر محمد بن أبي مروان بن أبي العلاء بن زهر، ولد بمدينة اشبيلية سنة 577هـ، ونشأ بها وتميز في العلوم، واخذ صناعة الطب عن أبيه، وباشر أعمالها، كان حافظا للقرآن والحديث، كان حسن المعالجة جيد التدبير، توفي مسموما بسلا سنة 602هـ. / ابن أصبعية، مصدر سابق، صص 521-522.

⁴ - المصدر نفسه، ص 522. / ينظر: نور الدين زرهوني، مرجع سابق، ص 125.

| | | |
|----------------------|---|---|
| | القولنج/ كتاب فيالنبض/كتاب في الفصد/ رسالة في الطب /كتاب في بياض المعدة ورسوب البول وبياض المني /كتاب فيالبول من كلام ابقراط وجالينوس | |
| اسحاق بن سليمان | الذهبي، تاريخ الاسلام ووفيات مشاهير الاعلام، تح: عمر عبد السلام تدميري، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، 1992، ج23، ص625/ابن ابي اصبعية، مصدر سابق، ص431/السامرائي كمال، مرجع سابق، ج1، ص567/حاجي خليفة، مصطفى عبد الله، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، دار احياء التراث الغربي، بيروت، مج2، ص1404 | كتاب الحميات /كتاب الأغذية والادوية/ كتاب البول وكتاب الاسطقسات /المدخل إلى الصناعة الطبية/ كتاب في النبض/كتاب مرشد الأطباء/مقالة في الكحل/كتاب الترياق |
| ابن جزار القيرواني | حركات ابراهيم، مدخل إلى التاريخ، مرجع سابق، ص424/حلاق حسان، مرجع سابق، ص252/ابن الجزار، طب الفقراء والمساكين، تح: الرياض الجازي، فاروق عمر العسلي، وزارة الثقافة والمحافظه على التراث، المجمع التونسي للعلوم والآداب فيالفنون، بيت الحكمة، 2009، ص17/ ابن الجزار، كتاب في المعدة، مصدر سابق، ص31/ ابن الجزار، مصدر سابق، ص49/ شحادة عبد الكريم، مرجع سابق، ص178 | سياسة الصبيان وتديبيرهم /زاد المسافر وقوت الحاضر/طب الفقراء والمساكين /كتاب الخواص /الاعتماد فيالادوية المفردة/رسالة في ابدال العقاقير /كتاب الكلى والمثانة/كتاب مداواة النسيان وطرق تقوية الذاكرة /كتاب في المعدة وأمراضها ومداواتها/رسالة في الزكام واسباب علاجه/ مجريات الطب/ في الفرق بين العلل تشبه اسبابها وتختلف اعراضها |
| ابو سهل دونش التليسي | التليسي بشير رمضان، مرجع سابق، ص508/حوالة يوسف بن احمد، مرجع سابق، ص378/ | التلخيص في الادوية المفردة/كتاب المستلحق/ سلسلة من الرسائل (التسوية/التغريب....) |
| موسى العزاز | القفطي جمال الدين، مصدر سابق، ص240/البسام لطيفة، مرجع سابق، ص235/ابن ابي اصبعية، مرجع سابق، ص493 | شراب الاصول/كتاب في السعال/المغزي/كتاب الاقرباذين |
| ابو الدباغ المالقي | التنبيكي احمد بابا، نيل الابهتاج بتطريز الديباج، دار الكتاب، ط2، طرابلس، 2000، ص423 | |

| | | |
|---|---|--|
| ابن مرزوق الخطيب | ابن مرزوق التلمساني، المناقب المرزوقية تح: سلوى الزاهري، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، ط1، المملكة المغربية، 2008، ص145. | الانتباه في معالجة الباه |
| ابو اسحاق ابراهيم احمد الثغري التلمساني | أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد الثغري التلمساني (القرن 8هـ/14م)، قائمة مصطلحات صيدلية، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، رقم 1777. --سعدى شخوم، الصناعة الصيدلية بالدولة الزيانية من خلال مؤلفات ابراهيم بن أحمد الثغري التلمساني(ق8هـ/14م)، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، العدد:4، منشورات جامعة معسكر، مكتبة الرشاد، الجزائر، 2013، ص520 | قائمة مصطلحات صيدلية مرتبة على حروف المعجم رسالة في الطب |

أما خلال العهد الحفصي فنذكر: الطبيب عبد السلام بن إبراهيم الزياني الصقلي (ت722هـ/1322م)، وابنه أحمد(ت820هـ/1418م)، والطبيب أبو سعيد الصقلي وابنه عبد الرحمن (ت1467م)، أما عن أحمد بن عبد السلام الشريف الحسيني الصقلي التونسي، أبو العباس، الطبيب، فمن المشاع أنه درس الطب في جامع الزيتونة، واشتغل بالمستشفى الذي أحدثه أبو فارس¹، كما اشتهر أمر الطبيب محمد الشريف الحسيني الزكراوي (ت874هـ/1476م) الذي كان أديبا وطيبا عمل بالمارستان الذي أقامه السلطان أبو فارس الحفصي². كما احتوت مدينة القيروان خلال هذه الفترة عدة أطباء آخرين مثل إبراهيم مزغيش ومحمد البلوي المعروف بالبكوش كان مفتيا وطيبا³، وفي نهاية القرن التاسع الهجري/15م، ألف عبد القاهر بن محمد بن عبد الرحمن التونسي (ت899هـ/1493م) كتاب الطب في تدبير المسافرين ومرض الطاعون وهو مخطوط بإحدى مكتبات اسطنبول⁴.

وبرز بالمغرب الاوسط ايضا الطبيب حسن بن علي بن حسين بن عبد علي بن ميمون بن قنفذ القسنطيني الذي كان بمدينة قسنطينة وله رحلة إلى المشرق⁵، كما اشتهر الطبيب أبو عبد الله محمد بن

¹ - صوفية السحيري بن حنيرة، مرجع سابق، ص 290.

² - أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، ط1981، ص 280.

³ - روبرار برونشفيك، تاريخ إفريقية، ج2، ص 391.

⁴ -- محمد المواق ومحمد الرصاع، مصدر سابق، ص 53.

⁵ - ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، ص 88، 86.

أبي جمعة التالاسي الجرائحي (طبيب جراح) بمدينة تلمسان توفي بعد سنة (767هـ/1365م)¹، وعرف أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد بن أبي حجلة بممارسته لمهنة الطب، وكانت له رحلتين إلى المشرق (الحجاز، ودمشق)²، وغيرهم من الأسماء التي لمعت في هذا المجال.

3-5 دور ومساهمة التأليف الطبية في تقدم الحضارة الغربية

أولى العرب المسلمون اهتماما كبيرا للطب باعتباره أحد الابواب الهامة للعلوم الاسلامية الصرفة، فدرسوا واستفادوا من خبرات وتجارب الحضارات التي سبقتهم، فآخذوا مأخذوه وعدلوا وصححوا، وأضافوا اليها وكتبوا مصنفاً جديدة في الطب والصيدلة لم يسبقهم اليها انسان³ يعود فضل العلم وعلوم المسلمين على الحضارة الأوروبية للعديد من العلماء المبدعين في مختلف التخصصات والذي ظهر إثر أعمالهم في مجالات عدة تاركين بصماتهم العلمية الخالدة في مجموعة من المؤلفات والمصطلحات والاسماء التي لم يستطع عامل الزمن ازالها او طمسها، ونذكر بعض اسهامات هؤلاء الاطباء على سبيل المثال لا الحصر، مع الحفاظ على المكانة العلمية للذين لم يتم التطرق إليهم بالتفصيل او التقليل من أهميتهم وهم كثير.

ابن سينا رائد الطب: المشهور امره المقدر قدره، برز ابن سينا في الطب تعهد المرضى وانفتح عليه من ابواب المعالجات المقتبسة من التجربة لا يوصف، قصده عدة الاطباء ليستفيدوا منه وقد كان من اشهر الاطباء الذين انجهم العالم الاسلامي وهو معروف في أوروبا باسم "افسينا" حيث ترك اثرا في الفكر الغربي اذ اصبح المرجع العالمي في الطب واستخدمت اعماله ومؤلفاته اساس لتعليم في الجامعات الأوروبية ومن اشهر كتبه التي اعتمدت في الدراسة الطبية كتابه القانون الذي يعتبر موسوعة طبية فيه ما يدل على ان الاطباء المسلمين عرفوا فيه قبل الأوروبيين مرض السل الرئوي وداء الفيل وعرفوا التشريح، وكتاب الشفاء في الطب، ويعتبرون الأوروبيون هذه الكتب خير ما انتجته القريحة الاسلامية⁴

¹ -- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، لبنان، ط2، 1980، ص 63.

² - هو أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد بن أبي حجلة نسبة إلى جده الشيخ بوحجلة، انتقل إلى القاهرة واشتغل بالأدب وولع به حتى مهر، ثم ولي مشيخة الصوفية بالقاهرة، ومات فيها بالطاعون، اتبع المذهب الحنفي، له أكثر من ثمانين مصنفاً في الحديث والفقه والنحو والأدب منها الطب المسنون في دفع الطاعون./ينظر: الزركلي، الأعلام، ج1، صص 268-269/ عادل نويهض، مرجع سابق، ص 364-365.

³ - سيد عبد المجيد الغوري، مرجع سابق، ص 11.

⁴ - خدير رتيبة، مرجع سابق، ص 87.

ابو بكر الرازي وهو الذي ألف العديد من الكتب في مختلف الطب مثل "الحاوي في الطب" ورسالة في الحميات والحصبة والجذري التي تعتبر من المراجع الأساسية التي اعتمدها الاطباء في الغرب زمنا طويلا وقد ترجمت هذه الكتب للغة اللاتينية عدة مرات، ودرست في الجامعات الأوروبية ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية في الرئتين، ومن كتبه شرح تشريح القانون، كشف فيه لأول مرة ان الدم فيه ينتقل من الجانب الايمن للقلب إلى الرئتين اولاً، ثم يعود إلى الجانب الايسر منه. الطبيب الزهراوي الذي اخترع كثير من العمليات الجراحية الدقيقة في العيون والاسنان والولادة، ووضح اهمية الكي في الخراجات، واستئصال الاورام السرطانية، ومن اشهر كتبه "التصريف لمن عجز عن التأليف في عشرين جزءاً، وقد اتخذ الاطباء الأوروبيين هذه الموسوعة بمثابة مرجع اساسي لهم في تدريسهم للطب لعدة ازمان مضت، فاعتمدوا عليها في الجراحة وتجبير العظام، وترجمت هذه الموسوعة إلى اللغة اللاتينية، كما استفادوا من كتب ابن رشد وابن زهر وابن البيطار وابن الجزار وغيرها من المؤلفات التي عكفوا على دراستها وتمحيصها والتي كان لها قيمة كبيرة الطب، والتي ظلت مراجع للأطباء في الغرب الأوروبي لقرون عدة بعد ان ترجمت بلغاتهم¹، وكان الاطباء الغرب اندهشوا من دقة منهجية الاطباء المسلمين في تأليفهم لهذه الكتب، ومن الاصول الي اعتمدها للوصول إلى الحقائق في هذا المجال الدقيق والحساس، كما استفاد الاطباء الغربيون من كتب الصيدلة وعلم الاعشاب والنباتات الطبية التي ورد اسمها في كتب الصيدلة المسلمين لكن للأسف قد نسبوا معظم النباتات لأنفسهم دون الاعتراف بمصدرها الحقيقي² والظاهر ان الأوروبيين سمحت لهم الترجمة بالاطلاع على علوم العرب المسلمين وبخاصة في الميدان الطبي فتأثروا بما الفه هؤلاء بنهلم من الكتب العلمية ما هم بحاجة اليه، وكذا اخذهم خبرة العرب المسلمين في الجراحة حيث كانت ابحاث الزهراوي الاساس في الجراحة الأوروبية الذين اخذوا عنه طريقة قطع اللوزتين التي اعتمدت من طرف الزهراوي وكذلك جراحة الاسنان، وهذا ما استفاد³ منه جي دي شمولياك.

كما عرف الغربيون عن العرب الأمراض تشخيصا وعلاجاً ومن امثلة ذلك ان ابن سينا كان قد سبق بعض اطباء أوروبا في اكتشافاته ومن جملة تلك الانجازات التي حققها اكتشافه الانكستوما وسماها الدودة المستديرة والتي استطاع العالم "الإيطالي دوربيتي" ان يكتشفها سنة 1838 اي بعد ابن سينا بتسعمئة سنة، وكان ابن سينا هو اول من وصف اعراض حصى المثانة السريرية، وكان من المهتمين بداء السكري واول

¹ -- سيد عبد المجيد الغوري، مرجع سابق، ص 12-13

² -- سيد عبد المجيد الغوري، مرجع سابق، ص 14

³ - زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، تح: فؤاد حسين، مكتبة رحاب الجزائر، 1986، ص 274-275

من ادخل أمراض الشيخوخة، وكان اول من صرح بقابلية الاعضاء الصليبية في الجسم كالعظام للالتهاب والتضخم والأورام مخالفا الطب اليوناني في ذلك، واستعمل المخدر في الجراحة كما استخدم الابن تحت الجلد في علاجه¹ كما ان العرب اكتشفوا الماء البارد انه يوقف النزيف، كما اخذا الغرب عن العرب ايضا الاجازة التي وضعها العرب لامتحان مهنة الطب، واهم ما اعجب به الغربيون الأوروبيين هو نظام البيرمستانت مما ادى بالباباوات والامراء الأوروبيين إلى اقامة مستشفيات على نظام البيرمستانتات.²

ورغم الجحود الذي يقابل به كثير من الأوروبيين ما قدمته التأليف الطبية والعلمية للغرب الأوروبي الا ان هناك منصفين اعترفوا بذلك الفضل ومن هؤلاء المؤرخ جوستاف لوبون الذي تحدث في كتبه عن التأثير العظيم الذي اثره العرب في الغرب وان العلوم دخلت أوروبا بواسطة المسلمين في اسبانيا وصقلية وايطاليا وان جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون موردا علميا سوى مؤلفاتهم وانهم هم الذين مدنوا أوروبا مادة وعقلا واخلاقا وان التاريخ لم يعرف امة انتجت ما انتجوه في وقت قصير³ وعموما فالحضارة الأوروبية في القرن العشرين ترجع إلى عصر النهضة، وعصر النهضة يرجع إلى ثقافة المسلمين في الأندلس وإلى الثقافة التي عاد بها الصليبيون من الديار الإسلامية، وربما كان كُشَّاف الأوروبيين قادرين يومًا على الوصول إلى العالم الجديد مع تطاول الزمن بدافع من الدوافع التي نجهلها الآن، أما وصولهم إلى العالم الجديد كما حدث في التاريخ فإنما هو على التحقيق أثر التراث الإسلامي في المغرب، ونتيجته لم يكن لها مقدمات غير ذلك التراث وما تتابع منه أو تتابع بعده من الأحداث.

6- ابن الجزار طبيا:

كان لأطباء المغرب والأندلس الاثر الفاعل في تلك النهضة الطبية إلى أوروبا، وذلك لاسهامتهم في نقل العلوم الطبية، كون ان المغرب والأندلس كانت احد المعابر الرئيسية لنقل التراث العلمي الطبي العربي إلى أوروبا، ومما لاشك فيه ان اعظم اطباء القيروان خلال القرن 4هـ، والذي قدر له ان يحتل مركز الصدارة كان المتطبب ابي جعفر احمد بن ابراهيم المدعو ابن الجزار الذي ولد في (285هـ) زمن ابراهيم بن الاغلب الثاني، هو من اهل القيروان من اسرة توارثت علم الطب، كان من اهل الحفظ والتطلع، كان طبيا ماهرا

¹ --طاهري لخضر بن العيد، اثر الحضارة الاسلامية على الثقافة الصحية في اوروبا الغربية خلال القرون الوسطى، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، العدد 2021، 05، ص 193-218.

² - أحمد حسيني، حماد السيد، الحضارة العربية نشأتها تطورها، اثارها، دار الكتاب العربي، القاهرة 1967، ص 90/حسن حلاق، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب،، الدار الوطنية للطباعة والنشر، بيروت، 1986. ص 125

³ - لوبون جوستاف، حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، القاهرة، مؤسسة هنداوي، 2012 ص 30.

صيدليا بارعا¹ كان له تأثير في الرقي بالعلوم الطبية بالمغرب الاسلامي والأندلس، ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية وغيرها من اللغات²

1-6 شهرة المؤلف ومؤلفاته:

أخذ المجال الطبي الحصة الأكبر من مؤلفاته وكنا قد ذكرناها سابقا، الا اننا سنتطرق إلى مؤلفين هامين هما "زاد المسافر" و"طب الفقراء والمساكين".

يعتبر ابن الجزار اول طبيب يكتب في التخصصات الطبية مثل طب الاطفال وطب المسنين وطب الفقراء المحتاجين، نقلت اعماله إلى جامعات الأندلس وغيرها من البلدان العربية والأوروبية، وترجمت ال اللاتينية والعبرية، حازت على الكثير من الاهتمام في المجال الطبي فذاع صيته في القيروان وافريقية والأندلس والبلدان المطلة على البحر المتوسط، اقبل عليه العديد من الاطباء والطلبة، فاصبح ابن الجزار مدرسة ومرجعا³ وكان من تلامذته الطبيب طارق بن بريق الذي اخذ عنه زاد المسافر وقوت الحاضر إلى الأندلس، وهذا الكتاب كان له شهرة كبيرة في حياة وبعد وفاة ابن الجزار في كل من الشرق والغرب، فوقع تدريسه طيلة ستمائة على الاقل وجاء في أخذ النصوص للطبيب كشاجم" الف احمد بن الجزار كتبا كثيرة احسنها زاد المسافر الذي دخل الأندلس والشام في حياته اي القرن 4هـ وأوروبا في القرن 5هـ ومازالت كتبه موجودة تدرس إلى يومنا هذا بالمكتبات الدولية.⁴

كان من ابرز ما تفتن له ابن الجزار هو الفصل بين الطب والصيدلة، ولم يكن ناقلا فقط عن الاطباء الذين سبقوه بل زاد الكثير في تشخيص الأمراض واطاف إلى ما كتبه السابقون الذين سبقوه إلى التخصص، كما ساهم في اثناء العلوم الطبية وتقدمها فعمل على تقسيمها إلى اختصاصات وهو ماورد في معظم مصنفاته⁵

2-6 قراءة في مؤلفه " طب الفقراء لابن الجزار القيرواني:

أ/ دوافع التأليف:

¹ - ابن ابي اصبيعة، مصدر سابق، ج3، ص56-57

² - سادسة حلاوي، ابن الجزار طبيبا ومؤرخا، مجلة كلية التربية، العدد:07، ص25.

³ - ابن الجزار أحمد، كتاب في طب المشائخ وحفظ صحتهم، تح: عمر العسلي و الراضي الجازي، بيت الحكمة، تونس، 2009، ص20-26.

⁴ -بن ميلاد أحمد، الطب العربي التونسي في عشرة قرون، تونس، ط2، مزيدة ومنقحة، 1999، ص218-241

⁵ -رجاء العبدلي، كتب الطب كمصدر للكتابة التاريخية، ابن الجزار نموذجا، المجلة التاريخية الجزائرية، العدد10، 2018، ص67.

جاء في كتابه هذا عن دواعي تأليفه حسب قوله " رأيت عند ذلك أن أجمع لمحبّي الطب من قد يتمهّر في قراءة هذا المسعى...بأخف مؤونة وأيسر كلفة، فيسهل عند ذلك علاج العوام على الأطباء، من أهل الفقر والمسكنة منهم، بهذه الأدوية "ويقول أيضا ابن الجزار: أني رأيت كثيرا من الفقراء واهل المسكنة عجزوا عن ادراك منافع ذلك الكتاب وغيره من سائر الكتب التي الفتها الحكماء في حفظ الصحة على الاصحاء وبراء المرضى منودجهم وردهم إلى الصحة لقرهم وقلة طاقتهم عن وجود الاشياء التي هي مواد العلاج...." فاراد ابن الجزار ان يؤلف لأجلهم كتابا سهل المأخذ ويرجع اليه الفقراء للمداوة والنصح او في حالة تعذر استحضار الطبيب¹، وهو ما قيل عنه في متون المصادر " أنه كان يعالج المرضى بأقل كلفة وأيسر مؤونة"، وكان يشفق على المرضى الفقراء المحتاجين من خلال " تفريق عليهم أدوية، يسلمها مجانا احتسابا لوجه الله"²

كتاب "طب الفقراء والمساكين في الواقع ما هو الا اختصار لكتابه "زاد المسافر وقوت الحاضر" الكثير الانتشار، وهو الذي اشار إلى ذلك في مقدمة الكتاب، وهذا الكتاب مؤلف من ثمانون بابا تضمنت كيفية مداوة الفقراء والمساكين، يذكر فيها المؤلف الأمراض المتداولة واسبابها ووصفها والادوية النافعة والزهيدة الثمن التي يمكن للطبيب ان يعتمد عليها ويوصي باتباعها، ولهذا الكتاب اهمية خاصة، ويتميز عن كتاب زاد المسافر بنقص الوصفات واسباب المرض، فكان الكتاب مخصص للاطباء وهو غرض المؤلف على ما يبدو من المقدمة، وأرجعو المؤرخين هذا الامر إلى انه ظاهرة اجتماعية في شخصية ابن الجزار لم يات احد بمثلها قبله تحمد وتشكر³.

خاتمة

والظاهر انه مهما تحدثنا عن عظمة ودور اطباء العرب ومصنفاتهم خلال العصور الوسطى لن نفهم حقهم، فعلا بفضلهم سطع نور الحضارة العربية تطورا وازدهارا لامثيل له في كافة العلوم، وخاصة المجال الطبي الذي ترجمت مؤلفاته من طرف الغرب الأوروبي إلى مختلف اللغات اللاتينية والهندية والعبرية وذلك للنهل منهم وتدريسهم في جامعاتهم الأوروبية.

وعموما يمكن القول ان الحضارة الاسلامية قدمت الكثير من العلوم والمعارف التي خدمت الانسانية، ولا ينكر اي عاقل ذلك، خاصة في مجال وقاية وحفظ صحة الانسان وعلاجها، ولا ينكر اي منصف ما قدمه الاطباء الاجلاء من علوم احدثت ثورة علمية كبيرة اثروا بها على الفكر الانساني عامة والأوروبي خاصة في المجالات الصحية، فكانت علوم المسلمين نواة لقيام حضارة أوروبية بالمقاييس

¹ - ابن الجزار، طب الفقراء والمساكين، مصدر سابق، ص 76

² - المصدر نفسه، ص 76.

³ - ابن الجزار، مصدر سابق، ص 78-81

الكمية، فقد ظلت بعض المؤلفات للأطباء المسلمين تدرس في كبريات الجامعات الأوروبية لسنوات او قرون عديدة منها: كتب ابن سينا والرازي وابن الجزار القيرواني.
وصفوة القول ان المؤلفات العربية الاسلامية المشرقية والمغربية كانت اهم اسباب تحسن
الوضعية الصحية بالحضارة الغربية الأوروبية.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- أخرجه الترميذي في الجامع، ابواب العلم، باب: فضل العلم برقم 2642، وقال هذا حديث حسن
- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دت
 - ابن الأكفاني الأنصاري: إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، نشر فؤاد سزكين وآخرين، معهد تاريخ العلوم العربية-فرانكفورت –ألمانيا، 2005
 - ابن الجزار احمد، كتاب في طب المشائخ وحفظ صحتهم، تح: عمر العسلي والراضي الجازي، بيت الحكمة، تونس، 2009.
 - ابن جلجل ابي داوود سليمان، طبقات الاطباء والحكماء، تح: فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، ص(ح) من المقدمة.
 - ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة لكتاب يوان المبتدا والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الاكبر. دار الفكر، 2007، بيروت
 - ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقيير، تح: محمد الفاسي، وادولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة اكدال، الرباط، 1965.
 - ابن منظور، لسان العرب، ج3، ط3، احياء التراث، بيروت، 1991
 - احمد حسيني، حماد السيد، الحضارة العربية نشأتها تطورها، اثارها، دار الكتاب العربي، القاهرة 1967
 - أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، ط1981، ص 280.
 - بن ميلاد احمد، الطب العربي التونسي في عشرة قرون، تونس، ط2، مزيدة ومنقحة، 1999
 - جلال مظهر، حضارة الاسلام واثرها في الترقى العالمي، دار مصر للطباعة، مصر، 1984
 - حسن حلاق، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب، الدار الوطنية للطباعة والنشر، بيروت، 1986.
 - خدير رتيبة، فضل الحضارة العربية الاسلامية وتأثيرها في الفكر العربي، مجلة الحكمة للدراسات الاسلامية العدد 02
 - رجاء العبدلي، كتب الطب كمصدر للكتابة التاريخية، ابن الجزار نموذجا، المجلة التاريخية الجزائرية، العدد10، 2018
 - روبرا برونشفيك، تاريخ إفريقية من القرن 13 إلى نهاية القرن 15، ج2، دار الغرب الاسلامي، بط1، 1988
 - زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، تح: فؤاد حسين، مكتبة رحاب الجزائر، 1986
 - سادسة حلاوي، ابن الجزار طبيبا ومؤرخا، مجلة كلية التربية، العدد:07،
 - سيد عبد الماجد الغوري، أثر الحضارة الاسلامية في الغرب، بحث مقدم في المؤتمر "المعاني الحضارية في الاسلام"، 2019.

- صبر انتظار جاسم، خصائص مدن العصور الوسطى في أوروبا الغربية، الانبار، العراق، مجلة جامعة الانبار للعلوم الانسانية، المجلد 1/ العدد 3
- صديقي محمد، الطب الإسلامي وأثره على أوروبا، مجلة قيس للدراسات الانسانية والاجتماعية، العدد 02، 2020،
- طاهري لخضر بن العيد، اثر الحضارة الاسلامية على الثقافة الصحية في أوروبا الغربية خلال القرون الوسطى، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، العدد 05، 2021،
- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، لبنان، ط2، 1980
- عز الدين فراخ، فضل علماء المسلمين على الحضارة العربية، مدينة مصر، دط، جوستاف جرونياوم، حضارة الاسلام، تر: عبد العزيز جاويد وتح: عبد الحميد العبادي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة
- لوبون جوستاف، حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، القاهرة، مؤسسة هنداي، 2012.
- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2004
- محمد الأمين بلغيث، الحركة الفكرية في الأندلس في عصر المرابطين (479-539هـ/1085-1144م)، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 2002/2003.
- محمد المواق ومحمد الرصاع، الاجوية التونسية على الاسئلة الغرناطية: تح: محمد حسن، ط1، المدار الاسلامي.
- محمد علي التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تح/ علي دحروج، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، 1991، ج2، -محمد حبش، المسلمون وعلوم الحضارة، ط1، دار المعرفة، دمشق، 1996.
- المصباحي حسونة، هل كانت القرون الوسطى مظلمة حقا، (2015/10/01)، للتصفح: <https://alarab-co-uk.translate.goog>، تاريخ الزيارة: 2023/04/10، الساعة: 22.00.
- مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا. دار الوراق، الرياض، 1999، - احمد علي الملا، اثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 1981
- المنهج عبد الله عبد الهادي سؤال الثقافة والمثقف، بغداد، 2014، مجلة آداب المستنصرية، المجلد 38، العدد

فضل المسلمين على الغرب المسيحي الأوروبي في مجال الطبّ

إبان العصور الوسطى من خلال كتابات المستشرقين

The superiority of Muslims over the European Christian West in the field of medicine during the Middle Ages through the writings of orientalist

د. نصيرة طيطح، جامعة مستغانم (الجزائر)

nassira.titah@univ-mosta.dz

الملخص:

تأتي هذه الورقة البحثية الموسومة: "فضل المسلمين على الغرب الأوروبي المسيحي في مجال الطبّ إبان العصور الوسطى من خلال كتابات المستشرقين"، في سياق التعريف ببعض الكتابات الاستشراقية التي أقر أصحابها عبر مواقفهم الموضوعية المحايدة بالاعتراف بفضل المسلمين على الغرب الأوروبي المسيحي في ميدان العلوم بصفة عامة، والعلوم الطبية بصفة خاصة في تلك الفترة التي كانت أوروبا تعيش فيها قرونا من ظلام الجهل والتخلف العلمي. ومن هنا نطرح السؤال التالي: -كيف ساهم المستشرقون من خلال الخلفية الفكرية المحايدة و المنصفة، في كشف حقيقة فضل الحضارة الإسلامية على الغرب المسيحي الأوروبي في مجال العلوم الطبية أثناء القرون الوسطى؟

يستهدف المقال إبراز الأثر الإيجابي، والفضل الكبير للعرب المسلمين في تمكين الغرب الأوروبي والعالم، من بناء نهضة في مجال العلوم الطبيّة، ويعرض نماذج كتابات منصفة، ويقدم شهادات موضوعية لبعض المستشرقين المعتدلين الذين لا يجحدون هذا الدور العلي الإيجابي، ولا ينكرون أسبقية المسلمين وريادتهم فيه .

الكلمات المفتاحية: المسلمون: الغرب الأوروبي المسيحي: المستشرقون: الطب، النهضة الأوروبية الحديثة .

Abstract:

This comes to the research paper tagged: "The superiority of Muslims over the West to the European Christian in the field of medicine during the Middle Ages through the writings of orientalist", in the context of introducing some orientalist writings that sought through their objective and neutral positions striving to acknowledge the thanks of Muslims to the European Christian West in the field of science In general, and medical science in particular during the ages when Europe was living in centuries of darkness of ignorance and scientific backwardness. Hence, we ask the following question: - How did the orientalist, through a neutral and fair intellectual background, contribute to revealing the fact that Islamic civilization was superior to the European Christian West in the field of medical sciences during the Middle Ages? .

The subject of the study aims to highlight the impact of the Arabs' favor to Muslims in enabling the European West and the world to build a renaissance in the field of medical

sciences through the fair writings of the moderate orientalists that recognize the favor of Muslims over the Christian West.

keywords : Muslim Arabs, the Christian European West, the Orientalists, medicine, the modern European renaissance.

- مقدمة:

لقد كان للمسلمين نصيب وفير في تاريخ الميراث العلمي، والتراث الحضاري العالمي إبان العصور الوسطى، فقد حظي المسلمون بمكانة مرموقة منفردة و متميزة، نظير الأهمية البالغة، لما قدّموه من إسهامات علمية مبكرة، في الوقت الذي كان الغرب الأوروبي المسيحي غارقاً في ظلام الجهل، وبقي كذلك إلى أن وصل إليه قبس الحضارة الإسلامية، وإشعاع علومها، وعلى الرغم من ذلك، فإنّ موقف المستشرقين الذي أعماهم التعصب الديني حاولوا بكلّ جحود طمس معالم الحضارة الإسلامية، والسعي - بكلّ ما أوتوا من قوّة - إلى التقليل من شأنها ومن فضلها على نهضتهم العلمية بصفة عامّة وفي مجال الطب بصفة خاصّة. لكنّ مقابل ذلك، ظهر فريق من المستشرقين اعترفوا - بكلّ موضوعية - بحقيقة ناصعة مفادها أنّ المسلمين قدّموا - فعلاً - تراثاً علمياً وحضارياً عالمياً أصيلاً خدموا به الإنسانية قديماً وحديثاً في ميدان الصّحة والطّب، وهؤلاء المستشرقين المنصفين تحدّوا أولئك المستشرقين المجحفين في فضل الحضارة الإسلامية.

- تتمحور إشكالية الموضوع كالتالي:- كيف ساهم المستشرقون من خلال كتاباتهم المحايدة والمنصفة في كشف حقيقة فضل وأثر حضارة المسلمين على الغرب الأوروبي المسيحي إبان القرون الوسطى؟. ما هي أهمّ الشواهد التي ارتكز عليها المستشرقون المعتدلون في سبيل الاعتراف بفضل المسلمين على الغرب الأوروبي المسيحي في ميدان العلوم الطّبية؟. وتتجلّى أهمية الموضوع في تسليط الضّوء على دور المسلمين في تقدّم العلوم لدى الغرب الأوروبي في ميدان الصّحة والطّب تحديداً من خلال شهادات المستشرقين المنصفين. ويهدف المقال إلى رصد نماذج من مواقف المستشرقين المنصفين من خلال كتاباتهم، حيث عدّت من أهمّ الاعترافات والشواهد الدامغة لحقيقة فضل المسلمين على الغرب الأوروبي المسيحي في التقدّم العلمي، وكان أبرزها العلوم الطّبية.

-أما المنهج المتّبع، فقد تنوّع بتنوّع طبيعة الموضوع، حيث اعتمدنا المنهج الكرونولوجي حسب ما يقتضيه المنهج التاريخي في عرض المادة، والمنهج التحليلي والوصفي لتحليل ووصف نصوص كتابات مواقف المستشرقين المحايدة ومدى تطابقها مع الموضوعية والإيجابية في الطرح، أمّا المنهج الانتقائي فقد اتكأ على مجموعة من كتابات بعض المستشرقين المنصفين الذين اعترفوا - بكلّ نزاهة وأمانة - لفضل المسلمين على الأوروبيين المسيحيين علمياً.

1- نبذة تاريخية عن حركة الاستشراق وتطورها:

1-1- مرجعيات ماهية مصطلح الاستشراق

إنّ معرفة منطلقات المرجعية لمفهوم ظاهرة الإستشراق-Orientalism- من الناحية اللغوية والإصطلاحية ضرورية لفهم جوهر الخلفية الفكرية لنشأة هذه الظاهرة، فمن ناحية اللغة :- الإستشراق-Orientalism- مصدرها من الفعل (شرق) يدل على إضاءة، ومن ذلك (شَرَقَتِ الشَّمْسُ)، إذا طلعت، و (أشْرقت) إذا أضاءت، والشرق طلوعها⁽¹⁾، أما (الشرق)- Orient-- بسكون الراء: فهو المكان الذي تشرق فيه الشمس⁽²⁾، ونقول: (قد شرقوا): إذا ذهبوا إلى الشَّرْقِ أو أتوا الشَّرْقِ⁽³⁾. أما المفهوم الاصطلاحي:- فلإستشراق--Orientalism هو علم الشَّرْقِ : أو علمُ العالمِ الشَّرْقِيِّ⁽⁴⁾.

وكلمة "مستشرق"- Orientalist- تطلق على كلِّ عالمٍ غربيٍّ يشتغل بدراسة الشَّرْقِ كلِّه، في لغاته وآدابه وحضارته ودينه. وهنا لابدّ أن نُشير إلى أنّه من الصَّعب حصرُ تعريفٍ واحدٍ يجمع مختلفَ معاني مصطلح الاستشراق، وذلك لاختلاف طبيعة انتماءات المدارس الاستشراقية المتعدّدة، حيث نجد كلَّ فريقٍ من هذه المدارس تختصّ في موضوعٍ من موضوعات الشَّرْقِ⁽⁵⁾. والإستشراقُ بمفهومه الواسع العام هو: "الدراسات الغربية المتعلقة بالشَّرْقِ الإسلامي في لغاته وآدابه، وتاريخه، وعقائده، وتشريعاته، وفلسفاته وأديانه وروحانياته، وحضارته بوجه عام⁽⁶⁾".

وفي هذا السِّياق يضيف المفكّر الجزائري مالك بن بني (1905-1973) بأنّ المقصود بالمستشرقين هم فئة من "الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية. ثم نصّ على ضرورة تصنيفهم إلى صنفين، أولهما بحسب الزّمن وهم طبقة القدماء مثل جريرت دورلياك Gerbert d

(1) أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت 711 هـ) لسان العرب، دار صادر- بيروت، ط4، 2005م، ج8، ص65.

(2) ابن منظور، المصدر السابق، ص65.

(3) بوعزديّة علي و بن ذهبية خضرة، موقف المستشرقين من العلوم الكونية للمسلمين من خلال دائرة المعارف الإسلامية، علم الطب أنموذجاً، حوليات جامعة الجزائر (1)، المجلد 35، العدد 04، 2021، ص245.

(4) محمود حمدي زقزوق، الإستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، الناشر دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص18. ينظر: رودى بارت، الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية، ترجمة، مصطفى ماهر، القاهرة 1967م، ص11.

(5) محمود حمدي زقزوق، المرجع السابق، ص18. محمد حسن زمني، الإستشراق..تاريخه ومراحل، مجلة المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، (دراسات استشرافية)، السنة الأولى، 1435هـ/2014، العدد1، ص178.

(6) المرجع نفسه، ص245.

aurilac (938-1003)¹--والقديس توما الإكويني--Tommaso d Aquino(1225-1274)²- وطبقة المحدثين مثل جولد تسهير-(Gold zeherzer-Ignac(1921-1850)⁽³⁾، والصنف الآخر بحسب الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين، فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية، وطبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعتها (4).

أما إدوارد سعيد فقد وضع مصطلح الاستشراق في قالب أيديولوجي إذ اعتبره مذهباً سياسياً فكرياً فرض فرضاً على الشرق، كما وصفه بأنه يمثل أسلوباً للتفكير والكلام، له مؤسّسات وأساليب استعمارية تدعمه هذا من جهة الاستشراق، أما عن الذي يمارس البحث في ميدان الاستشراق ونقصه هنا بالمستشرق فهو كلّ من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو إجراء البحوث في موضوعات خاصّة بالشرق، سواء كان ذلك في

(1) عالم فرنسي جريرت دورلياك (938-1003) Gerbert d aurilac - ولقب بالبابا سلفستر الثاني - Sylvester II وهو البابا الوحيد الذي تعلم العربية وأتقن العلوم عند العرب. وقد أعتبر بعض المؤرخين أن الإستشراق يعود إلى هذا العالم عندما كان راهباً حيث قصد بلاد الأندلس وتتلّمذ على أساتذتها في أشبيلية وقرطبة، حتى أصبح أوسع علماء عصره الأوربيين إطلاعاً، وقد تقلد فيما بعد منصب البابوية في روما باسم سلفستر الثاني (999-1003 م وقد زار واطلع على معارف العديد من مناطق دول العالم العربي والإسلامي القديم القرويين بمدينة فاس المغربية وإليه يرجع فضل العلوم والمعارف العربية الرياضيات والفلك والحساب إلسأوروبا. ينظر: ويل وايريل ديورانت: قصة الحضارة، تقديم، محي الدين صابر، ترجمة، زكي محمود، بيروت، تونس، الناشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار الجيل الطبع والنشر، ص 14، ينظر:

Kropf, Lewis L. "Pope Sylvester II and Stephen I of Hungary," *The English Historical Review* (Volume 13 Number 50, 1898 .pp 290-295.

(2) طوماس لاكويني- Tommaso d Aquino(1225-1274) عالم لاهوتيا -إيطاليا- كاثوليكية أسس المدرسة الفلسفة التوماوية للقرون الوسطى. ينظر:

Encyclopedia Britannica, *Great Books of the Western World*, 2nd ed. Chicago, v. 2, , J. Adler pp. 987-988.

(3) جولد تسهير-(Gold zeherzer-Ignac(1921-1850-مستشرق مجري يهودي، من المستشرقين الكبار الذي اهتم كثيراً بدراسة القرآن الكريم والتراث الإسلامي خاصة مدارس تفسير القرآن -مشروعه القرآني -

ومناهج أحاديث الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، له إنتاج غزير في هذا الجانب -ويؤكّد أدوارد سعيد على ضرورة دراسة أمثال (جولد تسهير) كمدخل لفهم الاستشراق، حيث قال: «أي عمل يهدف إلى تقديم فهم للاستشراق الجامعي، ثم لا يولي إلا اهتماماً ضئيلاً لباحثين مثل... (جولد تسهير)... يجب أن يقابل بالتأنيب أدوارد سعيد: الاستشراق، نقله إلى العربية: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت،

1981م، ط1، ص52. نقلا عن، الشيخ محمد علي سرائب: المستشرق المجري أجناتس جولد تسهير دراسة نقدية لمشروعه القرآني، موقع: المركز لاسلامي للدراسات الاستراتيجية.

(4) مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي، ط1، دار الرشاد، بيروت، 1969، ص5. محمد عيساوي، المرجع السابق، ص734.

مجال الأنثروبولوجيا أي علم الإنسان، أو علم الاجتماع، أو التاريخ، أو فقه اللغة⁽¹⁾ أما دائرة المعارف لنيوجرسي الأمريكية فقد تناولت مصطلح الاستشراق بوصفه مفهوما عاما، حيث نعتته بأنه: "حالات وأساليب تفكير في خصوصيات الشّرقيين"⁽²⁾. وهكذا نخلص بأنّ الباحثين المحدثين اتّفقوا على أن "الشّرق الإسلامي جغرافيا وحضاريا هو المجال الذي . يدور حوله مفهوم مصطلح الاستشراق والمستشرق .

1-1-2- نشأة وتطوّر حركة الاستشراق

من الصّعب تحديد تاريخ معيّن لبداية الإستشراق، لكن من دون شك أنّ إنتشار الإسلام -السريع- في المشرق والمغرب قد لفت بقوة أنظار واهتمام رجالات اللاهوت والكنيسة إلى هذا الدّين بدأوا في دراسته وفهمه، وكان أولهم يوحنا الدمشقي⁽³⁾ (676-749م) -Iohannes Damascenus-، وكانت أبرز مؤلفاته في هذا المجال كتاب (محاورة مع مسلم) وكتاب (إرشادات النّصارى في جدل المسلمين). وهي كتب كان الهدف من خلالها حماية إخوانه النّصارى من الدّين الإسلامي⁽⁴⁾.

نستطيع القول إنّ أولى إرهاصات بداية الدّراسات الإستشراقية الألمانية في الفترة ما بين 1096-1270م حسب المستشرق الألماني رودري بارت (1901-1983) -Rudi Parat- كانت مع محاولة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللّغة اللاتينية بتوجيه من بطرس المبجلّ رئيس دير كلوني في عام 1143م⁽⁵⁾. وبقيت هذه التّرجمة الخطيّة محفوظة، حتّى ظهرت المطابع جوتنبرغ Gutenberg- سنة 1492- فتّمّ طبعتها في مدينة بازل في عام 1553م⁽⁶⁾. وهناك من يرى بأنّ عام 1312 هو "التّاريخ الرّسعي للاستشراق، حيث قرّر المجلس

⁽¹⁾ إدوارد سعيد، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة، محمد عناني، رؤية للنشر، القاهرة، 2006، ص 44. محمد عيساوي، المرجع السابق، ص 735.

⁽⁴⁾ Websters encyclopedia unabridged dictionary of the English language ,P1015.

-محمد حسن زمني، المرجع السابق، ص ص 179-180.

⁽³⁾ يوحنا الدمشقي (Iohannes Damascenus): والملقب بدفاق الذهب نظرًا لفصاحة لسانه، ولد باسم يوحنا منصور بن سرجون عام 676 في دمشق خلال حكم الدولة الاموية (41-132 هـ / 662-750م)، من عائلة مسيحية نافذة إذ كان والده يعمل وزيرًا في بلاط الخلافة الاموية وكذلك كان يعمل جده رئيسًا لديوان الجباية المالية فيها وقد شغل يوحنا الدمشقي نفسه هذه الوظيفة فترة من الزمن، ومن ثم دخل إلى دير القديس سابا قرب القدس في فلسطين، توفي في سنة 749م. ينظر: -Louth (2005). St John Damascene: Tradition and Originality in Byzantine Theology. Oxford University Press.p5.

⁽⁴⁾ نجيب العقيقي: المستشرقون، ط4، دار المعارف القاهرة، 1981م، ج 1، ص 76.

⁽⁵⁾ عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ط 3، دار العلم للملايين، بيروت، 1993، ص ص 62-63.

⁽⁶⁾ المرجع نفسه، ص 736.

الكنسي في فيينا الموافقة على تأسيس كراس جامعية لدراسة اللغات الشرقية، ومن أهمها اللغة العربية، في جامعات أكسفورد وباريس، وبولونيا وغيرها من الجامعات الأوروبية.⁽¹⁾

وقد شارك أفكار الفيلسوف الإنجليزي روجي بيكون Roger Bacon (1220-1290) رايموند لول Raymond Lull (1235م-1316م) ذي الأصول الإسبانية والمتقن للغة العربية، هذا الأخير حيث قام بجهود كبيرة في إنشاء كراسي لتدريس اللغة العربية في أماكن مختلفة، وكان هدفه من وراء تلك الأعمال، هو إقناع المسلمين بلغتهم -أي العربية- ببطلان الإسلام واجتذابهم إلى الدين النصراني.⁽²⁾

وقد ساعد على تقدم الدراسات الاستشراقية في نهاية العصور الوسطى، تلك الصلات السياسية والدبلوماسية مع الدولة العثمانية التي اتسعت رقعتها حينذاك، وكان للروابط الاقتصادية لكل من اسبانيا وإيطاليا مع كل من تركيا وسورية ومصر أثر كبير في دفع حركة الدراسات الاستشراقية.⁽³⁾

أما الأستاذ جوستاف دوجا⁽⁴⁾ (1824-1894) Gustave Dugat - المطلع على الكتب العربية والإسلامية والشرقية فقد عمد إلى ترجمتها كي تتم الاستفادة من هذه الثروة العلمية الهائلة وكانت خلاصة أعماله في هذا الموضوع كتاب "تاريخ المستشرقين في أوروبا منذ القرن الثاني عشر إلى القرن التاسع عشر"⁽⁵⁾ - Histoire des orientalistes de l'Europe --⁽⁶⁾. والأهم من ذلك يبين لنا الطريقة التي استفاد منها الغرب الأوروبي المسيحي من العلوم الإسلامية، ولقد أكد بأن الرهبان الغربيين الذين قصدوا بلاد الأندلس إبان ازدهارها ومجدها السياسي والحضاري، وتثقفوا في مدارسها، وترجموا القرآن الكريم والكتب العربية

(1) بدوي، المرجع السابق، ص 736.

(2) محمد عيساوي، المرجع السابق، ص 735.

(3) محمود حمدي زقزوق، المرجع السابق، ص 28.

(4) غوستاف دوكا-ولد في أورانج Orange في 1824، ودخل مدرسة اللغات الشرقية في باريس. وسافر في بعثة إلى الجزائر في 1845. وفي 1882 كُلف بتدريس تاريخ وجغرافيا الشعوب الإسلامية في مدرسة اللغات الشرقية. وتوفي في (Barjols محافظة Le Ver) سنة 1894. وكان له عدة كتابات في سياق الاستشراق، «سند الراوي في الصرف الفرنسي، لفارس الشدياق ولكستاف دوكات». هذا هو العنوان العربي. أما العنوان الفرنسي فهو Grammaire française á l'usage des Arabes de L'Algérie, de Tunis, du Marco, de l'Egypte et de la Syrie باريس، المطبعة الإمبراطورية، 1854، في 128 ص. نقلنا عن موقع المركز الإسلامي للدراسات الإسلامية وله «تاريخ فلاسفة المسلمين وفقهائهم» كما قام بترجمة عن العربية «تنبيه الغافل» للأمير عبد القادر الجزائري.

(5) في مجلدين. طبعة Paris - باريس - 1858-

(6) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

إلى لغاتهم وتعلموا على يد علماء المسلمين في مختلف العلوم والفنون، وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات⁽¹⁾. وهو بذلك يؤكد دور وفضل المسلمين في التقدّم العلمي على الغرب المسيحي. أمّا عن الآراء القائلة بأنّ بداية الاستشراق قد ظهرت في أوروبا منذ القرن السادس عشر للميلاد، ذلك لأنّ المؤسسات الإستشراقية والدّراسات الإسلامية لم تظهر في البلدان الأوروبية والأمريكية قبل أربعة قرون فقط.⁽²⁾ لكن هناك من ذهب بالقول بأن علم الاستشراق ظهر بشكل رسمي في القرن الثامن عشر للميلاد، والدليل على ذلك أنّ مصطلح "orientalism" لم يدخل في المعاجم اللغوية الغربية إلا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر للميلاد⁽³⁾. وعلى هذا الأساس لا يمكن أن نعرف بالضبط من هو أول غربي اعتنى بالدّراسات الإستشراقية، ولا في أيّ وقت كان ذلك، لكن المؤكّد أنّ الاستشراق انبثق في رحاب الأديرة والكنائس على يد الرهبان اللاهوتيين .

2- كتابات المستشرقين عن فضل المسلمين في مجال الطب:

لقد عرفت حركة الاستشراق منذ نشأتها إتجاهات مختلفة إزاء نظرتها إلى الإسلام، والذي يهّمنا في هذه الدّراسة اتّجاه المستشرقين المعتدلين الذين أنصفوا بكتاباتهم الموضوعية، فضل المسلمين على نهضة أوروبا الغربية المسيحية إبان العصور القروسطية، ولقد عدت كتابات هؤلاء كشهادات واعترافات دامغة لمهد العلوم الطبية والفلسفة وغيرها من العلوم .

1-2- مكانة العلم في رسالة الإسلام كما يراها المستشرقون :

بعد الإسلام أوّل ديانة حثّت على طلب العلم، وكرّمت العلم والعلماء بدليل آيات القرآن الكريم التي ذكرت، أدوات العلم حيث يورد لفظ القلم في أوّل آية أنزلت، يقول جلت قدرته: ﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾⁽⁴⁾. كما تضمّنت رسالة نبيّنا الكريم محمد ﷺ مبادئ الإسلام التي تحثّ على طلب العلم، وهذا بشهادة المستشرق الروماني- قسطنطس جورجيو- constance Jorgio (1916-1992) قائلاً: "لا يمكن أن نجد ديناً يحتلّ العلم والمعرفة فيه محلاً بارزاً كما كان الأمر في الإسلام".⁽⁵⁾

⁽¹⁾ محمد عيساوي، المرجع السابق، ص 735.

⁽²⁾ عبد رحمن بدوي، موسوعة المستشرقين ص 253. الإستشراق والخلفية الفكرية، ص 20. محمد حسن زمامي، المرجع السابق، ص 184.

⁽³⁾ المرجع نفسه، ص 183.

⁽⁴⁾ سورة العلق الآية 3.4.

⁽⁵⁾ سهى بعيون: إسهام العلماء المسلمين في العلوم في الاندلس، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1429هـ-2008م، ص 8. عماد عجوة، شهادات استشراقية أنصفت الحضارة الإسلامية، تاريخ الإضافة: 2010/5/13م-1431/5/29هـ .

ومن بين المستشرقين الغربيين الذين احبوا العرب والمسلمين وصرفوا وقتهم للدفاع عن فضل تراثهم العلمي المستشرقة الألمانية -زيغريد هونكة⁽¹⁾ " SIGRIDHUNKE-(1999-1913) - التي أكدت على أهمية الدور الريادي للمسجد والكتاتيب في تعليم الأطفال القرآن والفرائض والنحو واللغة ومدى أثره في الازدهار العلمي والحضاري لدى المسلمين⁽²⁾.

وهو الأمر الذي جعل الفارق بين العالم الإسلامي المتعلم والعالم الغربي المسيحي الغارق في الظلام، كما بيّنت ذلك هونكة حيث أضافت قائلة: "...ولايفوتنا أن نذكر هنا أن أوروبا ما بين القرنين التاسع والثاني عشر الميلاديين كانت مسرحاً للأمية، فكان أشرفها يتهرّبون من تعلّم القراءة والكتابة، وكان رهبان الكنائس جلّهم أميين، وفي المقابل وفي نفس العصر نجد في قرى ومدن البلاد العربية الآلاف من المدارس التي تضيق بالصّبية من الجنسين كانوا يتعلّمون القرآن والكتابة وتلاوة القرآن...وكان السرّ في تأسيس هذه المدارس الرّغبة الصادقة في إبداء حسن إسلام أولئك الذين يعتنقونه"⁽³⁾.

إنّ هذا الاعتراف من قبل المستشرقة الأوروبية لإنصاف للعرب هو دليل قاطع على أن أوروبا إبان القرون الوسطى كانت تعيش في ظلام الجهل والامية وأن العرب كانوا محظوظين كونهم نالوا رعاية رسالة الإسلام التي رفعت درجة العلم والعلماء وجعلت العلم نورا والجهل ظلاما. كما بيّن المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون --GUSTAF –LE BON-(1841-1831) في كتابه la civilisation arabe- الحضارة العربية - وأثرها في تقدم الغرب الأوروبي⁽⁴⁾.

2-2- فضل المسلمين في العلوم الطّبية :

⁽¹⁾الدكتورة زيغريد هونكة، مستشرقة المانية، احبت العرب، وصرفت وقتها كله في الدفاع عن تراثهم الحضاري، وكتابتها "شمس العرب تسطع على الغرب، هو جهد سنين للدراسة الموضوعية العميقة التي تسلط الضوء على ما للتراث العربي الإسلامي من فضل في نهضة الغرب العلمية =والحضارية وقد احدث هذا الكتاب عند صدوره ضجة كبيرة في العالم العربي الإسلامي والعالم الغربي في المانيا وأوروبا . زغريدهونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة وتحقيق وتعليق، فؤاد حسنين علي ، مطبعة البعث قسنطينة1406هـ/1986، ص 491.

⁽²⁾المرجع نفسه، ص301. آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، نقله إلى العربية، محمد عبد الهادي أبو ريدة، الدار التونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب1405 هـ/1986م، ص ص 287-288.
⁽³⁾هونكة، المرجع السابق، ص 297.

⁽⁴⁾مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون (مالهم وما علمهم)، دار الوراق للنشر والتوزيع، المكتبة الإسلامية، ص 79 ينظر

DR/Gustave LeBon :La civilisation des arabes. ,librairie de Firmin-Didot ,et imprimerie de l institut, Paris,1884,pp 351-352.

قد نوافق رأي المفكر فؤاد سزسكين عندما قال: "إن تاريخ الطب أقدم فرع في تاريخ العلوم ... من بدايته عند الإغريق منذ القرن الأول للميلاد، وفي أوروبا منذ القرن الرابع عشر إلى أواخر السّابع عشر. وبالتالي فالطب ميراث إنساني وأن لكل قوم نصيباً فيه"⁽¹⁾.

وإنصافاً لمساهمة المسلمين في ميدان الطب يؤكّد المستشرق الألماني Edith Heischkel -⁽²⁾ قائلاً: "من هنا يجدر بنا أن نعتبر ظاهرة إحياء الطب التّظري أهمّ ظاهرة في تاريخ الطبّ خلال القرون الوسطى، وفي رأي أنّ أهم ما ينبغي أن يسجّل لهم -المسلمون- من نجاح في هذا المضمار، هو استطاعتهم أن يعرفوا⁽³⁾ الناحيتين: التّظرية والعلمية في الطبّ، وتأسيس عنصر العدالة بينهما، في وقت مبكر، وتطوير هذا المبدأ باستمرار⁽⁴⁾. وعن دور المسلمين في نقد وتصويب مجال الطب يقول: "... أما النّقد بمعنى تصحيح ما وقع للأسلاف فنشاهد، عند العلماء المسلمين منذ القرن الثاني في نواحي مختلفة، وهنا أشير في ناحية الطب إلى بعض الأمثلة مما يوجد عند جابر بن حيان (721-815م) بمناسبة ترتيب قوى الأدوية لجالينوس⁽⁵⁾ (216-129) -Galenos Claudios- فقد ذكر جابر أن ترتيب قوى الأدوية عند جالينوس غير

⁽¹⁾Edithheischkel, die geschichte der medizingeschichtesschreibung, in w artel, einfuehrung in die medizinhistorik, stuttgart, 1949, 205. نقلًا عن فؤاد سيزكين: مكانة المسلمين والعرب في تاريخ الطب، مجلة الثقافة، السنة السادسة عشر، تصدرها وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر، ذو القعدة -ذو الحجة 1406هـ/ يوليو- أغسطس 1986م، السنة السادسة عشر، العدد 94، ص 105.

⁽²⁾opcit.p205.

⁽³⁾جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي (721-815م) عالم مسلم، برع في العلوم العديدة كالفيزياء والفلك، والكيمياء والطب، والصيدلة للمزيد ينظر:

Kraus ، P. "Djābir B. Ḥayyān". *Encyclopaedia of Islam* 2 .snd . Academic Publishers. Brill .1962. pp 359-357.

⁽⁴⁾ibid.p205 .

⁽⁵⁾الطبيب جالينوس (129-216م) (Claude Galien) أكبر أطباء اليونان وأحد أعظم أطباء العصور القديمة، وكان طبيباً فيلسوفاً فابن جليل الأندلسي (ت384هـ/944م) يقول عنه: "...وكان جالينوس هذا عالماً بطريق البرهان خطيباً... وألف كتاب عنوانه أن الطبيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفاً". لقد شيد جالينوس (Galen) صرح الطب باستدلال فلسفي جمع فيه جميع معارف عصره والعصور السابقة فأرسى بذلك قواعد متينة للطب، حيث وضع وصفات تشفي الكثير من الأمراض فقد كانت كتبه عمدة الأطباء في العصور الوسطى الإسلامية والمسيحية أيضاً. ابن جُلجل: سُلَيْمانُ بن حَسَّان الأندلسي، أبو داود، (332. 384. هـ/ 943-944م): طبقات الأطباء والحكماء، ألفه سنة 377 /ويليه/ تاريخ الأطباء والفلاسفة، تأليف اسحاق بن حنين ت298. تحقيق فؤاد السيّد، مؤسسة الرسالة، ط1405، 2 هـ/ 1985م، ص42.

معتبر لأنه اعتمد على الحس فقط، إذ أن تعيين- الكيفية الغالبة أو أدنى القوة لا يمكن بواسطة الإحساس حتى ولو اجتمع أعضاء الحس فيه، إن قوى الأدوية وآثارها يجب أن تضبط ضبطا دقيقا⁽¹⁾.
إنّ نقد جابر بن حيان⁽²⁾ لجالينوس وغيره في هذا الوقت المبكر لتاريخ العلوم الإسلامية يأخذ أحيانا نوعا من الشدة التي تجنّبها المتأخرون كان جابر بقوله: "وقد أخطأ جالينوس في هذا خطأ فادحا..." أو قوله: "وهذا جهل عظيم فادح على ما حكى جالينوس في كتابه منافع الأعضاء..." أو قوله: "وقد أطلق مثل ذلك جالينوس في النفس وتحير تخيل ولم يدر ما يقول في ذلك"، أو قوله: "فان جالينوس إنما غلط في هذا الموضوع الغلط الذي صار به مثلا"⁽³⁾.

أما موقف الطبيب العالم ابي بكر الرازي -Rhozes- (250-320 هـ / 864-932م)⁽⁴⁾، عن أغلاط جالينوس يقول: "...فريّما كان بعضها من الإهمال والسّهو والحرص ولكن هناك ما لا يقبل بسبب قانون تطوّر العلوم، وأيّ إضافة جديدة في العلوم لا بدّ أن تكون مبنية على المعارف السّابقة كاملة لما وصل إليه الأسلاف"⁽⁵⁾. و عن إسهامات المسلمين في تطوّر الطبّ وفضلهم في ذلك على الغرب الأوروبي يفيدنا المستشرق سيزكين بأنّ المسلمين كان لهم الفضل في تأليف كتب مرجعية جديدة في ميدان الطبّ النظري أحسن ممّا كان عند قدماء الإغريق.⁽⁶⁾ وعن مكانة ابي بكر الرازي في مجال الطب يصف المستشرق المحدث H.Schipperges كتابه الطبّ المنصوري بأنّه أول كتاب كامل في علم التّشريح وقد ترجم هذا الكتاب وشرح عدّة مرات⁽⁷⁾.

⁽¹⁾ أنظر المراجع في f. sezgin, geschite des arabischenschrifttums III, leiden 1970, 214-215.

⁽²⁾ edithheischkel, نقلا عن ، -فؤاد سيزكين: مكانة المسلمين والعرب في تاريخ الطب، ص108.

⁽³⁾ -المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁽⁴⁾ أبو بكر الرازي "Rhozes" (250-320 هـ / 864-932م)، ولد بمدينة خراسان شرق طهران ، طبيب مسلم من أصول فارسية نبغ في الطب والكيمياء والفلسفة والموسيقى درس جميع العلوم له مؤلفات اختلف المؤرخون في عددها، اذبينما يجعلها ابن النديم- البغدادي -(ت990م) 113 صاحب الفهرست كتابا كبيرا و28 رسالة نجد ابن ابي اصبغعة الدمشقي (1203-1270 مصاحب كتاب "طبقات الأطباء" يذكر 232 مؤلفا ضاع أكثرهم. سماه هذا الأخير جالينوس العرب، وقد خصصت له جامعة برنستون الأمريكية جناح لمأثر الطبيب ابي بكر =الرازي، كما أنشأت بجانبه دارا لتدريس العلوم العربية ونقل آثارها المخطوطة إلى اللغة الإنكليزية. اشهر كتبه الحاوي - ContinensRhozis- محمد عبد الرحمن مرجبا ،المرجع السابق، ص281. اشتهر في عالم الطب كطبيب واستاذ. زيفريد هونكة ،المرجع السابق، ص157-159.

⁽⁵⁾ S.Pines, Razi critique de Galein, in : Actes du 7eme congres international d'Histoire des Sciences , Paris 1954, 480-487

⁽⁶⁾ فؤاد سيزكين: مكانة المسلمين والعرب في تاريخ الطب ، ص109.

⁽⁷⁾المرجع نفسه، ص، 112.

ويكفي أن نذكر أن المستشرقة زيفريد هونكة أكدت بأن الرازي كان: "أكبر طبيب في العصور الوسطى وأحد عظماء أطباء العالم والإنسانية في مختلف العصور"⁽¹⁾. أما عن أكبر مؤلفاته الطبيّة كتاب "الهاوي"-ContinensRhosis سمي كذلك لأنه حوى كل شيء وهو موسوعة زادت على سبعة عشرة مجلداً، لكن لم يبق منها الا عشرة مجلدات موزعة بين المكتبات. وفي عصر النهضة الأوروبية ترجم فرج بن سالم الإسرائيلي كتاب "الهاوي" إلى اللاتينية⁽²⁾ سنة 1279م، وعرف بLibercontinens، ومن ثمة كانت انطلاقة معرفة جديدة بهذا الكتاب فنسخ منه أعداد كبيرة في مطابع دور أوروبا لفترة زمنية طويلة لغاية 1542م⁽³⁾. وكانت استفادة الغرب الأوروبي من هذا الكتاب استفادة واسعة.

بالإضافة إلى كتاب "الهاوي"-continens، كان للرازي تأليف كثيرة، من ذلك كتاب له في الحصى في الكلى والمثانة. ومن أشهر كتبه كتابه في الجدري والحصبة. VariolisetMorbiliis وهو مترجم إلى اللاتينية- وأخرجت منه أربعون طبعة بين عام 1498 وعام 1866م. أي أن آخر طبعة منه كانت خلال القرن التاسع عشر. وفيه وصف دقيق لتشريح أعضاء الجسم-Anatomy. وهو أول كتاب في موضوع التشريح، ترجم إلى اللاتينية باسم NonusAlmansoris- وكان من بين الكتب التسعة في مكتبة كلية الطب بباريس سنة 1395م، وقد ظل المصدر الأول في الطب في أوروبا لغاية القرن السابع عشر الميلادي، يجمع إلى- الطب العلم بالكيمياء والفلسفة ويصنوف آخري من العلوم⁽⁴⁾.

ولقد اشتهر في الطب العربي الإسلامي كذلك العالم أبو علي بن سينا Avicenna⁽⁵⁾-(370-428 هـ /980-1037م): لقب بالمعلم الثاني تشبهاً له بأرسطو (المعلم الأول). وكان عالماً موسوعياً له عدد من المؤلفات في الفلسفة، والطب والهندسة والفلك والموسيقى وغيرها. لكن كتابه "القانون في الطب" عبارة عن موسوعة طبيّة ضخمة، تناولت شتى الأمراض، وأسبابها وأعراضها وعلاجها، فضلاً عن تشريح أعضاء الجسم الإنساني عضواً عضواً⁽⁶⁾. قام بترجمته العالم الإيطالي المستشرق جيرارد دي الكريموني(1114-

(1) المرجع السابق، ص 157.

(2) ن فؤاد سيزكين: مكانة المسلمين والعرب في تاريخ الطب، ص 202..

(3) أحمد زكي، أبو بكر الرازي، ص ص 110-113.

(4) زيفريد هونكة، المرجع السابق، ص 164. محمد عبد الرحمن مرحبا، المرجع في تاريخ العلوم عند العرب، ص 284.

(5) العالم أبو علي بن سينا Avicenna⁵-(370-428 هـ /980-1037م): ولد في مدينة بخارى ببلخ الفارسية، سماه العرب شيخ الأطباء، سماه الغرب أمير الأطباء، أبو الطب الحديث، بالرغم من سيطرة الفلسفة على تفكيره، "مع ذلك فقد ابدع في وصف العضء وأمراضها ووقايتها وصفاً لانزال بنصيب وافرمته حتى اليوم". المرجع نفسه، ص 297.

(6) المرجع نفسه، ص 294.

1187م)-Gérard de Crémone إلى اللاتينية وقد تميّزت ترجمته بالدقة والأمانة، كانت جديرة بالثقة التي شادت جسورا معرفية بين الطرفين، وقد حظيت أعماله المترجمة بالتقدير وخصّصت باسمه جائزة⁽¹⁾. ولقد اعتبره الأوروبيون خير ما أنتجته القريحة الإسلامية. ففي القرن السابع عشر أصبحت عبارة روح ابن سينا AnimaAvicenna- من أكبر الألقاب التي يتشرف بحملها الطبيب الأوروبي. وكانت درجة الامتياز التي تمنح للأطباء المتفوقين شعار ابن سينا Avicennistainsignis –وأصبح لفظ –الأطباء" ابن سينا Avicennist " يطلق على أتباع ابن سينا⁽²⁾.

وفي الأندلس برز أبو القاسم (936-1013م) كان جراحا في بلاط قرطبة عهد الخليفة الحكم الثاني المستنصر بالله (915-976م) وله كتاب المعروف باسم "التصريف" الجزء الثالث منه الخاص بالتشريح، وقد استعمله الأوروبيون واستدلوا به زمنا طويلا،⁽³⁾ كما برز أطباء أجلاء منهم أبو مروان عبد الملك بن زهر الأندلسي (ت 1162/557م) مؤسس بيت الأزهر في الطب، حيث تداولت أفرد أسرته مهنة الطب، ومن أهم آثاره كتاب "الاقتصاد في إصلاح في الأنفس والأجساد" استفاد منه كثير من الأوروبيين⁽⁴⁾. وتبيّن لنا صحيفة حفظها لنا موفق الدين عبد اللطيف البغدادي (المتوفى سنة 629هـ/1231م) في كتابه "الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر" مدى التزام علماء المسلمين في تطبيق منهج البحث التجريبي في ميدان العلوم الطبيّة، فلقد استفاد البغدادي من وجود جثث الموتى في المجاعات بمصر زمن الحروب الصليبية فقام بتشريحها وتوصّل إلى اكتشافات ذات قيمة علمية كبيرة خاصّة في المفاصل وكيفية اتّصالها وتناسيها وأوضاعها. ومما جاء فيها: «ومن عجيب ما شاهدناه أن جماعة ممن ينتمون للطبّ وصلوا إلى كتاب التشريح لجالينوس فكان يعسور على إفهامهم تصور القول عن العيان.....فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتّصالها وتناسيها وأوضاعها ما أفادنا علما لا تستفيده من الكتب أما أنّها سكّنت عنها، أو لا يفي لفظها بالدلالة عليه أو يكون ماشهدناه مخالفا لما قيل فيها. والحسن أقوى دليلا من السّمع. فإنّ جالينوس، وإن كان في الدّرجة العليا

(1) نفسه، ص 294. موقع البيان، التاريخ/16/نوفمبر 2016.

(2) زيفريدهونكة، المرجع السابق، ص 224. Lahlaidi ;Aperçu surla contribution des médecinsarabo-musulmans . dans la chaîne des connaissancesàtraverslessiecles

(3) زيفريدهونكة، شمس العرب تسطع على العرب، ص 206.

(4) المرجع نفسه، ص 202. محمد عبد الرحمن مرجبا، المرجع السابق، ص ص 305-307. ص 387، وما بعدها.

من التَّحْري والتَّحْفِظ فيما يباشره ويحكِّيه فإنَّ الحسَّ أقوى منه... فمن ذلك عظم الفكّ السّفلي فإن الكلّ قد أطبقوا على أنّه عظمان بمفصل وثيق ولا درز أصلاً، واعتبرناه ما شاء الله من المرات من أشخاص كثيرة تزيد على ألف جمجمة بأصناف من الاعتبارات فلم نجده إلا عظماً واحداً من كلّ وجه...⁽¹⁾.

أمّا الطيب المستعرب الإيطالي أندريا ألباجوس (Andreas Alpagnus 1521-1450) فقد ساعدته إقامته الطويلة في دمشق على ترجمة كتب العالم الموسوعي الطبيب علاء الدين بن أبي حزم القرشي الدمشقي المعروف بابن النفيس (ت 686هـ/1288م) الذي وصل قبل غيره من الغربيين بأربعمئة سنة إلى اكتشافه العظيم "للدورة الدموية الصغرى"⁽²⁾.

وعن فضل المسلمين في اختراع مادّة التخدير في العمليات الجراحية تضيف المستشرقة زيغريد هونكة مايلي: "وللعرب على علم الطب فضل آخر كبير في غاية الأهمية، ونعني به استخدام المرقد (المخدر) العام في العمليات الجراحية. وكم كان التخدير العربي فريداً من نوعه، صادقا في مفعوله، رحيما فيما يمن يتناوله، وهو يختلف كلّ الاختلاف عن المشروبات المسكرة التي كام الهنود واليونان والرومان يجبرون مرضاهم على تناولها كلما أرادوا تخفيف آلامهم، لا لرفع آلام العمليات عنهم... أن الحقيقة تقول والتاريخ يشهد أنّ فنّ استعمال الاسفنجة المخدرة فنّ عربي بحت، لم يُعرف من قبل. وكانت هذه الاسفنجة المخدرة توضع في عصير من حشيش وافيون... ثم تجفف في الشمس. وعند استعمالها ترطب ثانية وتوضع ثانية على أنف المريض، فتمتص الأنسجة المخاطية المواد المخدرة ويستغرق المريض في نوم عميق يريحه من أوجاع العملية الجراحية"⁽³⁾. لقد أحدث هذا الاختراع ثورة في طبّ الأعضاء حيث استخدمه الغرب الأوروبي في العمليات الجراحية⁽⁴⁾.

ولا يفوتنا أن ننوّه بروح نزهة المستشرق خوسيه لويس بارسلو «Jose Luis Barslo» الذي دون في بحث ألقاه في المؤتمر العالمي الأوّل عن الطبّ الإسلامي، المنعقد في دولة الكويت -ما بين 6-10 ربيع الأوّل 1401هـ الموافق لـ 12-16 يناير (كانون الثاني) 1981م-، تحت عنوان: "أثر العلوم الإسلامية في تطوّر الطب" فقال: "إن الأهمية الحقيقية والحاسمة للعلوم الإسلامية في الماضي تكمن في أثر تطور الطب في المستقبل، فبفضل الإسلام وجدت القواعد الحالية لعلوم الطب، ولقد حان الوقت لنعرف مثل هذه الحقائق، وأن يحتلّ العالم الإسلامي مكانته الصّحيحة في حقل العلم احقاقاً للحقّ، ففي عام 953م أرسل ملك الألمان

⁽¹⁾ زيغريد هونكة، المرجع السابق، ص ص 187-188.

⁽²⁾ محمد عبد الرحمن مرحبا، المرجع السابق، ص ص 308-309.

⁽³⁾ زيغريد هونكة، المرجع السابق، ص 151.

⁽⁴⁾ فؤاد سيزكين: المرجع السابق، ص، 112.

(أوتو الأول العظيم) Otto I le Grand - ملك الألمان وإمبراطور رومانية المقدسة (912-973م) سفيرا من لدنه إلى بلاط قرطبة عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر (891-961م)، قام بالمهمة الدبلوماسية راهب فرنسي يدعى -جون دي جورز- John of Gortzeny الذي عاش ما يقرب ثلاث سنوات في عاصمة الخلافة الأندلسية، وخلال فترة إقامته تعلّم العربية بإتقان، وعند عودته إلى موطنه، حمل معه مئات المخطوطات الطبية والعلمية القيمة، حيث انتشرت بسرعة في ربوع أوروبا الغربية⁽¹⁾.

إنّ تقدّم منهج العلوم الطبيّة الذي أصبح اليوم علامة فارقة ومميّزة يتمتّع بها الغرب الأوروبي، كان أحد هدايا العرب للغرب الأوروبي المسيحي إبان العصور القروسطية، لذا ليس من الغريب أن نرى مدخل كلية الطب بجامعة باريس-يزدان بصورتين كبيرتين إحداهما لابن سينا والأخرى لأبي بكر الرازي⁽²⁾. تؤكد ذلك المستشرقة زيغريد هونكة قائلة: "وكان الباريسيون يقدرّون حقًا قيمة هذا الكتاب-الحاوي ContinensRhasis الذي تتكون منه مكتبتهم الطبية حتى إنهم أقاموا نصبًا تذكاريًا في المدرج الأكبر لكلية الطب واليوم مازال طلاب مدرسة الطب يشاهدون يوميا صورته وصورة عربي-ابن سينا Avicenna- عندما يجتمعون في قاعة محاضرات الكبرى في شارع (سان جرمان ده بري-Boulevard St.Germain des Prés-) ⁽³⁾.

خاتمة:

إنّ دراسة موضوع: فضل المسلمين على الغرب المسيحي الأوروبي في مجال الطب إبان العصور الوسطى من خلال كتابات المستشرقين. توصلنا من خلال عرضه إلى النتائج التالية:

- تدخلت في نشأة مصطلح الإستشراق العديد من العوامل والأهداف، كان أبرزها العامل الديني خاصة وأن الإستشراق خرج من باحات الكنيسة ورجال اللاهوت. مما يفسّر أن مصطلح الاستشراق يحمل في طياته معانيه تيار الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بين الشّرق الإسلامي والغرب الأوروبي المسيحي.

-كشفت المقارنة مكانة العلم في رسالة الإسلام كما جاء ذكرها في آيات القرآن الكريم وأحاديث نبينا محمد ﷺ التي حثت على العلم والسّعي في طلبه، وقد مثّل ذلك انقلابا ايجابيا في حياة المسلمين الاجتماعية والعلمية إبان العصور الوسطى وفي المقابل كان الغرب الأوروبي المسيحي غارقا في ظلام الجهل والامية.

- أسهبت المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة من خلال كتابها " شمس العرب تسطع على الغرب" في بيان أثر فضل الحضارة الإسلامية العربية على الغرب أوروبي المسيحي، كما شاركها الكتابة العديد من

⁽¹⁾ بوعزديّة علي و بن ذهيبّة خضرة، مرجع سابق، ص 255.

⁽²⁾ زيغريد هونكة، المرجع السابق، ص مديوني عمر، المشرف على المشاريع الخارجية السنغال: مؤسسة الشيخ عيد آل ثاني الخيرية، الدوحة قطر، دة/مديوني جميلة: 1، التسويق الاعمال بكلية الاقتصاد والتسيير والتجارة، جامعة الشلف، الجزائر: دور الطب الإسلامي في تطور العلوم الطبية الحديثة في أوروبا.

⁽³⁾ شمس العرب تسطع على الغرب، ص ص 157-158.

المستشرقين العالميين الذين اتبعوا الموضوعية والحيادية لابرار ذلك الفضل ردًا على الكتابات الناكرة والجاحدة لإسهام المسلمين في التراث العالمي بما قدّموه في ميدان الطب.

- كشفت الدراسة بأن اتجاه الاستشراق كان أكثر نحو الغرب حيث الأندلس، وبالتحديد إلى مدرسة طليطلة الإسبانية للمتترجمين التي شهدت ازدهارًا كبيرًا خاصّة في عهد الخلافة الإسلامية. ومن جهة أخرى مثلت أسرة آل زهر الأندلسية نموذجًا فريدًا من نوعه في تخصص أفراد العائلة الواحدة في الطب، شملت الكتب العربية المترجمة شروحات كتب الطب المشهورة كانت أهمها كتاب الحاوي لأبي بكر الرازي وكتاب القانون في الطب لابن سينا وقد أضحي الكتابان مرجعين سياسيين في مناهج تخصصات جامعات الطبّ في بأوروبا،

وفي الأخير نستخلص، بأن الجهد العلمي لحركة الاستشراق في ميدان ترجمة كتب طب المسلمين، هو في حقيقته اعتراف لفضل المسلمين على الغرب الأوروبي المسيحي إبان العصور القروسطية، حيث ساهمت تلك الكتب المترجمة من العربية إلى اللاتينية بطريقة فعّالة، في الأدوار التي أفادت في انطلاقة إيجابية وتحويل الغرب الأوروبي المسيحي إلى نهضة علمية حديثة في ميدان العلوم الطبية.

-توصية: ونحن اليوم مدعوون إلى البحث والتنقيب بدورنا في كتابات المستشرقين لفرزها ونقدها والاستفادة منها أكثر، لأنّها تضم ذخائر مخزون تراث علمي إسلامي في ميدان الطب إبان العصور الوسطى.

أهم المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم :- سورة العلق الآية 4.3.
- أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت 711هـ) لسان العرب، دار صادر- بيروت، ط4، 2005م،
- إدوارد سعيد، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة، محمد عناني، رؤية للنشر، القاهرة، 2006،
- آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، نقله إلى العربية، محمد عبد الهادي أبو ريدة، الدار التونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب 14 05 هـ/1986م
- بوعزدي علي و بن ذهبيّة خضرة، موقف المستشرقين من العلوم الكونية للمسلمين من خلال دائرة المعارف الإسلامية، علم الطب أنموذجًا)، حوليات جامعة الجزائر (1)، المجلد 35، العدد 04، 2021.
- زغريدهونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة وتحقيق وتعليق، فؤاد حسنين زكي، مطبعة البعث سنطينة 1406هـ/1986
- سهى يعيون: إسهام العلماء المسلمين في العلوم في الأندلس، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1429هـ-2008م
- ،عماد عوجة، شهادات استشراقية أنصفت الحضارة الإسلامية، تاريخ الإضافة: 2010/5/13م-1431/5/29هـ،
- عبد رحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1993.

- مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي، ط1، دار الرشاد، بيروت ، 1969 ،
- محمود حمدي زقزوق، الإستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، الناشر دار المعارف، القاهرة، د.ت، ينظر: رودى بارت، الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية، ترجمة، مصطفى ماهر، القاهرة 1967م.
- محمد حسن زمانى، الإستشراق..تاريخه ومراحله، مجلة المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، (دراسات استشرافية)، السنة الأولى، 1435هـ/2014، العدد1.
- مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون (مالهم وما عليهم)، دار الوراق للنشر والتوزيع، المكتبة الإسلامية.
- فؤاد سيزكين:مكانة المسلمين والعربي تاريخ الطب،مجلة الثقافة،السنة السادسة عشر،، تصدرها وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر، ذو القعدة – ذو الحجة 1406هـ/يوليو- أغسطس 1986م، السنة السادسة عشر، العدد94،
- نجيب العقيقي، المستشرقون لنجيب العقيقي ط4، دار المعارف بالقاهرة 1981م.
- A .Lahlaidi ;Aperçu sur la contribution des médecins arabo-musulmans dans la chaîne des connaissances à travers les siècles ;Faculté de Medecine de Rabat, communication présentée au 3Em e JPA ;Annaba decembre 2003/Facmed2004,01 .
- Edith heischkel, die geschichte der medizingeschichtesschreibung, in w artel, einfuehrung in die medizinhistorik, stuttgart, 1949.
- DR/Gustave LeBon :La civilisation des arabes. ,librairie de Firmin-Didot ,et imprimerie de l institut, Paris,1884.
- S.Pines, Razi critique de Galein, in : Actes du 7eme congres international d’Histoire des Sciences , Paris 1954 .

الوضع الصحي والممارسات الطبية في الجزائر العثمانية:

دراسة تاريخية على ضوء الكتابات الغربية.

**The health status-quo and the medical practices in the Ottoman Algeria:
a historical study in the light of the Western writings**

د. صغير عبلة، جامعة وهران 01 (الجزائر)
seghierabla46@gmail.com

الملخص:

إن التطرق للوضع الصحي بالجزائر العثمانية، وأساليب التداوي بها يُلزمنا الرجوع للكتابات الغربية التي حملت بين طياتها ملاحظات هامة عن الموضوع، وبالتالي لا بد لنا من العودة لما دونه كل من الدكتور شو (Show)، وعالما الطبيعة الفرنسيان بايسونال (Peyssonnel)، وديفنتان (Desfontaines) في رحلاتهم إلى الجزائر، كما لا نقل أهمية عن مؤلفاتهم تلك الكتابات التي تركها كل من القس بوارى (Poiret)، والقنصل فاليار (Vallière)، وبنانتي (Pananti)، وتراپاني (Trapani) ...إلخ.

جمعت هذه المصادر رصييدا هاما من المعلومات، والملاحظات التاريخية المتعلقة بالموضوع، كحديثها عن الأمراض المنتشرة وأساليب العلاج، والمؤسسات الاستشفائية، وبناء على ما ذكرته، سنلقي نظرة تاريخية على الوضع الصحي بالإيالة والممارسات الطبية المنتشرة بها من خلال معالجتنا للإشكالية التالية: كيف صورت لنا الكتابات الغربية الوضع الصحي بالجزائر العثمانية، وما هي أهم الممارسات الطبية والعلاجية المنتشرة بها؟ معتمدين في ذلك على المنهج التاريخي القائم على الوصف، والنقد، والمقارنة. الكلمات المفتاحية: الجزائر، العثمانية، الكتابات، الغربية، الوضع الصحي.

Abstract:

Tackling the health status in the Ottoman Algeria and the medication styles obliges us to go back to the Western writings that included important notes about the issue. Therefore, it is necessary to go back to what Dr. Show, the French naturalists Peyssonnel and Desfontaines, the priest Poiret, the Consulate Vallière, Pananti, Trapani, etc wrote. These sources include an important amount of information related to the topic such as speaking about the widespread diseases and the therapeutic styles. Based on what has been said, we shall have a historical look on the health situation in the regency and the widespread medical practices trough handling the following problematic: how did the Western writings depict the health status in the Ottoman Algeria? And what are the most important widespread therapeutic and medical practices there?

Key words: Algeria; Ottoman; Western; writings; health status quo.

مقدمة:

يجد الباحث نفسه أثناء دراسته للوضع الصحي بالجزائر إبان العهد العثماني ملزما بالإطلاع على ما تركته الكتابات الغربية حول هذا الموضوع، حيث نجد أن هذه الأخيرة قد اهتمت بجمع ملاحظات متنوعة، فمنها ما أجرى أصحابها دراسات تاريخية حول الجانب الاجتماعي لسكان الجزائر متطرقين بذلك إلى الوضع الصحي الذي يشكل جزءا مهما من هذا الجانب، ومنها ما ترك لنا ملاحظات عن الأمراض المنتشرة ومسبباتها، وأخرى تحدثت عن الكوارث الطبيعية التي تعتبر من بين العوامل المتحكمة في الوضع الصحي والتي غالبا ما كانت تتسبب في انتشار الأوبئة والأمراض، ومن هذه الكتابات ما تتبع أصحابها مراحل انتشار الوباء في المنطقة، ونقلوا لنا معلومات عن أساليب التداعي وطرق العلاج

فإلى جانب ما نقلته لنا الكتابات المحلية من أخبار، أطلعنا المصادر، والكتابات الغربية على دراسات، وملاحظات لا تقل شأنًا عن الأولى، فنجد في هذا الصدد ملاحظات الرحالة الإنجليزي توماس شو، وعالما الطبيعة الفرنسيان بايسونال، وديفتان، والقس بواري، وتلك الدراسة التي اهتمت بالحديث عن الطاعون بإفريقيا لمارشيك (MARCHIKA)، وكذا مقال دوفو (Devoulx) الذي خصّصه للحديث عن الكوارث الطبيعية، ومقال باربروجير (Berbrugger) الذي تحدث فيه عن المستشفيات بالإيالة، وكذا رسالة الدكتوراه للفرنسي غابريال كولان (Gabriel Colin) الذي اهتم بكتاب الطبيب والرحالة الجزائري عبد الرزاق بن حمادوش والمسعى "بكشف الرموز عن التداعي بالأعشاب" والذي استخرج منه غابريال أساليب التداعي أو الطب التقليدي المعتمد لدى الجزائريين...إلخ.

والإشكالية المراد معالجتها في هذا الصدد هي : كيف صورت لنا الكتابات الغربية الوضع الصحي بالجزائر إبان العهد العثماني، وما هي أساليب العلاج وطرق التداعي المعتمدة لدى الجزائريين آنذاك؟ وللإجابة على هذه الإشكالية قمنا ببناء دراسة تاريخية حول الوضع الصحي مستنديين فيها بالدرجة الأولى على ما دونته الكتابات الغربية من ملاحظات، وأخبار، ونتائج بحثية عن الموضوع، معتمدين على المنهج التاريخي الوصفي مع المقارنة والنقد أحيانا.

1. ملحة عامة عن الوضع الصحي بالجزائر العثمانية:

1.1 الأوبئة والأمراض:

اتفقت جل المصادر ، والدراسات التاريخية على أن الجزائر كانت تحظى بمناخ صحي ملائم بفضل طبيعتها ومناخها المعتدل، حتى أن الدكتور شو لاحظ أثناء زيارته لها في النصف الأول من القرن 18م قلة الأطباء بها وأرجع السبب في ذلك إلى ندرة انتشار الأمراض الخطيرة بها¹، باستثناء المناطق التي تحاذي المستنقعات، وهي أمراض موسمية تصيب الأطفال فقط، هذا وقد لاحظ الأوروبيون اعتناء الجزائريين المفرط بنظافة ملابسهم وغسل أيديهم عند تناول الطعام².

ويذكر بوانت (Pointe) أن الجزائريين كانوا محافظين على نظافتهم، ومتخذين جميع أساليب الوقاية لتفادي انتشار الوباء باستثناء الطائفة اليهودية التي انتشرت بين أفرادها أمراضا فتاكة كوباء الكوليرا لأنها لم تتخذ سلوكا نظاميا في أحيائها القذرة والمزدحمة وهو ما ساهم في تفشي المرض بينهم بشكل سريع³، وما عكس صفو الحياة الصحية بالجزائر سوى تلك الأوبئة التي كانت تضربها بين الوقت والآخر ، والتي كانت تأتيها عن طريق الموانئ، والسفن القادمة من المشرق، أو من أوروبا، و نظرا لاتصالها بالبحر الأبيض المتوسط.

ويذكر دوغرامون (De Grammont) في هذا الصدد الوباء الذي ضرب الجزائر عام 1535م، والذي اشتدت فيه المجاعة، إذ انتقل إليها عن طريق إحدى السفن الراسية بمينائها، كانت محملة بالقمح فهلك منه الكثير من الناس⁴، ومنها ذلك الوباء الذي ضرب وهران في القرن 16م عام 1542م على عهد حسان آغا حسبما أشار إليه كل من هايدو (Haedo) وباربروجير وريينو (Raynaud)، حيث أحدث خسائر كثيرة، مما اضطر الإسبان إلى ترك المدينة والتخيم خارجها⁵.

¹ T. Show, Voyage dans la régence d'Alger, tra de l'Anglais ar Mac Carthy, Tunis, 1980, p.81.

² جليل بن عتو، "الأوضاع الصحية والمعيشية والديموغرافية في الجزائر العثمانية من خلال المصادر الغربية"، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مج13، ع1، جامعة معسكر، جوان2002، صص.640-641.

³ I. Pointe, Relation Médicale d'un voyage de Lyon a Alger lue a la société Littéraire de Lyon dans la séance du Aoute 1835, Maire libraire, Lyon, 1836, p. 28.

⁴ قندوز عبد القادر، "الوضع الصحي بالجزائر في العهد العثماني"، مجلة الخلدونية، مج7، ع1، جامعة ابن خلدون تيارت، ديسمبر2014م، ص.268.

⁵ Jean MARCHIKA, La peste en Afrique Septentrionale : Histoire de la peste en Algérie de 1363 1830, Julien Carbonal, Alger, 1927 , p.24.

هذا ويشير باربروجير إلى وباء عام 1552 كأقدم وباء عرفته الإيالة، والذي يقال أن انتقل إليها عن طريق أسطول صالح ريس القادم من اسطنبول¹، وحسب مارشيكافان وباء 1553م قد أودى بحياة 9000 شخص، وقد أطلق عليه العرب تسمية وباء بانق باشي (Banek Bachi)، كما شهدت الجزائر موجة أخرى استمرت من 1555 إلى 1557 راح ضحيتها صالح ريس².

استمر الوباء في ضرب مدينة الجزائر خلال القرن 17م، وذلك عبر سنوات: 1601، 1609، 1639، 1620، 1643، 1649، 1654، 1661، 1674، 1678، 1691³، 1695، 1698⁴، وقد كان وباء 1620 أكثر شدة حيث امتد على كل بلدان الشمال الإفريقي بداية من المغرب، فالجزائر، فتونس، وأطلق عليه تسمية "الحبوبة الكبيرة" بكل من الجزائر والمغرب، و"سيدي بالخير" بتونس⁵، واشتد الوباء أيضا بين 1654 و1666 فضرب كل من وهران، وقسنطينة، وبجاية فكان يقتل يوميا حوالي 500 شخص.

وأرجع دوغرامون سبب انتشاره إلى حركة رياس البحر الذين نقلوا العدوى إلى الجزائر، وقد تسبب في وفاة 10 آلاف أسير، وقُدِّر عدد ضحايا الوباء في أواخر القرن 17 ما بين 25 إلى 45 ألف شخص سنويا⁶، كما انتشر عبر واحد وعشرين سنة من القرن 18م خاصة سنوات: 1732، 1740، 1749، 1784، 1787، 1788، 1793، 1794، 1798م، وما زاد الأمر سوءا مصاحبة المجاعات والكوارث الطبيعية لهذه الأمراض، مما أدى إلى تردي النمو الديموغرافي، والوضع الاقتصادي خاصة خلال القرنين 17 و18م⁷، ويذكر فوتير دوبرادي (Venture de Paradis) في هذا الصدد أن وباء 1787 تسبب في هلاك العديد من الحرفيين المختصين في صناعة الأحزمة الحريرية مما أدى إلى انخفاض عددهم، وتراجع معدل إنتاج مادة الحرير⁸.

وقد تسبب وباء 1740 الذي اقترن بالمجاعة الشديدة التي عرفتها الجزائر عام 1738 في هلاك عدد كبير من الناس إذ بلغ عدد الضحايا يوميا ما بين 200 إلى 400 حالة وفاة، ويذكر الورتيلاني أنه أضر بسكان بسكرة وضواحيها حيث مات من جرائه الآلاف من الناس، وكاد أن يفنيهم عن بكرة أبيهم⁹، كما أدى وباء

¹Ibid, p.25.

² Jean MARCHIKA, op cit, p.26.

³ - كان الوباء عنيفا في هذه السنة وأطلق على هذه السنة "عام البرورو" (L'année de Bourouro) ينظر: Charles Feraud, « Ephemérides d'un secrétaire officiel sous la domination Turque à Alger 1775 à 1805 », in R.A., vol18, Alger, 1874, p.319.

⁴ - جليل بن عتو، المرجع السابق، ص. 642.

⁵ Jean MARCHIKA, op cit, p.40.

⁶ - قندوز عبد القادر، المرجع السابق، ص. 269.

⁷ - جليل بن عتو، المرجع السابق، ص. 642، 643.

⁸ - Venture de Paradis, **Tunis et Alger au 18^{ème} siècle**, Sindibad, Paris, 1983, p.123.

⁹ - قندوز عبد القادر، "المرجع السابق، ص. 270.

1786 و1787 الذي انتقل إلى الجزائر من الإسكندرية عبر تونس إلى هلاك ما بين 200 إلى 240 ضحية يوميا حسب فونتير دوبرادى¹، كما أصابها عام 1793 عن طريق بحارة اسطنبول وهذا ما يؤكد القنصل الفرنسي في رسالته إلى مراسله بعنابة في 23 جانفي 1793 قائلا: "إن الطاعون أصاب البساكرة العاملين بمدينة الجزائر، وانتقل بعدها إلى الأرياف حتى وصل إلى مدينة البليدة"، وقدر عدد ضحاياه بين سنتي 1792 و1793 بـ 12 ألف شخص.²

ثم توالى انتشاره من 1799 إلى عام 1804 م، ثم عام 1812، و1816 ويصف المكناسي الذي زار الجزائر في هذه الفترة الأجواء السائدة آنذاك قائلا: "ولما وصلنا إلى الجزائر خيمنا بظاھرھا ولم ندخل إليها، وقد وجدنا فيها الوباء، نعوذ بالله وقد كان قبل وصولنا إليها قويا فكان يموت كل يوم على ما يحكى لنا نحو الثلاثمائة"³، واستمر في السنة الموالية حسبما ورد في إحدى الجرائد الفرنسية فكان عنيفا جدا حيث انتشر على نطاق واسع، فبالإضافة إلى الشمال الإفريقي ضرب العديد من الدول، وبعض المناطق التابعة للدولة العثمانية كجزيرة كورفو، وسميرين، ومملكة نابولي وصولا إلى أمريكا وجزر المارتينيك وغوادالوبي... إلخ.⁴

إضافة إلى الوباء انتشرت بعض الأمراض الجلدية كمرض الجدري، الذي يعود وجوده في شمال إفريقيا إلى ثلاثة آلاف سنة ماضية، حيث كان يضرب البلاد مرة كل أربع سنوات، وقد تم تسجيل موجة منه مع بدايات التواجد العثماني بالمنطقة عام 1509 عندما ضرب الحامية الإسبانية ببجاية، وعام 1560م، وارتبط مرض التيفوس بسنوات المجاعة والجراد، وتتمثل أعراضه في ارتفاع الحرارة والصداع الشديد، بالإضافة إلى هذه الأمراض نجد حمى المستنقعات، والرمم الذي كان يصيب الأطفال غالبا.⁵

2.1. الكوارث الطبيعية:

عصفت بالجزائر إبان العهد العثماني عدة كوارث طبيعية كالزلازل، والجفاف، والفيضانات، ساهمت في تردي الوضع الصحي لسكانها فغالبا ما كانت هذه الكوارث الطبيعية تصحب أو تنتهي بموجة من الأمراض، والأوبئة، والمجاعات، وأما الزلازل ففي عام 1632 ضرب زلزال قوي في الجزائر والمدية، هلك منه العديد من

¹ -Venture de Paradis, op cit , pp.151-154.

² -آل سيد الشيخ سعاد، الأوضاع الصحية وانعكاساتها على المجتمع الريفي اجتماعيا واقتصاديا بالجزائر العثمانية، مجلة الدراسات التاريخية، مج9، ع1، الجزائر، سبتمبر 2021، ص. 95.

³ -المرجع نفسه، ص.95.

⁴ -Journal des débats politiques et littéraires, 12/01/1817.p. 1.

⁵ -عبد القادر قندوز، المرجع السابق، ص ص. 271، 272.

السكان، ولعل زلزال 1716 من أعنف الزلازل التي ضربت الإيالة حيث ضرب مدينة الجزائر، وشرشال، وبجاية وتسبب في موت 20 ألف شخص، وأعقبته حالات من الفوضى والنهب. كما ضرب مرة أخرى في عامي 1723 و1724 بمليانة، ومدينة الجزائر، وعنابة، وفي عام 1755 أين ضرب هذه المرة كل البحر الأبيض المتوسط وعرف بزلزال لشبونة، تسبب هذا الزلزال في انهيار العديد من المباني، وتلته أيضا موجة من الفوضى، وأعمال السلب والنهب،¹ وتعرضت مدينة البليدة لزلزال عام 1760 وخرج السكان إلى الحدائق هارين، كما ضرب الإيالة مرة أخرى عام 1770²، ومدينة وهران عام 1790 فأودى بحياة ألف شخص، واستمرت الهزات الأرضية في ضرب المنطقة مع مطلع القرن 19م، ونذكر هنا زلزال 1810، و1818 وزلزال 1825 الذي تسبب في هلاك سبعة آلاف شخص، وآخرها زلزال 1830 الذي ضرب مدينة الجزائر³.

أما الفيضانات والعواصف ففي عام 1675 تعرضت المتيجة لفيضانات نتيجة ارتفاع منسوب المياه في الأنهار، وفي عام 1709 اندلع حريق بالعديد من البساتين، كما شهدت الإيالة في عام 1694 عاصفة ثلجية كثيفة⁴، وحسبما رصده لنا دوفو في مقال له بالمجلة الإفريقية "بعض العواصف بالجزائر" -بناء على ما ورد في تقارير البحارة ودفاتر السفن الأوروبية- فإن الجزائر شهدت بعض الفيضانات و العواصف البحرية ضربت سواحلها وتسبب في تحطيم قطعها البحرية، نذكر منها عاصفة 1592 التي تسببت في تحطيم الرصيف البحري الذي بناه خير الدين بربروسا وعدد من القطع البحرية، وأخرى عام 1619 تسببت في تحطيم 25 سفينة، وكذلك سنوات: 1715، 1727، 1731، 1734، 1736، 1753، 1750، 1754، 1755، 1757، 1792، 1812، 1816م⁵.

2. الممارسات الطبية وأساليب العلاج:

يكاد يجمع معظم الأوروبيين على انعدام الطب في الجزائر إبان الفترة العثمانية، ويستثنون في ذلك بعض الممارسات الشعبية، وذلك لاعتبار الجزائريين أن المرض قضاء وقدر من الله، وبأن الله هو أفضل طبيب، وتذكر المصادر أن الأطباء الجزائريين على قلتهم كانوا يعتمدون على الترجمة الإسبانية لكتاب

¹ - جليل بن عتو، المرجع السابق، ص. 649.

² - Charles Feraud, op cit, p.319.

³ - جليل بن عتو، المرجع السابق، ص. 649.

⁴ - Charles Feraud, op cit, p.319.

⁵ A. Devoulx, « Quelque Tempêtes à Alger », in R.A., vol15, Alger, 1871, pp. 342- 351.

الطبيب الإغريقي ديوسكوريد (Dioscoride)¹، ويذكر شو في هذا الصدد أن السكان اعتمدوا على الطب التقليدي القائم على التداوي بالأعشاب فعادة ما كان المريض يحضر مشروباً ساخناً من الأعشاب كدواء². أما مهنة الطب أو الجراحة فكانت تمارس بشكل تقليدي في أزقة القصبة، وفي مدن أخرى من طرف بعض الحلاقين، الذين تتكون معداتهم الجراحية من بعض الأدوات البسيطة من بينها: قرن مصاص، قطعة من الحجر الجهني، قطعة من الوب، مقصين ومشط، موضوعة فوق حصيرة بشكل فوضوي دون مراعاة أدنى شروط النظافة، ويضاف أحياناً إلى هذه الأدوات كماشة لنزع الضرس، وسكين ذو شفرات قصيرة وحادة للغاية مخصص للكي، بالإضافة إلى حلقات حديدية بأحجام مختلفة تستخدم لكي الجراح الناتجة عن الأسلحة النارية³.

ولعل هذه الممارسات هي التي جعلت الأوروبيين ينفون نفياً قاطعاً وجود طبيب في مدينة الجزائر بأواخر العهد العثماني، واختصروا طرق العلاج بها في لجوء سكانها إلى الحلاقين الذين كانوا يمارسون بعض السلوكيات العلاجية بالإضافة إلى مهنتهم⁴، ويصور لنا رونودو (RENOUDOT) الوضع الصحي في أتم صورة له بالجزائر مسجلاً ما يلي "...لا نسمع هنا طبيباً خاصاً بالداي أو جراحاً خاصاً بالخزناجي، أو صيدلياً خاصاً بالأغا، فعندما يفقد التركي الشهية يلجأ إلى الحلاق الذي يعطيه بعض الحبوب المصنوعة من الجلاب، والتي كانت تعتبر ترياقاً لكل العلل...بينما يلجأ البعض إلى الجراحين الأوروبيين المتواجدين بالجزائر، والكراغلة على وجه الخصوص"⁵.

وهناك من حصر أساليب العلاج والتطبيب في الحجامة وبعض السلوكيات الخرافية كحمل التمام والاحتماء بالمرابطين، وهذا ما ذهب إليه القس بوارى الذي أشار إلى سلوكيات، وطرق العلاج المتبعة في الشرق الجزائري، ومنطقة القالة⁶، فيذكر في إحدى خرجاته بهذه النواحي أنه قام بفحص بعض النساء

¹ F. Pananti, **Relation d'un séjour à Alger: contenant des observation sur l'état actuel de cette Régence, les rapports des états Barbaresques avec les puissances chrétiens, Et l'importance pour celle-ci de les subjuguier**, Traduit de l'Anglais par: Anonyme, imprimerie de la Normant, Paris, p. 371.

² T. Show, op cit, p.84.

³ Fernand Arnaudies, **Esquisses anecdotiques et historiques du vieil Alger**, pré de: George Box, Edition A. Barthelemy, Avignon, 1990, p. 182.

⁴ Henriette Celarié, **Esclave en Alger**, hachette, Paris, 1930, p. 97.

⁵ M. RENOUDOT, **Alger, tableau de royaume, de la ville d'Alger, et de ses environs, états de son commerce, de ses forces de terre et de mer, description du mœurs et des usages du pays précédé d'introduction historique sur les différentes expéditions d'Alger depuis Charles Quint jusqu'à nos jours**, 4^{ème} édition, librairie Universelle de P. MONGIE Ainé, Paris, 1830, p. 98.

⁶ Abbé Poiret, **Lettres de Barbarie 1785/1786**, pref de: Denise BRAHIMI, édition le Sycomore, Paris, 1980, pp. 133, 134.

الموريات فلفت انتباههن ذلك اللون الأخضر للقفازين الذين كان يلبسهما بوارى، فتبادر لأذهانهن أن ذلك لون يديه حينها أضطر القس لتصحيح اعتقادهن، مع شرح فائدة القفازين، وفي هذا دلالة على جهل هؤلاء السكان بكل ما يتعلق بالجانب الطبي.¹

يمكن إرجاع ذلك إلى عدم زيارتهن للطبيب وقلة انتشار الأمراض بينهن حيث لا يخفي هذا القس إعجابه بالنمط الغذائي المتبع لدى هؤلاء السكان والتميز بالبساطة، وأسلوب عيشهم حيث يذكر أنهم لا يأكلون الخبز ولا يعرفون فن طهي اللحوم أبداً، والماء هو مشروبهم الوحيد وهم أكثر صحة وقوة والأمراض نادرة الانتشار بينهم، وليس لهم منازل فكلما تتطلبه الحياة السعيدة في هذه البلاد حسبه كوخ من الأوراق أو مغارة صخرية تحميهم من تقلبات الطقس.²

وتشير نفس الكتابات إلى انعدام المستشفيات بالجزائر باستثناء المستشفى الذي أقامته الحكومة الإسبانية للاعتناء والتخفيف من معانات الأسرى المسيحيين، والذي كان مسيراً من قبل رجال الدين وقد ضم هذا المستشفى بعض الأطباء، والجراحين الأوروبيين، وحظي بحماية الحكومة الجزائرية، ويرجع فاليار (VALLIERE) ذلك إلى حاجة الإيالة له، وكذبك السكان الذين كانوا يترددون عليه لأن السكان هنا حسب هذا القنصل لا يعرفون شيئاً عن الطب أو الجراحة.³

كما سجل لنا بعض الرحالة الأوروبيين في نهاية القرن 18 م إقبال سكان الإيالة عليهم من أجل الكشف الطبي، بالرغم من أن هؤلاء الأوروبيين ليسوا أطباء، ويذكر بوارى في رحلته ببابلك الشرق دائماً أنه أقام في أحد الدواوير، وفي الصباح الباكر وجد نفسه محاطاً بجمع غفير من المور المتحمسين للفحص، فكان من الضروري عليه إرضائهم، والمرور بخيامهم رفقة زميله الجراح، وقد لاحظ نفس الحماس على النساء اللاتي تجتمعن في زوايا خيامهم.⁴

وترك لنا ديفنتان نفس الملاحظة خلال رحلته نحو بابلك الغرب، أين أمضى ليلة بنواحي جبال الضاية بضواحي وادي شلف حيث أقبل عليه بعض سكان الدوار من أجل الكشف عنهم،⁵ وكان هؤلاء الأوروبيين يستغلون ثقة الأهالي واحترامهم للأطباء في تسيير مصالحتهم في المنطقة، سواء في مواصلة رحلاتهم الطبيعية كما هو الحال بالنسبة لديفتان، أو لتفادي العقاب والمعاملة السيئة إذا كانوا من فئة الأسرى، نظراً

¹ Ibid, p. 99.

² Ibid, p.86.

³ C. Ph VALLIERE, *L'Algérie en 1781 mémoire du Consul C. Ph. VALLIERE*, prés par: Lucien CHAAILLOU, imprime Nouvelle, Toulon, 1974, p. 63.

⁴ Abbé Poiret, op cit, pp. 94, 95.

⁵ Dureau de La Malle, PEYSSONNEL et Desfontaines: *Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger*, tom:01, libraire de Gide, Paris, 1838, p. 150.

للامتيازات التي يحظون بها مقارنة بباقي الأسرى كونهم أطباء، وهو ما فعله ضابط فرنسي أثناء فترة أسره لدى بعض القبائل بعدما رأوه يقوم بمعالجة أحد زملاءه المصابين¹.

ونجد في الوثائق الأرشيفية المحلية تأكيداً لما ذكره هؤلاء الأوروبيين حول لجوء الحكام والسكان إليهم من أجل العلاج، والتداوي وهذا ما توضحه إحدى الرسائل التي بعثها صالح باي إلى قبطان القالة في عام 1185هـ، يطلب منه فيها أن يبعث له طبيباً لعلاج أحد رجاله ونورد هنا بعض المقتطفات منها: "الحمد لله من عبد الله سبحانه المتوكل عليه المفوض جميع أموره إليه المعظم الأرفع... مولانا صالح باي... إلى خديمنا بريفون قبطان القالة السلام على من اتبع الهدى أما بعد: فالمراد منكم أن تبعث لنا ميلان الطبيب يداوي خديمنا الحاج محمد بوبماية قائد الزمالة ولا بد ثم لا بد..."².

والملاحظ أن إقبال الجزائريين على الأطباء الأوروبيين ظل مستمرا إلى غاية السنوات الأولى من الاحتلال فعلية الاحتلال هذه لم تغير شيئا في هذا المجال، كما لم تنقطع ثقة السكان بالأوروبيين، وهذا ما يكشفه لنا أحد الأطباء الفرنسيين الذي قام برحلة في بعض الأرياف المجاورة لمدينة الجزائر أين أقبل عليه سكانها ليكشف عنهم فلاحظ هذا الفرنسي عليهم الجدية والحرص في الأخذ بنصائحه الطبية³.

وبالعودة إلى ما جاء في الدراسات التاريخية التي تطرقت إلى موضوع الطب، والأوضاع الصحية فإن مدينة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي كانت تضم بالإضافة إلى المستشفى الإسباني عدداً آخر من المستشفيات يعود تاريخ بعضها إلى القرن 16م، تم بناؤها من قبل الآباء، ورجال الدين الأوروبيين للاعتناء بالأسرى المسيحيين، والتخفيف من معاناتهم⁴، ويذكر باربروجير في هذا الصدد أن أول مشفى أسس بها كان سنة 1551م على يد الأب الإسباني سيبستيان ديبور (Sébastien Duport)⁵ وأطلق عليه تسمية حمام المرضى (Bagne des malades)⁶، وجندوا لهذه الغاية بعض الأطباء الأوروبيين، وقد استمر تواجد الأطباء الأوروبيين بالجزائر إلى غاية سقوطها في يد الفرنسيين، إذ نجد إشارة لأحد الأسرى الفرنسيين في كتابه إلى تلك الزيارات التي كان يقوم بها طبيب إيطالي إلى السجن لمعاينة الأسرى المرضى⁷.

¹- A. LOMON, *Souvenirs de l'Algérie, captivité de l'Amiral BONARD et de l'Amiral BRAUT*, J. HETZET-LIBRAIRE CLAYE, Paris, p. 71.

²- شخوم سعدي، "قراءة في أوضاع الطب متعلقاته بالجزائر العثمانية"، *مجلة الحوار المتوسطي*، مج 1، ع1، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، ص. 278.

³- I. Pointe, op cit , p. 39.

⁴- Fernand Arnaudies, op cit, p p. 183, 184.

⁵- A . Berbrugger, « Charte des hôpitaux d'Alger en 1694 », in *R.A.*, vol : Alger, 1864, p.134.

⁶- Jean MARCHIKA, op cit, p.26.

⁷- A. LOMON, op cit, p. 156.

وتذكر المصادر أن الطاقم الطبي للمستشفى الإسباني كان مكونا من طبيب وجراح، بالإضافة إلى بعض الأسيرات الأوروبيات اللواتي كن يقدمن بعض الخدمات الصحية، ويخففن عن المرضى¹، وصيدلاني تابع لهذه المؤسسة، وإلى جانب اعتناؤه بالأسرى كان هذا المستشفى يستقبل بعض الشخصيات النافذة في الإيالة كبايات الأقاليم²، كما كان هناك مستشفى آخر خاص بالإنكشارية تأسس في عام 1800، والذي استقدمت له الحكومة أطباء من مصر، والقسطنطينية، غير أن هذه المستشفيات توقفت عن العمل منذ عام 1806 إلى عام 1826م باستثناء المستشفى الإسباني، كما قامت الحكومة الفرنسية بإعادة فتح مستشفى اللازاريين (lazaristes) رسميا إلا أنه تعطل ثانية على إثر الحصار الفرنسي على السواحل الجزائرية عام 1827م.³

بالرغم من الأسلوب التقليدي في التطبيب إلا أن الحكومة أولت اهتماما كبيرا بالتغطية الطبية على متن السفن البحرية، حيث يذكر مصطفى خياطي في كتابه "الطب والأطباء في الجزائر العثمانية" أن طاقم السفينة كان يضم بين أفراده جراحا أو باش جراح، وقد كان هذا الشخص بمثابة الطبيب حيث يتم اختياره من الأشخاص الأكفاء مهما كانت جنسيتهم، يُجهز هذا الشخص بصندوق لحفظ معاداته النباتية، ويقوم بعمليات جراحية في ظروف صعبة جدا دون تخدير فيضطر فيها أحيانا إلى بتر أحد أطراف المصاب.⁴ وقد مارست الجزائر كبقية الدول الأخرى ما يعرف بالحجر الصحي لتفادي العدوى، وانتشار الأوبئة خصوصا وباء الطاعون الذي اجتاح الإيالة عدة مرات، ومن بين الحكام الذين لجؤا إلى بالحجر الصحي أثناء انتشار الأوبئة الفتاكة الباي محمد الكبير الذي قام بجمع عائلته واتجه نحو سهل ملاتة أين بقي مخيما هناك مدة ثلاثة أشهر على إثر وباء الطاعون الذي ضرب الإيالة عام 1794م، بعدما انتقلت عدواه إليها من المشرق على متن سفن الحجاج.⁵

كما شكلت الحمامات المعدنية والمنايع المائية أحد أهم وسائل العلاج والاستشفاء لدى الجزائريين، خصوصا من الأمراض الجلدية وأمراض المفاصل، حيث وجدت العديد من الحمامات والينابيع المخصصة

¹ M. D. C. Trapani, *Alger tel qu'il est, tableau statistique, moral et politique de cette Régence*, L. FAYOLLE, LIBRAIRE, Paris, 1830, p. 53.

² D'ALONSO CANO, *La Régence d'Alger au XVIIIe siècle, nouvelle aspect topographique, de la ville, son état, ses forces, son gouvernement actuel comparé avec l'ancien*, manuscrit pré, et trad, de l'espagnol par : Ismet Terki-Hassaine, Dar EL Quds ELarabi, Algérie, 2010, p. 181.

³ Fernand Arnaudies, op cit, p p. 183, 184.

⁴ مصطفى خياطي، الطب والأطباء في الجزائر العثمانية، م. و. للاتصال والنشر والتوزيع، الجزائر، ص ص. 68، 69.

⁵ Henri Léon Fey, *Histoire d'Oran avant pendant et après la domination Espagnol*, TYPOGRAPHIE ADOLPHE PERRIER ÉDITEUR, Alger, 1858, pp. 270, 271.

لذلك كتلك البركة المنبعثة من إحدى العيون الموجودة بالقرب ضريح من سيدي ميمون بمدينة قسنطينة، والتي كانت مقصدا ومزارا للناس لعلاج أمراض الروماتيزم كما كانت تساعد في التأم الجراح.¹ إضافة إلى ذلك عرفت الجزائر بعض الشخصيات التي مارست التطبيب أو التداوي بالأعشاب كالرحالة عبد الرزاق ابن حمادوش الذي ترك كتابا في هذا الصدد بعنوان "كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب" وقد أثار هذا الكتاب فضول الأوروبيين فقام الطبيب لوسيان ليكليرك (Lucien Leclerc) بترجمته كما أنجز عليه غابريال كولان دراسة لنيل شهادة الدكتوراه عام 1905م، وقد عرض ابن حمادوش في هذا الكتاب مجموعة من الأعشاب والعقاقير مع ذكر فائدتها العلاجية ننقل هنا بعضا منها²:

| اسم العشبة بالعربية | اسم العشبة بالفرنسية | الفائدة الطبية وكيفية الاستخدام |
|---------------------|----------------------|--|
| الثوم | Ail cultivé | يستخدم لعلاج التهاب القصبات الهوائية، لدغة العقرب وداء الكلب. |
| حبة الحلوة | Ani | مُدر للحليب والبول، والعرق، يساعد على التخلص من الصداع، يستخدم في تحضير الخبز لإعطاء نكهة طيبة. |
| عود قماري | Agalloch | منشط للقلب والمخ ويخلص الأمعاء من الريح والديدان كما يزيل الروائح الكريهة. |
| الحديدة | Sulfate de cuivre | تستخدم من طرف السكان لصبغ الشعر واللحي، كما تقطر في العين |
| الحنثيت | Foetida | يستخدم لعلاج أمراض الأعصاب والتشنجات، ويقاوم الإسهال المزمن والحمى، كما يستخدم لتفتيت الحصى الموجود بالثانة عند استعماله مع العسل. |
| الجاي | Benjoin | لعلاج أمراض المعدة والإسهال وخفقان القلب |
| القرفة | Cannelle | تفيد في توقيف النزيف، والقضاء على الرائحة الكريهة، ومن حدة البواسير عند خلطها مع قليل من الماء. |

كما نورد هنا بعض الأمراض والممارسات العلاجية حسبما نقله لنا الأسير الإيطالي بنانتي.³

| المرض | طريقة التداوي |
|-------|---------------|
|-------|---------------|

¹- Dureau de La Malle, op cit, p. 336.

²- كمال بن صحراوي، الحياة الريفية في بايلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الأيام، الأردن 2019م، ص ص. 238، 239.

³- Pananti, op cit, pp. 371, 372.

| | |
|------------------------|--|
| الجروح الجديدة | وضع بعض الزبدة الذائبة فوق الجرح |
| الروماتيزم | تجريح المفاصل المريضة بمشرط |
| القرحة | تتم معالجتها بالكي بالنار |
| الحصى | وضع بعض الأعشاب الطبية على رأس المريض |
| لدغات العقارب والأفاعي | وضع عجينة من البصل والثوم في مكان اللدغة |

خاتمة:

بناء على ما تم ذكره في الكتابات الغربية يمكننا الخروج بالنتائج التالية:
بالرغم من الجو الصحي الملائم للجزائر إلا أن ذلك لم يمنع من تعرضها لعدة موجات من الأوبئة والأمراض انتقلت إليها عن طريق العدوى التي كانت تأتي من السفن القادمة إليها، والتي غالبا ما كانت تنقل من المشرق أو من الشواطئ الأوروبية، أو عن طريق الكوارث الطبيعية التي كانت غالبا ما تتبع بسلسلة من الأوبئة والمجاعات.

إن الثقافة الطبية لدى الجزائريين اقتصرت على الطب التقليدي بالدرجة الأولى، كما أن الحكام لم يعتنوا بالقطاع الصحي واكتفوا بالاعتماد على الأوروبيين المتواجدين بالإيالة كالأسرى أو الرحالة، بالإضافة إلى المستشفيات الأوروبية التي بناها الرهبان ورحال الدين المسيحيين من أجل الاعتناء بالأسرى المتواجدين بالإيالة.

إن عدم اهتمام الجزائريين بالطب والتداوي هو اعتقاد سائد لديهم بأن المرض قضاء وقدر من الله، وأن أي محاولة التداوي منه هي اعتراض على مشيئة الإله، ومع ذلك قاموا ببعض الاحترازمات الوقائية كالنظافة، والحجر الصحي، واللجوء إلى الممارسات الطبية التقليدية كالتداوي بالأعشاب والحمامات المعدنية.

-قائمة المصادر والمراجع:

-باللغة العربية

1.الكتب:

- بن صحراوي (كمال)، الحياة الريفية في بايلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الأيام، الأردن 2019م.
-خياطي (مصطفى)، الطب والأطباء في الجزائر العثمانية، م. و. للاتصال والنشر والتوزيع، الجزائر.

2.المقالات:

-آل سيد الشيخ (سعاد)، الأوضاع الصحية وانعكاساتها على المجتمع الريفي اجتماعيا واقتصاديا بالجزائر العثمانية"، مجلة الدراسات التاريخية، مج9، ع1، الجزائر، سبتمبر 2021.

-بن عتو (جليل)، "الأوضاع الصحية والمعيشية والديموغرافية في الجزائر العثمانية من خلال المصادر الغربية"، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مج13، ع1، جامعة معسكر، جوان 2002.

-شخوم (سعدي)، "قراءة في أوضاع الطب متعلقاته بالجزائر العثمانية"، مجلة الحوار المتوسطي، مج 1، ع1، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر.

-قندوز (عبد القادر)، "الوضع الصحي بالجزائر في العهد العثماني"، مجلة الخلدونية، مج7، ع1، جامعة ابن خلدون تيارت، ديسمبر 2014م.

-باللغة الأجنبية:
1.الكتب:

- Arnaudies (Fernand), **Esquisses anecdotiques et historiques du vieil Alger**, pré de: George Box, Edition A. Barthelemy, Avignon, 1990.
- CANO (D'ALONSO), **La Régence d'Alger au XVIIIe siècle, nouvelle aspect topographique, de la ville, son état, ses forces, son gouvernement actuel comparé avec l'ancien**, manuscrit pré, et trad, de l'espagnol par : Ismet Terki--Hassaine, Dar EL Quds ELarabi, Algérie, 2010.
- Celarié (Henriette), **Esclave en Alger**, hachette, Paris, 1930.
- Fey (Henri Léon), **Histoire d'Oran avant pendant et après la domination Espagnol**, TYPOGRAPHIE ADOLPHE PERRIER ÉDITEUR, Alger, 1858.
- La Malle (Dureau de), **PEYSSONNEL et Desfontaines: Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger**, tom:01, libraire de Gide, Paris, 1838.
- LOMON. (A), **Souvenirs de l'Algérie, captivité de l'Amiral BONARD et de l'Amiral BRAUT**, J. HETZET-LIBRAIRE CLAYE, Paris.
- MARCHIKA (Jean), **La peste en Afrique Septentrionale : Histoire de la peste en Algérie de 1363 1830**, Julien Carbonal, Alger, 1927.
- Pananti. (F), **Relation d'un séjour à Alger: contenant des observation sur l'état actuel de cette Régence, les rapports des états Barbaresques avec les puissances chrétiens, Et l'importance pour celle-ci de les subjuguier**, Traduit de l'Anglais par: Anonyme, imprimerie de la Normant, Paris.
- Paradis (Venture de), **Tunis et Alger au 18^{ème} siècle**, Sindibad, Paris, 1983.
- Pointe. (I), **Relation Médicale d'un voyage de Lyon a Alger lue a la société Littéraire de Lyon dans la séance du Aoute 1835**, Maire libraire, Lyon, 1836.
- Poiret (Abbé), **Lettres de Barbarie 1785/1786**, pref de: Denise BRAHIMI, édition le Sycomore , Paris, 1980.
- RENOUDOT. (M), **Alger, tableau de royaume, de la ville d'Alger, et de ses environs, états de son commerce, de ses forces de terre et de mer, description du mœurs et des usages du pays précédé d'introduction historique sur les différentes expéditions d'Alger depuis Charles Quint jusqu'à nos jours**, 4^{ème} édition, libraire Universelle de P. MONGIE Ainé , Paris, 1830.
- T. (Show), **Voyage dans la régence d'Alger, tra de l'Anglais ar Mac Carthy**, Tunis, 1980.
- Trapani (M. D. C.), **Alger tel qu'il est, tableau statistique, moral et politique de cette Régence**, L. FAYOLLE, LIBRAIRE, Paris, 1830.
- VALLIERE (C. Ph), **L'Algérie en 1781 mémoire du Consul C. Ph. VALLIERE**, prés par: Lucien CHAAILLOU, imprime Nouvelle, Toulon, 1974.

2.المقالات:

- Berbrugger. (A), « Charte des hôpitaux d'Alger en 1694 », in R.A, vol : Alger, 1864.
- Devoux. (A), « Quelque Tempêtes à Alger », in R.A, vol15, Alger, 1871.
- Féraud (Charles), « Ephémérides d'un secrétaire officiel sous la domination Turque à Alger1775 à1805 », in R.A, vol18 , Alger, 1874.

3.الجرائد:

- Journal des débats politiques et littéraires, 12/01/1817.

الاهتمام بالصحة النفسية والجسدية للأطفال بين العصر الوسيط والمعاصر

Paying attention to the psychological and physical health of children between
the medieval and contemporary eras

د. عائشة تازي، جامعة حسيبة بن بوعلـي-الشلف-(الجزائر)

a.tazi@univ-chlef.dz

د. أمينة تازي، جامعة لونيـسي علي-البليدة02-(الجزائر)

a.tazi@univ-blida.dz

ملخص:

كون الصحة تشمل الجانب النفسي والجسدي والتكامل الاجتماعي حسب تعريف منظمة الصحة العالمية لها، فسنتطرق من خلال مداخلتنا إلى موضوع الرعاية الصحية لدى الأطفال سواءاً النفسية أو الجسدية على حد سواء من خلال التطرق إلى ماهية الرعاية الصحية بأنواعها، وخصائصها لدى فئة الأطفال، التي أخذت حيزاً من التعريف بها وبخصائصها المميزة لها، وكل هذا عبر المسار الزمني بين العصر الوسيط إلى المعاصر، وتخلص المداخلة بتقييم الرعاية الصحية بين الحقتين الزميتين والمقارنة العلمية بينهما، ومدى تطور تلك الرعاية، إضافة إلى إبراز أهمية الاهتمام بدراسة المسار التاريخي للرعاية الصحية لدى عينة أساسية وقاعدية في المجتمع وهي فئة الأطفال.

الكلمات المفتاحية: الصحة، الرعاية الصحية، الأطفال، العصر الوسيط، العصر الحديث،

summary:

we will address In our intervention the subject of children's health care, both psychological and physical, by addressing what health care is of all kinds, Its characteristics in the children's category, which has taken up a space of identification and characteristic characteristics, And all this across the course of time between the intermediate age and the contemporary age. and the intervention concludes with the evaluation of health care between the two times and the scientific comparison between them, The extent to which such care has evolved, in addition to highlighting the importance of studying the historical course of health care in a basic and baseline sample in society, the category of children

Keywords: health, Health Care, Children, Medieval era, Modern era.

مقدمة:

تعتبر مرحلة الطفولة من المراحل الأساسية والهامة في مراحل نمو الإنسان عند مختلف الشعوب باختلاف ثقافتها وأديانها، ولعل ما يميز هذه المرحلة العمرية هو اعتماد المراحل العمرية الباقية على ما تكونت عليه وما نشأت عليه هاته المرحلة العمرية، فكل ما يتلقاه و يكتسبه الطفل في سنوات طفولته يترك بالغ الأثر على بقية سنوات حياته اللاحقة، وما يكتسبه الطفل في هذه المرحلة ويتعلمه وينشأ عليه يكون زادا له فيما تبقى من مراحل الأخرى، كما أن بناء شخصية الفرد تتوقف بالأخص على المراحل الأولى من الحياة، ونظرا إلى خصوصية المرحلة التي تعتبر مرحلة ضعف، فإن الطفل يحتاج فيها إلى رعاية دائمة في كافة ميادين حياته ومتابعة مستمرة، وتوجيه رشيد، لذلك فإن الاهتمام برعاية الطفل في مختلف الميادين، يجب أن يكون مدروسا وممنهجا، بحكم أن الطفل يتشرب ويمتص بيأس كل ما يكتسبه، ليصير كل ما اكتسبه في الصغر، مسلمات ومعتقدات وقناعات تُبنى عليها حياته المستقبلية، خاصة وأن الأطفال تشغل نسبة عالية من المجتمع تزيد أحيانا على النصف، خصوصا في دول العالم الثالث ومن ضمنها جميع دول العالم الإسلامي¹.

لذلك فإننا نجد أن مختلف الدول والمنظمات العالمية باختلاف الديانات والشرائع تهتم بالرعاية المتكاملة لجميع نواحي الطفل، ولعل الرعاية الصحية بما تحتويه من جوانب جسمية ونفسية واجتماعية على حد سواء، تعد المحور واللبنة الأساسية لنموه نمو سليما متكاملا، والطفل في تشبيهه بالطبيعة إلى الغصن اليافع اللين، ليصبح مع تقدم السنوات كشجرة صلبة تحمل وتتأثر بما غرس فيها منذ الصغر، فإذا ربي الطفل على تربية صحية موافقة، يمتلك عافية جسدية، وصحة نفسية لا تؤثر فيه الأمراض والعلل، فتؤهله إلى اكتساب المعارف، وتسهم بشكل رئيسي في بنائه مستقبلاً، ليعطينا فيما بعد فردا بالغا، صحيحا سليما جسديا ونفسيا واجتماعيا، فعلاً مُنتجاً، قادراً على القيام بمسئوليته، وما ينوطه عليه مجتمعه من واجبات وأعباء، يسمح له بالنهوض والرقى في مصاف الدول المتقدمة والمتطورة المزدهرة، ويرى داوود أفندي أبو شعر أن ضعف التربية الجسدية للأفراد كان سببا في اندثار الأمم السابقة بعد ارتقائها وتطورها، حيث على كل أمة الاعتناء اعتناءً زائداً بأمور التربية الصحية ليكون الأفراد أصحاء البنية والعقل، بالأخص التربية الجسدية التي تُكتسب بها الصحة الجيدة، وقد قسم التربية إلى قسمين الجسدية والأدبية، واهتم في الأولى بالعناية الرياضية خاصة للطفل الذي يرى أنه الأكثر احتياجا إليها لإنماء جسده، فتحدّث عن السباحة وركوب الخيل، والمشي والتنزه في الهواء النقي، والقفز والركض، والصيد الذي يجمع بين كل ما

¹ - عبد المجيد بن يكن، حماية الطفولة في الشريعة الإسلامية والقانون الجزائري، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، المجلد الحادي عشر، 01، ص31

سبق من رياضات، فهو يحمل الطفل على تحمل المشقات والأتعاب والصبر، كما يتقوى البصر و السمع من خلاله¹، ومن أجل ذلك فإن الطفل يحتاج إلى رعاية صحية خاصة مميزة، بتميز وخصوصية مرحلته العمرية التي ينمو فيها، وقد أولت الشريعة الإسلامية لهذه الرعاية نصوصاً كاملة وشاملة فيما يتعلق برعاية الطفل وحتى قبل ميلاده من خلال رعاية الأم الحامل من أجل الطفل، وهو ما نجده في كتابات وتأليفات الباحثين والعلماء المسلمين عبر العصور المتعاقبة، وهذا ما ترمي الورقة البحثية للإجابة عليه من خلال التساؤلات التالية:

ما هو مفهوم الرعاية الصحية بصفة عامة وعند الأطفال بصفة خاصة؟ إلى أي مدى اهتم المسلمون بالرعاية الصحية للأطفال في العصر الوسيط والمعاصر؟ وماهي أنواع الرعاية الصحية عند الأطفال؟ وكيف يمكننا تقييم هذه الرعاية في العالم الإسلامي على العموم؟.

-مصطلحات مفاهيمية:

1-1: تعريف الصحة: هي حالة من اكتمال السلامة بدنيا وعقليا واجتماعيا، وليس مجرد الخلو من الأمراض أو العجز².

2-1: تعريف الرعاية الصحية: تتضمن الاهتمام، والوقاية من المرض بكل أنواعها والمعالجة والتأهيل، موجّهة خدماتها للمجتمع ككل، يتطلب اشتراك مجموعة من القطاعات والاختصاصات الطبية المتنوعة فيما بينها، وإشراك الأفراد فيها كعنصر أساسي لنجاحها، وهي تهدف إلى رفع المستوى الصحي عامة³.

3-1: مفهوم الطفل:

-لغة: الطفل والطفلة: يقال أطفلت المرأة والظبية والنعم إذا كان معها ولد طفل، والصبي يدعى طفلا حين يسقط من بطن أمه إلى أن يحتلم⁴.

¹ - داوود أفندي أبي شعر، تحفة الإخوان في حفظ صحة الأبدان، دت، دمشق، ص233

² - who.int/about/governance/constitution

³ - مديوني جميلة، تحليل مكان القوة والضعف التي تواجه الرعاية الصحية في ظل الظروف الاقتصادية الراهنة، مجلة اقتصاديات شمال إفريقيا، المجلد 14، العدد 19، 2018.

⁴ - جمال الدين بن منظور، لسان العرب، ج11، ط3، دار صادر، بيروت، ص402.

-اصطلاحاً: المرحلة الأولى من مراحل عمر الانسان، تبدأ من حين الولادة وتنتهي عند بلوغه سن الرشد¹، وهي مرحلة التكليف بالفروض الشرعية من صلاة وصوم وحج، ويسمى الطفل في مرحلة ما بعد الولادة بالرضيع ومدتها سنتان، والسن الفارقة بين الطفولة والبلوغ هي الخامسة عشر تقريباً².

وقد ربط ابن الجزار تقسيم المراحل العمرية للطفل بنمو أسنانه فنجدده يقسمها إلى ثلاث مراحل³:

- المرحلة الأولى: مرحلة الولدان منذ خروجه من بطن أمه حتى خروج الأسنان.

- لمرحلة الثانية: مرحلة الصبيان منذ خروج أسنانه حتى سن السابعة.

- المرحلة الثالثة: من سن السابعة حتى الاحتلام في سن أربع عشر سنة.

وكل هذا يتماشى والتقسيمات الحديثة للمراحل العمرية للطفل مع اختلاف في التسمية

وتعرفه منظمة اليونيسف (Unicef): أنه كل شخص يقل عمره عن 18 سنة⁴.

كما تم الاتفاق على تعريفه في مؤتمر حقوق الطفل في الإسلام على أنه كل إنسان لم يبلغ سن الرشد وفقاً للقانون المطبق عليه⁵.

اهتمت الشريعة الإسلامية بالطفل حتى من قبل ولادته وإلى نهاية المرحلة التي تكون بالبلوغ، ويمكن القول إن أول من ميز بين الصغار والكبار من بين البشر في السن تمييزاً واضحاً، هي الشريعة الإسلامية، حيث قسم الشرع مرحلة الطفولة إلى مراحل ثلاث هي:

- مرحلة الصغير غير المميز: وتبدأ بولادة الصغير حتى بلوغه سن السابعة من عمره

مرحلة الإدراك الضعيف: تبدأ من سن السابعة من عمر الصغير وتنتهي بالبلوغ-

-مرحلة الإدراك التام: وتسمى مرحلة البلوغ، وتبدأ من 15 أو 18 سنة (على اختلاف بين العلماء) أو بإحدى ظواهر الطبيعية التي تظهر لدى الصبي، مثل الاحتلام، أو إنبات الشعر لدى الولد أو الحيض لدى الفتاة⁶.

¹ - خولة على حسن صالح، هدي النبي صلى الله عليه وسلم في بناء منظومة قيم الطفولة وانعكاساتها التربوية، مجلة الذخيرة للبحوث والدراسات الإسلامية، المجلد الثالث العدد الثاني، غرداية، ديسمبر 2019، ص 116.

² -محمد علي، رعاية الطفولة في العصر الإسلامي الوسيط، مجلة العبر للدراسات التاريخية والانثوية في شمال إفريقيا، المجلد 04، 2021، ص 207.

³ - ابن الجزار أبو جعفر أحمد، سياسة الصبيان وتديبرهم، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس، 2008، ص 85.

⁴ - اتفاقية حقوق الطفل الصادرة عن الأمم المتحدة- نسخه الأطفال- من الموقع:
unicef.org/ar/media/61611/file أطلع عليه يوم 06.04.2023.

⁵ - جامع مينيسوتا، مكتبة حقوق الإنسان- عهد حقوق الطفل في الإسلام الموقع:
hrlibrary.umn.edu/arab/CCHI.html أطلع عليه يوم: 06.04.2023

⁶ - عبد المجيد بن يكن، المرجع السابق، ص 28

4-1: تعريف الرعاية الصحية للأطفال: هي ذلك الجانب من الرعاية الذي يركز على النواحي الصحية في حياة الطفل بشقيه الوقائي والعلاج والتي تبدأ من مرحلة الحمل حتى نهاية مرحلة الطفولة¹. إن توفير جملة الخدمات والمرافق المقدمة للأطفال المتمثلة في الوقاية من الأمراض من خلال تقديم التطعيمات، والفحوصات الدورية الطبية والنفسية على حد سواء تمثل في مفهومها الرعاية الصحية لشريحة الأطفال، كما تشمل كذلك العلاج بأنواعه، وهي تسعى إلى الحفاظ على صحة الطفل ووقايتها وتعزيزها، من خلال الكشف المبكر، وزرع الثقافة الصحية في سلوكياته اليومية، وزيادة وعيه الصحي، باعتبار الطفل النواة الأساسية التي تبنى عليها المراحل العمرية الأخرى في أي مجتمع، فهو طليعة المجتمع وصانع مستقبلها، لذلك فإن الرعاية الصحية للأطفال قاعدة أساسية للحفاظ على صحة المجتمع، وهي تتطلب اهتماماً كبيراً من قبل الجميع سواءً الأولياء أو مؤسسات المجتمع المدني الأخرى من مؤسسات صحية وفريق طبي متكامل، وفي العالم الإسلامي فإن الرعاية الصحية للأطفال تتأثر وترتبط إلى حد كبير بالشريعة والدين الإسلامي، منذ العصور القديمة، حيث نجد ذلك الامتداد لهذه الرعاية البدنية والنفسية على حد سواء عبر الأزمنة الإسلامية والتي سنتطرقها في هذه الورقة البحثية بدايةً من علماء وباحثين في العالم الإسلامي في العصر الوسيط إلى غاية الاهتمامات المعاصرة الحديثة في العالم الإسلامي بالأخص بهذه الرعاية الصحية لدى فئة الأطفال.

2- الرعاية الصحية للأطفال من خلال مصادر العصر الوسيط:

1-2: الرعاية الصحية للأطفال من خلال النصوص الشرعية:

جاء في الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية إشارة إلى حقوق الطفل وواجبات الوالدين اتجاهه خاصة في مراحل العمرية الأولى، إلى أن يصبح بالغاً وراشداً، فمنها ما تعلق باختيار الزوجة أو الام الصالحة أولاً قبل مجيء الولد أصلاً ثم بالاسم والتربية الحسنة ومنها ما تعلق بالرضاعة والتغذية. فقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ضرورة اختيار الام المناسبة لقوله: "تخيروا لنطفكم فانكحوا الأكفاء وانكحوا إليهم"²، وقوله صلى الله عليه وسلم: "تزوجوا الولود الودود"³. وفي هذا دلالة على أن المسؤولية الأكبر في تربية الأبناء تعود للأم فيضمن الرجل بذلك حقوق أطفاله النفسية والجسدية باختياره

¹ - نصيرة بونويقة، معوقات الرعاية الصحية في مرحلة الطفولة المبكرة، مجلة رؤى للدراسات المعرفية والحضارية،

2009 المجلد 05، العدد 02، ص 59

² - ابن حجر الهيثمي، الإفصاح عن أحاديث النكاح، تحقيق: محمد شكور أميرالميداني، ط1، دار عمار، الأردن،

1406. ص 67.

³ - نفسه، ص 35.

الام المناسبة خلقا وتربيتا: " فالطفل يقتبس طباعها وأخلاقها وسلوكها ونمط حياتها بما فيه من خير أو شر، ولذا كان حري بها أن تربي أبناءها على الطهر والعفة والشجاعة والصدق وغيرها من الخصال الحميدة"¹. كما ضمن القرآن حق الطفل في الانتساب إلى أبيه حفاظا على النسل والأصل لقوله تعالى: "أدعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله"².

كما نص القرآن الكريم على حق الطفل في الرضاعة والتغذية السليمة التي تضمن له نموا طبيعيا، لقوله تعالى: "والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة"³ وفي نفس الوقت بين أن أمر فطام الطفل قرار يتقاسمه الأب والام بالتشاور والتراضي حسب مصلحة الطفل، وإن امتنعت الأم عن الإرضاع لأسباب صحية أو اجتماعية فيمكن اسناده إلى مرضعة⁴، لقوله تعالى: "فإن أرادا فصلا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف"⁵. وللمرضعة شروط وضحها الفقهاء والعلماء "فَلَا يَسْتَعْمَلُ فِي حَضَانَتِهِ وَإِرْضَاعِهِ إِلَّا امْرَأَةً مَتَدِينَةً تَأْكُلُ الْحَلَالَ فَإِنَّ اللَّبْنَ الْحَاصِلَ مِنَ الْحَرَامِ لَا بَرَكَةَ فِيهِ فَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِ نَشْوُ الصَّبِيِّ انْعَجَتِ طِينَتُهُ مِنَ الْخَبِيثِ فَيَمِيلُ طَبْعُهُ إِلَى مَا يَنَاسِبُ الْخَبَائِثَ"⁶. وهذا يتفق مع نظرة علماء النفس الذين يرون أن الام حينما ترضع طفلها الحليب فإنها لا تغذيه بالفيتامينات الغذائية فحسب بل إنها تزوده بالفيتامينات النفسية للنمو وحي الحنان والعواطف⁷.

كما حرص النبي صلى الله عليه وسلم أن ينال الطفل كفايته من الرعاية والعطف والحنان، فكان القدوة في التربية والاهتمام النفسي بالأطفال، فقد ثبت عنه أنه كان يحنو على الأطفال ويقبلهم ويلعب معهم كما كان يدعو لهم بالصلاح والساداد⁸.

2-2- الاهتمام بالصحة النفسية والجسدية للأطفال من خلال مصادر الطب في العصر الوسيط: 2-2-1: لمحة عن أهم المصادر الطبية التي تناولت فئة الأطفال في العصر الوسيط:

¹ - محمد عقله، نظام الأسرة في الإسلام، ج2، ط3، مكتبة الرسالة الحديثة، الأردن، 2002. ص 164.

² - سورة الأحزاب: الآية 05.

³ - سورة البقرة: الآية 233.

⁴ - محمد عليل، المرجع السابق، ص 208.

⁵ - سورة البقرة: الآية 233.

⁶ - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، دار المعرفة، بيروت، ص 72.

⁷ - محمد عليلي، المرجع السابق، ص 209.

⁸ - محمد علي ناصر مهدي، المنهج النبوي في تربية الطفل،

https://www.alukah.net/books/files/book_8696/bookfile/tefel.pdf

حظيت فئة الأطفال بعناية الأطباء القدامى فسعوا إلى تطوير فرع طب الأطفال أمثال جالينوس وأبقراط وغيرهم ممن خصصوا كتباً لرعاية الأجنة والأطفال، وبعد أن كان الحديث عن هذه الفئة يندرج ضمن فصول الكتب العامة للطب ظهرت عند المسلمين في العصر الوسيط عناوين خاصة اهتمت مباشرة بالطفل، فكان كتاب الطبري: المعالجات البقرائية الذي لا يزال مخطوطاً من أولى الكتب في هذا المجال، حيث خصص في الباب الأول والثاني من المقالة الرابعة الحديث عن تربية الأطفال وحفظ الصحة وتربية الصبي إذا ترعرع كما تحدث عن أمراض الأطفال¹.

ويجمع المؤرخون على أن أبو بكر الرازي (ت313هـ/925م) في رسالة تديير الصبيان كان أول من فصل بين طب الأطفال والأمراض النسائية وجعله يأخذ شكلاً مستقلاً بذاته عندما ألف هذه الرسالة في حدود 287هـ/900م، وأن هذه الرسالة تعد وثيقة مهمة في تاريخ طب الأطفال وتطويره ليس لأنها أول مؤلف في طب الأطفال يؤلف على شكل مستقل فحسب، بل لأنها تعكس بوضوح المستوى الرفيع الذي كان قد وصل إليه هذا العلم عند الأطباء المسلمين، ولاحتوائها على التجارب التي خاضها الرازي مؤلفاً وطبيباً ممارساً. والرسالة إضافة إلى كونها أول مؤلف في طب الأطفال فإنها تتضمن آراء ونظريات الرازي في طب الأطفال مكتوبة بطريقة جديدة مخالفة لمن سبقه من المؤلفين والأطباء اليونانيين وبعض الأطباء العرب، فقد تناول أمراض الأطفال بصورة عامة وليس كما تناوله السابقون له بتقسيم أمراض الأطفال حسب أعمارهم أو كما سموه (أسنان الطفل)².

ويعتبر عريب بن سعيد القرطبي (ت370هـ/980م) من أطباء الأندلس المتمرسين في طب الأطفال. أخذ بعلمه عن أبقراط، وديسقوريدس، وجالينوس وعن أطباء الهند وكذلك أخذ عن إسحاق الإسرائيلي، وكان شديد العناية بكتب الأقدمين والمحدثين. ويعتبر كتاب "خلق الجنين وتديير الحبالى والمولدين" قمة التطور الطبي وأعظم عمل يقدم للحضارة الإنسانية بمعلوماته وإبداعاته في علم الأجنة، واحتوى الكتاب على خمسة عشر باباً يبحث فيها الطبيب بطريقة علمية شاملة تطور الجنين وأحوال الولادة والعناية بالحبالى والأمهات وتديير الأطفال بعد الولادة في أيام طفولتهم والعناية بطعامهم وشراهم وشؤون صحتهم العامة.

ثم جاء كتاب ابن الجزار (ت369هـ/980م): سياسة الصبيان وتدييرهم، أوسع وأشمل مما سبقه، وهو يحتوي على 22 باباً، فالأبواب الستة الأولى تحدث فيها عن حفظ صحة الطفل وتدييره عند الولادة مع شروط المرضعة وأنواع اللبن وطرق تحسينه ثم انتقل إلى الأمراض التي تعرض للصبيان، فتناول فيها موضوع

¹ -بودالية نواتية، العناية بالطفل عند ابن الجزار القيرواني من خلال كتابه سياسة الصبيان وتدييرهم، مجلة عصور جديدة، العدد 23-أوت 2016، ص 44.

² - محمود الحاج قاسم محمد، ثلاث رسائل في الطب العربي الإسلامي: الرازي - ابن ماسويه - ابن سينا، بيت الحكمة، بغداد، دت، ص 20.

مداواتها على ترتيب أعضاء الجسم من الرأس إلى أسفل الجسم، وذلك من الباب السابع إلى الواحد والعشرين، أما الباب الثاني والعشرين فقد تحدث فيه عن طباع الصبيان وتربيتهم، ومن المؤسف أن يكون قد فقد أوله من النسختين¹.

ويعتبر الطبيب أحمد بن محمد البلدي (كان حيا قبل 368هـ/979م) الذي تحدث في كتابه تدير الحبال والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الأمراض العارضة لهم، والذي يعتبر الأدق والأشمل من ضمن المؤلفات الطبية المخصصة لفئة الأطفال، ومن الأوائل الذي اهتموا بمسألة العناية بالأم، لاحتوائه على مسألة العناية بالأم الحامل والولادة بجانب العناية بالطفل من الناحية الجسمية والنفسية والتربوية خلافا لما كتبه السابقون، كما تحدث على أمراضا تصيب الصبيان لم يذكرها غيره من الأطباء المسلمين وغير المسلمين الذين سبقوه وعاصروه².

كما اهتم ابن سينا (ت 428هـ/1037م) في كتابه القانون³ بطب الأطفال فخصص في الكتاب الأول فصلا خاصا للحديث عن تربية الأطفال وأمراضهم، وقد سماه التعليم الأول في التربية، وقسمه إلى أربع مقالات، في المقالة الأولى: تناول الحديث عن تدير المولود منذ أن يولد إلى أن ينهض، في حين أنه بحث في المقالة الثانية عن الإرضاع، وفي ذلك ألح على أن يرضع الطفل لبن أمه ما أمكن فإنه أشبه الأغذية بجوهر ما سلف من غذائه وهو في الرحم. ثم هو تحدث عن موضوع الفطام، وأكد على أن يكون تدريجيا. والمقالة الثالثة تتحدث عن بعض أمراض الطفولة وضرورة الوقاية منها. أما المقالة الرابعة تتناول تدير الطفل وتربيته حتى سن البلوغ، وفيه يستعرض ابن سينا فصول التربية النفسية للأطفال وفق أحسن الطرق التربوية المعروفة حاليا⁴.

2-2-2: الاهتمام بالصحة الجسدية من خلال مصادر الطب في العصر الوسيط:

اهتم الأطباء في العصر الوسيط بالصحة الجسدية للأطفال، فحددوا صفات الطفل الطبيعي والخديج والمريض، وتتبعوا حالته منذ مرحلة الحمل، فكانت صحة الأم انعكاس لحالة الجنين الصحية والنفسية، وإن أفضل الأمور وأبلغها في تدير الأطفال والصبيان وحفظ صحتهم التقدم في تدير الحبال بهم⁵، فمن

¹ - ابن الجزار، المصدر السابق، ص 49.

² - أحمد بن محمد بن يحيى البلدي، تدير الحبال والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الامراض العارضة لهم، تحقيق: محمود الحاج قاسم محمد، دار الرشيد للنشر، العراق، 1980. ص 13-14.

³ - الحسين بن عبد الله بن سينا، أبو علي، القانون في الطب، تحقيق: محمد أمين الضناوي، ج 1، المكتبة الشاملة الحديثة، موافق للمطبوع.

⁴ - عبد الناصر كعدان، العناية بالطفل وتربيته عند ابن سينا، مجلة حوليات القدس الطبية، العدد 1، 2005، ص 26.

⁵ - البلدي، المصدر السابق، ص 73.

الحقائق العلمية الثابتة اليوم أن الاهتمام بالطفل و الأم الحامل أمران متلازمان وذلك لأن الجنين خلال فترة الحمل التي يتكامل فيها نموه يعتمد على جسم الأم اعتمادا كبيرا فهي التي تمدده بعناصر النمو ومقومات التكوين فإن كانت سليمة متعافية كان جنينها صحيحا معافي وإن كانت سقيمة عليلة نما الجنين مريضا هزيبا إلا أن هذه ليست جديدة فقد عرفها الأطباء المسلمون ومنهم البلدي حيث خصص جزءا لابأس به في كتابه للاهتمام بالأم الحامل، فاهتم بعلامات الحمل والتي لا تزال معظم النساء الحوامل يعانين منها إلى الآن، كما اهتم بالعلامات الدالة على قرب الولادة وقدم نصائح لتسهيل الولادة والتي جاءت صحيحة ودقيقة أثبتها العلم الحديث¹.

كما اهتم أطباء العصر الوسيط بحركات وحواس الطفل عند الولادة، فاعتبروا البكاء الياسير وهو جائع نافع له: "فإن ذلك مما يرد له أعضاءه ويوسع له صدره ودبره"²، وكذا والعطاس والتبول مؤشرا جيدا على صحته الجسدية، وكذلك قدرته على الرضاعة الطبيعية وكثرة النوم³. ولم تهمل كتب الطب تلك حتى طريقة تنظيف وتحميم الطفل، لما لذلك من علاقة بصحته الجسدية فأكدوا على ضرورة تنظيف منخره وأذناه برفق وإفراغ معدته بالضغط على مخرجه وتقطير شيء من الزيت في عينيه⁴.

أما فيما يخص الرضاعة فقد نالت النصيب الأوفر من العناية والاهتمام في المصادر الطبية، فخصصوا لها فصولا طويلة وضحوا فيها بنوع من التفصيل أوقات الرضاعة وعدد الرضعات اليومية وأجود أنواع الحليب وكيف يمكن إصلاح الفاسد منه وفي الطعام الذي يجب ان تتناوله المرضعة كما تطرقوا للصفات الجسدية والأخلاقية التي يجب أن تتوفر في المرضعة.

ف نجد الأطباء يجمعون على ضرورة أن يرضع الطفل حليب أمه لأنه أنسب طعام له وأقرب غذاء لما اعتاد وهو في بطن أمه⁵، وإن اضطر الوالدان لجلب مرضعة فيجب أن تكون أشبه النساء مزاجا وسنا بأم الرضيع وأن تكون ترضع ذكرا خيرا من أن ترضع انثى⁶، وهذه النقطة الأخيرة تستوقفنا عند القيمة الغذائية لحليب الام وأن نوعه وقيمته تختلف حسب جنس مولودها، فقد أثبتت دراسة حديثة أن تركيبة حليب الأم تختلف

¹ - البلدي، المصدر السابق، ص 14.

² - ابن الجزار، المصدر الأسبق، ص 64.

³ - ابن سينا، المصدر السابق، ص، الرازي، المصدر السابق، ص،

⁴ - ابن سينا، المصدر السابق، ج 1، ص فرات أمين مجيد، الطفولة في فكر ابن سينا، مجلة الفتح، العدد 58، العراق، 2014، ص 46.

⁵ - ابن الجزار، المصدر السابق، ص 61. البلدي، المصدر السابق، ص 186. ابن سينا، المصدر السابق، ج 1، ص 204.

⁶ - البلدي، المصدر السابق، ص 187.

باختلاف جنس المولود بين الذكر والأنثى، حيث تبين أن الذكر يحتاج إلى حليب أغنى بالدهون والبروتينات، أما الأنثى فتحتاج إلى كمية أكبر من الكالسيوم. وأوضحت كايتهايند عالمة الأحياء في جامعة هارفرد أن "الأمهات ينتجن وصفات بيولوجية مختلفة طبقاً لجنس الرضيع؛ أي بحسب إن كان ذكراً أو أنثى".¹

2-3: الاهتمام بالصحة النفسية من خلال مصادر الطب في العصر الوسيط:

لم تهمل مصادر الطب في العصر الوسيط الصحة النفسية للطفل منذ ولادته وحتى البلوغ، فبداية يجب أن تتوفر في المرأة شروطاً حتى تكون صالحة لحمل جنين في أحشائها فنجد ابن الجزار يتحدث عن الصحة الجسدية والنفسية للمرأة قبل الحمل بقوله: "عن الذي يُحتاج إليه من المرأة عند طلب الولد هما أمران: أحدهما من البدن والآخر من النفس، وذلك أول صلاح الولد والأساس الذي يبني عليه تأديبه وتقريبه، فالذي من البدن، اعتدال مزاج الطفل وهيائته وأن تكون المرأة خيرة صحيحة البدن، وأما الذي في النفس فصحة القريحة وقوة الذهن وتهذيب الخاطر"²، كما وُضعت شروط للداية التي تتولى تربية الطفل في أيامه الأولى فعلمها أن لا تزجره³.

أما بخصوص المرضعة فاشترط فيها سلامة النفس والأخلاق حتى لا تؤثر سلباً على النمو النفسي للطفل، فنجد ابن سينا يقول: "...وفي أخلاقها فإن تكون حسنّة الأخلاق محمودتها بطبيئة عن الانفعالات النفسانية الرديئة من الغضب والغم والجبن وغير ذلك فإن جميع ذلك يفسد المزاج وربما أعدى بالرضاع"⁴ ونجد ابن الجزار يتفق مع ابن سينا في أن كثرة بكاء الطفل فيه مضرة وسقم وقد يصاب بالصرع فأكدوا على ضرورة تهدئته بطرق تستلذها النفس وتسكن بها الطباع وتجلب له النوم، كأن يحمل على الأيدي حملاً رقيقاً ليُنمى ويحرك بهدوء مع أصوات وألحان حسنة النغم " ذلك أن الأصوات اللذيذة تلحق النفس والطبيعة الالتذاذ بها من غير تعب"⁵، "من الواجب أن يلزم الطفل شيئين نافعين أيضاً لتقوية مزاجه: أحدهما: التحريك اللطيف والآخر: الموسيقى والتلحين الذي جرت به العادة لتنويم الأطفال"⁶.

وقد حظي بالعناية النفسية جميع فئات الأطفال في المجتمع الإسلامي حتى الأيتام واللقطاء، فقد اجتهد العلماء في وضع شروط لكفالتهم وتربيتهم والوصاية عليهم، كان أساسها الرعاية النفسية والحرص على الاهتمام بها قبل الرعاية الجسدية، فقد ضمنت النصوص الشرعية في القرآن والسنة حقوق اليتيم وشروط

¹ - <https://www.alarabiya.net/medicine-and-health/2014/02/17> / تاريخ الزيارة 2023/04/13. على الساعة 6:32.

² - ابن الجزار، المصدر السابق، ص 59.

³ - ابن الجزار، المصدر السابق، ص 62.

⁴ - ابن سينا، المصدر السابق، ج 1، ص 206.

⁵ - ابن الجزار، المصدر السابق، ص 67.

⁶ - ابن سينا، المصدر السابق، ج 1، ص 205.

كفالته، كما اشترط الفقهاء في كافل اللقيط صفات أخلاقية بالدرجة الأولى أهمها الأمانة والعدالة المقصود بها استقامة الدين بأداء الواجب، واجتناب المحارم، واستقامة المروءة بفعل ما يحمده الناس عليه والآداب الأخلاق وترك ما يذمه الناس عليه من ذلك¹. وكل هذا من أجل أن يحظى الطفل برعاية وتربية سليمة تسمح له بالتأقلم في المجتمع .

وعليه فالتربية السليمة تندرج في إطار العناية النفسية بالأطفال، فهي تسعى لتدشئة الطفل ودفعه لتحمل مسؤولياته داخل مجتمعه.

3- الرعاية الصحية في العصر المعاصر:

تعترف جل دول العالم الإسلامي على غرار دول العالم بمواثيق حقوق الطفل، التي جاءت بها عديد المنظمات المهتمة بالطفل على رأسها منظمة اليونيسيف المتمثلة في الحق في الحياة، في الاسم والجنسية والأسرة والرعاية الصحية والمساواة والتربية والتعليم والثقافة واحترام حياته الخاصة، وكل هذه الحقوق نجد أن التشريع الإسلامي قد كفلها في مصادره من القرآن والسنة النبوية التي تصب جميعها في إطار الرعاية الصحية، فالطفل الذي يمتلك الاسم السليم، أو الجنسية والأسرة السوية، ويمارس حقه في المساواة بين أقرانه، والتربية والتعليم الممنهجين، وحقه في الترفيه، تبني له ركائز نفسية قوية، وشخصية سليمة، وقدرات عقلية متوازنة، تسهم في توازنه وسلامته الصحية على حد سواء، إضافة إلى كل ما سبق فإن الشريعة التي ضمنت كل هذه الحقوق منذ أكثر من 14 قرن، تبنتها ولا تزال دول العالم الإسلامي، فبينما كفل الإسلام الحق في الحياة، من خلال تحريم قتل الأولاد والأجنة، نجد في المقابل تبني كل دول العالم الإسلامي هذا الحق، من خلال قوانينها المدنية الموضوعية، والتي تشمل تجريم الإجهاض الذي تعاقب عليه القوانين المدنية، وهذا يندرج ضمن حماية حقوق الطفل حتى من قبل أن يولد².

فنجد أن الرعاية الصحية للأطفال في دول العالم الإسلامي تتأثر وترتبط إلى حد ما بالشريعة والدين الإسلامي، فأولى على غرار العالم الغربي، اهتماما بالغا بالصحة عامة، وبصحة الطفل خاصة، بحكم اعتماد جل الدول الإسلامية على نصوص الدين الإسلامي، فعقدت عديد المؤتمرات والعهود الخاصة بالرعاية الصحية للأطفال، تبنتها معظم الدول الإسلامية، منها عقد حقوق الطفل في الإسلام الذي عقد من قبل المؤتمر الإسلامي الثاني والثلاثون، المنعقد في صنعاء باليمن في 2005 وقد سبقت هذا المؤتمر اتفاقيات أخرى كاتفاقية حقوق الطفل لعام 1989 التي ساهمت الجهود الإسلامية المعنية بقضايا الطفولة في بلورته،

¹ - ينظر: إبراهيم عبد المنعم سلامة، رعاية الأيتام واللقطاء في الاندلس منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية دولة المرابطين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2016، ص 176-177.

² - عبد المجيد بن يكن، المصدر السابق

وقبله كان هناك إعلان "دكا" لحقوق الإنسان في الإسلام صادرا عن المؤتمر الإسلامي 14 في ديسمبر 1983، وإعلان حقوق الطفل ورعايته في الإسلام الذي أقره مؤتمر القمة الإسلامية السابع سنة 1994، وجاء في المؤتمر الإسلامي حول حقوق الطفل 2005 في المادة (15) تفصيل عن الرعاية الصحية للطفل الجسدية والنفسية منذ بدء الحمل من خلال رعاية الأم، والرضاعة الطبيعية منها، أو ممن يقوم مقامها اذا تعذر عليها، كما جعل التشريع الإسلامي في مساله الرضاعة كأحد الركائز الأساسية للرعاية الصحية للطفل تفصيلا حتى في حال إصدار الأحكام على الأم بتأجيل بعض العقوبات عليها لمصلحة الطفل، وتخفيف بعضها شرعا لمصلحته كذلك، وتخفيف مهام المرضعة وساعات العمل لديه.

كما كفل العهد في المؤتمر صحة الطفل مسبقا من خلال وجوب إجراء الفحوص للأزواج قبل الزواج للتأكد من عدم وجود مسببات أمراض وراثية أو معدية، فيما خطورة على الطفل مع تقديم الرعاية الطبية الوقائية ومكافحه الأمراض، وسوء التغذية، وتوفير الرعاية للأم لمصلحة الطفل.

كما ضمن المؤتمر في إعلانه تقديم المعلومات والخدمات الطبية والمساعدة للأم لتحسين صحة الطفل، وضمان وقايتها من المخدرات وأنواعها، حيث أضافت المادة (17) من الاتفاق حماية الطفل منها، أو المساهمة في إنتاجها وترويجها واستغلاله بكل الأنواع، وحمايته من جميع أنواع العنف والمعاملة السيئة، خاصة الاستغلال الجنسي، والخطف، والعمل الذي ينطوي على مخاطر على حساب صحته، ونموه البدني والروحي، وكذلك المعاملة غير الإنسانية، والتأثير الثقافي والفكري والإعلامي المخالف للإسلام. وانبثق عن هذا المؤتمر إنشاء اللجنة الإسلامية لحقوق الطفل بكل أشكالها منها حق الرعاية الصحية والنمو الصحي السليم بدنيا ونفسيا وروحيا واجتماعيا¹، ومن أجل التسريع من وتيرة النهوض بالطفولة المبكرة في العالم الإسلامي فقد اجتمعت دول العالم الإسلامي في تشريع آخر بعقد المؤتمر الإسلامي الثالث لوزراء المكلفين بالطفولة وقد اهتم المؤتمر بتغذية الأمهات و الأطفال وتنفيذ إجراءات وتدابير تحسينها خاصة خلال فترة حمل الأم و أثناء الرضاعة التي يوجب الشروع فيها بعد الولادة مباشرة، ودوامها حتى بلوغ سن العامين للطفل، مع الاعتماد على التغذية التكميلية بداية من الشهر السادس للطفل، كما أولى أعضاء دول العالم الإسلامي المشاركين في المؤتمر اهتماما بالعناية بصحة الأم والطفل من خلال التشخيص المبكر والوقاية من الأمراض البكتيرية والفيروسية وعلاجها، والتي تنجم عن الأمراض الناتجة عن سوء التغذية، بالقيام بتدخلات واسعة تتمثل في التلقيحات، وتوفير بيئة سليمة من خلال المياه الصالحة للشرب، والصرف الصحي، مع توفير العلاجات والتثقيف الصحي بأهمية الوقاية ومخاطر نقص التغذية، وزيادة الوزن، ومن أجل النهوض بالطفولة فقد تم في المؤتمر تفعيل تضامن الدول الإسلامية لدعم حقوق الطفل في مجالات متنوعة منها الرعاية الصحية والاجتماعية، من أجل النهوض بأوضاع الطفل، وأقر بإطلاق

¹ - جامعة مينيسوتا، المرجع السابق

برامج مجتمعية تهدف إلى تنمية الطفولة وحمايتها من التهميش والعنف وكافة أنواع الاستغلال، من خلال توعية الأهل والمجتمع المدني لتوفير الرعاية المبكرة للأطفال، كما دعا أعضاء مؤتمر دول العالم الإسلامي إلى تفعيل عهد حقوق الطفل في الإسلام، من خلال سن قوانين وسياسات وبرامج لتنمية الطفولة في العالم الإسلامي، وإبراز المنظور الإسلامي في هذه السياسات والبرامج¹

إن رعاية الطفل تقع على عاتق الشخص المسؤول عنه كالوالدين، أو الأشخاص المتكفلين برعايته، والتي تقع على عاتقهم نقل تعاليم التربية الصحيحة للصحة للطفل، من خلال تلقينه أصول النظافة والطهارة وإزالة النجاسة وإعطائه التغذية السليمة وتعليمه النافع منها والضار كلحم الخنزير والدم والميتة والمشروبات الكحولية المذهبة بالعقل، وهي مواضع تُعنى بها الرعاية الصحية، حيث ضمنت المراسيم الحالية لرعاية الطفل صحياً، في دول العالم العربي والإسلامي برامج وقائية حول المواضيع الصحية كالتشجيع على النظافة الشخصية والنوم الصحي، والتغذية السليمة، والحق في الترفيه واللعب من خلال إنشاء مراكز ومنتزهات للأطفال والزامية الأطفال بممارسة الرياضة في المدارس النظامية خلال جميع مراحل التعليم لما لها من عظيم الفائدة على تطور والترقية البدنية والنفسية ويتوفر كذلك في الدول الإسلامية خدمات الرعاية الصحية كالتقنيات ومكافحة الأمراض المعدية والخطيرة للأطفال. ووجوب تقديم التلقيح للطفل، كما أن لكل طفل بياناته الصحية المسجلة في بطاقته الصحية المقدمة من طرف مسؤولي الصحة، كما تعنى الرعاية الصحية في اتفاقيات الدول الإسلامية وقوانينها حماية الطفل من الاستغلال الجسدي والنفسي على حد سواء، بسبب ضعف الطفل البدني وعدم القدرة على الدفاع عن نفسه، وحمايته من الإهانة والتنمر عليه والشتم من قبل الكبار²

4- تقييم الرعاية الصحية للأطفال بين الحقبين وأهمية المسار التاريخي لها بالعالم الإسلامي:

من خلال جملة الاتفاقيات والعهود التي أبرمتها واتفقت عليها دول العالم الإسلامي، فإننا نستخلص اهتمام الدول العربية الإسلامية بصحة أفرادها ورعايتهم عامة، والأطفال بشكل خاص، كون سلامة هذه الفئة تعتبر من المؤشرات الصحية للتنمية الجيدة، فهي تدل على مجموعة متكاملة من الشروط والظروف كالتغذية ونسبة التلقيح والخدمات الصحية، من خلال التحكم في حالات سوء التغذية والأمراض الفيروسية والبكتيرية المسببة للأمراض الوبائية، ويعتبر انخفاض نسبة الوفيات لدى الأطفال دون الخامسة إحدى الدلالات الإيجابية على رعاية صحية جيدة، حيث بلغ مؤشر الوفيات للأطفال الرضع في الدول العربية مجتمعة 28 حالة وفاة لكل ألف مولود سنة 2015، وهو يقل عن المتوسط العالمي الذي

¹ - المؤتمر الإسلامي الثالث للوزراء المكلفين بالطفولة، من أجل تسريع وتيرة النهوض بالطفولة المبكرة في العالم الإسلامي، طرابلس، ليبيا، 2011

² - عبد المجيد بن يكن، المرجع السابق،

كان 32 حالة وفاة لكل ألف مولود حي، وفيما يخص الأطفال الأقل من خمس سنوات فقد بلغ 36 حالة وفاة بكل ألف مولود سنة 2015، وهو يقل عن المعدل العالمي الذي بلغ 43 حالة وفاة لكل ألف مولود سنة 2015، وقد بلغت تونس أدنى معدل للوفيات في دول العالم الإسلامي بأربعة حالة وفاة لكل 1000 مولود حي، مثلها مثل الدول الاتحاد الأوروبي¹.

ورغم أننا نلمس الاهتمام البالغ لعلماء و أخصائيين العالم العربي والإسلامي بالرعاية الصحية وبكل ما يندرج تحتها سواء التغذية أو الرياضة أو النظافة وما إلى ذلك، من خلال المسار التاريخي عبر الحقبين الزمنيين، والمؤشرات الإيجابية و الإحصائيات الجيدة التي تدل على جودة الرعاية الصحية للأطفال ، غير أنه في جانب آخر نجد ان أكثر دول ترتفع بها نسبة الفقر ، و الأمراض الوبائية، والمجاعة هي دول إسلامية وعربية ، حيث أن نسبة الوفيات في بعض الدول الإسلامية تجاوز 50 حالة وفاة لكل 1000 مولود حي في كل من جيبوتي، السودان، الصومال، موريتانيا، والجزر القمر²، بالإضافة إلى كل من سوريا، نيجيريا، اليمن، وأفغانستان، ولبنان، والتي يعاني فيها ما يعادل طفل من بين خمسة أطفال من سوء التغذية، حسب تقرير مشترك صادر عن برنامج الأغذية ومنظمة الأغذية والزراعة(الفاو)³.

5- الخاتمة:

يبرز المسار التاريخي للرعاية الصحية في العالم الإسلامي عبر العصور، اجتهاد علماءه من أطباء، وباحثين، في الاعتناء بالأطفال و بأمراضهم والوقاية منها وكيفية تطبيها، و حماية صحتهم قبل ظهور العلل من خلال استنباط وتطبيق ما جاء في الدين الإسلامي من تعاليم ووصايا، وكذلك سن عهود حديثة ومواثيق، تؤصل حقوق الطفل ورعايته صحيا، كلها اعتمادا على ما جاء في الدين الإسلامي، والذي نجدها في مواثيق عالمية ومعاهدات دولية، استلزمت إجراء كثير الأبحاث والدراسات، واستتراف طائل الإمكانيات للوصول إلى ما هو مؤصل و مؤرخ أكثر من 14 قرن مضت.

إن للامة الإسلامية ما تملكه من مقومات وقيم ثرية، دينية، واجتماعية واحدة كفيل بالنهوض بالصحة العامة للمجتمع عامةً، والطفل خاصةً، وتنمية شاملة مستدامة له في نشأته سليما بدنيا متكاملًا نفسيًا، ينشأ في بيئة عائلية صحية، لها من القدرات ما يُمكنها من بناء برامج ومشاريع لتطوير وازدهار الرعاية الصحية للطفل في ظل الأحكام والشريعة الإسلامية، التي تكفل كل التكفل بهذه الرعاية، ولم تنقص منها

¹ - مديوني جميلة، 2018، المرجع السابق، ص 101

² - نفسه، ص 101

³ - دول-عربية- في تقرير-أممي-حول-بؤر-الجوع/5/7/2022/politics/2022/6/7/5. أطلع عليه بتاريخ: 13.04.2023

جُزءاً، ما يُبرز ضرورة، الرجوع إلى المصدر الأكثر موثوقية وعلمية، والاعتماد عليه اعتماداً أساسياً، دون الحاجة إلى الأخذ من الموثائق العالمية الغربية الأخرى، لأجل وقاية صحة الأطفال بالخصوص من جل الأمراض والأفات الصحية البدنية والنفسية منها، وأبعد من وقايتها إلى ترقيتها إلى صحة متكاملة، زاخرة بالطاقة ويافعة تضمن بناء شخصٍ بالغٍ يحمل سمات القدرة و الطاقة الكامنة في إنشاء مجتمع صحي قوي، يُعتمد عليه في بناء رؤى مستقبلية مزدهرة ناجعة للعالم الإسلامي أجمع، والنهوض به إلى مصاف التقدم والتفوق الذي كان عليه سابقاً، أين أضاف السابقون إلى الصحة عامة وإلى رعاية الطفل خاصة مراجع اعتمد عليها الغير في ما آلوا إليه من تطور في علومهم سواء الطبية أو العلوم الأخرى ، والسبيل إلى ذلك البحث المعمق و الغوص في ما جاءت به نصوص الدين الإسلامي، في عديد الميادين، لعل بناءها الأساسي ميدان التربية والرعاية عامة، والصحية خاصةً سواء البدنية و النفسية، بدءاً بالشريحة القاعدية المتمثلة في فئة الأطفال .

- قائمة المصادر والمراجع:

- 1- ابن منظور جمال الدين ، لسان العرب، ج11، ط3، دار صادر، بيروت.
- 2- ابن حجر الهيتمي، الإفصاح عن أحاديث النكاح، تحقيق: محمد شكور أميرالميادين، ط1، دار عمار، الأردن، 1406.
- 3- ابن الجزار أبو جعفر أحمد، سياسة الصبيان وتديبرهم، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس، 2008.
- 4- أحمد بن محمد بن يحيى البلدي، تديبر الحبال والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الأمراض العارضة لهم، تحقيق: محمود الحاج قاسم محمد، دار الرشيد للنشر، العراق، 1980.
- 5- ابن سينا الحسين بن عبد الله ، أبو علي، القانون في الطب، تحقيق: محمد أمين الضناوي، ج1، المكتبة الشاملة الحديثة، موافق للمطبوع.
- 6- إبراهيم عبد المنعم سلامة، رعاية الأيتام واللقطاء في الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية دولة المرابطين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2016.
- 7- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، دار المعرفة، بيروت.دت.
- 8- محمود الحاج قاسم محمد، ثلاث رسائل في الطب العربي الإسلامي: الرازي-ابن ماسويه-ابن سينا، بيت الحكمة، بغداد، دت.
- 9- محمد عقله، نظام الأسرة في الإسلام، ج2، ط3، مكتبة الرسالة الحديثة، الأردن، 2002.
- 10- داوود أفندي أبي شعر، تحفة الإخوان في حفظ صحة الأبدان، دت، دمشق.
- 11- محمد علي ناصر مهدي، المنهج النبوي في تربية الطفل،

https://www.alukah.net/books/files/book_8696/bookfile/tefel.pdf

- 12- بودالية تواتية، العناية بالطفل عند ابن الجزار القيرواني من خلال كتابه سياسة الصبيان وتديبيرهم، مجلة عصور جديدة، العدد23-أوت 2016.
- 13- خولة على حسن صالح، هدي النبي صلى الله عليه وسلم في بناء منظومة قيم الطفولة وانعكاساتها التربوية، مجلة الذخيرة للبحوث والدراسات الإسلامية، المجلد الثالث العدد الثاني، غرداية، ديسمبر 2019.
- 14- فرات أمين مجيد، الطفولة في فكر ابن سينا، مجلة الفتح، العدد58، العراق، 2014.
- 15- عبد الناصر كعدان، العناية بالطفل وتربيته عند ابن سينا، مجلة حوليات القدس الطبية، العدد1، 2005.
- 16- عبد المجيد بن يكن، حماية الطفولة في الشريعة الإسلامية والقانون الجزائري، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، المجلد الحادي عشر، 01.
- 17- محمد علي، رعاية الطفولة في العصر الإسلامي الوسيط، مجلة العبر للدراسات التاريخية والاثريّة في شمال إفريقيا، المجلد 2021، 04.
- 18- مديوني جميلة، تحليل مكامن القوة والضعف التي تواجه الرعاية الصحية في ظل الظروف الاقتصادية الراهنة، مجلة اقتصاديات شمال إفريقيا، المجلد 14، العدد19، 2018.
- 19- نصيرة بونويقة، معوقات الرعاية الصحية في مرحلة الطفولة المبكرة، مجلة رؤى للدراسات المعرفية والحضارية، المجلد05، العدد02، 2009.
- 20- اتفاقية حقوق الطفل الصادرة عن الأمم المتحدة- نسخته الأطفال- من الموقع:
06.04.2023 [unicef.org/ar/media/61611/file](https://www.unicef.org/ar/media/61611/file) أُطلع عليه يوم
- 21- جامعه مينيسوتا، مكتبة حقوق الإنسان- عهد حقوق الطفل في الإسلام الموقع:
06.04.202 hrlibrary.umn.edu/arab/CCHI.html أُطلع عليه يوم
- 22- المؤتمر الإسلامي الثالث للوزراء المكلفين بالطفولة، من أجل تسريع وتيرة النهوض بالطفولة المبكرة في العالم الإسلامي، طرابلس، ليبيا، 2011.
- 23- دول عربية-في تقرير-أممي-حول-بؤر-الجوع/2022/6/7/5. [aljazeera.net/politics/2022/6/7/5](https://www.aljazeera.net/politics/2022/6/7/5). أُطلع عليه بتاريخ:
13.04.2023
- 24 - <https://www.alarabiya.net/medicine-and-health/2014/02/17> / تاريخ الزيارة 2023/04/13. على
الساعة 6:32
- 25 - [who.int/about/governance/constitution](https://www.who.int/about/governance/constitution)

نماذج للتداوي والعلاج ببركة وحكمة شيوخ الزوايا بجنوب الغرب الجزائري في العصر
الحديث – الشيخ سيدي محمد بن أبي زيان أنموذجا-

Models of medication and treatment with the blessing and wisdom of the
sheikhs of the corners of southwest Algeria in the modern era - Sheikh Sidi
M'hamed bin Abi Zian is a model –

أ.د موساوي مجدوب، المركز الجامعي صالحى أحمد بالنعامة، الجزائر
moussaoui.medjdoub@cuniv-naama.dz

ملخص:

ساهمت الكثير من الزوايا بالجنوب الغربي الجزائري في العصر الحديث بدور التداوي والعلاج؛ هذا الدور كان واقعا معاشا لا جدال فيه في جُلها أو عند مشايخها، مما أكسبها ثقة الناس فيها وبصفة خاصة المرضى منهم. وقد نجد في زاوية الشيخ سيدي محمد بن أبي زيان؛ نموذجا رائدا في هذا المجال من خلال مختلف الخدمات العلاجية التي كانت تقدمها للمرضى، والتي نجحت في الكثير من حالاتها.
الكلمات المفتاحية: التداوي والعلاج، شيوخ الزوايا، جنوب غرب الجزائر، العصر الحديث، الشيخ سيدي محمد بن أبي زيان.

Summary:

Many corners of southwestern Algeria contributed in the modern era to the role of medicine and treatment. This role was an undisputed living reality for most of her or her sheikhs, which earned her the trust of people, especially the sick among them.

We may find in the corner of Sheikh Sidi Muhammad bin Abi Zayan: A pioneering model in this field through the various therapeutic services it provided to patients, which succeeded in many of its cases.

Key words:

Medication and treatment, Sheikhs of the corners, Southwest Algeria, The modern era Sheikh Sidi Muhammad bin Abi Zayan.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين؛ أما بعد شكرا لكم سيدي الرئيس الدكتور المحترم موسم عبد الحفيظ رئيس الجلسة العلمية الأولى ورئيس الهيئة الاستشارية للمؤتمر ومنكم سيدي أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى كل من السادة الأساتذة أ.د. عمار شرعان رئيس المركز الديمقراطي العربي، أ.د. طارق أحمد قاسم المنصوب رئيس جامعة اليمن، الدكتور بوداعة نجادي رئيس المؤتمر العلمي الدولي على تنظيمهم واحتضانهم لهذا الملتقى الموسوم: "الطب والخدمات الصحية بالعالم الإسلامي عبر العصور"؛ كما أشكر أيضا هيئة المؤتمر واللجان العلمية والتنظيمية ومختلف الأعضاء على هذا الإشراف وإلى كل من ساهم في هذه التظاهرة العلمية وإثرائها من أساتذة وباحثين ومهتمين بموضوع الطب والصحة بالعالم الإسلامي عبر العصور.

لي الشرف الكبير أن أشارككم ملتقاكم هذا بمدخله جاءت بعنوان: "نماذج للتداوي والعلاج ببركة وحكمة شيوخ الزوايا بجنوب الغرب الجزائري في العصر الحديث-الشيخ سيدي أحمد بن أبي زيان أنموذجا-"; مساهمة وخدمة منا في هذا المؤتمر العلمي المتميز.

سنحاول في مداخلتنا هذه أن نُعرف بمنطقة الجنوب الغربي الجزائري وَبِعَلَمٍ من أعلامها في التصوف وهو الشيخ سيدي محمد بن أبي زيان وبدوره المتنوع المظاهر في علاج المرضى.

1-أهمية منطقة جنوب غرب الجزائر في العصر الحديث:

شكل الوسط الجغرافي لمنطقة جنوب غرب الجزائر في العصر الحديث بيئة جذب واستقطاب لكثير من العلماء والعبّاد والمتصوفة لمزاياها العديدة، إذ وجد فيها هؤلاء بغيتهم من خلال تأسيسهم لطرقهم الصوفية المختلفة وزواياهم، والتي عرفت انتشارا وكثافة في كامل المنطقة. وقد كان للعلماء والمتصوفة الدور البالغ الأهمية في إبراز هذه المنطقة التي كانت مركز إشعاع حضاري داخل واحاتها بالصحراء؛ إلى جانب موقعها المنفتح؛ والذي شكل همزة وصل وتواصل بين تل الجزائر في الشمال والصحراء الكبرى ببلاد السودان الغربي في الجنوب، ومعبرا هاما لقوافل التجارة الصحراوية وقوافل الحجاج بين الجنوبيين الجزائريين والمغربيين من الغرب إلى الشرق. كما كان للعاملان السياسي والبشري أيضا دور في هذا الإشعاع والازدهار؛ كون هذه المنطقة كانت بعيدة عن مركز القرار السياسي في الشمال، إذ لم تكن يد السلطة المركزية الممثلة في الحكم التركي العثماني مبسوطة على هذا المجال بصورة مباشرة وفعالة، فغالبا ما كانت تحكم القبيلة ومؤسسة الزاوية، كما كان لتركيبها السكانية المتنوعة دور في هذا المجال.

تندرج البيئة الجغرافية لمنطقة جنوب غرب الجزائر؛ فيما تسميه المصادر بـ"بلاد القبلة" وهو اصطلاح عام، يشمل ثلاثة مناطق هي: جبال القصور ووادي الساورة وتوات، هذه البيئة الجغرافية ظلت منذ فترة زمنية قديمة مجالاً واسعاً لتجمع واستقرار الإنسان بها نتيجة ما ذكرناه من عوامل سابقة. يمتد إقليم جنوب غرب الجزائر كوحدة جغرافية واحدة؛ من الهضاب العليا شمالاً إلى وادي قاربت هضبة مويدير وتزروفت جنوباً؛ ومن العرق الشرقي الكبير وجبال العمور شرقاً إلى حدود المغرب الأقصى ووادي مسعود وهضبة درعة غرباً؛ يضم المناطق الرئيسية الثلاث المذكورة والمتباينة فيما بينها، وهي بالجملة عبارة عن قصور بُنيت في فترات زمنية متعاقبة.

بعد هذا التعريف الموجز لمنطقة الجنوب الغربي الجزائري؛ نجد أن الكثير من شيوخ الزوايا بهذه المنطقة قد ساهموا بأدوار متعددة ومتنوعة وفي مجالات مختلفة منها الجانب الاجتماعي وبصفة خاصة في التداوي والعلاج لكثير من حالات المرض المختلفة، وبفضل بركتهم وحكمتهم نجحوا في شفاء الكثير منها؛ هذا النجاح أكسبهم ثقة الناس ومنهم المرضى خصوصاً، كما ساهم في تدعيم مركز كل زاوية ضمن جملة الزوايا التي كانت موجودة بالمنطقة.

وظاهرة العلاج والتداوي بالزاوية أو عند شيوخها؛ كانت واقعا مُعاشاً لا جدال فيه في جل الزوايا أو عند مشايخها خلال هذه الفترة.

وقد نجد في زاوية القنادسة¹ لشيخها سيدي محمد بن أبي زيان؛ نموذجا رائداً في هذا المجال من خلال مختلف الخدمات العلاجية التي كانت تقدمها للمرضى، والتي نجحت في الكثير من حالاتها. فقد مثلت هاته الزاوية مصحة للمرضى² في شتى أنواع الأمراض والعاهات؛ خصوصاً بعد أن شاعت عن مؤسسها كرامات وخوارق عديدة في كمها ونوعها، جعلت الناس يعتقدون فيه وبقوته في علاج المرضى؛ ثقة الناس هذه بالشيخ المتحلي بالبركة، كانت إحدى الركائز الأساسية التي دعمت مركز الزاوية الزيانية.

2- التعريف بالشيخ سيدي محمد بن أبي زيان:

الشيخ سيدي محمد بن أبي زيان هو من بين الشخصيات الصوفية الهامة، وأحد الوجوه المميزة جدا في جنوب غرب الجزائر وكذا جنوب شرق المغرب تنتسب إليه زاوية القنادسة ببشار.

¹ زاوية القنادسة: كانت أكثر الزوايا شهرةً وإشعاعاً وتأثيراً وأوسعها ثراءً بالجنوب الغربي الجزائري، بفضل ما كان لها من أوقاف وإيرادات الأعطيات والفتوح؛ أسسها الشيخ سيدي محمد بن أبي زيان بالقنادسة اهتم فيها بتكوين المريدين الذين تضاعفت أعدادهم بسرعة عجيبة من الرجال والنساء، ساهموا في انتشار زاويته وطريقته عبر ربوع وجهات مختلفة.

² Dèpont Octave et COPPOLANI Xavier, *les confréries religieuses musulmanes*, Typographie et lithographie Adolphe Jourdan, Alger, 1897, p.499.

اسمه سيدي محمد؛ ويلقب بابن أبي زيان نسبة إلى جد أبيه، أو القندوسي نسبة إلى بلدة القنادسة¹. وهو ابن سيدي عبد الرحمان بن محمد بن أبي زيان بن عبد الرحمان بن عثمان بن مسعود بن عبد الله الغزواني^{2 3}.
أما عن نسبه فتوجد صعوبة كبيرة في تحديده بدقة؛ وذلك لتباين آراء المصادر والمراجع فيما بينها؛ فمنها من تفر بشرف نسبه، ومنها من تنفي النسبة الشريفة عنه.

¹ كانت تعرف قديما باسم العوينة؛ وقد ذكرها بهذا الاسم العياشي في رسالته التي يوصي فيها تلميذه أحمد بن سعيد المجيلدي عندما علم بعزمه الذهاب إلى الحج سنة 1068 هـ - 1657 م؛ فقال له: " فإذا عزمتم على الخروج فاشتر من علف دوابك ثمان ليال أو تسعا احتياطا إلى فجيج فليس بينك وبينها إلا قرية العوينة بعد خمس مراحل من سجلماسة وبالقرب منها قرى بشار...". كما عرفت أيضا باسم عوينة القنادسة نسبة لمن أسس بها زاوية القنادسة، وهو الشيخ محمد بن أبي زيان القندوسي؛ حسب الإشارة الواردة عند أبي مدين أحمد بن الصغير الدرعي في الرحلة إلى بيت الله الحرام...؛ بقوله: "...فزلنا عوينة القنادسة وزارنا المرابط سيدي محمد بن أبي زيان...". أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي (1037 هـ - 1628 م / 1090 هـ - 1679 م)، تعداد المنازل الحجازية، مخطوط رقم ك 43، المكتبة الوطنية بالرباط، المغرب، الورقة 305. أبو مدين الدرعي، الرحلة الحجازية، مخطوط رقم: ق 297، المكتبة الوطنية، الرباط، المغرب، الورقة 60. معلمة المغرب - قاموس مرتب على حروف الهجاء يحيط بالمعارف المتعلقة بمختلف الجوانب التاريخية والجغرافية والبشرية والحضارية للمغرب الأقصى، ج 20، حرف القاف، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، 1410 هـ - 1989 م، ص 6683.

² هو أبو عبد الله محمد بن عجال الغزواني؛ من أكابر أولياء مراكش وصفه ابن عسكرك؛ بقوله: " شيخ المشايخ؛ العارف بجلال الله وجماله، الداعي إلى حضرة الربوبية بجميع أقواله وأفعاله...". أصله من قبيلة غزوان العربية؛ عاصر السلطان الوطاسي محمد الشيخ، وقد سجنه بفاس خوفا مما ينجم من خطر على ملكه بعدما أشيع عنه من كرامات، فذاع صيته بين الناس، ثم أطلق سراحه، ورحل إلى مراكش واستقر بها إلى أن توفي عام 935 هـ - 1528 م. ودفن بزوايته الكائنة بالقصور. الشفشاوني محمد بن عسكرك الحسني، دوحه الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي راجعه ورقم فهرسه عبد المجيد خيالي، طبعة ثالثة منقحة ومفهرسة، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، 1424 هـ-2003 م، ص ص 96-99.

³ الحاج علي بن عبد القادر التازي، منهل الظمان ومزيل الهموم والكروب والأحزان في كرامة شيخنا العارف بالله سيدنا الحاج محمد بن أبي زيان، مخطوط بدون رقم التصنيف، الخزانة الزيانية القندوسية، القنادسة، بشار، الجزائر، الورقة 216. اليعقوبي عبد الرحمان بن محمد بن مزيان، فتح المنان في سيرة الشيخ محمد بن أبي زيان، مخطوط بدون رقم تصنيف، الخزانة الزيانية القندوسية، القنادسة، بشار، الجزائر، الورقة 3. محمد المصطفى بن الحاج البشير البوزياني القندوسي، طهارة الأنفاس والأرواح الجسمانية في الطريقة الزيانية الشاذلية المتمسكة بالشريعة المطهرة المحمدية، مخطوط تحت رقم د / 14، المكتبة الوطنية، الرباط، المملكة المغربية، الورقة 5، 37 - 38.

- Louis RINM, *Marabouts et Khouans étude sur l'islam en Algérie*, Adolphe Jourdan, libraire - éditeur, Paris, 1884, p.408.

أما بخصوص تاريخ ميلاده فإن جل المراجع التي اعتمدها فمداخلتنا هذه؛ تتفق على أن سيدي محمد بن أبي زيان، ولد في منتصف القرن الحادي عشر هجري / السابع عشر ميلادي، سنة 1060 هـ - 1650 م¹.

أما عن مكان ميلاده؛ فقد يكون بإحدى قصور بني جومي² كون والداه ارتحل من القنادة واستوطن ببني جومي³.

تلقى الشيخ سيدي محمد بن أبي زيان؛ تعليمه الأولي بمنطقته التي ولد بها ببني جومي على يد والديه سيدي عبد الرحمان بن محمد القندوسي ولالا نجمة⁴؛ تلقى منهما مبادئ العلوم والآداب الأولية لطالب العلم المبتدئ، كما تتلمذ بزاوية الشيخ سيدي عبد المالك بونقاب الذي تنبأ ببلوغه مقاما عظيما في الولاية والصلاح؛ ثم تتلمذ على يد الشيخ علي بن عبد الله بن يوسف القيرواني بالقنادة والذي أوصوه أعمامه أن يحفظه القرآن الكريم ويُعلمه مبادئ العلوم الشرعية؛ من فقه وأصول⁵.

وفي مرحلة ثانية من مساره العلمي؛ انتقل الشيخ محمد بن أبي زيان إلى سجلماسة كمحطة أولى في طلب العلم بزاوية شيخه سيدي مبارك بن عبد العزيز الغري⁶، إذ انتهل من العلوم القرآنية وما يتصل بها

¹ حمادي عبد الله الإدريسي، حاضرة القنادة وزاويتها الزيانية الشاذلية بهذه الصحراء الجزائرية تاريخا ومناقب، ج 2، ط.1، دار بوسعادة للنشر والتوزيع، 1434 هـ- 2013 م، ص 95 وج 2، ص ص 87 - 88.
- DE LA MARTINIÈRE.H.-M.-P.et LACROIX.N, Documents pour Servir a l'étude du Nord Ouest Africain Le Sud Ouest Algérien et les regions limitrophes figuig - l'oued guir - l'oued saoura, T.2, Alger, Gouvernement General de l'algérie, pp.629 - 630.Octave et Xavier, op.cit, p. 497.

² تذكر المراجع الأجنبية أن مكان ميلاده هو وادي درعة.
- de la martinière et n.lacroix, pp.621 - 630.Octave et Xavier, op.cit, p.497.

- معلمة المغرب، المرجع السابق، ص 6683. مزيان أحمد، المجتمع والسلطة المخزنية في الجنوب الشرقي المغربي خلال القرن 19 م (1845-1912)، ج 1، ط.1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 1428 هـ- 2007 م، ص 163. حمادي، المرجع السابق، ج 1، ص 95، وج 2، ص ص 87 - 88.

³ التازي، المصدر السابق، الورقة 80. البشير، المصدر السابق، الورقة 92. حمادي، المرجع نفسه، ج 2، ص ص 94-95. اليعقوبي، المصدر السابق، الورقة 121، 154، 499-501.

⁴ اليعقوبي، المصدر نفسه، الورقة 121، 356، 499-501. البشير، المصدر السابق، الورقة 92.

⁵ اليعقوبي، المصدر نفسه، الورقة 500. حمادي، المرجع السابق، ج 1، ص ص 102 - 104، 106، 108.

⁶ التازي، المصدر السابق، الورقة 27، 39 - 40، 104-105. البشير، المصدر السابق، الورقة 5، 24. اليعقوبي، المصدر السابق، الورقة 59 - 61، 154، 290، 330، 338، 348، 355، 381-382، 428، 493.

وتربى على الطريقة الناصرية¹؛ وكان مثالا للطلاب النبيه الزاهد الممثل²، كما كان من أخص تلامذة شيخه مبارك بن عبد العزيز، إذ كان يقرأ عليه العلوم الفقهية وكان مسرمدًا على ذلك³. وبعد وفاة شيخه سنة 1089 هـ – 1678 م؛ ارتحل إلى محطة ثانية من مساره العلمي إلى حاضرة فاس واستقر بها مدة ثمان سنوات، واحتك بمدرسة سيدي مصباح⁴،⁵ ولعل من بين أسباب رحلته هذه هو طلب ما لم يكن موجودا في سجلماسة آنذاك؛ وبصفة خاصة العلوم العقلية والنقلية⁶. إذ أخذ عن مجموعة من العلماء المشهورين في وقته منهم: الشيخ أبو محمد عبد السلام جسوس⁷ والشيخ أبو محمد

¹ تنتسب الطريقة الناصرية إلى الشيخ محمد ابن ناصر الدرعي التامكروتي (ت 1085 هـ – 1676 م)؛ الذي يتصل سنده بأبي الحسن الشاذلي من طريقي الشيخين الجزولي وزروق، أسس الشيخ ابن ناصر زاويته بتامكروت حسب طريقة صوفية مدارها على كتاب الله وسنة رسول الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لم تكن أوراد الناصريين ثابتة لأن شيوخها كانوا يراعون أحوال المريدين وظروفهم. أحمد بن محمد عمالك، جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية من النشأة إلى وفاة الشيخ محمد الحنفي (1052 – 1325 هـ / 1642 – 1907 م)، 3 أجزاء، ط.1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، المملكة المغربية، الرباط، 1427 هـ – 2006 م.

² التازي، المصدر السابق، الورقة 59.

³ المصدر نفسه، الورقة 42. اليعقوبي، المصدر السابق، الورقة 59-61. حمادي، المرجع السابق، ج 1، ص 100، 111.

⁴ تنسب هذه المدرسة إلى أبي الضياء مصباح بن عبد الله الياصلوتي؛ لأنه أول من درس بها، وهو من الفقهاء والصلاح، توفي سنة 750 هـ – 1349 م بفاس. أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، دوح محمد مطيع، ج 2، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1421 هـ – 2000 م، ص 246 – 247.

⁵ اليعقوبي، المصدر السابق، الورقة 61-62، 378. البشير، المصدر السابق، الورقة 25، 46. التازي، المصدر السابق، الأوراق 27، 39 – 40، 105. معلمة المغرب، المرجع السابق، ص 6683. مزيان، المجتمع والسلطة، ص 163. حمادي، المرجع السابق، ص 87-88.

- Rinn, op.cit, p.408. de la martinière et n.lacroix, pp.621 – 629.

⁶ مرزاق محمد، الشيخ محمد بن أبي زيان وزاويته بالقنادسة "الدور الديني والثقافي والسياسي"، إشراف محمد حجي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1987 – 1988، ص 35، 38.

⁷ هو الشيخ أبو محمد عبد السلام بن أحمد أو حمدون جسوس؛ عالم محدث صوفي له معرفة بالنحو واللغة والفقهاء والأصول والبيان وعلم الكلام والحديث. ذكره محمد بن أبي زيان لتلامذته في معرض حديثه؛ قائلا: "...شيخي الذي كنت أقرأ عليه؛ شيخ الطريقة وبحر الحقيقة سيدي عبد السلام جسوس – رحمه الله -". توفي سنة 1121 هـ – 1709 م. التازي، المصدر السابق، الورقة 85. محمد بن الطيب القادري، نشر المئاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تح محمد حجي وأحمد التوفيق، القسم الأول، ج 5، ط.1، د، غ، إ، بيروت، 1417 هـ – 1996 م، ص 1941 – 1942.

عبد القادر الفاسي¹ والشيخ أبو العباس أحمد اليميني² والشيخ أبو العباس أحمد بن العربي³، كما ارتبط مع البعض الآخر بالصحبة والمذاكرة والمراسلة كالشيخ المسناوي⁵، الحسن بن رحال⁶، محمد بن زكري¹ ومحمد ميارة² وأكثر من الدراسة معهم في علوم التفسير والحديث والتصوف³.

¹ هو الشيخ أبو محمد عبد القادر بن علي بن الشيخ بن يوسف الفاسي؛ فقيه وعالم ومحدث صوفي. ذكر صاحب منهل الظمآن أن الشيخ محمد بن أبي زيان كان يقرأ عليه الحكم العطائية. توفي سنة 1091 هـ - 1680 م. التازي، المصدر نفسه، الورقة 59. القادري، المصدر نفسه، ج 4، ص 1636 - 1644.

² هو الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد اليميني؛ إمام وفقهه، عرف عنه أنه كان لا يأخذ بالأسباب ابتغاء للرزق، وقد صرح مرارا بأن أمرى كليهما لا يهمنه؛ وهما هم الرزق وخوف الخلق. توفي سنة 1113 هـ - 1701 م. قال عنه محمد بن أبي زيان: "...إني أكون في بيت العبادة بالمدرسة المذكورة (المصباحية)؛ فإذا برجل يسأل عني حتى يقف عندي، ويناولني طعاما جيدا من خبز أو غيره، ويقول لي: سيدي أحمد اليميني بعث إليك به...". التازي، المصدر نفسه، الورقة 63 - 105. اليعقوبي، المصدر السابق، الأوراق 62، 329، 377. القادري، المصدر نفسه، ج 5، ص 1875 - 1882.

³ هو الشيخ أبو العباس أحمد بن العربي بن الحاج الفاسي؛ ولد عام 1042 هـ، وكان من العلماء العاملين والصلحاء الواصلين، ولي قضاء فاس الجديد، ودرس بفاس وانتفع به خلق، أخذ من عدة شيوخ مغاربة. ومن الكتب التي تخصص في تدريسها: ألفية بن مالك وشمائل الترميذي وموطأ مالك والشفاء لعياض. تـ سنة 1109 هـ - 1697. التازي، المصدر نفسه، الورقة 85. القادري، المصدر نفسه، ج 5، ص 1844. اليعقوبي، المصدر نفسه، الورقة 377.

⁴ التازي، المصدر نفسه، الأوراق 59، 63، 85، 105. البشير، المصدر السابق، الورقة 46.

⁵ هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الدلائي؛ البكري، المالكي، المشهور بالمسناوي، من العلماء. أخذ عن جماعة من المشايخ منهم؛ أبو محمد عبد القادر الفاسي وأبو عبد الله محمد بن عبد القادر؛ توفي يوم 16 شوال من سنة 1136 هـ، ترك الكثير من التصانيف؛ منها: "جهد المقل القاصر في نصرة الشيخ عبد القادر" و"القول الكاشف عن الإبتانة في الوظائف" و"الهمة إلى تحقيق أهل الذمة" و"التحقيق في بعض أهل الشرف الوثيق". ابن زيدان مولاي عبد الرحمن، إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، ط. 4، المطبعة الوطنية، الرباط، 1990، ص 74. محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب، ج 5 (1101 - 1150 هـ)، ط. 1، د، غ، إ، بيروت، 1417 هـ - 1996 م، ص 1980 - 1990. ليفي بروفنصال، مؤرخو الشرفاء، تع عبد القادر الخلافي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977، ص 214.

⁶ هو أبو علي الحسن بن أحمد بن علي التدلاوي؛ ثم المعداني بن رحال، المغربي، المالكي، من العلماء والفقهاء، أخذ عن محمد بن عبد القادر الفاسي والقاضي بن سودة واليوسي... وغيرهم من العلماء؛ له الكثير من التأليف منها: "شرح على مختصر خليل من النكاح"، و"حاشية على شرح ميارة"، و"اختصار شرح الشيخ الأجهوري على مختصر خليل"، و"يتيمة العقد في منافع اليمين"، و"تأليف في الأدعية"، و"الإفراق في مسائل الاستحقاق"، و"رفع الالتباس على الخماس في المزارعة" وغيرها من تصانيف أخرى، توفي بمكناس سنة 1140 هـ - مخلوف محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1349، ص 334. بروفنصال، المرجع نفسه، ص 212.

لم يمكث الشيخ محمد بن أبي زيان بفاس؛ سوى ثمان سنوات من 1089 إلى 1097 هـ / 1678 إلى 1686 م، حيث أرغم على الخروج منها فارا بنفسه، بعد أن اتهم بممارسة الشعوذة والسحر⁴؛ وفي هذا يقول صاحب طهارة الأنفاس: "...وخرج قاصدا مدينة فاس لقراءة العلم... إلى أن فتح الله عليه... ووصار الناس يتحدثون به لما رأوا له من الخير والصلاح؛ واشتهر ذكره في المدينة... وكان - رضي الله عنه - يحب الخمول، فخرج فارا بنفسه قاصدا بلاد جده القنادسة، ومكث بها واستوطن..."⁵.

أما عن وفاته؛ فإن جميع المصادر والمراجع التي اعتمدها في مقالنا هذا تتفق على أنه توفي شهر رمضان سنة 1145 هـ - فيفري 1733 م بالقنادسة⁶؛ وكان قد خلف الكثير من البنات والبنين من زوجتين

¹ هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن؛ ابن زكري، من فقهاء المالكية، له الكثير من التصانيف منها: "شرح ألفية الجلال السيوطي المسماة بالفريدة"، "حاشية على أوضح ابن هشام"، "شرح النصيحة الكافية للشيخ زروق"، "شروح في: الصلاة المشيشية والهمزية وحكم ابن عطاء الله"، وغيرها من كتب أخرى. قال عنه التتلائي: "كان فاضلاً نحوياً، لغوياً، عالماً بالعربية، جامعاً بين الطريقة والحقيقة". توفي بفاس سنة 1143 هـ - حجي، موسوعة أعلام المغرب، ج 5، ص ص 2033-2044.

² هو محمد بن محمد ميارة الفاسي؛ من العلماء المتخصصين في التوثيق والعلوم العقلية، كانت وفاته سنة 1143 هـ - 1730 م.

³ مزيان، المرجع السابق، ص 163.

⁴ البشير، المصدر السابق، ص 5. حمادي، المرجع السابق، ص ص 87-88.

- Rinn, op.cit, p.408.de la martinière et n.lacroix, pp.621 - 629.

⁵ البشير، المصدر نفسه، الورقة 25. مزيان، المرجع السابق، ص 163. حمادي، المرجع نفسه، ص 142. مرزاق، المرجع السابق، ص 35.

⁶ البشير، المصدر نفسه، الورقة 26. التتلائي، المصدر السابق، الأوراق 65، 208، 218، 253. معلمة المغرب، المرجع السابق، ص 6684. حمادي، المرجع نفسه، ج 1، ص ص 254-255.

- Rinn, op.cit, pp.410 - 411.Octave et Xavier, op.cit, p.498.

هما السيدة أم كلثوم¹ ولالا شيخة². وقد أوصى بخلافته على زاويته؛ ابنه سيدي محمد الملقب بالأعرج، لما كان يتميز به من مقام عظيم في الولاية والعلم والصلاح³.
ترك سيدي محمد بن أبي زيان إلى جانب زاويته وطريقته؛ تراثا فكريا متمثلا في تأليفين هما: كتاب "قيود الأسرار في الصلاة على النبي المختار" وكتاب "صقل الحالك على ما بهم في موطن مالك"؛ وهي من الكتب التي لا أثر لها اليوم⁴.

3- دور الشيخ سيدي محمد بن أبي زيان في التداوي والعلاج – عرض نماذج:-

لقد تولى الشيخ سيدي محمد بن أبي زيان إلى جانب أدواره المتعددة والمتنوعة؛ دور معالجة الناس من الأمراض والأسقام المختلفة ضمن الطقوس والممارسات ذات الوظيفة الإشفائية التي تنوعت مظاهرها ونذكر أهمها اللمس والمسح باليد المشفوع بالدعاء أو بغير دعاء؛ هذه الظاهرة تميز بها معظم الأولياء بالجزائر خلال الفترة الحديثة، وقد أورد لنا كل من اليعقوبي⁵ صاحب كتاب منهل الظمان والتازي⁶

¹ هي أم كلثوم بنت بوزيان من بني عمومتها؛ كانت من عباد الله الصالحات، اهتمت بشؤون الزاوية وإكرام طلبه العلم والضيوف، كانت مواظبة على تنظيف المحبرة كل يوم جمعة وتقوم بتبخيرها. أنجبت له من الأولاد أربعة وهم: الحاج عبد الوهاب أكبرهم، ومحمد الأعرج وأحمد البدوي والمدني، ومن البنات خمسة وهن: حفصة وهي أكبرهم، وحجة والجرة ونفيسة وفاطمة. قال الشيخ محمد بن أبي زيان عن زواجه منها: "تزوجناها لله وعرفناها لله وأجابت لذلك - رضي الله عنها -". توفيت وهي على النفاس سنة 1130 هـ؛ وتولت بعدها ابنتها حجة مقام الزاوية. اليعقوبي، المصدر السابق، الأوراق 275 - 278. البشير، المصدر نفسه، الورقة 85 - 87، 93، 140. حمادي، المرجع نفسه، ج 1، ص 151، 159.

² هي لالا شيخة بنت الفقيه محمد بن عبد القادر الفجيحي؛ أنجبت له ولدين هما: سيدي الحسين وسيدي أحمد اليميني. اليعقوبي، المصدر نفسه، الأوراق 284 - 285. التازي، المصدر السابق، الأوراق 253 - 254. حمادي، المرجع نفسه، ج 1، ص 254 - 255.

- Octave et Xavier, op.cit, p.498.

³ التازي، المصدر نفسه، الورقة 253. البشير، المصدر السابق، الورقة 26. معلمة المغربي، المرجع السابق، ص 6684. حمادي، المرجع نفسه، ج 1، ص 254 - 255.

- ibid, p.498.

⁴ حمادي، المرجع نفسه، ج 1، ص 210.

⁵ هو الشيخ عبد الرحمان بن محمد مزيان من بلدة أرشيدة؛ بجبل دبدو بناحية فاس، كان حيا سنة 1145 هـ - 1733 م. كان والده صاحبا لشيخه سيدي محمد بن أبي زيان. من تأليفه فتح المنان. المرجع نفسه، ص 220 - 224.

⁶ هو الحاج علي بن عبد القادر الشامي النسب؛ ولد في حدود سنة 1117 هـ - 1705 م بتازة بالمغرب الأقصى، حفظ القرآن الكريم ودرس العلم بفاس عند الفقيه العربي الشامي، مقدم الطريقة الزيانية القندوسية. كما تتلمذ بزاوية القنادسة عند شيخها سيدي محمد بن أبي زيان؛ إذ صاحبه مدة تقارب الخمسة عشر سنة منذ حوالي 1130 هـ - 1717 م

صاحب كتاب فتح المنان والقندوسي صاحب كتاب طهارة الأنفاس؛ الكثير من النماذج في دور الزاوية الزبانية في العلاج والتداوي، وذلك في خضم حديثهم عن كرامات شيخهم. وتجنباً للتطويل في هذا الغرض اكتفينا بذكر نماذج منها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر وبالإحالة عليها في المؤلفات المذكورة، ففيها مقنع وزيادة لكل مستزيد.

فلعل من أكثر حالات المرضى قدوماً للزاوية وشيخها سيدي محمد بن أبي زيان؛ طلباً لجله وعلاجه نجد مرض العقم، إذ كثيراً ما كان شيخ الزاوية يشترط أجره رمزية؛ متمثلة في مثقال من ذهب حين يولد لهم. ومن هذه الحالات نجد رجل من فاس؛ قدم إليه طالباً العلاج منه بعد أن أياسه المرض مدة ثمانية عشرة سنة، فشفي بإذن الله تعالى وبركة الشيخ، فولدت له زوجته بعد عقمها.

كما أن زوجة التازي كانت عقيمة فدعا لها الشيخ فشفيت وأنجبت، وامرأة أخرى وهي زوجة الحاج العربي الشامي؛ كانت تنجب الإناث دون الذكور، فدعا لها الشيخ فأنجبت ذكورا، وأخرى عانت من موت الأولاد فدعا لها الشيخ فعاشت لها الخلفة¹.

إلى جانب حالات المرضى بالعقم؛ وجدت حالات مرضية أخرى، تُقدّم إلى الزاوية للنيل من بركة شيخها، قصد التداوي والعلاج منها أمراض الشلل؛ وفي هذا نجد أيضاً الكثير من الأمثلة في كتابي "فتح المنان" و"منهل الظمان"؛ منها أن رجلاً كان مقعداً لا يقدر على التحرك في مرضه من شدة الألم، فجاء به للشيخ محمد بن أبي زيان، فوضع يده عليه وقرأ ما تيسر ونفث عليه من ريقه؛ فقام من حينه وكأنه لم يصبه شيء قبل ذلك الوقت². كما أن قوم من البربر جاؤوا له بصبي أبكم؛ فتكلم بمخاطبة الشيخ له³. كما يروي التازي عن نفسه؛ أنه شُفي من رمد شديد أصاب عينه بقدرة الله تعالى وبركة شيخه، الذي مسح بيده على عينه، ودعا له بالشفاء فعوفي في حينه⁴.

كما أن الزاوية الزبانية؛ قامت بوظيفة التداوي والعلاج حتى مع المرضى الذين كان يتعذر عليهم القدوم إليها وإلى شيخها، وبصفة خاصة منهم النساء أو البعيدين في مواطنهم عن الزاوية، وذلك من خلال إعطائهم ما سماه الشيخ بـ "الزمزامية"؛ وهي قرصات معجونة بماء زمزم يطلب من المريض بحلها في الماء أو بالزيت ويشرب منها أو يدهن بها موضع الألم؛ ومن ذلك ما رواه التازي عن ابنة أخيه التي بعث لها الشيخ

إلى 1145 هـ – 1733 م. عاش أكثر من ثمانين سنة إذ كان حياً سنة 1204 هـ – 1790 م. من تأليفه منهل الظمان. التازي،

المصدر السابق، الورقة 141. حمادي، المرجع السابق، ص 225-227.

¹ التازي، المصدر السابق، الورقة 184-186. مرزاق، المرجع السابق، ص 105.

² المصدر نفسه، الورقة 156، 169، 171. البشير، المصدر السابق، الورقة 115-116.

³ التازي، المصدر نفسه، الورقة 157، 171-172. البشير، المصدر نفسه، الورقة 116.

⁴ التازي، المصدر نفسه، الورقة 94، 171-172.

بزمزامية، صنعت بها ما أمرها به فعوفيت من حالات الجنون التي كانت تنتابها ولم تعد إليها. كما روى عن أمه التي شفيت وتعافت من ألم عانت منه؛ وكان يمنعها من النوم سنين طويلة بقدرة الله تعالى، وبركة الشيخ سيدي محمد بن أبي زيان¹.

كما كان الشيخ إذا رَقَى أحدا يأخذ شيئا من ريقه على سبابته اليمنى ويضمها في التراب؛ ويقول: "باسم الله، تربة أرضنا وريق بعضنا، يشفي سقيمنا بإذن ربنا..."، ويقرأ سورة الإخلاص ثلاثا والمعوذتين ثلاثا ويضع يده على موضع الألم².

خاتمة

في خاتمة هذه المداخلة نعتقد أن هذا النوع من التداوي لا زال موجودا في كثير من الأوساط وهو متوارث منذ زمن قديم، زمن كان فيه الولي أو شيخ الزاوية هو كل شيء في منطقته، وقد وجدنا في زاوية القنادسة نموذجا في هذا، حيث تعددت وتنوعت وسائل التداوي والعلاج بها، تنوع وتعدد الأمراض والعاهات، إلى جانب قدرة ومهارة شيخها المتحلي بالبركة والذي تمكن من إنقاذ الكثير من المرضى، فتحصلت زاويته بهذه الوظيفة على ثقة الناس وبتدعيم مركزها كزاوية ضمن جملة الزوايا التي وجدت بالجنوب الغربي الجزائري في الفترة الحديثة.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن زيدان مولاي عبد الرحمن، إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، ط.4، المطبعة الوطنية، الرباط، 1990.
- بروفنصال ليفي، مؤرخو الشرفاء، تع عبد القادر الخلافي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977.
- بن الحاج البشير محمد المصطفى البوزياني القندوسي، طهارة الأنفاس والأرواح الجسمانية في الطريقة الزاوية الشاذلية المتمسكة بالشريعة المطهرة المحمدية، مخطوط تحت رقم د/ 14، المكتبة الوطنية، الرباط، المملكة المغربية.
- التنبكي أحمد بابا، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، د وتح محمد مطيع، ج 2، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1421 هـ - 2000 م.
- حجي محمد، موسوعة أعلام المغرب، ج 5 (1101 - 1150 هـ)، ط.1، د، غ، إ، بيروت، 1417 هـ - 1996 م.
- حمادي عبد الله الإدريسي، حاضرة القنادسة وزاويتها الزاوية الشاذلية بهذه الصحراء الجزائرية تاريخا ومناقب، ج 2، ط.1، دار بوسعادة للنشر والتوزيع، 1434 هـ - 2013 م.
- الدرعي أبو مدين، الرحلة الحجازية، مخطوط رقم: ق 297، المكتبة الوطنية، الرباط، المغرب.

¹ التازي، المصدر نفسه، الورقة 141، 168- 169. البشير، المصدر السابق، الورقة 124. مرزاق، المرجع السابق، ص ص 101- 104.

² التازي، المصدر نفسه، الورقة 92.

- الشفشاوني محمد بن عسكر الحسني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي راجعه ورقم فهرسه عبد المجيد خيالي، طبعة ثالثة منقحة ومفهرسة، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، 1424هـ-2003م.
- عمالك أحمد بن محمد، جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية من النشأة إلى وفاة الشيخ محمد الحنفي (1052 – 1325 هـ / 1642 – 1907 م)، 3 أجزاء، ط.1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، المملكة المغربية، الرباط، 1427 هـ – 2006 م.
- العايشي أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر (1037 هـ – 1628 م / 1090 هـ – 1679 م)، تعداد المنازل الحجازية، مخطوط رقم ك 43، المكتبة الوطنية بالرباط، المغرب.
- القادري محمد بن الطيب، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تح محمد حجي وأحمد التوفيق، القسم الأول، ج 5، ط.1، د، غ، إ، بيروت، 1417 هـ – 1996 م.
- مخلوف محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1349.
- مرزاق محمد، الشيخ محمد بن أبي زيان وزاويته بالقنادسة "الدور الديني والثقافي والسياسي"، إشراف محمد حجي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1987 – 1988.
- مزيان أحمد، المجتمع والسلطة المخزنية في الجنوب الشرقي المغربي خلال القرن 19 م (1845-1912)، ج 1، ط.1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 1428 هـ-2007 م.
- معلمة المغرب – قاموس مرتب على حروف الهجاء يحيط بالمعارف المتعلقة بمختلف الجوانب التاريخية والجغرافية والبشرية والحضارية للمغرب الأقصى، ج 20، حرف القاف، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، 1410 هـ – 1989 م.
- اليعقوبي عبد الرحمان بن محمد بن مزيان، فتح المنان في سيرة الشيخ محمد بن أبي زيان، مخطوط بدون رقم تصنيف، الخزانة الزيانية القندوسية، القنادسة، بشار، الجزائر.
- Dèpont Octave et COPPOLANI Xavier, les confréries religieuses musulmanes, Typographie et lithographie Adolphe Jourdan, Alger, 1897.
- DE LA MARTINIÈRE.H.-M.-P.et LACROIX.N, Documents pour Servir à l'étude du Nord-Ouest Africain Le Sud-Ouest Algérien et les régions limitrophes figuig – l'oued guir – l'oued saoura, T.2, Alger, Gouvernement General de l'algérie.
- Louis RINM, Marabouts et Khouans étude sur l'islam en Algérie, Adolphe Jourdan, libraire - éditeur, Paris, 1884.

رسائل في طب الأطفال عند العرب
(الوصف والعلاج)
(Letters in pediatrics when the Arabs
description and treatment)

د. مداح عبد القادر، دة. حرشوش كريمة
جامعة ابن خلدون بتيارت، الجزائر
Meddah.abdel@yahoo.fr
karima.harchouche@univ-tiaeret.dz

ملخص:

أسهم العرب كغيرهم من الأمم في الحضارة الإنسانية ومن جملة ذلك؛ الاهتمام بالإنسان جسما ونفسا أولوا عناية كبيرة بصحة الرجل والمرأة على السواء، ولم يستثنوا الأطفال قبل وبعد الولادة بصورة خاصة، وعنايتهم أيضا بالأم والتربية والأمومة بصفة عامة. في هذه الورقة البحثية سنحاول التعريف بطب الأطفال عند العرب من خلال ما ترك الأطباء من تصانيف بين الوصف والعلاج ونقدم أيضا لبعض النباتات الطبيعية التي اكتشفوها واستعملوها في علاجهم، وتأثر بها الغرب واستعملوها على طريقة الأطباء العرب ونبين مدى إسهام أطباء العرب في مجال الطب والتطبيب بخلاف ادعاءات المستشرقين حول أصالة الطب في الحضارة اليونانية والرومانية. الكلمات المفتاحية: الطب، العرب، رسائل، الوصف، العلاج

Summary:

The Arabs, like other nations, contributed to human civilization, among others; Caring for human body and soul They paid great attention to the health of men and women alike, and did not exclude children before and after childbirth in particular, and also cared for mothers, education and motherhood in general. In this research paper, we will try to define pediatrics among the Arabs through the classifications doctors left between description and treatment, and we also present some of the natural plants that they discovered and used in their treatments, and the West was influenced by them and used them in the way of Arab doctors, and we show the extent of the contribution of Arab doctors in the field of medicine and medicine Contrary to the claims of orientalist about the originality of medicine in the Greek and Roman civilization

Key words: Medicine: Arabs letters - description – treatment.

مقدمة:

عرفت المجتمعات عبر التاريخ فيئة بشرية، سميت بمسميات مختلفة، واستقر الأمر في النهاية على المصطلح الشائع لاسيما بالنسبة للعرب باسم الأطباء. فهم فيئة من الناس تنفرد برغبات وخواطر، ونفوس تطمح إلى الاتصاف بالطمأنينة والأمان، فيما يتناسب مع المهام التي تحملهم في أغلب الأحيان على التضحيات، تمتاز هذه الفئة بالصبر إلى أبعد الحدود، لهم قلوب تفيض بالرحمة والمودة. وهم يعتبرون الطب قوة سحرية تدفع الآلام عن الأجسام الموجعة، وتشفي آلامها بما تقدمه من إسعاف مع رجاء الشفاء والتمني. ويرون في شفاء مرضاهم شفاء لهم؛ وهم بذلك يقدمون للإنسانية استقراراً للأذهان الواجفة.

إن قلنا الإنسانية فهي ذاك المنعطف الذي تحفه الهواجس، لأن الطبيب يخفف الأوجاع ويسبر غور الأسقام فيهددها ويضع حداً لجبروتها. تلتقي هذه الفئة من البشر في نقطة واحدة لتساهم في تحسين صحة الإنسان والعناية بها. وقد اهتم الأطباء العرب كغيرهم منذ ما قبل البعثة النبوية بالطب، وسي الطبيب بالحكيم ومن يشتغل بذلك. وسي هذا الفرع بعلم الحكمة، وهي بذلك تشترك مع الفلسفة في التسمية وتختلف معها في التطبيق. فكما برعوا في الفلسفة كانوا سباقين في ميدان الطب، وتركوا بصمتهم كغيرهم من أطباء المجتمعات الأخرى. ولا سيما طب الأطفال، والعناية بالأمهات قبل وبعد الولادة، وصنفوا في ذلك المصنفات، التي اعتمد عليها الغرب فيما بعد. لقد بينوا طرق العلاج العلمية، وبينوا أنواع الأمراض وطرق الكشف عليها، واستخرجوا لها الأدوية من النباتات، كما وضعوا خطوات العلاج وصنفوها بدقة.

لقد شملت مؤلفاتهم شرحاً وافياً للحالات الطبية التي مارسوها وبينوا نتائجها، والأدوية التي استعملوها فجمعوا بذلك بين الطب والصيدلة وستعرض للنباتات التي استخلصوا منها الأدوية وأعطت نتائجاً باهرة في العلاج. ومن بين الشخصيات في مجالات الطب السالفة الذكر؛ نذكر على سبيل المثال لا الحصر ابن النفيس الذي شهدوا له بأنه أول من اكتشف الدورة الدموية قبل وليام هارفي بعدة قرون، وكذا ابن سينا في كتابيه القانون والشفاء والعمرى، والرازي وغيرهم كثير. وكل هؤلاء أسهموا في مجال الطب والتطبيب، ولا سيما طب الأطفال الذي هو محور ورقتنا البحثية والتي حفظها لنا التراث العربي الطبي.

1- طب الأطفال عند العرب

اهتم العرب قديماً من ضمن ما اهتموا به في مجالات الطب عامة؛ طب الأطفال وهذا يدل على اهتمامهم بالطفل بصورة خاصة وبالأم والأُمومة بصورة عامة. ومن أنفس ما ترك لنا الأطباء العرب مصنفات يحتفي بها التراث العربي الإسلامي ولا سيما طب الأطفال. نلقى هذا النوع من الاهتمام عند الرازي الذي خصه بمؤلف بعنوان (رسالة في طب الأطفال)¹، وفي حقيقة الأمر هناك عدة مؤلفات تناولت هذا المجال من الطب، وأهمها (ثلاث رسائل في طب العربي الإسلامي)؛ هي بمثابة المرجع الذي ارتكز عليه الطب في الغرب إلى غاية القرن السابع عشر، وأفادوا منه عن كيفية تطبيب الأطفال بصفة عامة،

لقد عرف العرب الطب العام والجراحة كجزء من التشريح العضوي لجسم الانسان، بالإضافة إلى تعاملهم مع أمراض المرأة، وخصوصاً ما تعلق منها بأمراض الطفل، وعمدوا إلى تطبيب المرأة من خلال الكشف عن الأمراض الداخلية كالرحم وكذا الأمراض الخارجية. ومن هذا نتبين أن الأطباء العرب لهم السبق والفضل في تناول أمراض المرأة كأم وعلاقة ذلك بالمولود.

بين الطبيب الرازي اهتمامه بالطفل مبني على اهتمامه بالمرأة الولود خاصة، والاعتناء الصحيح بها. لأن ذلك له علاقة وطيدة بتربية الطفل²، كون ذلك يؤثر في سلوكياتهم أثناء نموهم بداية من المراحل الأولى. فقد شبه العرب المرأة بالأرض التي يبذر فيها الرجل لتعطي ثماراً صالحة. فالكتابات حول هذا المجال تخبرنا أن العرب كان لهم السبق فيه تنظيراً وممارسة ميدانية عن طريق والملاحظة والتجربة³، وكان ذلك منذ القديم على عهد الحضارة البابلية والآشورية في بلاد الرافدين والحضارة العربية في مصر. وهذا ما نجده عند الرازي.

1-1- أبو بكر محمد بن زكريا الرازي:

كان مولده بالري سنة (251 هـ - 865م) وعاش في بغداد وتوفي فيم سقط رأسه (313 هـ - 925 م) واشتغل أول عمره بالصيرفة؛ وهوي الغناء، ثم تركها وعكف على دراسة العلوم اللغوية والطبيعية والفلسفية واشتهر بكونه تتلمذ على يد أبو زيد البلخي. ولما قارب الثلاثين من عمره مال إلى دراسة الطب واجتهد في تحصيله وتعلمه. ويذكر بعض المؤلفين أنه أدرك ابن سهل وابن الطبري في أواخر عمره، وتعلم على يد هذا الأخير

¹الرازي- ابن ماسويه- ابن سينا، ثلاث رسائل في الطب العربي الإسلامي، تحقيق، محمد محمود الحاج قاسم، بيت الحكمة، بغداد، ص3

²الخطابي محمد العربي، موسوعة التراث الفكري العربي الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، ج2، 1998، ص211

³خضير إدريس، دعائم الفلسفة، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط3، 1986، ص212

الطب بعض الوقت في مسقط رأسه، غير الاختلاف بين المؤرخين حول وفاة كل منهما يريهما الشك، ويذكر هذا الخلاف للأمانة العلمية.

جمع الرازي بين الطب والكيمياء، ويعتبر من أشهر الأطباء الذين مارسوا الطب أكثر من التنظير له، وهو أعظم طبيب كلينكي (سريري) أنجبته الحضارة العربية الإسلامية في ذلك الوقت. كما أنه كان فيلسوفاً، غير أن شهرته كطبيب غلبت على كونه فيلسوفاً. وظل مرجعاً أساسياً في الطب في إلى جانب كتاب القانون لابن سينا في أوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادي. وقد دخل عاصمة الخلافة بغداد للمرة الأولى في بداية الأمر بدعوة من الخليفة المكتفي بالله سنة (292 هـ - 905 م)، وقد أسند إليه إدارة للبيمارستان وعين رئيساً لها، وعمله كطبيب ممارس جعله يتفنن في مجال الجراحة من خلال ملاحظاته الدقيقة وتجاربه وطرق الكشف والتشخيص.

على خلاف الطبيب المشهور ابن سينا¹ كان الرازي أكثر ممارسة للطب، وهذا ما جعله ينفرد بهذه الخاصية، وذلك من خلال اتباعه للأسس البحث العلمي، التي تركز على التفكير وخطوات التفكير العلمي² التي تقتضي الملاحظة والتجربة، من جهة ومن جهة ثانية تسجيله لكل التطورات لحالة المرضى السريرية، ومن جهة ثالثة حرصه الكبير على دراسة العلوم المرتبطة بذلك؛ كعلم التشريح ولقد كان الرازي على درجة من العلم والثقة بالنفس وسعة لاطلاع بحيث درس كتاب جالينوس وقدم بعض الانتقادات لأفكاره. ونظراً لممارسته الميدانية للطب كما ذكرنا سالفاً من خلال تجاربه تمكن من التفريق بين الأعراض والأمراض ومختلف الحميات، وأثرى المجال الطبي بمسائله المختلفة التي أحجم عن الخوض فيها أغلب ممن سبقوه وحتى من عاصره من الأطباء ومن اقتصوا بهذه الصناعة..

بلغت تأليفه 224 كتاباً لم يبق منها إلا القليل، منها في علم الكيمياء وأشهر هذه الكتب في هذا الباب كتاب (سر الأسرار) أما فيما يتعلق بصناعة الطب فقد فاقت مؤلفاته الخمسين، كما أنه يعتبر من الأوائل الذين أدخلوا المستحضرات الكيميائية في معالجة المرضى وذلك لأنه يجمع بين علم الطب والكيمياء أفضل الكتب التي لها علاقة بموضوعنا هي:

أ- الرسالة الأولى رسالة تدير الصبيان: تأليف أبي بكر محمد بن زكريا الرازي (215- 313 هـ / 865- 925 م) ونقلت إلى اللغة الإنجليزية من طرف صوموئيل إكس. رادبل. ثم نقلها إلى العربية نقلها الدكتور محمود الحاج

¹ - بن سينا هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، عالم وطبيب مسلم من بخارى، اشتهر بالطب والفلسفة واشتغل بهما. ولد في قرية أفشنة بالقرب من بخارى (في أوزبكستان حالياً) من أب من مدينة بلخ (في أفغانستان حالياً) وأم قروية. ولد سنة 370 هـ (980 م) وتوفي في مدينة همدان (في إيران حالياً) سنة 427 هـ (1037 م).

² - الخرجي خالد، التفكير وخطوات التفكير، مجلة الأم والطفل، الدار الوطنية للتوزيع والإعلان، بغداد العدد 383، تشرين الثاني، 1978، ص 46

قاسم محمد 1420هـ 2000م وقدم لها شرحا وافيا على اعتبار أنه طبيب فكانت الفائدة أشمل وأعم. علم وظائف الأعضاء. وهذا المنهج كان السائد في الحضارة الإسلامية في أوج عطاءها.
ب-كتاب (الحاوي)، ورسالة في الجدري والحصبة: إنها أوجز وأفضل ما كتب في الطب العربي الإسلامي في هذا الباب.

الكتاب المنصوري: مؤلف من عشرة أقسام، ترجمه للاتينية جيرارد كريمونا وأصبح كتاب التدريس في أوربا مع قانون ابن سينا حتى القرن السابع عشر ويضم آراء الرازي في الطب.
ج-رسالة في طب الأطفال: هذه الرسالة. وهي محور حديثنا عن طب الأطفال عند العرب، وقد ضمنها شروحا مفصل حول هذا المجال ففي الكتاب استخلاص لأهم المعلومات الطبية، عن الأطفال، وبذلك فهو يغني ثقافة القارئ الاختصاصي والقارئ العام، ويفتح أيضا للأمام منافذ حول أمراض الطفل بحيث تفيد هي الأخرى من هذا الجانب.

يقع هذا الكتاب في ستة فصول يلاحظ عيها الاختصار المفيد بالإضافة إلى مقدمتين، الأولى لصاحب التأليف والثانية قدمت لها الدكتوراة (لمعان أمين زكي)، أستاذة طب الأطفال في جامعة بغداد.
1-2 محتويات كتاب الرازي:

تشتمل فصول الكتاب الستة على: طب الأطفال عند الأمم السابقة، الإسلام والطفل، ومساهمات في طب الأطفال، وكذا طب الأطفال عند العرب، ومؤلفات الأطباء العرب في طب الأطفال، ويتضمن الفصل السادس القواعد الأساسية في التربية والتعليم عند العرب والمسلمين.
ومن الأمراض التي كتب عنها الأطباء العرب في مجال طب الأطفال¹ هي: أمراض الجهاز الهضمي، وتتضمن أمراض المريء وأمراض المعدة والأمعاء. وفي هذا الصدد يقول الرازي في رسالة طب الأطفال: ((يحدث القيء في الأطفال في الدور من حياتهم من أسباب متعددة: إما من سبب زيادة الحليب عما يستطيع هضمه، أو رداءة الحليب، وأكثر من ذلك إذا كان الطفل ذو معدة رطبة أو ضعيفة.))، ويأتي بالعلاج فيقول ((إن علاج ذلك هو أن تمنع الحليب الزائد ثم افحص إذا كان في القيء رائحة...)).

وفيما يتعلق بأمراض الجهاز التنفسي عند الطفل والتي كشف عنها الطب العربي: السعال وسوء التنفس، والربو والخرخر، ونفث الدم، والرعاف. وفي هذا الصدد يقول القرطبي: ((فأما الربو العارض للأطفال هو نفس متتابع شديد وجرجرة في صدورهم وفي حلقهم، عند النفس وبلة عظيمة تكون في آلات الرئة وأنايبها،)).

¹ -الطبري أبو الحسن أحمد بن محمد، أدم مطوطة باللغة العربية في طب الأطفال، تحقيق، محمد محمود الحاج قاسم، محافظة نينوى، الموصل، العراق، دت، ص ص 486، 487

وتعدوا إلى الكشف عن أراض أخرى تصيب الأطفال تمس الجهاز العصبي والحركي، وقد فصلوها في: تشنجات الأطفال، وكبر الرأس وصغره. وكذا بكاء الطفل وعدم قدرته على النوم واستفراغ السهر به، بالإضافة إلى الأحلام عند الطفل، وكشفوا كذلك عن مرض العطاس، وورم اليافوخ، وكذلك الشلل والاسترخاء. كما كشفوا عن مرض الصرع وأعطوه أسماء حسب الحالة والدرجة فسموه بـ: (أبليمبسبا)¹، وسموه علة الصبيان، ريح الصبيان، أم الصبيان).

أما عن علاجاتها فقد وصفها ابن الجزار حيث يقول عن سهر الأطفال: ((إنه معلوم أن الأمر الطبيعي في الصبيان كثرة النوم)). ويقول أيضا: ((فإذا عرض للصبى السهر فينبغي إذا أردت علاجه أن يبتدأ فيسقى الصبي بشيء من دهن البنفسج ودهن الزعفران... وينبغي أن يعنى بغذاء الصبيان لثلا تصيبهم التخمة، ويناموا بعد الرضاع)). وقد شخصوا أيضا أمراض الجهاز البولي والتناسلي عند الأطفال، وقيدوها بدقة علمية في: مرض الحصى المتولد في المثانة، وورم الخصيتين، ورجوع القضيب حتى يصغر بعد أن كان كبيرا، بالإضافة إلى بول الحصاة، وبول الدم، وكذا خروج شيء يشبه المني، وحتى أنهم ذكروا بول الطفل في الفراش. لقد تتبع الأطباء العرب أمراض الأطفال وتناولوا كل جزئية، وبحثوا حتى في الأمراض المعدية عند الأطفال كالشلل والكزاز، كما نجد في الكتاب شروحا حول الأمراض الجلدية: كالسعفة والجرب والحكة والنفط. كما اعتنوا بأمراض الأنف والأذن والحنجرة التي هي اليوم تخصص يشمل هذه الحواس الثلاث. وتنهوا أيضا إلى أمراض العيون، تعدى الأمر إلى تتبع الأمراض الوراثية عند الأطفال، وبحثوا حول التشوهات الخلقية. ووصف الأعراض والأمراض والكشف عنها لم يبق حبيس التنظير، بل قرروا هذه المسائل ثم قدموا ما يناسبها من علاج وبالكميات الدقيقة لكل مرض. وكانت الأدوية من مستخلصات الأعشاب التي كشفوا عنها وأعطوها تسميات والتي لا تزال إلى اليوم وينصح بها في الطب البديل أو الطب التقليدي كما يسمونه اليوم.

2-الأعشاب التي تستعمل اليوم في الطب من نقولات العرب:

حاز العرب في هذا المجال بإسهامهم في نقل النباتات من المنطقة العربية وحتى من الهند إلى موطن الحضارة كمصر والأندلس والمغرب العربي، وينتفع بها اليوم العالم في المنتجات الطبية والمستحضرات الصيدلانية وسنذكر جانباً منها ومن مؤلفات اشتملت على علم النبات بصفة عامة، والمستعمل منها في المجال الطبي عل وجه الخصوص.

1-داء الأمبيات amebiasis هو عدوى في الأمعاء الغليظة، وفي الكبد وغيره من الأعضاء أحياناً، يُسببها طفيلي وحيد

الخلية (من الأوالي) هو المُمْتَحَوِّلة الحَالَّة لِلنُّسُج Entamoeba histolytica، أو الأميبة. حسب Richard D.

Pearson , University of, MD, Virginia School of Medicine

1-2-نبات أصبع العذراء:

يسمى بأصبع العذراء او(الديجتال)¹، ويطلق عليه اسم قفاز الثعلب، وهو من فصيلة حشيشة الخنازير (الفصيلة الشخصية)، اسمه العلمي: (ديجتاليس بوربوريا) وهذا النبات يمتاز بالنفع والضرر في آن واحد فهو يستعمل في علاج أمراض القلب وإدرار البول، وكذا علاج الاستسقاء، في حين أنه سام جدا يشبه في منافعه وضره سم الأفعى.

تقول عنه الدكتورة فاطمة عبد القادر: ((كان لاكتشاف الديجتال ضجة كبيرة في عالم الطب منذ عام 1785م عندما اكتشفه الطبيب الإنجليزي وليم وذريخ؛ حيث كانت امرأة عجوز تستعمله قبله في علاج الاستسقاء، وكثير من الحالات التي عجز عنها الطب في ذلك الوقت. وأخذ وذريخ المادة النباتية وحللها ووجدها من نبات تشبه زهرته أصبع القفاز وهو الديجتاليس)). وبعد التجارب المخبرية تبين أن هذا النبات يحتوي على مواد فعالة أهمها هي: جليكوسيدات، الديجتوكسين، الديجتالين، ديجيتوفيلين، ديجيتوسابوني، زيوت طيارة، تانين، مواد راتنجية، ومواد ملونة صفراء اللون، حيث توجد هذه المركبات بكثرة في أوراق هذا النبات. فقبل هذا كشف عنه الأطباء العرب وبينوا منافعه ودواعي استعماله وحددوا الأماكن التي يتواجد بها.

2-2-بصل العنصل:

يسمى أيضا بـ:(بصل الفأر)²؛ أطلق عليه علماء النبات العرب اسم: (عنصل أشقيل)، واسمه العلمي هو:(شيلاماريتما أوسكويلاماريتما)، وهو من الفصيلة الزنبقية، ويوجد من جنس هذا النبات ثلاثين نوعا. يوجد هذا النبات بكثرة في حوض البحر الأبيض المتوسط. وشكل هذا النبات بيضوي بحجم قبضة اليد، ومن الداخل فهو يتكون من أغشية لحمية مغطاة من الخارج بأغشية رقيقة ذات لون أسمر قاتم. أما عن أوراقه فهي ملساء مستطيلة، أو خيطية شريطية لامعة ذات لون أخضر قاتم. ويكثر هذا النبات في المناطق ذات المناخ المعتدل والمناطق الرملية على شواطئ البحر المتوسط، وبنسبة أكبر في كل من فرنسا وإسبانيا وإنجلترا، وتظهر أوراق هذا النبات في فصل الربيع وتزهو في فصل الصيف.

أما عن استعماله كعلاج فقد وصف لعلاج الاستسقاء، وإدرار البول، كما أنه يحتوي على زيوت طيارة ويسبب العنصل عند ملامسته أكلان شديد في اليد. يحتوي أيضا على أكسالات كالسيوم، ومواد سكرية، وهو غني بالجليكوسيدات سامة وغير سامة، بالإضافة إلى احتوائه على سيللتين، وسيللكوكسين، سيللين، سيليكري. واستعمل القدماء مخفف العنصل؛ المكون من عنصل جاف وخل مركز بنسبة 1 إلى

¹-رشاد عز الدين، النباتات الطبية والعطرية، القاهرة، 1961، ص16

²-ميليسنت أي سيسلم، نباتات شافية، ترجمة خياط جعفر، بغداد، 1962، ص65

12 كمضاد لعلاج لدغة الأفعى¹. ويصنف أحسن أنواعه ذلك المتواجد بإيطاليا، كونه أقل حرقة من غيره من الأنواع الأخرى بأروبا. ويؤكل نيئا، فهو غني بالكبريت بحيث يحتوي أيضا على مواد نباتية تشبه الجلوتين.
1-2-2-المقدونس (الكرفس الجبلي أو الصخري):

يتبع هذا النبات العائلة الخيمية، واسمه العلمي هو: (أبيوم بطراساليون) مدة حياة هذا العشب لا تتجاوز السنتين، وهو من نوع الكرفس رائحته نفاذة للعطر. فهذا العشب يستعمل لإدرار البول، كما تستعمل بذوره لطرد الغازات، وتعالج المغص، كما يستعمل الزيت المستخرج منه كمسكن مدر للطمث. ويغلى هذا العشب ويستعمل ماؤه في علاج آلام الكلى والمثانة، ويدخل في تركيبه كثير من الأدوية المدرة للبول. كما يستعمل مسحوقه في إزالة احتقان الثدي. وقد تم بواسطته مسحوقه علاج الجذري وبمنقوعه الأمراض التي تسبب فيها الحشرات التي تعيش في شعر الرأس.

2-2-2- نبات العرعر:

اسم هذا النبات العلمي هو: (جونبري فيونيك)، يحتوي هذا النبات على مواد راتنجية، وزيت طيارة ومواد شمعية، وأصماغ، وأملاح كالسيوم، بالإضافة إلى مواد سكرية. تستعمل أوراقه وثماره والقمم فيه والخشب الذي هو من خواصه أنه معرق بحيث يزيد من إفراز العرق، كما أنه يستعمل في علاج الزهري، تعالج أوراقه والقمم الاسهال، وتعالج ثماره المعدة وأيضا هي مدرة للبول. ويفد العرعر كمنبه قوي للمعدة ويفتح الشهية ويطرد الغازات، كما أنه يساعد في عملية الهضم إذا استعمل على شكل جرعات بسيطة. وقد وصف الأطباء مقادير معينة في تناوله بحيث يغلى ومشروبه يستعمل في الاستسقاء وإدارر البول بحيث تتكون الكمية من خمس غرامات ماء مغلي- خمس غرامات نترات البوتاسيوم - خمسة عشر غراما من عسل عنصل. وله خاصية أخرى هامة تتمثل في جعل الحصى يخرج من مجرى البول.

2-2-3-الحلبة:

إسمها العلمي: (Trigomella Foenum Graecum)، وهي من عائلة البقلية، والحلبة عشب يتواجد على مدار السنة يمتاز بأزهاره الصفراء. يكثر تواجده بالمناطق المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط وتعتبر موطنه الأصلي. تحتوي بذوره على نسبة 22% بروتينات، و 28% مواد غروية. وعن طريق التحليل المائي ينتج عنها نوعين من السكريات؛ وهما: المانوز، والجلكتوز. كما تحتوي بذورها على 6% زيوت ثابتة ونوعين من القويدات هما (تريجونيللين 13% وكولين بنسبة 0.05%).

إن زيت الحلبة ذو أهمية كبيرة ينصح به للأُم من أجل زيادة الحليب، كما أنه يمنع من الإصابة بالنزلات المعوية وخاصة في فصل الصيف. وتعتبر الحلبة أيضا من أكبر فاتحات للشهية. ويستعمل مشروب

¹-عبد القادر فاطمة، النباتات الطبية، مجلة الشباب وعلوم المستقبل، ال عدد3، ال سنة1، القاهرة، 1977، ص13

بذور الحلبة المغلى كمسهلا ومخففا ومقويا للمعدة وهو مدر للطمث. كما يستعمل هذا المغلى بإضافة التين والتمر والسكر في علاج أمراض الصدر المزمنة والسعال والربو، ويخفف من ضيق التنفس¹. وهناك نباتات كثيرة اكتشفها الأطباء وعلماء النبات العرب غير التي ذكرنا وهي عديدة منها: حشيشة القنطورين والهليليون أو كشك الماز، وكزبرة الحمار أو الشاهترج. وكلها إسهامات من جانب العرب في الطب ولا سيما طب الأطفال.

إن هذه النباتات المكتشفة والمسجلة باسم العلماء العرب، والتي تم توظيفها بطرق علمية من طرف الأطباء كالرارزي وابن سينا وابن الجزار القيرواني، وابن النفيس، وأبو القاسم الزهراوي، والطبيب الإشبيلي ابن الزهير وغيرهم كثير. وقد اهتم هؤلاء بالطب بصفة عامة وطب الأطفال بصفة خاصة، ذلك أن الطفولة تمثل بداية الصحة العامة التي سيكون عليها المجتمع والأم هي منبت هذا المجتمع فكانت الفطنة من الأطباء العناية بالأطفال والأمهات هي العناية بالمجتمع برمته.

4- فضل الطب العربي الإسلامي على الغرب :

لقد خلفت الحضارة العربية الإسلامية كتبا متنوعة؛ منها الموسوعات، ومنها الشروح والمختصرات، مرتبة ومنظمة وفق منهج علمي ينم عن عبقرية فذة. وقد شهد لفضلها الكثير من العلماء الغرب، ولا أدل على ذلك من شهادة مؤرخ الطب العظيم (نوبورجر)، حين قال: ((إن العرب هم الذين أدخلوا النور والترتيب على تراث القدماء، الذي طالما اكتنفه الغموض ونقصه التسلسل)). وأمثلة ذلك نلمسها في كتاب جمعت معلوماته من خلال تجربة ميدانية، كما يدل القصد في التجربة في حد ذاتها وهو كتاب (زاد المسافرين)، وصاحب هذا السفر الجليل هو (ابن الجزار القيرواني)²، وجاء فيه بالتفصيل ما يطرأ على المسافر من أعراض وأمراض وعوارضها، وطرق علاجها، وقد اعتاد هذا الطبيب أن يغلق عيادته في فصل الصيف، ليتجه في رحلته من مرفأ تونس لمهمة علمية طبية.

وهناك مؤلف آخر له فضل كبير على أوروبا سماه صاحبه الطبيب الشهير أبو الاسم الزهراوي المغربي (936-1013م)، (التصريف لمن عجز عن التأليف)، وقد اشتهر بالجراحة، وضمن القسم الثالث من كتابه أسس الجراحة بصفة عامة، وأصبح عمدة طب الجراحة في أوروبا، وعلى ذلك سعى بفضل هذا الفرع من الطب وأصبحت الجراحة بسببه في أوروبا علما مستقلا عن علم التشريح. كما لا ننسى الطبيب ابن زهر الإشبيلي، والذي ينحدر من عائلة احترفن الطب أبا عن جد، وقد وقف هذا الأخير إلى جنب الطبيب

¹- أكوومأوبوفو، مجلة الصحة العالمية، العدد 26، 1977، ص ص 19، 20

²-عبدالوي موسى، الحضارة الإسلامية وأثارها على المدينة الغربية، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة، الجزائر، 2008،

الرازي من أجل فصل الفلسفة والدين عن الطب، وأن يستأثر الطب بالمأثور والأقوال السالفة الغير علمية¹.

وقد علموا بكل جهد وخصوا الطب بمنج خاص يتسم بالموضوعية والعلمية والتقصي العلمي، وكان ابن زهر هذا أستاذا لابن رشد(11261198م)، وقد أهدى تلميذه هذا الكتاب السالف الذكر، ورد ابن رشد بهدية مماثلة وهو كتاب في الطب سماه (كتاب الكليات في الطب). فالحضارة العربية الإسلامية تعج بال مؤلفات صنفتها علماء وأطباء أسماؤهم كالنجوم لا ينكرها أحد، وتواجدتهم كان بالشرق والمغرب والاندلس². قال (أوسار) عن كتاب القانون لابن سينا: (إن كتاب القانون لابن سينا كان كالإنجيل الطبي لأطول فترة من الزمن، لأنه كان الكتاب الطبي عند العرب والإفرنج مدة تنوف عن الثمانية قرون. وكيف لا وهو يعود له الفضل في اكتشاف مفاعيل أدوية جديدة، واختراع البنج(المخدر)، ولم يفته الأمر في دراسة علاقة البيئة بالصحة. لقد كان فضل العرب في الطب بينا ظاهرا، وكان عاما وشاملا، وحظي طب الأطفال بالنصيب الأوفر عندهم، وخصوه برسائل تعنى بصحة الطفل والأم، واتبعوا هذه العناية وربطوها بالتربية كما فعل ابن سينا وغيره.

وقد دل هذا الاهتمام على علو كعب الحضارة الإسلامية في أزهي عصورها، وهذا المجال من العلوم مؤثر كغيره على اسهامات الحضارة العربية الإسلامية في مختلف المجالات والفروع العلمية المتعددة ولا سيما منها الطب بصورة عامة وطب الأطفال بصورة خاصة.

1-4 أهمية طب الأطفال لدى العرب:

إن قلنا؛ أن الأطباء العرب امتهنوا الطب، وخصوه بالاهتمام الكبير، فذاك تساوقا مع تطور المجالات الأخرى في الحضارة العربية الإسلامية، ولتتمس هذا من خلال مؤلفات تنم عن عقلية موضوعية طبقت المنهج العلمي، لاسيما في فرع طب الأطفال، ويظهر لنا ذلك جليا ونحن نتبع كتاباتهم في هذا الفرع من الطب. فقد جعلوه علما مستلا بذاته، كما درسوا بعمق ما يخص المولود حديث الولادة، واتبعوا أوار حياته ونموه الطبيعي، وحتى عملية الفطام خصوها ببحوث مستفيضة.

فقد ذكر الطيب علي بن العباس المجوسي في كتابه (كامل الصناعة)، أنه إذا كان وقت الفطام ابتداء يتكلم وعلى الأمر أن يكون بعد تمام سنتين. فينبغي أن يتعود على الأكل ويدرج على تناول الأغذية

¹- وينل عماد عباس، الإنجازات العلمية للأطباء في الأندلس وأثرها على التطور الحضاري في أوروبا- القرون الوسطى 92هـ-

771م/711هـ-1492م، دار الكتب العلمية، 1971، ص 69

²- العامري محمد بشير، حسن راضي، فصول في إبداعات الطب والصيدلة في الأندلس، دار الكتب العلمية بيروت، 1979،

اللطفية، وينقص من إرضاعه في كل يوم قليلا، ولا يطع عنه اللبن دفعة واحدة. ويزاد في غذائه قليلا قليلا على التدرج حتى يتعلم أن استكفى بمقدار من الغذاء، فحينئذ يقطع عنه الرضاع¹.
فهذا القدر من الاسهام يعد أحد أهم الروافد الحضارة الإنسانية، وهذه المساهمة العلمية خلدها العلماء، والأطباء والباحثون، ومؤرخو الطب. وظلت مصنفات العرب في طب الأطفال تغني المكتبات العامة، ودعامة علمية ارتكز عليها في عصرنا الحالي لما اتسمت به بالدقة العلمية والمنهج السليم، فطوروه هم بدورهم وخصوصا فرع طب الأطفال، ذلك أنهم تركوا خطوات علمية في الكشف الأمراض ومعرفة العوارض منها، وكان لهم السبق في استخلاص المستحضرات للأدوية الطبية وطرق العلاج من النباتات التي اكتشفوها². وبرعوا في دراستها وبيان دواعي نفعها وذلك كله لخدمة الصحة سواء للمجتمع العربي الإسلامي أو الإنسانية على وجه العموم.

خاتمة:

إن ما يمكن أن نستخلصه من خلال هذا العرض المتواضع حول طب الأطفال عند العرب والمسلمين، هو ذاته ما يمكن أن نستخلصه في أي علم من العلوم في تلك الفترة، والتي عبرت بحق عن أزهى فترات الحضارة العربية الإسلامية. والطب أحد أقوى فروعها العلمية، التي برع فيها العرب والمسلمون، وأسهموا بقدر وافر في هذا الميدان وخصصوا له جانبا وسط بقية العلوم الأخرى، وانبرت هذه الفئة من الأطباء، في خوض غمار معرفة العلل والأمراض.

وبنيت الفكرة على أن من يحفظ صحة نفسه أن يلتزم وظيفة من الجزء النظري والعملي. فقد قدم الأطباء العرب والمسلمين في كل فرع ما يلزمه، ليصح الإنسان نفسيا وبدنيا. فالطب بصفة عامة، وطب الأطفال بصفة خاصة خصا بعناية فائقة من قبل الأطباء. لقد درسوا تراث من سبقهم في هذا المجال، فحسنوه وأضافوا من إبداعاتهم، واعتبروا الطفل هو ذلك الذي سيصبح شابا، والذي يكون به صلاح المجتمع والأمة معا.

فالطب النفسي والبدني والارتياض، من شأنها أن تعطي ثمارا تتعدى أغصانها الأمة الإسلامية لتعم الإنسانية جمعاء فيعود ذلك بالنفع على الانسان في كل مكان. لقد اعترف الغرب خصوصا من اتسموا بالموضوعية والتزموا الحياد، بإسهامات الأطباء العرب والمسلمين في هذا المجال، وأضافوا لبنات وسدوا

¹-الفيثوري دلال مفتاح علي، تاريخ طب الأطفال عند المسلمين، أطروحة دكتوراه جامعة قريوتس، كلية الأداب، قسم التاريخ، 2010/10/05، ص73

²-الخطابي محمد العربي، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية-دراسة وتراجم نصوص-دار الغرب الإسلامي، ج1، دت، ص83

فراغات، وأسسوا مناهجا وطرقا علمية في فروع الطب والصيدلة، ولا سيما طب الأطفال. فكما بينوا وكشفوا عن الأمراض والعلل، بحثوا عن العلاج، واستخلصوا ذلك من نباتات وصنّفوها علميا. كما أنهم بذلوا مجهودات جبارة في صنع أدوات الجراحة والتشريح، وصمّموها بدقة في ذلك الوقت، واستمر تطور تلك الآلات بناء على تلك النماذج العربية الإسلامية. لقد اعتنى الأطباء العرب بطب الأطفال، وغيّتهم في ذلك بناء صحة المسلم سالم من العلل والأسقام، وابتدأوا ذلك متبعين الجنين من قبل أن يولد متابعين لصحة الأم ومتابعين بعد ذلك تطور ونمو الوليد، ووقايته من الأمراض العارضة خلال نموه، سواء كانت تشوهات خلقية أو إعاقات بدنية مركزية على طرق التغذية الصحية الواجبة بعد الفطام، مبتعدين في ذلك عن أعمال القول المأثور والظن. بل بطرق علمية منهجية دلت على أن الحضارة العربية الإسلامية أسهمت في تطور الإنسانية في الطب وسائر مجالات المعرفة العلمية.

المصادر والمراجع

- الرازي- ابن ماسويه-ابن سينا، ثلاث رسائل في الطب العربي الإسلامي، تحقيق، محمد محمود الحاج قاسم، بيت الحكمة، بغداد، دت
- الخطابي محمد العربي، موسوعة التراث الفكري العربي الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، ج2، 1998
- خضير إدريس، دعائم الفلسفة، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط3، 1986
- الخزرجي خالد، التفكير وخطوات التفكير، مجلة الأم والطفل، الدار الوطنية للتوزيع والإعلان، بغداد العدد 383، تشرين الثاني، 1978
- الطبري أبو الحسن أحمد بن محمد، أقدم مطوطة باللغة العربية في طب الأطفال، تحقيق، محمد محمود الحاج قاسم، محافظة نينوى، الموصل، العراق، دت
- رشاد عز الدين، النباتات الطبية والعطرية، القاهرة، 1961
- ميليسنت أي سيسلم، نباتات شافية، ترجمة خياط جعفر، بغداد، 1962
- أكومو أمبوفو، مجلة الصحة العالمية، ال عدد26، 1977
- عبد الاوي موسى، الحضارة الإسلامية وآثارها على المدينة الغربية، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة، الجزائر، 2008
- وينل عماد عباس، الإنجازات العلمية للأطباء في الأندلس وأثرها على التطور الحضاري في أوروبا-القرون الوسطى 92هـ-771م/711هـ-1492م، دار الكتب العلمية، 1971
- العامري محمد بشير وحسن راضي، فصول في إبداعات الطب والصيدلة في الأندلس، دار الكتب العلمية بيروت، 1979
- الخطابي محمد العربي، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية-دراسة وتراجم نصوص-دار الغرب الإسلامي، ج1، دت
- عبد القادر فاطمة، النباتات الطبية، مجلة الشباب وعلوم المستقبل، ال عدد3، ال سنة1، القاهرة، 1977
- الفيتوري دلال مفتاح علي، تاريخ طب الأطفال عند المسلمين، أطروحة دكتوراه جامعة قربوتس، كلية الآداب، قسم التاريخ، 2010/10/05

العلاج الطبّي بالماء في بلاد الغرب الإسلامي Water Medical Treatment in the Islamic West

د. أسماء خلوط، دة. فتيحة قاضي

جامعة تيارت (الجزائر)

asmab301@gmail.com

kadifatiha09@gmail.com

ملخص:

يُشكّل الماء عنصراً حيويًا وأساسياً بالنسبة للمجتمعات البشرية، ولقد عرفت الشعوب منذ القدم الخواص الاستشفائية للماء، فاستخدم الماء في مجال الطبّ عبر العصور، وعرف أطباء الغرب الإسلامي بدورهم الخصائص العلاجية للماء، فاستخدموا الماء بمختلف أنواعه في علاج الأمراض وحفظ صحة البدن، كما عرفوا فوائده ومضاره، وذكروها وصنّفوها في تأليفهم وتصانيفهم، مُستندين في ذلك على اجتهاداتهم العلمية وبحوثهم الشخصية، وكذا الاستفادة من مؤلفات الأطباء القدماء من الإغريق والعرب وغيرهم، تهدف هذه الدراسة إلى إبراز أهمية الكبرى للماء في العلاج الطبّي، كما أنّنا نريد من خلالها تسليط الضوء على المستوى العلمي الذي بلغه أطباء الغرب الإسلامي في مختلف أقاليمه في مجال الطبّ، ومعرفة المدى الذي وصلت إليه بحوثهم العلمية في البحث عن منافع الأطعمة والأشربة وأضرارها، والكيفية والطريقة التي يتمّ فيها استخدام الماء للعلاج. الكلمات المفتاحية: الماء، الأطباء، الغرب الإسلامي، العلاج الطبّي.

summary:

Water is a vital and essential element for human societies, and peoples have known since ancient times the healing properties of water, so water was used in the field of medicine through the ages, and doctors of the Islamic West in turn knew the therapeutic properties of water, so they used water of various kinds in the treatment of diseases and maintaining the health of the body, as they knew its benefits and harms, and mentioned and classified in their compositions and classifications, based on their scientific jurisprudence and personal research, as well as benefiting from the writings of ancient doctors from the Greeks, Arabs and others, this study aims to highlight the importance of We also want to shed light on the scientific level reached by the doctors of the Islamic West in its various regions in the field of medicine, and to know the extent to which their scientific research has reached in the search for the benefits and harms of foods and drinks, and how and how water is used for treatment.

Key words: Water, doctors, the Islamic West, medical treatment.

مقدمة:

يمثّل الماء المادة الضرورية التي تتركز عليها حياة الكائنات الحية، كما أنّ له دور حيوي كبير في بقاء وتقدّم الحضارة الإنسانية، والماء هو مكوّن أساسي ليطمّع الجسم بصحة جيّدة، لذا كان مادة بحث

للأطباء على مرّ العصور، وقد كان لأطباء الغرب الإسلامي الحضور الأوفر في اكتشاف الخصائص العلاجية للماء وعلى رأسهم الطبيب الرازي، من خلال تصنيف أنواع المياه ومعرفة منافعها ومضارّها، من خلال التعرّف على مصادر المياه المختلفة، وذلك لمعرفة تركيب هذه المياه ونوعيتها، لكي يتمّ استخلاص المنافع منها، وفي نفس الوقت يتمّ تفادي أضرارها، ونحن نسعى بدورنا إلى دراسة ما توصلّ إليه هؤلاء الأطباء، لكي نستخرج أكبر قدر من المعلومات التي قد تفيدنا في موضوع دراستنا هذا، كما مكنتنا الدراسات السابقة التي لها صلة مباشرة بموضوعنا من تكوين صورة واضحة المعالم حول موضوع بحثنا، ولعلّ من أبرزها أطروحة الدكتوراه الموسومة بـ "المياه ودورها الحضاري في بلاد المغرب الإسلامي" للطالبة سياب خيرة، حيث أعطتنا فكرة عن مصادر المياه وأنواعها الموجودة في بلاد المغرب الإسلامي، والدراسة المعنونة بـ "أشكال العلاج الطبي في الأندلس خلال القرنين 4-5هـ/10-11م"، للدكتورتين بودالية تواتية وبلمداني نوال، أعطتنا هذه الدراسة فكرة عن أشكال العلاج الطبي في بلاد الأندلس، غير أنّها لم تدرج الماء كشكل من أشكال العلاج الطبي، لذا عملنا على البحث أكثر والتنقيب عن مواطن استخدام الماء في الطب والعلاج به، والأمراض التي يمكن شفاؤها باستعمال الماء شرباً واستحماماً، أملين في أن تشفي هذه الدراسة غليل الباحثين وتشبع فضول القارئ.

1- مصادر الماء :

يعدّ الماء أساس بدء الحياة على الأرض وأساس وجودها واستمرارها، وهو من أكثر ضرورات الحياة أهميّة، فلا حياة تسير بدون ماء، وكلمة الماء في اللغة همزتها مُنقلبة عن هاء، وذلك بدلالة ضروب تصاريفه، من جمعه وتصغيره، فإنّ تصغيره مُؤيّه، وجمعه أُمّواّه وميآه¹، ويعرّف ابن سينا الماء أنّه "ركن من الأركان، وهو مخصوص من جملة الأركان أنّه وحده من بينها يدخل في جملة ما يُتناوَل، لا لأنّه يَغْدُو، بل لأنّه يُنْفَذُ الغداء ويُصلح قَوامه، كما أنّه يُعِين في تسييل الغداء وترقيقه فيُنْفَذُهُ إلى العروق وإلى المخارج، ولا يُسْتَعْنَى عن معونته في تمام أمر الغداء"²، وتختلف أوصاف الماء وأسماءه وذلك حسب حالته الفيزيائية، فإن كان جارياً ظاهراً على وجه الأرض فهو مَعِين، وإن كان الماء حاراً فهو سَخَنٌ، وإذا كان شديد الحرارة فهو حَمِيمٌ، وإذا كان مُسَخَّنًا فهو مَدْعُورٌ، وإذا كان بين الحار والبارد فهو فاتر، وإذا كان بارداً فهو شَبِيمٌ³.

¹- أبو الفضل جمال محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الأفرقي الرويفي ابن منظور، دس، لسان العرب، دط، القاهرة، دار المعارف، ص: 4302.

²- أبو علي الحسين بن علي بن سينا، 1999، القانون في الطب، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، ص: 134-135.

³- إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر الأزرق، دس، تسهيل المنافع في الطب والحكمة، دط، مصر، ص: 44.

تختلف المياه لا في جوهر المائية ولكن بحسب ما يخالطها وبحسب الكيفيات التي تغلب عليها¹، أي أنّها تختلف باختلاف مصادرها في الطبيعة طبقاً للتنوع الجغرافي الطبيعي للأرض، ومن أهم مصادر الماء: 1-1- مياه الأمطار: الأمطار هي تكاثف بخار الماء من السحاب وسقوطه على شكل قطرات منفصلة على الأرض، وهي تتكوّن حينما يبرد الهواء ويحدث تكثّف لبخار الماء، يكون وزن القطرات صغيراً فلا يسقط على الأرض، ولكي يسقط المطر يجب أن تتجمّع هذه القطرات الضئيلة الحجم في مجموعات أكبر حجماً، وتتفاوت معدلات الأمطار جغرافياً على مدى الزمن، فلا تسقط الأمطار بالكميات نفسها على نطاق العالم، بل تختلف نسبة التساقط من منطقة إلى أخرى².

يصف ابن رشد الحفيد تكوّن المطر بأسلوب علمي فيقول: "فإن قُرِبَت الشمس مثلاً من مكان الأرض والماء أصاب حرّها الأرض فأحماها، فعلاً منها بخار من الرطوبة التي فيها، وكذلك من الماء، فيحدث هنالك أصناف من الأبخرة، فما كان منها حارّاً يابساً في الغاية تجاوز موضع تكوّن السحاب...، وما كان من هذه الأبخرة الرطوبة غالبية عليه لم يتجاوز موضع تكوّن السحاب ووقف هنالك، فإذا بعدت الشمس عمّا يحاذي هذا الموضع من ناحية ما من الأرض، برد ذلك البخار وتكاثف وغلظ فكان منه السحاب، وإذا اشتدّ البرد عليه استحال السحاب ماء فقطراً"³.

2-1- المياه الجوفية: وهي المصدر الأوسع للمياه العذبة وغير المتجمدة على الأرض، وتعرّف المياه الجوفية بأنّها المياه التي تقع تحت سطح التربة وتختزن نفسها في مسامات الأرض وبين صخر الأديم والرمل والحصى وغيرها من مكونات التربة الأرضية. تنشأ معظم المياه الجوفية من تسرّب عبر طبقات الأرض وتسرّب هذه المياه عبر طبقات صخرية أو رسوبية خاصة الصخور الرملية أو الكلسية التي تسمح بنفاذها، حيث فتتفجر من خلالها الينابيع والعيون وتسمح كذلك بحفر الآبار⁴، وقد تطرّق الكثير من العلماء المسلمين في العصر الوسيط إلى كيفية تشكّل المياه الجوفية وحركتها داخل جوف الأرض، وعلى رأسهم الكرخي الذي ذكر أنّ "في جوف الأرض ماء ساكن يجري منها مجرى الدم في البدن"⁵، وفسر الكندي تشكّل

¹- ابن سينا، المصدر السابق، ص: 135.

²- سحر أمين كاتوت، 2008، علم المياه، العراق، دار دجلة، ص: 52.

³- أبو الوليد محمد بن رشد الحفيد، 2002، تلخيص الآثار العلوية، سوريا، دار الإشبيلية، ص: 63-64.

⁴- كاتوت، المرجع السابق، ص: 44-45.

⁵- أبو بكر محمد بن الحسن الحاسب الكرخي، 1940، أنباط المياه الخفية، ط1، حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانية، ص:

المياه الجوفية قائلا: "أنّ هذه المواد النازلة من العلو (يقصد المطر والثلج والبرد) تصير إلى الأرض، فتقبلها بطون الأرض، وأنّ لها بطونا، أعني أودية في باطنها، كالعروق في أبدان الحيوان، التي يجري فيها الدّم"¹. تتغذى معظم المياه الجوفية من مياه الأمطار والثلوج، فعندما تتسرب مياه الأمطار إلى داخل التربة عبر فراغات تركتها جذور النباتات أو عبر الشقوق، حيث تمتلئ الفراغات الموجودة بين الصخور وذرات التربة بالماء، مشكّلة بذلك المياه الجوفية، ولقد شرح الكرخي ذلك بأسلوب علمي مفصّل في قوله: "وصار ذوبها مادة للعيون والأنهار والقنى والآبار وجرى مياهها في عروق الأرض والخروق التي في بطنها فصارت مادة لمنايع في أمكنة بعيدة لأنّ الله تعالى خلق في بطن الأرض مجاري للماء ضيقة وواسعة وخلق فيها حواجز وموانع من الحجر والكزان والطين الصلب"²، ويمكن للناس حفر الآبار داخل المناطق التي تحتوي جيوبا مائية تحت سطح التربة وضخ الماء إلى الخارج، وقد يتدفّق الماء نتيجة امتلاء أحد هذه المستودعات المائية الأرضية عبر الشقوق إلى السطح مشكّلة بذلك ينابيعا وعيونا³.

3-1- الأودية والأنهار: تعرّف الأنهار والأودية بأنّها مجرى ماء طبيعي واسع ذو ضفتين يجري فيه الماء العذب الناتج عن هطول الأمطار أو ذوبان الثلوج أو المياه النّابعة من عيون الأرض أو من مسطّحات مائية كالبحيرات، ويلتقي النهر أثناء جريانه في مجراه المزيد من المياه من الجداول والأنهار الأخرى ومياه الأمطار، ويقع مصبّ في نهايته، حيث تصبّ مياهه في نهر أكبر أو في بحيرة أو في بحر أو أحد المحيطات، ويعتقد الكثير من الناس أنّ مياه الأمطار تسقط على الأرض وتجري نحو الأنهار التي تصبّ في المحيطات، وفي واقع الأمر أنّ الأنهار تحصل على الماء من الأرض وتفقدتها في الأرض، أي أنّ المياه التي تغذيها هي مياه تنبع من باطن الأرض، كما تساهم مياه الأمطار والثلوج الذائبة في تغذية الأنهار وديمومة جريانها⁴.

يعطينا الجغرافي والباحث الموسوعي ابن الوردی (749هـ/1348م) شرحا مفصّلا عن كيفية تشكّل الأودية والأنهار فيقول: "إنّ الأمطار والثلوج إذا وقعت على الجبال تنصبّ إلى مغارات بها وتبقى مخزونة فيها في الشتاء، فإن كان في أسافل الجبال منافذ ينزل الماء من تلك المنافذ فيحصل منها الجداول وينضمّ بعضها إلى بعض فتحدث الأنهار والغدران والأودية، فإنّ كانت المغارات التي هي الخزانات لهذه المياه في أعالي الجبل استمرّ جريانه أبدا من غير انقطاع لأنّ المياه تنصبّ إلى سفح الجبل ولا تنقطع لاتّصال

¹- أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي، 1950، رسائل الكندي الفلسفية، مصر، دار الفكر العربي، ص: 111.

²- الكرخي، أنباط المياه، ص: 5.

³- كاتوت، علم المياه، ص ص: 58-59.

⁴- كاتوت، المرجع نفسه، ص ص: 54-55.

الامتداد من الأمطار والثلوج، وإن انقطعت لانقطاع المدد بقيت المياه واقفة، كما ترى في الأودية من الغدران التي تجري في وقت وتنقطع في وقت"¹.

4-1- البحار والمحيطات: هي مساحات كبيرة تتكوّن من المياه المالحة، وتغطّي 72% تقريبا من سطح الكرة الأرضية، تعتبر البحار والمحيطات جزءا من دورة الماء المهمة للحياة على الأرض، وهي تؤثر في أنماط الطقس والمناخ على الأرض، تختلف مياه البحر بشكل كبير عن المياه العذبة وتتسم بخصيتين مهمّتين هما الحرارة والملوحة، واللّتين تقترنان معا للتحكّم بكتنافة المياه، وتوجد تيارات في المحيطات تقوم بتحريك كميات هائلة من الماء حول العالم، وتكون هذه التحركات على قدر كبير من التأثير على دورة الماء والأحوال الجوية².

2- أصناف المياه :

تختلف المياه باختلاف التربة والصخور المتواجدة فيها وكذا طبيعة تركيبها، وصفة الماء المشروب المحمود هو الذي يقال عليه إنّه العذب، الذي لا يغلب عليه طعم يضاف إليه³، والعذوبة هي الطعم التّفه الذي هو يَفْوَى لقبول الطعام، وقد يميل ويخرج عن هذا الطعم العذب التفه إلى طعوم مختلفة، بحسب أصل مخرجه من العيون النابع منها ومقدار جريته على التربة المختلفة، وغير ذلك من وجوه أسباب تغييره⁴، وتعبّر جودة الماء من عشرة طرق، أولها من لونه بأن يكون صافيا، ثانيها من رائحته بأن لا يكون له رائحة البتة، ثالثها من طعمه بأن يكون طعمه عذب الطعم حلوه، كماء النيل والفرات، رابعها من وزنه بأن يكون خفيفا رقيق القوام، خامسها من مجراه بأن يكون طيّب المجرى والمسلك، سادسها من منبعه بأن يكون بعيد المنبع، سابعها من بروزه للشمس والرياح بأن لا يكون مختفيا تحت الأرض، فلا تتمكّن الشمس والرياح من قُصارتها، أي لا تصلا إليه، ثامنها من حركته بأن يكون سريع الجري والحركة، تاسعها من كثرته بأن يكون له كثرة تدفع الفضلات المخالطة له، عاشرها من مصبّه بأن يكون آخذا من الشمال إلى الجنوب أو من المغرب إلى المشرق⁵.

¹- سراج الدين بن الوردي، 2008، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ط1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ص: 246.

²- كاتوت، علم المياه، ص: 47-48.

³- أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد بن العوام الإشبيلي، 2012، الفلاحة الأندلسية، ج1، ط1، الأردن، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ص: 519.

⁴- أبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكسداني ابن وحشية، 1993، الفلاحة النبطية، ط1، قبرص، الجفان والجوابي للطباعة والنشر، ص: 87.

⁵- شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي ابن قيم الجوزية، 2003، الطب النبوي، دط، القاهرة، دار الكتاب الحديث، ص: 316.

أما إذا خرج الماء عن الطعام المحمود إلى طعوم مختلفة ضرر جميع الناس على مقدار الطعام الذي صار إليه ومقدار مزاج الإنسان وعوارض جسده¹، ومن ضروب المياه الرديئة نجد الماء المُر وهو أضر المياه وأكثرها ضررا لجسم الإنسان²، ثم يتلو الماء المر في الرداءة والضرر الماء المالح، وهو الماء الذي يُتَعَقَد منه الملح³، كماء البحر وماء السبخات وغيرها، فهذا الماء لا يصلح لا للشرب ولا للِسْقِي، لأنه كلما شرب منه الشارب شيئا لم يُزَوِّه وازداد عطشه⁴، ثم الماء القابض العَفَصُ أي ما كان في طعمه مرارة ولذاعة وتقبُّص بحيث يصعب بلعه، ويرجعه سبب هذا الطعام فيه إلى جريانه على حجارة فيها طعام الشب أو الزجاج أو الحديد، أو أرض فيها بلوط أو خرنوب كثير أو ضروب من الأشجار القابضة⁵، ومن المياه غير الصالحة للشرب أيضا الماء الكبريتي وهو الذي غلب عليه طعم الكبريت ورائحته⁶، كذلك الماء المعدني وهو الماء الجاري على المعادن والذي في طعمه طعم الحديد أو الرصاص أو النحاس أو غيرها من المعادن⁷.

3- منافع المياه وأشكال استعمالها في العلاج الطبي:

عرف أطباء الغرب الإسلامي الخصائص العلاجية للماء، فاستخدموا الماء بمختلف أنواعه في علاج الكثير من الأمراض وحفظ صحة البدن، كما عرفوا فوائده ومضارّه، والأوفق منه في حال دون حال، وما يُدْفَع به المضارّ المتولّدة منه، فبحثوا فيها واعتنوا بها غاية الاعتناء، وكذا استفادوا من مؤلفات الأطباء القدماء من الإغريق والعرب وغيرهم، حتى صار شائعا عندهم استخدام الماء كشكل من أشكال الاستشفاء والعلاج الطبي، فصنّفوا المياه وعرفوا خواصها، وميّزوا منافعها ومضارّها، وأصلحوا ما يحتاج أن يصلح منها. يعتبر الماء من أهمّ العناصر الأساسية التي يحتاجها جسم الإنسان بشكل دوري، وقد عدّد العلماء والأطباء المسلمون فوائد الماء لجسم الإنسان فقال ابن وحشية أنّ الماء: "يُنْفِذ الطعام ويَحْدِرُهُ سريعا ويقوم قوى الأبدان، ويبردّ الأحشاء التبريد المحتاجة إليه الطبيعة، ويعدّل الطبع ويرطب مع تبريده، فيقاوم بذلك فعل الحرارة، فيعتدل الطبع"⁸، أمّا الغساني فقد ذكر أنّ الماء: "سريع الذهاب إلى البطن، سلس التنفيذ للغذاء، ليس له نفخة ولا يفسد، والماء جوهر يُعِين في تسهيل الغذاء وترقيقه وتذرقته، وتنفيذه

1- ابن وحشية، المصدر السابق، ص: 87-88.

2- ابن وحشية، المصدر نفسه، ص: 88.

3- ابن العوام، المصدر السابق، ص: 524.

4- ابن وحشية، الفلاحة النبطية، ص: 88.

5- أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، 1985، منافع الأغذية ودفع مضارها، ط3، بيروت، دار إحياء العلوم، ص: 67.

6- ابن وحشية، المصدر السابق، ص: 88.

7- الرازي، المصدر السابق، ص: 69-70.

8- ابن وحشية، الفلاحة النبطية، ص: 87.

للعروق وإلى المخارج"¹، ويأتينا الرازي أيضا بوصف ملخص شامل لفائدة الماء لجسم الإنسان فيقول: "إنّ الماء مُرَكَّبُ الغذاء ومُوصِلُهُ إلى الأعضاء، وبه قوام رطوبات الأبدان والأعضاء الأصلية ونضارة اللون ورخوصة اللحم"².

يكاد يجمع الأطباء من المسلمين وغيرهم أنّ أفضل المياه وأنفعها لجسم الإنسان هي "مياه العيون الشرقية النابعة في الأرضين التي ليست بصلبة جبلية ولا دمثة سباحية، بل في الأرضين المعتدلة، فإنّ هذه المياه هي أعذب المياه وأفضلها"³، ويرى الحكيم أبقراط أنّ خير المياه ما نبع وجرى ناحية المشرق، ويكون مثل ذلك من المياه الفاضلة أبيض براقا وخفيفا، طيب الريح ليس بمتغيّر الريح جدا، يسخن سريعا ويبرد سريعا⁴، وأفضل مياه هذه العيون هو ما نبع من أرض طينية حرّة ليست بحجرية، وذلك لأنّ الطين ينقيّ الماء ويأخذ منه الممزوجات الغريبة ويُرَوِّقُهُ، والحجارة لا تفعل ذلك⁵، كما أنّ المياه التي تجري من جبال الطين تكون حارّة في الشتاء، باردة في الصيف لذلك تعتبر من أفضل المياه وأصحّها⁶.

لقد قام أطباء الغرب الإسلامي بتصنيف المياه إلى عدّة أنواع وعرفوا ما يصلح منها للعلاج، والكيفية والطريقة التي يتمّ فيها استخدام الماء في العلاج الطيّ، فذكروا أنّ أفضل الماء العذب ما كان باردا، لأنّه يحفظ للبدن رطوبته ويقمع الحرارة وينفذ الغذاء إلى العروق⁷، ويقوّي المعدة وينهض الشهوة ويزيل العطش⁸، وينفع من به انفجار الدّم استحماما وشربا، وكذلك من به حصى محرقة⁹، كما عدّوا ماء المطر من المياه الفاضلة، خاصة ما كان منه صيفيا من سحاب راعد، لأنّه حلو، خفيف، سريع النزول عن المعدة¹⁰، وذكروا أنّه نافع من السعال، وإذا شُرب على الريق فإنّه يغسل المعدة من فضل الغذاء¹¹، وذكر

¹- يوسف بن عمر بن علي بن رسول الغساني التركماني، 2000، المعتمد في الأدوية المفردة، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، ص: 343.

²- الرازي، المصدر السابق، ص: 51.

³- أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبي، دس، الكليات في الطب، دط، بيروت، دار الكتب العلمية، ص: 277.

⁴- مصطفى غالب، 1986، أبقراط، دط، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ص: 145.

⁵- ابن سينا، القانون في الطب، ص: 135.

⁶- غالب، المرجع السابق، ص: 145.

⁷- الأزرق، تسهيل المنافع، ص: 45.

⁸- ابن قيم الجوزية، الطب النبوي، ص: 319.

⁹- الغساني، المعتمد في الأدوية المفردة، ص: 344.

¹⁰- الرازي، منافع الأدوية، ص: 64.

¹¹- الأزرق، المصدر نفسه، ص: 45.

الرازي أنّه جيّد للهضم، ولإدرار البول، وجيد للكبد والطحال والكلّى والمثانة والرئة والعصب، كما ذكر أنّ أفضل ماء المطر الربيعي والشتوي¹.

أمّا بخصوص المياه الرديئة فقد اكتشف أطباء الغرب الإسلامي إلى جانب مضارّها منافعا كثيرة لها، واستخدموها في علاج بعض الأمراض، فقد وصفوا الماء القابض لمن يعاني من استطلاق البطن ورهل البدن²، كما ينفع هذا النوع من المياه من زلّق الأمعاء ودُرور البول، وكثرة جري العرق والطمث³، والماء المالح لمن به سدد الكبد والطحال⁴، وقد يُنتَفِع بهذا الماء من تكثر به الخراجات والديبلات، ومن به رهل في المعدة والبدن وعرق مزمن⁵، وماء البحر ينفع من الشقوق العارضة من البرد إذا غسلت به قبل أن تتقرّح، ويقتل القمل، ويحلّل الدم المنعقد تحت الجلد، وينفع من الجرب والحكة والفالج وأورام الثدي، والجلوس فيه ينفع من لسعة الأفاعي وسائر الهوام القاتلة⁶، أمّا الماء المرّ فينفع في تفتيح السُّدد، وتلطيف الأخلاط، لكن ينبغي أن يُطرح فيه السكر، أو يلقى فيه من الخرنوب الشامي كثير، أو حبّ الأس، أو العُنّاب، أو من البُسْر المطبوخ، أي يجب أن تؤكل معه الأغذية الممسكة للبطن، لأنّه يسبّب الإسهال⁷.

وقد تعرّف الطبيب الرازي على منافع الماء الكبريتي في علاج الأمراض الجلدية وأمراض المفاصل، فقد ذكر أنّه ينفع من القواحي والهق وتقرّش الجلد والبرص والجرب والقروح المزمنة والثآليل المتعلقة، وذكر أيضا أنّه ينفع من أورام المفاصل والصلابة والطحال والكبد والرحم وأوجاع الركبة والاسترخاء⁸، وينفع كذلك من وجع الصلب والمفاصل إذا شُرب واستحم به، كما حدّر الرازي أن يشرب على الماء الكبريتي الشراب أو يمزج به⁹، وبخصوص الماء المعدني، ويقصد به كما أسلفنا، الماء الذي به ذوق المعادن كالحديد والنحاس والرصاص وغيرها، هذا النوع من المياه يقوّي المعدة شربا، خاصة ما غلب عليه ذوق الحديد، وذلك إذا مزج بالسكر أو العسل، وينفع من لين البطن واسترخاء الأعضاء¹⁰، ويسخّن ويجفّف

1- أبو زكريا محمد بن زكريا الرازي، 2000، الحاوي في الطب، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، ص: 3348.

2- الرازي، منافع الأدوية، ص: 66.

3- الغساني، المصدر السابق، ص: 347.

4- غالب، أبقراط، ص: 147.

5- الرازي، منافع الأدوية، ص: 68.

6- الغساني، المعتمد في الأدوية، ص: 348.

7- الغساني، المصدر نفسه، ص: 347.

8- الرازي، الحاوي في الطب، ص: 3353.

9- الرازي، منافع الأدوية، ص: 68.

10- الرازي، المصدر نفسه، ص: 69.

ويمنع الطحال والمعدة، ويحبس البطن، ويشدّ الأعضاء ويقوّيها¹، والماء المعدني الذي فيه قوة النحاس ينفع من رطوبات البدن والمعدّة ويجقّفها²، وينفع أيضا الفم والعين والأذن واللثة³، وينفع أيضا الطحال والمعدّة ورطوبات البدن وفساد المزاج⁴، والماء المتولّد من معادن الذهب والفضّة فإنّه ينفع من الخفقان والأمراض النفسية كالماليخوليا⁵، والماء الفضيّ خاصة يبرّد ويجقّف البدن باعتدال⁶.

4- مضارّ المياه وكيفية إصلاحها:

ينقل الماء الكثير من الجراثيم والفيروسات القاتلة، وكثيرا ما تسبّب الماء، على مرّ التاريخ، في انتشار الطاعون والأوبئة الفتّاقة، لذا عمد الأطباء في بلاد الغرب الإسلامي إلى معرفة أضرار الماء، وحاولوا التوصل إلى طرق للحدّ من أضراره، وحاولوا أيضا إصلاح وتصفية المياه الرديئة، وذلك لكي يسلم الناس من الأمراض التي قد تنقلها أو تسبّبها هاته المياه، فدوّنوا تجاربهم في مؤلفاتهم لكي ينتفع بها الناس.

حدّر أطباء الغرب الإسلامي من أضرار التقصير في شرب الماء، وذلك لأنّ الإقلال من شرب الماء يجقّف البدن، ويوهن جميع الشهوات، ويضعف البصر وجميع الحواس، ويُسهّر ويُسرّع بالهرم والذبول، كما أنّ الإفراط في شرب الماء يضعف البدن ويرهله، ويبرّد العصب ويورث النسيان والرعيشة والسّبات وسائر الأمراض الباردة⁷، وحدّروا أيضا من شرب الماء البارد جدّا وذكروا أنّه يضرّ العصب ويضرّ أصحاب أورام الأحشاء⁸، وذكروا أنّ إدمان شرب الماء البارد يسودّ البشرة، ويهيّج الكزّار والنافض، ويحبس الرطوبة في الأبدان فتعقّفها، كما أنّه رديء للعصب والعظم والدماغ، لأنّ هذه أعضاء باردة، والبارد يزيد بها بردا⁹، ويسبّب الماء البارد جدّا الزكام والأورام، ويؤذي الأسنان، وقد يحدث انفجار الدم والنزلات وأوجاع الصدر¹⁰. والماء الحارّ يفسد الهضم شرّبه، لأنّه يطفو بالطعام إلى أعلى المعدة ويُرخمها، ولا يُسكّن العطش، ويُذبل البدن ويؤدي إلى الأمراض الرديئة، ويضرّ في أكثر الأمراض¹¹، والأكثر ضررا منه الماء المسخّن

1- الغساني، المصدر السابق، ص: 347.

2- غالب، أبقراط، ص: 147.

3- الرازي، الحاوي في الطب، ص: 3354.

4- الغساني، المصدر السابق، ص: 347.

5- الرازي، منافع الأدوية، ص: 70.

6- الغساني، المصدر السابق، ص: 347.

7- الرازي، المصدر السابق، ص: 51.

8- ابن سينا، القانون في الطب، ص: 137.

9- غالب، أبقراط، ص: 146-147.

10- ابن قيم الجوزية، الطب النبوي، ص: 317.

11- ابن قيم الجوزية، المصدر نفسه، ص: 317-318.

بالشمس، حيث ذكروا أنه يورث البرص¹، وقد ذكر الرازي أنّ على الذين يميلون إلى شرب الماء الحار أن يدرجوا قليلاً قليلاً إلى شرب الماء الأبرد فالأبرد، حتى يصيروا إلى الحد الذي لا يفسد هضمهم، وعلمهم كذلك أن يتناولوا الفواكه القابضة كالتفاح والسفرجل، حتى يحسّوا بخشونة وقبض في الفم، فعند ذلك لا يضرّهم الماء الحار².

أما الماء المالح فإنّه يهزل وينشّف البدن، ويفسد الدم فيولّد الحكمة والجرب³، وشربه يؤذي ويعطّش، ويُدفع ضرره بشرب الدهن وتدسيم الغذاء، ومزج الماء بالسكنجبين الحامض، وهو شراب مرّكّب من عسل وخلّ، وأكل الفواكه الحامضة في وقتها⁴، وماء البحر مضر شربه لأنّه يطلق البطن ويهزل، ويحدث حكة وجرباً، ويسبب نفخاً وعطشاً، ومن اضطر إلى شربه، فهناك طريقة يدفع بها مضرّته، وذلك بأن يُجعل في قدر، ويوضع فوق القدر قصبات وعليها صوف جديد منقوش، ويوقد تحت القدر حتى يرتفع بخارها إلى الصوف، فإذا كثّر عَصَرَه، ولا يزال يفعل ذلك حتى يجتمع له ما يريد، لأنّ ماء البخار الذي علق في الصوف عذب، والماء الباقي في القدر زُعاف⁵.

والماء القابض يضرّ البدن فيسدّ مسامه، ويمسك البول ويبطئ نزوله من فم المعدة، ويجفّف اللحم بقلة نفوذه إلى الأعضاء، ويضرّ بالصوت والنفس بتجفيفه قسبة الرئة⁶، والماء الكبريتي يهيج الصداع ويظلم العين، ويضعف البصر، ويسخّن الكبد ويجعل الدم مستعدّاً للعفونة، ويضعف المعدة، ويدفع ضرره بالألّا يُشرب بعد خروجه، بل بعد وقت طويل، ويُنفذ من إناء إلى إناء، خاصة في أواني الفخّار الجديدة، ثم ينقع في الطين ويُصقّى ويُشرب⁷، أما الماء المعدني الحديدي فإنّه يُثقل المعدة والحواس، ويضمّر الطحال، لذا ينبغي أن يصلح بماء السكر أو بماء العسل، ويولّد الماء الرصاصي القولنج الشديد، ويحبس البول، ولذلك ينبغي شرب أدوية مدرة للبول ومسهلة للبطن⁸.

1- عبد الملك بن حبيب الإلبيري القرطبي، دس، مختصر في الطب، دط، بيروت، دار الكتب العلمية، ص: 39.

2- الرازي، منافع الأدوية، ص: 54.

3- ابن سينا، القانون في الطب، ص: 138.

4- الرازي، المصدر السابق، ص: 67.

5- ابن قيم الجوزية، الطب النبوي، ص: 320.

6- الرازي، المصدر السابق، ص: 67.

7- الرازي، الحاوي في الطب، ص: 346.

8- الرازي، منافع الأدوية، ص: 69-70.

أما المياه الراكدة فهي في الصيف غليظة كريهة الرائحة، رديئة اللون، تولد المِرّة الصفراء، والأخلاق العفنة، وتصلّب الكبد والمعدة، وتنحف البدن، وكثيرا ما يموت من يشرب هذه المياه بسبب الاستسقاء، لذلك ينبغي من يضطر إلى شربها أن يغليها، وأن يتناول الأدوية المسهّلة القوية¹.

خاتمة:

استخدم الماء كشكل من أشكال العلاج الطبي في بلاد الغرب الإسلامي، وقد عمل الأطباء على اكتشاف الخواص العلاجية للماء، فقاموا بإجراء التجارب المتكرّرة على المياه، فصنّفوها وعرفوا خواصها الاستشفائية، كما تمكّنوا من معرفة أضرارها، والأمراض التي تسببها المياه، خاصة الرديئة منها، فعملوا على دفع أضرارها بصناعة الأدوية ومعرفة الأغذية التي يمكنها دفع ضررها، ودوّنوا ذلك في مصنّفات طبية مازال الطبّ إلى يومنا هذا يعتمد عليها، كما تمكّننا نحن من خلال هذه المصنّفات من التعرّف على مختلف مصادر المياه، وما كان منها صالحا للشرب، إضافة إلى معرفتنا لصنوفها المختلفة وطبيعتها تكوينها، من خلال منبعها، وتمكّننا أيضا من معرفة منافع هذه المياه باختلافها على جسم الإنسان، والأمراض التي قد تشفيها هذه المياه، والأضرار التي قد تسببها، وطرق الحد منها أو التخفيف منها على الأقل، ويبقى موضوع العلاج الطبي بالماء من المواضيع الشيقّة التي تستهوي الكثير من الباحثين، كما لا تزال كتب الطب الخاصة بالعلماء المسلمين في العصر الوسيط تحمل بين طيّاتها معلومات هامة جدّا، خاصة فيما يتعلق باستعمال الماء في الطب، وطرق ذلك، والذي لم نتمكن نحن من الإلمام بكل ما يخصّ ذلك نظرا لرغبتنا في المحافظة على موضوع البحث وعدم الخروج عنه، ممّا يجعل هذا الموضوع يحتاج لبحث أكثر تعمّقا من قبل الباحثين المجدّين.

المصادر والمراجع:

- الأزرق إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر، دس، تسهيل المنافع في الطب والحكمة، دط، مصر.
- ابن العوام أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد الإشبيلي، 2012، الفلاحة الأندلسية، ج 1، ط 1، الأردن، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني.
- ابن الوردي سراج الدين، 2008، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ط 1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية.
- ابن سينا أبو علي الحسين بن علي، ط 1، 1999، القانون في الطب، دط، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ابن قيم الجوزية شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، 2003، الطب النبوي، دط، القاهرة، دار الكتاب الحديث.
- الرازي أبو بكر محمد بن زكريا، 1985، منافع الأغذية ودفع مضارها، ط 3، بيروت، دار إحياء العلوم.
- الرازي أبو زكريا محمد بن زكريا، 2000، الحاوي في الطب، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية.
- الغساني يوسف بن عمر بن علي بن رسول التركماني، 2000، المعتمد في الأدوية المفردة، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية.

¹ - الرازي، الحاوي في الطب، ص: 3354.

- القرطبي عبد الملك بن حبيب الإلبيري، دس، مختصر في الطب، دط، بيروت، دار الكتب العلمية.
-الكرخي أبو بكر محمد بن الحسن الحاسب، 1940، أنباط المياه الخفية، ط1، حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانية.
-الكندي أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، 1950، رسائل الكندي الفلسفية، مصر، دار الفكر العربي.
-ابن رشد أبو الوليد محمد الحفيد، 2002، تلخيص الآثار العلوية، سوريا، دار الإشبيلية.
-ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد القرطبي، دس، الكليات في الطب، دط، بيروت، دار الكتب العلمية.
-كاتوت سحر أمين، 2008، علم المياه، العراق، دار دجلة.
-مصطفى غالب، 1986، أبقرط، دط، بيروت، دار ومكتبة الهلال.
-ابن منظور أبو الفضل جمال محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الأفرقي الرويفي، دس، لسان العرب، دط، القاهرة، دار المعارف.
-ابن وحشية أبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكسداني، 1993، الفلاحة النبطية، ط1، قبرص، الجفان والجوابي للطباعة والنشر.

الأسر الطبية والبيمارستانات في العصر العباسي الأول (132-232)هـ-(750-847م)

Medical families and Bimaristans in the first Abbasid era (132-232) AH -
750-847 AD

د.ة. حسيبة باحمان، جامعة أدرار (الجزائر)

hassibabahman@univ-adrar.edu.dz

ملخص:

اهتم العباسيون بتطوير العلوم خاصة العلوم الطبية، وساعدهم على ذلك انفتاحهم على مختلف الحضارات والثقافات اليونانية والفارسية والهندية، فشحجوا على ترجمة الكتب ونقلها للغتهم قصد الاستفادة منها وتطويرها، وقد عرفت الترجمة أزهى عصورها في عهد الخليفة هارون الرشيد وابنه المأمون، وإيماناً منهم بارتباط العلوم الطبية بالتجربة والتطبيق النظري استقدم العباسيون أطباء أجنبية (أل بختيشوع، ماسويه، بني طيفوري) ممن كان لهم صيت في جنديسابور وغيرها من المدارس الطبية المشهورة للعمل في بلاط الخليفة، والاستفادة منهم في نقل المعارف بتدريس الطب في المدارس و المجالس الطبية، وتسخير جميع الإمكانيات الضرورية واللازمة لذلك. كما اهتم العباسيون بتشديد البيمارستانات (مستشفيات) التي لم يقتصر دورها على التطبيب فقط، بل كان لها دور في تلقين وتعليم الطب النظري والتطبيقي، فكان من نتائج ذلك نضوج علم الطب في عصرهم، وظهور نخبة جديدة من الأطباء كالرازي، وابن سينا وغيرهم ممن اكتسبوا شهرة عالمية في علم الطب بمؤلفات علمية ومنهج رصين.

الكلمات المفتاحية: الطب، الخليفة المنصور، الترجمة، الأدوية، البيمارستانات.

summary:

The Abbasids were interested in developing sciences, especially medical sciences, and their openness to different civilizations and cultures, especially Greek, Persian and Indian, And they encouraged the translation of books and transferring them to their language in order to benefit from them and develop them. Translation knew its flourishing era during the reign of the Caliph Harun al-Rashid and his son al-Ma'mun. Believing in the connection of medical sciences with experience and theoretical application, the Abbasids brought in foreign doctors (Al Bakhtishu', Masweh, Bani Tayfuri) who had a reputation in Jundishapur. And other famous medical schools to work in the Caliph's court, and to benefit from them in transferring knowledge by teaching medicine in medical schools. The Abbasids were also interested in building Bimaristans (Hospitals), whose role was not limited to medicine only, but also had a role in indoctrinating and teaching theoretical and applied medicine. One of the results of this was the maturity of medical science in their era, and the emergence of a new elite of doctors such as Al-Razi, Ibn Sina and others who gained international fame In the science of medicine literature and methodology.

Keywords: Medicine, al-Mansur, translation, medicines, Bimaristans.

مقدمة:

تكتب ترتبط العلوم الطبية بصحة الانسان وما يتصل بها من علم النبات والحيوان، وعلم العقاقير والتخدير والجراحة، حيث اجتمعت مع علم الطب لحماية صحة الانسان من مختلف الأمراض التي تهدد صحته، ويُعد الطب من أوسع مجالات العلوم الحياتية لأنه يختص بالتعامل مع صحة الإنسان والتفاعل مع الأمراض المختلفة، وتحديد العقاقير الطبية التي يمكن استخدامها للتخلص من الأمراض، وقد حث الإسلام على تعلم الطب من خلال العناية بصحة الإنسان بالطهارة، كما دعا رسولنا الكريم إلى حفظ الصحة والتداوي بالطرق الشرعية، والاستعانة على المرض بالنظافة والأدوية ونصائح الأطباء من أهل الخبرة، وهكذا كان الأمر في عهد الخلفاء الراشدين.

ومع اتساع رقعة الدولة الإسلامية في العهد الأموي اعتنى الخلفاء الأمويين بالطب وأنشأوا البيمارستانات في عاصمة الدولة دمشق، غير أن الطب لم يصل إلى مرحلة متقدمة من النضوج إلا في العصر العباسي أين أصبحت العاصمة بغداد قبلة لعشاق الطب والمعرفة وظهور المؤلفات الطبية العربية، والمناهج التجريبية التي انعكست آثارها الراقية والرائعة على جميع جوانب الممارسة الطبية وقاية وعلاجاً. وبالتالي فالمقال يجب على الإشكالية المحورية الآتية ما مدى اهتمام العباسيين بالطب؟ وما هي أشهر الأسر التي امتهنته خلال العصر الأول؟.

1. اهتمام العباسيين بالعلوم الطبية وترجمتها:

وصلت حركة الترجمة ذروتها في العصر العباسي، ومن أهم الدوافع التي ساعدت على ازدهار حركة الترجمة هو نمو العلاقات الدولية في العصر العباسي الأول، والجهود التي بذلها العباسيون في فرض السلام والمبادلات التجارية التي وصلت الذروة في عهدهم، والتي حملت التجار إلى كل سوق ودفعت السفن العربية في كل بحر¹، فقد كانت الدولة العباسية تعقد الصفقات لشراء الكتب وتدفع في سبيلها أغلى الأثمان، وقد بدأت الصفقات الثقافية في عهد أبو جعفر المنصور (95هـ-714م/158هـ-775م)، حيث أوفد البعثات لطلب الكتب إلى ملك الروم، ومنها تلك التي ترأسها قسطا بن لوقا الفيلسوف الشامي الذي حصل من روما على تصانيف كثيرة في الهندسة والنجوم، والمنطق والعلوم الطبية وصناعتها²

¹ حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم شريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ط5، دار الفكر العربي، مصر، ص272.
² شيرين سليم حمودي، الحياة الطبية في العصر العباسي الأول، مجلة جامعة تشرين، المجلد: 43، العدد: 5، جامعة تشرين، سوريا، ص68.

ويعد أبو جعفر المنصور أول خليفة عباسي اهتم بالعلوم التجريبية والترجمة فكان شغوفاً بالطب والهندسة والنجوم، ولتسهيل الاستفادة من الكتب الطبية أنشأ ديواناً للترجمة، حيث أمر طبيبه جورجوس بن بختيشوع، وكان رئيس أطباء مدينة جنديسابور استقدمة الخليفة لعلاج من مرض كان يعاني منه، بترجمة الكتب من اليونانية إلى العربية، كما نقل إليه يوحنا البطريق¹ الكثير من كتب الطب اليونانية للعربية، ونقل له حنين بن إسحاق² بعض من كتب أبقراط وجالينوس³ في الطب.⁴

وتواصل تنظيم الصفقات الثقافية في عهد الرشيد (766م-149هـ/809هـ-193م) وابنه المأمون (786م-170هـ/833م-218هـ) حكيم بني العباس الذي أنشأ بيت الحكمة ونظم أمور الترجمة تنظيمًا دقيقاً⁵، وقد سلك كل السبل للوصول إلى خزائن الكتب بالقسطنطينية وقبرص، فروى ابن النديم أنه اتصل بالامبراطور البيزنطي في شأن الكتب المخزونة المدخرة بالمكتبات فأجابه إلى ذلك فأمر بنقلها فنقلت جميعها⁶، وكانت تلك الصفقات يغذيها شغف المأمون الغريب بالفكر الإغريقي ذلك الشغف الذي كان يشغله حتى في منامه، حيث رأى مرة في أحلامه أرسطاليس (هكذا)⁷، ولم تفت حركة الترجمة في عهد المعتصم

¹ يوحنا بن البطريق أو يوحنا الترجمان (730م-200هـ/815م) عمل كترجمان ذكر عنه الزركلي أنه كان مولى للمأمون وأميناً للترجمة، حسن التأدية للمعاني، أكن اللسان في العربية، وكان فيلسوفاً أكثر منه طبيباً، ترجم عدة كتب لأرسطو وبطليموس وأفلاطون. أنظر: خير الدين الزركلي، الاعلام، ج8، ط5، دار العلم للملايين بيروت، 1980، ص210.

² حنين بن اسحاق: هو أبو زيد حنين بن اسحاق العبادي، ولد بالحيرة بالعراق عام 194هـ-810م لوالد مسيحي يعمل كصيدلي مما أتاح له الفرصة للاهتمام بعلم الطب، تعلم على يد يحيى بن ماسويه، واتقن إضافة للغته الأصلية السريانية اليونانية والعربية، يعد أعظم المترجمين وأكثرهم شهرة في العصر العباسي، إذ عينه الخليفة المتوكل كمسؤول عن أعمال الترجمة ببيت الحكمة، وبالإضافة لعمله كمترجم أشهر بإجادته للطب حيث كان طبيب الخليفة المتوكل، توفي سنة 910م. لمزيد من التفاصيل أنظر، مليكة باشا، اسهامات حنين بن اسحاق في تأسيس وتأصيل الممارسة الترجمة، مجلة الآداب واللغات، مج: 22، الع: 1، جامعة تلمسان، الجزائر، ص315.

³ جالينوس: طبيب يوناني، ولد ببرجامون بآسيا الصغرى عام 131م أي بعد أبقراط بخمسة قرون، درس الفلسفة والطب وكان شديد الإعجاب بأفكار أبقراط، عمل في روما كطبيب في بلاط الامبراطور ماركوس أوريليوس، ألف حوالي أربعمئة مؤلف أهمها: كتاب الأسطفسات، كتاب التشريح الكبير. لمزيد من التفاصيل أنظر: جورج شحاتة قنواني، تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والعصر الوسيط، مؤسسة هنداوي، الأمم المتحدة، 2017، ص103.

⁴ رفيدة اسماعيل عطا المنان، بيت الحكمة البغدادي وأثره في الحركة العلمية في الدولة العباسية، ماجستير الآداب في التاريخ، جامعة الخرطوم، 2009، ص27.

⁵ فاطمة مزهود، الترجمة في العصر العباسي، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، المجل: 1، الع: 1، الجزائر، 2013، ص215.

⁶ ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص339

⁷ ابن النديم، المصدر السابق، ص339.

والوائق، وأغلب الظن أن خلفاء بني العباس قد عقدوا صفقات مماثلة مع الهنود والزرادشت، ومن أهم العوامل التي ساهمت في تنشيط حركة الترجمة هو عناية الدولة بها، وتشجيع الخلفاء وانفاقهم الأموال الطائلة عليها.¹

ويأتي على رأس الكتب الطبية مؤلفات أبوقراط ومنها كتاب الفصول وكتاب الكسر والجبر، وكتاب الأمراض الحادة، إضافة إلى مصنفات جالينوس في الطب وعددها ستة عشر إضافة لمجموعة من المقالات ومنها كتاب النبض الصغير، التشريح الصغير، و القوى الطبيعية، وقد ترجمت كل أعمالهم للغة العربية، حيث يذكر ابن أبي أصيبعة أنه مع حلول عام 900م كانت كتب أبقرراط وجالينوس مترجمة كلها للغة العربية²، والحق أن الكتب اليونانية الأصل شملت معظم فروع الطب والمعرفة، وقد مثلت مؤلفات جالينوس في الطب العمدة الرئيسية عند ابن سينا وابن النفيس³، وعن جالينوس يذكر صاعد " كان جالينوس بعد المسيح عليه السلام بنحو مائتي سنة، وبعد أبقرراط بنحو ستمائة سنة، وبعد الاسكندر بنحو خمسمائة سنة ونيف، ولا أعلم بعد ارسطاليس أعلم بعلم الطبيعة من هذين الفاضلين أعني أبقرراط وجالينوس"⁴.

ويأتي حنين بن إسحاق على رأس مترجمي كتب الطب حتى لقبه صاعد بأحد أئمة الترجمة بالإسلام وكان عالماً باليونانية والعربية⁵، وتعتبر كتبه الأوضح ترجمة وأحسنها تلخيصاً ذلك أنه لم يكن ناقلاً فحسب بل كان شارحاً ومفصلاً ومعلقاً أيضاً باستعمال أسلوبه الخاص، وبذلك أسس لمدرسة جديدة في الترجمة⁶، ومن الترجمة أيضاً عيسى بن يحيى بن إبراهيم وحبيش بن الحسن الأعمى، وكلاهما من تلامذة إسحاق بن حنين وكانا من الناقلين الجيدين من اليونانية إلى العربية⁷.

إلى جانب الكتب اليونانية نقل العباسيون علم الطب عن الفرس والهنود، وقد لعب البرامكة دور مهم في استقدام العلماء والأطباء من الهنود أمثال منكة وسندباز وغيرهم، ومن الكتب الهندية التي نقلت

¹ كمال السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع، (د)، ص 273.

² ابن أبي أصيبعة، كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج 1، تح: عامر النجار، ط 1، دار المعارف، القاهرة، 1996، ص 44
³ زبغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، تر: فاروق بيضون، كمال دسوقي، مر: مارون عيسى الخوري، ط 8، دار الجيل، دار الأفق الجديدة، بيروت، 1993، ص 307.

⁴ صاعد الأندلسي، كتاب طبقات الأمم، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1912، ص 28.

⁵ صاعد الأندلسي، المصدر نفسه، ص 48.

⁶ ادريس مفتاح بوبكر، حركة الترجمة والنقل في الطب في العصر العباسي الأول، <https://www.noor-book.com/> متاح على الرابط: ص 97.

⁷ ابن النديم، المصدر السابق، ص 414.

للعربية نذكر كتاب سسررد، وكتاب من علامات الأدوية ومعرفة علاجها، والذي أمر يحيى بن خالد بنقله للعربية للاستفادة منه.¹

2. المدارس الطبية: من أهم المدارس الطبية التي اتصلت بالخلافة الإسلامية مدرسة جنديسابور، وحران والإسكندرية

1-2 مدرسة جنديسابور:² وتعني معسكر سابور وهو الذي أسس هذه المدينة والتي خصصها لجنده من الأسرى وكانوا خليط من اليونانيون والعرب والسريان، وفيهم أصحاب الحرف والأطباء، ومعظمهم من النساطرة الذين يتحدثون بالسرانية ويجيدون اليونانية والعربية، بلغت هذه المدينة قمة ازدهارها في عهد كسرى أنوشروان (531-579م) الذي أنشأ فيها بيمارستاناً، وألحقت بمدرسة لتعليم الطب والفلك وغيرها، ولما فتحها عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان البيمارستان والمدرسة الطبية ما زالتا يعملان وبقينا كذلك حتى عهد الخليفة المنصور، وقد اشتهر من هذه المدرسة كلٌّ من بختيشوع طبيب الخليفة المنصور وابنه الذي عمل طبيباً للخليفة هارون الرشيد.³

2-2 مدرسة حران: هي مدينة تقع في بلاد ما بين النهرين جمعت مدرستها بين الفكر اليوناني والآرامي والوثني والصابئي، كان أكثر الحرانيين لديهم إمام بجميع المعارف وبلغاتها، وقد اسلم بعضهم والتحق بخدمة الخلفاء مثل ثابت بن قرة وابنه سنان الذي كان طبيباً.⁴

3-2 مدرسة الإسكندرية: اشتهرت مدرسة الإسكندرية بتعليم الطب وتطوير علم التشريح، وفي العصر العباسي ورد ذكر لبعض تلامذة هذه المدرسة مثل يلطيان، وسعيد بن توفيل الذي كان طبيباً مشهوراً.⁵ وقد اعتنى الخلفاء العباسيين بالعلوم الطبية وحرصوا على نقلها وتدريسها، وسخروا في سبيل ذلك كل الإمكانيات فخصصوا لتدريسه العيادات والمستشفيات، إضافة للمجالس الطبية التي كانت تنظم في المساجد ومنازل الأطباء كمجلس يوحنا بن ماسويه، وحلقات الطبيب ابن سينا بمنزله.⁶

3. الأسر الطبية: برزت في العصر العباسي عدة أسر اختلفت في ممارسة الطب، وكانت مهنة الطب متوارثة في أولادهم وأحفادهم ومنها:

¹ ادريس مفتاح بوبكر، المرجع السابق، ص 94.

² جنديسابور: مدينة بخوزستان تقع بين البصرة وفارس، بناها سابور بن اردشير. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، دار صادر، بيروت، 1977، ص 170.

³ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص 44.

⁴ ابن النديم المصدر السابق، ص 427.

⁵ شرين سليم حمودي، المرجع السابق، ص 69.

⁶ زمير بن سعيد مريون عسيري، تعلم الطب في المشرق الإسلامي، مركز بحوث للدراسات الإسلامية، 1412، ص 52.

1-3 أسرة آل بختيشوع: وهي أسرة كبيرة من السريان النساطرة، ويحتمل أن يكون أصلهم من إحدى مدن سوريا أو ما بين النهرين¹، وكلمة بختيشوع فارسية تنقسم إلى قسمين (بخت) وتعني عبد، و(يشوع) وهو المسيح وبالتالي فالكلمة بالفارسية تعني عبد المسيح، وأولهم هو جورجيس بن جبرائيل بن بختيشوع²، وقد تعاقب أفراد هذه الأسرة على خدمة خلفاء بني العباس وتوارثوا مهنة الطب أباً عن جد لمدة ثلاثة قرون، كما اشتهر أفراد هذه الأسرة بالممارسة الطبية والبحث في علومها، كما اتقنوا علوماً أخرى كالفلسفة والكيمياء والرياضيات، وأشتهروا بين العامة بالفضيلة والكرم ومساعدة المحتاجين³.

- جورجيس بن جبرائيل بن بختيشوع: قال عنه ابن جلجل أنه كان طبيباً حاذقاً ونبيلاً، وقد مثل رئيس الأطباء الجنديسابوريين، وحدث أن أصيب الخليفة أبو جعفر المنصور بضعف في معدته وسوء في الاستمرار وقلة في الشهوة، وكلما عالجه طبيب زاد مرضه، فقبل له عن جورجيس الجنديسابوري فاستقدمه الخليفة لعلاج وكان شفاؤه على يديه عام 148هـ، 765م، فصار طبيبه الخاص إلى غاية وفاته عام 152هـ⁴.

ألف جورجيس عدة مؤلفات في الطب أشهرها كتابه في الزينة وكتاب الكناش الذي اكتسب شهرة واسعة لما يحتويه من معلومات مفيدة في علاج أمراض المعدة، وهو الكتاب الذي ترجم للعربية من طرف حنين بن إسحاق⁵.

- بختيشوع بن جورجيس: كان مثل أبيه رجلاً فاضلاً ونبيلاً عارفاً بالممارسات الطبية، تعلم الطب على يد والده⁶ وعمل بالبيمارستان بجنديسابور لما كان والده يعمل طبيباً للمنصور، ولما مرض الخليفة موسى الهادي (785-786م) (169-170هـ) استقدمه لعلاج⁷ فظل في خدمته كما خدم هارون الرشيد الذي عينه

¹ ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تع: فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية بالقاهرة، مصر، 1955، ص93.

² كمال السامرائي، المرجع السابق، ص335.

³ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص44.

⁴ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ط2، دار الرائد اللبنانية، لبنان، 1994، ص214.

⁵ ابن جلجل، المصدر السابق، ص64.

⁶ صاعد الأندلسي، المصدر السابق، ص36.

⁷ القفطي، اخبار العلماء بأخبار الحكماء، تع: ابراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005، ص81.

كطبيب خاص، وبلغ عنده مكانة عالية واستمر في خدمته حتى وفاته عام 182هـ¹، من أشهر كتبه كتاب التذكرة وهو كناش صغير جمع فيه خبرته في علاج أمراض عصره كالسل وقروح المعدة وغيرها².

- جبريل بن بختيشوع: كان نابغة زمانه في الطب ونال شهرة واسعة لبراعته في المداواة من الأمراض، عمل طبيباً لجعفر بن يحيى البرمكي الذي قدمه لهارون الرشيد فاستحسنه وجعله رئيساً للأطباء ببغداد، ونزل لديه منزلة ممتازة فصار طبيبه الخاص وظل على ذلك حتى زمن الأمين والمأمون حتى وفاته عام 213هـ³، ولجبريل مجموعة من الكتب منها رسالته إلى المأمون في المطعم والمشرب، وكتاب مدخل إلى صناعة المنطق، وكتاب في الباءة، ورسالة مختصرة في الطب⁴.

- بختيشوع بن جبريل: هو أبو سعيد بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع كان فاضلاً وعالمًا متمرساً اشتهر بجودة أعماله⁵ وممارسته للطب بالقياس لا بالتجربة، من أهم مؤلفاته كتاب الحجاماة، ونبذة عن الطب⁶.

2-3 أسرة آل ماسويه: أسرة ماسوية من أصل فارسي اشتهر أفرادها بممارسة مهنة الطب ومنهم:
- ماسويه الخوري: عمل ماسويه في دق الأدوية ببيمارستان جنديسابور لحوزستان، لم يكن يجيد القراءة إلا أنه كان عارفاً بالأمراض وعلاجها بالخبرة والمباشرة، فأخذه جبريل بن بختيشوع وأحسن إليه⁷، وكان ملازم له في بغداد وخدمة الخليفة الرشيد⁸.

- يوحنا بن ماسويه: أبو زكرياء يوحنا بن ماسويه قلده الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة مما وجد بأنقرة وعمورية وبلاد الروم، ونصبه أميناً للترجمة، كما خدم كطبيب للخليفة الرشيد والأمين والمأمون، ألف عدة كتب في الطب مثل "البرهان" و"البصيرة" و"الكمال والتمام"⁹. توفي في سامراء عام 243هـ-857م، أثناء خلافة المتوكل على الله¹⁰.

¹ ابن جليل، المصدر السابق، ص 64.

² راغب السرجاني، قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، ط 1، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2009، ص 247.

³ ابن جليل، المصدر السابق، ص 64.

⁴ راغب السرجاني، المرجع السابق، ص 274.

⁵ راغب السرجاني، المرجع نفسه، ص 277.

⁶ شيرين سليم حمودي، المرجع السابق، ص 71.

⁷ القفطي، المصدر السابق، ص 245.

⁸ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج 11، تح: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ص 173.

⁹ ابن جليل الاندلسي، المصدر السابق، ص 65.

¹⁰ كمال السامرائي، المرجع السابق، ص 368.

-ميخائيل بن ماسويه: خدم الخليفة المأمون الذي أكرمه، ولم يكن يشرب دواء إلا من تركيبه واصلاحه، وكان جميع المتطببين في بغداد يبجلونه تبجيلاً لم يظهره لغيره، مارس الطب على الطريقة اليونانية.¹
3-4 أسرة بني طيفوري: هي من الأسر التي اشتهرت بممارسة الطب في العهد العباسي، وأصل الأسرة من طيفور آباد ببلاد فارس.

-عبد الله الطيفوري: لقب بالطيفوري لأنه كان طبيباً لطيفور مولى الخيزران أم الهادي والرشيد، فلما توفي المهدي وخلفه على العرش الهادي قربه إليه فكان طبيبه الخاص الذي نال من كرمه ومحبتة الكثير، ترك عدة مؤلفات في الطب ترجم حنين البعض منها.²

-زكريا بن عبد الله الطيفوري: هو الطبيب الثاني لأسرة بني طيفور، خدم الخليفة المعتصم بالله ورافق حملة قائده الأفشين لمحاربة بابك الحرمي، وكانوا أصحاب مذهب منحرف أوصى المأمون على تصفيتهم قبل وفاته لأخيه.³

-إسرائيل بن زكريا الطيفوري: هو حفيد عبد الله الطيفوري، خدم الفتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل ونادمه، ثم التحق بحاشية الخليفة بتوصية من ابن خاقان، وصارت له مكانة مرموقة بين الناس، وكانت شهرته كطبيب كشهرة حنين بن إسحاق وبختيشوع.⁴

4. البيمارستانات في العصر العباسي:

البيمارستان بفتح الراء كلمة فارسية تتركب من مقطعين "بيمار" وتعني مريض أو عليل أو مصاب، و"ستان" بمعنى دار أو مكان، فالكلمة تعني دار المرضى، وأول من أمر بالبيمارستان الحربي المتنقل⁵ هو الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أمر أن يحمل سعد بن معاذ بعد إصابته في الخندق إلى خيمة رفيدة في مسجده لتداوي جروحه⁶، ويذكر القلقشندي في صبح الأعشى أن أول من اتخذ البيمارستان بالشام للمرضى هو الوليد بن عبد المالك⁷، وهو أول مستشفى نمطي بحسب متطلبات العلاج والراحة للمرضى وحجر المصابين بالجذام لئلا يختلطوا بالناس.⁸

¹ القفطي، المصدر السابق، ص 246.

² القفطي، المصدر نفسه، ص 169.

³ كمال السامرائي، المرجع السابق، ص 361.

⁴ المرجع نفسه، ص 362.

⁵ مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، دار الوراق، بيروت، 1999، ص 121.

⁶ أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات في الاسلام، دار الرائد العربي، 2008، ص 9

⁷ القلقشندي، صبح الأعشى، ج 1، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922، ص 431.

⁸ كمال السامرائي، المرجع السابق، ص 270.

وفي العصر العباسي ومع زيادة الاهتمام بالعلوم الطبية وتطويرها شهدت بغداد بداية حقيقية لبناء البيمارستانات بكل ما يتطلبه نوع العمل الممارس فيها وراحة المريض، وبالإضافة إلى كون البيمارستانات مؤسسة علاجية بدرجة أولى كانت بمثابة مدارس أو معاهد علمية لتدريس الطب، وفي الغالب كانت تلحق بها مكتبة وصيدلية ومسجد صغير ومدرسة قرآنية¹، وقد كان بإمكان الفقراء والحجاج أن يشاركوا في التعليم.

بنيت البيمارستانات في العصر العباسي على نمط بيمارستان جنديسابور والإسكندرية، وربما فاقت البيمارستانات العباسية الاثنتين في الرقي، وذلك نظراً لكثرة الأطباء في بغداد واتصالهم المباشر بالأطباء الأعاجم، كما ساعدت المشاهدات العينية على تحسين البيمارستانات من الناحية العمرانية وحتى العملية².

وقد بدأت البيمارستانات في هذا العصر تأخذ شكلاً حضارياً فائقاً انتظمت فيه مهنة الطب وأصبحت مهنة مرموقة لا يعث بها المحتالون والسحرة وأشباه الأطباء، لذا تبارى الخلفاء على تشييدها، وأشرفت عليها الأوقاف بشكل مباشر، وهذا أول تطور يدخل على البيمارستانات، وتم تنظيم العمل بها وتقسيمها إلى خاصة وعامة ليستفيد منها كافة أفراد الشعب الصغير والكبير، وأهل الذمة والفقراء، وبالتالي أصبح بكل مدينة على الأقل بيمارستان واحد عام على الأقل³.

وحت الخليفة أبو جعفر المنصور على انشاء البيمارستانات فأنشأ بيمارستان للعميان في بغداد ودار للأيتام والقواعد، وخصص مكاناً خاصاً للمجانين يتلقون فيه العلاج مجاناً⁴، كما اهتم بالناحية الصحية والنفسية للعامة.

وفي عهد الخليفة هارون الرشيد اهتم أكثر ببناء البيمارستانات فأقام بيمارستاناً كبيراً ببغداد وألحق به مكتبة علمية ضخمة، ورشح لرئاسته ماسويه الخوزي، وتولى الطبيب جبريل بن بختيشوع أمر المرضى، وقيل أنه سعي بيمارستان الرشيد، وكان صورة محسنة ومكبرة لبيمارستان جنديسابور، وفي عهده تم

¹ جان شارل سورينا، تاريخ الطب، تر: إبراهيم الجبلاني، سلسلة عالم المعرفة، مطابع السياسة، الكويت، 2002، ص 93

² كمال السامرائي، المرجع السابق، ص 539.

³ مومن أنيس عبد الله البابا، البيمارستانات الإسلامية حتى نهاية الخلافة العباسية، ماجستير تاريخ، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية بفلسطين، 2009، ص 17.

⁴ القفطي، المصدر السابق، ص 46.

تأسس أول نقابة للأطباء¹، وكان تعليم الطب يتم داخل البيمارستان من تشخيص المرض واختيار العلاج المناسب له فزاد عدد الأطباء المتخرجين من المدرسة الطبية الموجودة في البيمارستان².
كما أنشأ الرشيد بيمارستان آخر وجعله تحت رعاية البرامكة في بغداد، وكان رئيسه الطبيب ابن دهني، وهناك من ينسبه إلى الأمراء البرامكة، حيث جاء في الفهرست لابن النديم "ان ابن دهن الهندي الذي ينقل من اللسان الهندي إلى العربية كانت له رئاسة بيمارستان البرامكة"³.
وأنشأ الخليفة المعتصم (796م-179هـ/842م-227هـ) بالله بيمارستاناً في بغداد أشرف عليه بنفسه وأوكل بنيائه للطبيب أبو بكر الرازي⁴، وكان الخليفة يتكفل بكل نفقات البناء والأرزاق والأطباء ونفقات المجانين، وسمي بالبيمارستان الصاعدي أو العتيق⁵.
خاتمة: إن اهتمام خلفاء بني العباس بالعلوم الطبية، وتشجيعهم على نقل معارفه وعلومه من الأمم السابقة، واستقدامهم للأطباء الأجانب قصد الاستفادة من خبراتهم في مجال التداوي ساهم في إحداث نهضة حقيقية في مجال الطب، تجلت معالمها في إقبال الناس على تعلمه واتقان فنونه والاستفادة من خبرة الأطباء الأجانب، فكانت نتيجة ذلك كثرة الأطباء المبرزين ببغداد، والانطلاق بخطى سريعة في عهد جديد من التأليف الطبي، وابتكار مناهج وطرق علاج جديدة.
وبالموازاة مع كثرة الأطباء أنشأت البيمارستانات التي لعبت دوراً تعليمياً ثقافياً في تعليم الطب النظري والتطبيقي وتخرج الأطباء، واجتماعي حيث شمل التعليم كل فئات المجتمع من العرب والعجم والفقراء وأهل الذمة.

1- قائمة المصادر والمراجع:

- المصادر:

- ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبي العباس أحمد القاسم الخزرجي)، كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج1، تح: عامر النجار، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1996.

¹ مؤمن أنيس عبد الله البابا، المرجع السابق، ص

² ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص182.

³ ابن النديم، المصدر السابق، ص305.

⁴ أبو بكر الرازي: هو أبو بكر محمد بن يحيى بن زكريا الرازي، ولد في الري قرب طهران عام 311هـ-923م أتقن علم الطب والكيمياء والفلسفة والرياضيات، عاش ريعان شبابه بمدينة العلم بغداد وهناك تعلم الطب، ولما أتم دراسته عاد للري ليتولى رئاسة المستشفى هناك، ابتكر الرازي خيوط الجراحة والمراهم، من أشهر مؤلفاته كتاب " الحاوي في الطب". أنظر لمزيد من التفاصيل: جورج شحاتة فنواطي، المرجع السابق، ص120.

⁵ مؤمن أنيس عبد الله البابا، المرجع السابق، ص18.

- ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمان علي بن محمد القرشي)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج11، تح: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.
 - ابن العبري (غريغوريوس أبي الفرج بن أهرون الطبيب الملطي)، تاريخ مختصر الدول، ط2، دار الرائد اللبنانية، لبنان، 1994.
 - ابن النديم (أبو الفرج محمد بن إسحاق الطوسي)، الفهرست، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د.ت).
 - ابن جلجل (سليمان بن حسان الأندلسي)، طبقات الأطباء والحكماء، تح: فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، مصر، 1955.
 - الزركلي خير الدين، الاعلام، ج8، ط5، دار العلم للملايين بيروت، 1980.
 - صاعد الأندلسي (أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي)، كتاب طبقات الأمم، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1912، ص28.
 - القفطي (جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي)، اخبار العلماء بأخبار الحكماء، تح: ابراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005
 - القلقشندي (الشيخ أبي العباس)، صبح الأعشى، ج1، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922.
 - ياقوت الحموي (ياقوت بن عبد الله)، معجم البلدان، ج2، دار صادر، بيروت، 1977
- المراجع
- 1- الكتب العربية:
- بوبكر ادريس مفتاح، حركة الترجمة والنقل في الطب في العصر العباسي الأول، <https://www.noor-book.com>
 - بك أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الاسلام، دار الرائد العربي، 2008.
 - حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم شريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ط5، دار الفكر العربي، مصر.
 - السامرائي كمال، مختصر تاريخ الطب العربي، دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت).
 - السباعي مصطفى، من روائع حضارتنا، دار الوراق، بيروت، 1999.
 - السرجاني راغب، قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، ط1، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2009.
 - عسييري زمير بن سعيد مريون، تعلم الطب في المشرق الإسلامي، مركز بحوث للدراسات الإسلامية، 1412.
- 2- الكتب المترجمة:
- جان شارل سورينا، تاريخ الطب، تر: إبراهيم البجلاني، سلسلة عالم المعرفة، مطابع السياسة، الكويت، 2002.
 - زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، تر: فاروق بيضون، كمال دسوقي، مر: مارون عيسى الخوري، ط8، دارالجيل، دارالأفاق الجديدة، بيروت، 1993.

3- المقالات:

- باشا مليكة، اسهامات حنين بن اسحاق في تأسيس وتأصيل الممارسة الترجمية، مجلة الآداب واللغات، مج: 22، الع: 1، جامعة تلمسان، الجزائر.
- حمودي شيرين سليم، الحياة الطبية في العصر العباسي الأول، مجلة جامعة تشرين، المج: 43، الع: 5، جامعة تشرين، سوريا.
- مزهود فاطمة، الترجمة في العصر العباسي، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، المج: 1، الع: 1، الجزائر، 2013.

4- الرسائل الجامعية:

- البابا مومن أنيس عبد الله، البيمارستانات الإسلامية حتى نهاية الخلافة العباسية، ماجستير تاريخ، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية بفلسطين، 2009.
- عطا المنان رفيده اسماعيل، بيت الحكمة البغدادي وأثره في الحركة العلمية في الدولة العباسية، ماجستير الآداب في التاريخ، جامعة الخرطوم، 2009.

تطور جراحة الجماجم بالأوراس خلال الفترة الإستعمارية (الترينة)

The development of cranial surgery in the Aures during the colonial period (The trepanation)

د. درية حجاري، جامعة قسنطينة 02 (الجزائر)
douriya.hadjari@univ-constantine2.dz

الملخص:

تعتبر عملية الترينة من أهم العمليات الجراحية التي كانت تمارس بمنطقة الأوراس منذ فترات ما قبل التاريخ، حيث قدّمت الدراسات التي أشارت إلى هذا الطب الجراحي إسهامات مهمة تبين تطوره خاصة خلال الفترة الإستعمارية. وقد عُرفت عملية نقب الجماجم أو ما يسمى بالترينة، على أنها عملية خاصة بجراحة الأعصاب على مستوى الجمجمة التي تعرضت لكسر، أو تشنجات، أو ورم دموي، وبالرغم من خطورة هذه العملية على حياة الفرد، إلا أنها عرفت إقبالا كبيرا من طرف السكان المحليين نتيجة النجاح الباهر الذي حققته، وهذا يبين أن الجراح الذي كان يقوم بهذه العملية خضع لتكوين أو تعليم في مجال الطب، والذي كان يتم عن طريق التوارث والتواصل بالطب العربي العريق، وعلى هذا سنحاول من خلال هذه الدراسة إبراز أهمية وكفاءة وحدود مساهمة المجتمع الريفي في تاريخ جراحة الجماجم، من خلال التطرق إلى الكيفيات المنتهجة لتعلم هذا الفن، ومعرفة ما إذا جعل لهذا التعليم أماكن مخصصة، بالإضافة إلى عرض لبعض الوسائل المستخدمة في عملية الترينة، ومنه التطرق إلى الأساليب الممارسة قبل، أثناء، وبعد هذا التدخل الجراحي، وبهذا نكون قد كشفنا (ولو بالقليل) عن الغموض القائم حول دراسة هذه الجراحة الطبية التي اعتمدها المجتمع الأوراسي، هذا الأخير الذي برهن على جدارته ومهارته باستخدام أبسط الوسائل والإمكانيات المتوفرة.

الكلمات المفتاحية: جراحة الجماجم، الترينة، أدوات الجراحة، الطب المحلي، طرق العلاج.

Abstract:

Trepanation is considered one of the most important surgical operations that were practiced in the Aures since prehistoric times, whereas the studies that referred to this surgical medicine made important contributions showing its development, especially during the colonial period. Trepanation has been known as a neurosurgery operation at the level of the skull that has been subjected to fracture, spasms, or hematoma, despite the dangers of this operation to the life of the human, it was very popular with the local population as a result of the great success, accordingly, we will try through this study to highlight the importance and contribution of the rural community in the history of cranial surgery, by addressing the methodologies used to learn this art, and presenting some of the tools used in the process of trepanation, and then the methods used in this surgical intervention, thus, we have revealed some of the ambiguity based on the study of medical surgery adopted by this shawiya community.

Key words: Skull surgery, trepanation, surgical instruments, local medicine, treatment methods.

المقدمة:

لا يزال تاريخ الطب العربي الإسلامي يكتنفه الكثير من الغموض، ولعل الحديث عن جراحة التريانة أو ما عرف بجراحة نقب الجماجم أو ثقب الرأس سيزيل اللبس عن نسبة ضئيلة من هذا الغموض في مجال العلوم، وبالرغم من أن العديد من الباحثين والأطباء وصفوا هذه الجراحة بالبدائية، إلا أنهم انبهروا في نفس الوقت من نجاحها وسرعة الشفاء المسجلة بعد إجرائها، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على مدى التحكم الطبي في الجراحة، خاصة لو علمنا أننا نتحدث عن ممارسات طبية ريفية بعيدة عن حواضر المدن وتطورها، ومنه يمكننا طرح الأشكال الرئيسية لهذا الموضوع، والمتمثل في التعرف على المنهج المتبع في جراحة التريانة بالأوراس، وطبعاً لإثراء هذا الموضوع أكثر قمنا بطرح مجموعة من الإشكالات الفرعية، كالتعرف على الأصول التاريخية للتريانة وبالتالي معرفة مدى ارتباطها بتلك المنشورة في الحضارات السابقة، ثم سنحاول تفصي أهم أسباب الإقبال الهائل من طرف أفراد المجتمع الأوراسي على هذه الجراحة، والبحث في كيفية استقاء هؤلاء الأطباء والجراحين لعلومهم ومناهجهم، إضافة إلى تحري أهم الحالات المرضية التي كانت تستدعي اللجوء للتريانة، ومعرفة إذا كانت تجرى بنفس الطريقة في كل الحالات المرضية، وما هي أهم طرق العلاج المتبعة. ومما سبق سنحاول إزالة الغموض الذي يكتنف موضوع البحث من خلال الإجابة على التساؤلات والإشكاليات المطروحة آنفاً، ولما لا الخروج بنتائج تبين إسهامات هذه المناهج العلمية على بساطتها في الطب المستحدث.

1- الأصول التاريخية والإمتداد الجغرافي لعملية التريانة:

1-1 الأصول التاريخية للتريانة: تعتبر هذه العملية من أقدم العمليات التي استخدمها الإنسان منذ فترات ما قبل التاريخ في العديد من مناطق العالم، ويمثل كل من كهف الحمام بتافورالت بالمغرب الأقصى وكهف شانيدر زاوي جي بالعراق أهم المواقع التي عثر بها على جماجم خضعت لعمليات التريانة، إذ تؤرخ بحوالي 10.000 إلى 11.000 سنة قبل الميلاد (العصر الميزوليتي)، إضافة إلى العثور على جماجم أخرى في بريطانيا وفرنسا في عصر البرونز وبسيبيريا في عصر المعادن¹، وبالجزائر أكدت مجموعة من الدراسات التي قام بها الأنثروبولوجيين مثل (M,M.Broca,Prunières,Mortillet,Sauzé) على استخدام التريانة بجماجم عثر عليها بدولمانات موقع الركنية بقالمة (مقاطعة قسنطينة في الفترة الإستعمارية) بطريقة تشبه لدرجة كبيرة تلك

¹ Jedidi (H), Une brève histoire de la trépanation de la préhistoire à l'ère post-moderne (mémoire de diplôme universitaire d'histoire de la médecine), Edition Université Paris Descartes, Faculté de médecine, 2019, pp 51-53.

المعمول بها لدى الأوراسيين¹، أما في الفترات القديمة فقد مورست التريئة لدى الفراعنة المصريين قبيل موت الشخص لأغراض روحية تتمثل في خروج روحه إلى الجنة²، وعلى كل كانت التريئة تمارس في الحضارات القديمة بالإضافة إلى الأغراض الصحية في السحر أيضا، حيث تستخدم الأجزاء العظمية التي استأصلت مباشرة بعد الموت في شكل تمائم، كما استخدمت لأسباب روحية بهدف طرد الأرواح الشريرة من جسم الإنسان، لذا اشتد انتشارها لدى اليونانيين وفي عهد أبقراط³ وسيلسوس الروماني، وللعلم فإن العديد من المستشرقين يرجعون التأثيرات في استخدام التريئة بالأوراس إلى الرومان بعد وفودهم إلى الشمال الإفريقي، لكن هذا الاعتقاد بعيد عن الصحة لكون أن استخدام التريئة من طرف المجتمع الأوراسي لا يمد بأي صلة بالأسباب التي استخدمت من أجلها هذه العملية من طرف الرومان أو الحضارات السابقة لها، كما أن الطريقة التي استخدمت لدى الرومان تتمثل في التريئة التاجية⁴ التي لم تعرف ولم تستخدم بالأوراس، وهو الأمر الذي يجعل هذه النظرية خاطئة.

أما في الفترات الإسلامية فقد عرفت هذه الفترة بالعصر الذهبي نظرا لتطور الطب العربي في شتى مجالاته، فقد اشتهرت المدارس والجامعات الطبية بعلومها وأطبائها ومكتباتها حيث نذكر على سبيل المثال (مدرسة قرطبة بالأندلس، مدرسة القيروان بتونس، جامعة القرويين بالمغرب الأقصى)، كما ظهرت لأول مرة المؤسسات الاستشفائية والتي عرفت بالبيمارستانات، وفيما يخص الأطباء الجراحين فقد اعتبر أبو القاسم الزهراوي⁵ مصدر إلهام للحضارات المعاصرة له أو التي جاءت بعده، سواء في تقليد الوسائل المستخدمة من طرفه أو في استخدام تقنياته وأساليبه المتبعة في الجراحة والعلاج، فقد كان له الفضل والأسبقية في العمليات الجراحية الخاصة بالشق والبطن على الرأس⁶، وفي هذا الصدد قد أولى الأطباء والممارسين الأوراسيين أهمية بالغة لأعمال أبو القاسم الزهراوي، حيث مارست عائلة أولاد ميرة أحد فروع قبيلة تيفورة التريئة لثمانية أجيال متتالية، مما جعلهم يعتبرون بمثابة جامعة لعلم التريئة، حيث يقال أن أقدم جدود عائلة أولاد ميرة⁷ محمد بن بلقاسم بن ميرة، تعلم التريئة عن "سيدي محمد بن احمد" من عائلة سكرانة دوار رميلة جنوب غرب خنشلة، وعند رحيل محمد بن بلقاسم أسس دوار ميرة وأصبح سكان هذه القرية من هذا

¹ Vérdène(A), "De la trépanation du crane chez les indigènes de l'Aurès (Algérie)", In: *Revue de chirurgie*, Edition F. Valcan, 1885, p. 826.

² El Khamlichi (A), *Emergence de la neurologie Africaine*, lawn Edition, Rabat, 2019, p 48.

³ Jedidi (H), *Op.cit*, p 58.

⁴ Malbot(H) & Verneau(R), "Les Chaouia et la trépanation du crane dans l'Aurès II (Etude d'ethnographie Algérienne)", In: *L'anthropologie*, Tome VIII, 1897, p 175.

⁵ يعتبر من أشهر الجراحين في القرن العاشر الميلادي، ومن أهم مؤلفاته كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، والذي ترجم إلى عدة لغات كاللاتينية، العربية، والفرنسية).

⁶ Spink (A) & Lewis (G), *Abulcasis, On surgery and instruments*, London, 1973, pp 329.

⁷ يذكر فارنو هذه العائلة باسم عائلة إنوبلن.

الوقت مختصين في التربة أبا عن جد، كما يذكر أحد الممارسين بطبردة "أمانة بن علي" نقلا عن أجداده، أن أب هذه المهنة هو الطبيب المغربي الأصل "سؤلي جليانوس" الذي عاش في القرن 11 م أي كان مترامنا مع الطبيب أبو القاسم الزهراوي، لكن نشير هنا إلى غياب المعلومات التي تبين كيفية وصولها إلى الأوراس وبلاد المغرب بصفة عامة مما يجعل من هذه المعطيات التاريخية مجرد فرضيات وتحتاج للمزيد من التحقيقات، كما وجدت إشارة للطبيب سيدي خليل في القرن الخامس عشر ميلادي، من خلال كتابه الشرعي والطبي الذي جاء به إشارات تبين جواز ممارسة التربة لدى القبائل في حالات الضرب والجروح، حيث جاء بالإقتباس الأول أنه "في حال شق الطبيب مكان الجرح جيدا، ومات المريض فهو فليس عليه أي عقاب، أما إذا قام بعمل ثقب واسع أكثر من اللازم أو ليس بالمكان المناسب فسيعاقب على هذا"، ومن هنا يتبين من خلال هذا الاقتباس مسؤولية الطبيب على مرضاه حسب جدية العمل، خصوصا في حال تقديم شكوى ضد الطبيب الذي قام بعمل غير جيد أو أدى إلى وفاة شخص ما، الأمر الذي يغيب لدى قبائل الأوراس إلا في بعض الاستثناءات¹، لأن القانون الأوراسي ركز أكثر على الدية المفروضة على الشخص المسؤول عن الإصابة². أما الإقتباس الثاني فيذكر فيه "أسماء أنواع المحدد من طرف مجلس التاجماعت حسب درجة الإصابة"³. أما الإقتباس الثاني فيذكر فيه "أسماء أنواع العمليات الجراحية الخاصة بالتربة، فالعملية التي تختص بالطبقة الخارجية من الجمجمة تسمى المنهيلة، أما عملية الطبقة الداخلية فتسمى الأهشمة"³، كما وجدت إشارة إلى نجاح عمليات التربة من طرف أحد الجراحين في عهد آخر بايات قسنطينة (أحمد باي)، والذي قام بعدة عمليات لفائدة ضباط الباي⁴.

2-1- الإمتداد الجغرافي للتربة: انتشرت التربة في بلاد المغرب في عدة مناطق بربرية، كقبائل قواش جنوب المغرب الأقصى، وعند الطوارق بالمناطق الشبه الصحراوية، ولدى قبائل الشاوية بالأوراس⁵ محل الدراسة، حيث يذكر فاردن أن السيد A.M.Paris قام خلال فترة إقامته ببسكرة سنة 1865، بوصف طريقة التربة لدى قبائل الجهة الغربية للأوراس (واد زيان، وبني فراح)، بينما قام Th.Martin بوصف استخدامها في الجهة الشمالية والشرقية للأوراس، أما الأوراس الوسطى فانعدمت بها الدراسات التي تثبت ممارسة هذه العملية بها، كما أشار الطبيب ربود Reboud Victor إلى انتشار التربة في كل من العين البيضاء بأم بواقي، وسوف، وواد رينغ، زانة، زريبة الواد، لدراتة، مسكيانة، وخنشلة التي اعتبرت المركز الرئيسي لهذه العملية وبالتحديد بقرى شبله وطبردة⁶ وقصر جلال وبكل قصور الجبال المجاورة⁷.

¹ Malbot(H) & Verneau(R), Op.cit, p175.

² Bousquet (G), "Un qanoun de l'Aurès", In: Hespéris (Archives berbères et bulletin de l'institut des hautes études marocaines), Tome XL (1er et 3ème trimestre), Édition E. Larose, 1953, p 84.

³ Vérdène(A), Op.cit, pp. 822-823.

⁴ Malbot(H) & Verneau(R), Op.cit, p176.

⁵ El Khamlichi (A), Op.cit, p 49.

⁶ Vérdène(A), Op.cit, p 820-821.

⁷ Reboud (V), "Notice sur la vallée de l'oued El Arab et sa végétation", In: Bulletin de l'académie d'Hippone, N° 19, Imprimerie Dagand, Bone, 1883, pp. 66.

2- أسباب الإقبال على عملية التريئة وتكاليفها:

2-1- أسباب القيام بعملية التريئة: كما أشرنا سابقا فإن عملية التريئة التي أقيمت لدى قبائل الحضارات القديمة كانت لأغراض روحية وسحرية أكثر من الصحية، أما بالأوراس فالأمر مغاير لأن القبائل التجأت لهذه العملية لأغراض صحية بالدرجة الأولى بسبب الإصابات الناتجة عن الضرب على الجمجمة، وليست مرتبطة بشفاء مرض معين ولا كعلاج سحري في حالات الأشخاص المصابون بمس من الشيطان، وفي بعض الحالات للاستفادة من غرامة مالية بصفة قانونية، حيث قام بعض الأشخاص بطالبة الأطباء بإجراء التريئة حتى في الحالات التي لا تتطلب إجراء هذه العملية¹، وهذا بهدف إدانة الخصم بتعويض مالي، خصوصا إذا علمنا أن تلك الغرامة (أو الدية) المفروضة على الأشخاص الذين كانوا سبب في إصابات الرأس² تصل حتى 600 دورو³، ومن بين الأسباب الأخرى التي حببت اللجوء إلى التريئة الحصول على الطلاق بصفة قانونية، ونخص بالذكر هنا بعض النساء اللاتي خضعن للعملية من أجل افتراء سبب وهي (بتلقي ضربة على الرأس) ضد أزواجهم الذين كانوا يطلبون منهم الطلاق دون الحصول عليه، مما جعل التريئة أفضل حل لكسب قضية الطلاق⁴، ومن بين الأحداث الواقعية خلال فترة انتشار وباء الكوليرا سنة 1867 بدائرة بسكرة، أنه سجلت حالة طلاق أدلت فيها المرأة (كذبا) أنها تلقت ضربة على الرأس من طرف زوجها، ولكسب القضية خضعت لعملية التريئة، واستغلت الجزء العظمي المستأصل من طرف الطبيب كدليل، إضافة إلى الثقب الموجود بالجمجمة.

2-2- مصاريف التريئة: إن تكلفة العملية تحدد قبل القيام بها، وهي موحدة تقريبا من طرف كل الأطباء، لكنها تختلف من حيث الوسيلة المستخدمة أي البريمة أو المنشار، وهل أقيمت على طبقة أو طبقتان. فعملية التريئة التي تقام على السمك الكلي للعظم تكلف من 40-50 فرنك وهي نفس قيمة التريئة بالمنشار، أما الخاصة بالطبقة الخارجية فقط فتكلف نصف السابقة أي بين 20-25 فرنك، وهي نفس قيمة تريئة البريمة. وبالنسبة للعلاج المصاحب للعملية حتى الشفاء يدخل ضمن هذه التكلفة، والملاحظ أن القطعة العظمية المنزوعة من الجمجمة يحتفظ بها الطبيب كضمان، ولا يعيدها للمريض إلى حين يدفع ثمن العملية، ونشير هنا أن معظم القطع العظمية التي تحصلنا عليها ناتجة عن الأشخاص الفقراء الذين لم يكن لديهم مال لدفع المبلغ لدفع مستحقات العملية، لأنهم في المعتاد لا يتخلون عن عظامهم بل حتى أنهم يعتبرونها ثمينة ويستغلونها للدفاع أن أنفسهم، أما البعض منها فقد كانت ناتجة عن الخبرات الطبية الشرعية⁵.

3- مدارس التريئة، أطبائها، وأماكن ممارستها:

¹ Vérdène(A), Op.cit, p 910.

² Hilton-Simpson (M. W), Arab medicine surgery (A study of the healing art in Algeria), Oxford university press, London ,1922, p 30.

³ Bousquet (G), Op.cit, p 81.

⁴ Hilton-Simpson (M.W), Op.cit, p 30.

⁵ Vérdène(A), Op.cit, p 911. **Voilà aussi** : Malbot(H) & Verneau(R), Op.cit, p 186.

إن الحديث عن التربية يجرنا إلى معرفة الأماكن التي كان المجتمع الأوراسي يتلقى تعليمه من خلالها، فقد كان للمدارس أو أماكن التعليم أهمية بالغة نسبة للدور التي كانت تؤديه في تلقين هذا الفن الجراحي للأجيال القادمة، حيث يبلغ عدد المدارس ثلاثة وهي: مدرسة شبلة وطبردقة وجلال¹، والتي كان يقصدها المتعلمين



خريطة توزيع مدارس تعليم التربية بالأوراس

من جميع المناطق المجاورة، أما بالنسبة لطريقة التعليم في هذه المدارس فهي تركز على الدراسة التطبيقية المتمثلة في التمارين الجراحية والتشريح، إضافة إلى الدراسة النظرية المتمثلة في الإطلاع على مخطوط يعتبر ملك لعائلة أولاد ميرة، والذي يملك جميع الدارسين نسخة منه، ومن

مميزات هذا المخطوط أنه يخلو من تاريخ الإصدار وصاحب المؤلف، لكن يصطح عليه بالهارونية ولاء للخليفة العباسي هارون الرشيد الذي ازدهرت في عهده العلوم والفنون، وأوجدت في عصره علاجات² لمختلف الآلام والجروح، كما أن المخطوط لم يتعرض لوصف ولا تعريف لعملية التربية، بل أشير فيه إلى بعض الطرق المتبعة في التشريح، الجراحة والعلاج (كعلاج زيت البيض) لحالات مختلفة من الجروح³، حيث سنكر ما جاء به في ما يلي:

" في حال حدوث تشقق على مستوى عظمي الجمجمة، يضمّد موضع الجرح بوضع كمية من الزيت وحليب المرأة الطاهرة، ثم يتم لفه بعد وضع قطعة من الرصاص لمنع خروج مكونات المخ."

" في حال كان الجرح قديماً وأصبح الجلد ميتاً، يفرز موضع الجرح ماءً ثقيلاً ومصفر مما يدمر ويخرب العظم، تستوجب هذه الحالة قطع العظم بالمنشار وإزالته إلى موضع المخ، وإلا سيتوغل هذا الماء إلى المخ ويمرض هذا العضو"

" إذا حصل تصدع أو تشقق بسيط بالجمجمة، وشعر الشخص المصاب بالآلام حادة في مدة تتراوح بين عام أو عامين، يستوجب نشر العظم المشقوق"

¹ Malbot(H) & Verneau(R), Op.cit, p176.

² Vérdène(A), Op.cit, pp. 821-823-824.

³ Malbot(H) & Verneau(R), Op.cit, p176.

" في حالة حدوث تشقق كلي للرأس، نأخذ كميتين من الحلبة، وكميتين من الكمون الأخضر، وكميتين من الملح الجديد، ويضاف لهذا الخليط صفار بيضة، أما البياض فيخفق مع الماء ثم يضاف إلى الكل، وأخير يضمد الجرح بوضع هذا الخليط في البداية يوميا، ثم كل يومين إلى يتم الشفاء"¹.
ومن هنا نلاحظ أنه بالرغم من أهمية هذه المعلومات التي وردت بالمخطوط إلا أنها تبقى ناقصة أمام غياب الأدلة المادية التي نستطيع من خلالها تحليل المعلومات واستقصاء معارفها.

أما بالنسبة للأطباء والجراحين الذين عرفوا واشتهروا في إجراء عملية الترتبة، فإن معظمهم كانوا خريجي هذه المدارس، لكن وكما أشرنا سابقا فإن هذا العلم كان وراثيا لدى العديد من العائلات، لذا اصطلح على

بعض الأطباء اسم الممارسين لأنهم تعلموا فهم² بالممارسة عن طريق الوراثة أبا عن جد، كما قمنا بعرض جدول به قائمة لأهم ممارسي الترتبة بالأوراس حسب ما ذكره فاردين³.

| اسم الممارس | القرية | عدد العمليات | امتيازات أخرى |
|-----------------------|------------------------|--------------|--|
| أمانة بن علي | طبرقة (جبل شرشار) | 60 | |
| بلقاسم بن جاب الله | طبرقة (جبل شرشار) | 90 | والد أمانة بن علي |
| الحاسي بن محمد | شيلة (جبل شرشار) | 4 | |
| عمار بن محمد | شيلة | 130 | شاب وذكي جدا ويحتفظ بمخطوط الطب المذكور سابقا |
| بلقاسم بن عبد الرحمان | شيلة | 60 | من الأطباء المثقفين، الذين لا يقومون بجراحة التجوال. |
| محمد بن سعيد | طبرقة | 350 | |
| محمد أقبويحي | بني ملول (جبل شرشار) | 50 | |
| أحمد بن عمار بن شعبان | أولجة (جبل شرشار) | 35-30 | يحتفظ أيضا بمخطوط طبي للترتبة |
| بلقاسم بن زروال | بني ملول (جبل شرشار) | 24 | |
| محمد بن رمش | بني باربار (جبل شرشار) | 150 | |

حيث يتبين من خلال هذا الجدول أن معظم الممارسين تمركزوا بخنشلة وبالضبط بجبل شرشار، أما بالنسبة

لعدد العمليات الجراحية المنجزة، فهي تختلف من طبيب لآخر، كما يظهر أن طريقة التعليم كانت إما طريق الوراثة (كما جاء لدى بلقاسم بن جاب الله)، أو عن طريق التعلم بمخطوطة الهارونية (كما جاء لدى الطبيب عمار بن محمد وأحمد بن عمار بن شعبان). كما يتضح بالجدول أن الطبيب بلقاسم بن عبد الرحمان لم يكن جراحا جوالا، خصوصا أن العديد من الأطباء كانوا ينتقلون إلى منطقة ليانة، سيدي عقبة، تقرت، سوف،... إلخ، من أجل تسهيل تنقل المرضى القاطنين بالمناطق البعيدة لديهم⁴.

بالإضافة إلى الأطباء أو الممارسين الجراحين وجد نوع آخر من الأطباء يسمون بالأطباء العاديين، حيث اصطلح عليهم بعاديين لأنهم كانوا يعالجون المرضى الذين تعرضوا لضربات على الرأس دون إجراء جراحة

¹ Verdène (A), Op.cit, pp. 821-823-824.

² المقصود بالفن هنا هو الطب الممارس، والذي اعتبره معظم الذين درسوا المنطقة فن أكثر منه علم.

³ Ibid, p 912.

⁴ Ibid, p 822.

الترينة، وهذا بتسجيل معدل جيد لحالات الشفاء، حيث كانوا يقومون باستخراج البقايا العظمية، عن طريق تضميد موضع الجرح بالقطران، الزعفران، العسل، والزبدة إلى أن تتعفن العظام وتززع¹. أما بالنسبة لأماكن إقامة هذه العمليات، فلم يكن للأطباء مكان مخصص للعمل كالمستشفيات والعيادات، بل كانت تقام هذه العمليات الجراحية على الهواء الطلق، حيث تفرش الأرضية بحصير، وتستخدم قطعة خشبية أو حجارة كوسادة ليتكى عليها المريض².

4- وسائل وأدوات عملية الترينة:

بالرغم من خشونة هذه الوسائل إلا أن الأطباء والجراحين الأوراسيين استطاعوا التعامل بواسطتها بمهارة وصبر ملحوظ، وقبل عرض هذه الأدوات علينا أن الإشارة إلى وجود مجموعتين متحفتين، المجموعة الأولى تم جمعها من طرف فاردن مفتش مصلحة الطب العسكري، ومن طرف الدكتور مجاسون سنة 1885، وهي مجموعة تحتوي على 21 أداة ومحفوظة بمتحف الصحة العسكرية بفال دو قراص بفرنسا، أما المجموعة الثانية فقد قام بجمعها هيلتون سيمبسون لصالح متحف بيت ريفر بأوكسفورد، أثناء رحلته الإثنوغرافية بالأوراس ما بين 1913 و1921م حيث استطاع جمع أكثر من مئة أداة. ويمكننا تصنيف هذه الأدوات إلى أدوات خاصة بالثقب أو الحفر، وأدوات خاصة بالنشر، وأخرى خاصة بإزالة الجزء المتضرر.

1-4 أدوات خاصة بنزع فروة الرأس والكشط:

لإجراء سلخ لفروة الرأس تستخدم وسائل متعددة، تتمثل في:

الخدمي أو البوسعادي: سكين عادي، وهو عبارة عن أداة منحنية أو محدبة (1)، بحيث يستخدمه الممارسون إما بارداً أو ساخناً لدرجة الإحمرار.

موس الحلاقة أو الشفرة: تستخدم للشق ويجب تسخينها أيضاً، منها البسيطة، ومنها التي تحتوي على ثلاث حواف قاطعة، الحافة المنحنية الطويلة مخصصة لعمليات الشق الطويلة والمستقيمة،

والحافة القصيرة للشقوق الصغيرة، أما الحافة المستديرة فتستخدم لفتح الخراجات (abcès).



¹ Ibid, p.p 909-910.

² Vérdène (A), Op.cit, p 831.

المطابع: تستخدم بعد تسخينها، وتتميز بحوافها الحديدية ذات الشكل الدائري أو المعين، أما المقبض فهو خشبي¹.

المسلة: عبارة عن أداة حديدية تشبه القلم، وجاءت في شكل نوعين، النوع الأول بهتاته خطاف يستخدم في شد حواف فروة الرأس إلى الخلف، كما يمكن استخدامه للكي أيضا، أما النوع الثاني به خطاف مبتور الرأس،



أدوات الكشط (المسالك) والكماشات: 1-5 سواك، 2 كماله بشكل حرف V / 3-4 مسلة بخطاف / 6 كماله بمقبض جلدي / 8-9-10
مناقب / 11 مسلة بخصلة صوفية لإمتصاص الدم
عن: Verdine, De la réparation de... p 994-995 Simpson, Arab medicine... plate IV Simpson, "Some Arab... plate XXXIX

وينتهي بخصلة من الصوف وظيفتها امتصاص الدم الناتج عن الحفر.

الكماشات: جاءت أحد أنواعها بشكل V، استخدمت في شد فروة الرأس، بحيث يتم إدخاله بين الأجنحة، وأما النوع الثاني فيشبه الكلاب وهو ذو مقبض جلدي.

المكشط (سبيكة): يستخدمه الجراح لكشط الأنسجة الملتصقة بالعظم.

2-4- أدوات الحفر: تعتمد عملية الحفر بصفة عامة على البريمات (المثاقيب) التي تستخدم عن طريق



أدوات اللب (البريمات) والرفع (المهزات): 1 مثاقب بشكل سمير حد يستخدم لاختبار عمق الثقوب المعطوبة أو المقطوعة بالمثلار / 2-3-4-5-8-9-10-12 بريمات مختلفة / 6-7-11-13-15-16-17-18 مهزات مختلفة / 11 سبيكة / 14 ضمادة
عن: Verdine, De la réparation de... p 995 Simpson, Arab medicine... plate V Simpson, "Some Arab... plate XXXIX

حركة الدوران بين راحتي اليد، وفي معظم عمليات الثقب لا يتم الاختراق المفرط حتى يتفادى الجراح بقدر الإمكان الوصول إلى طبقة الأم الجافية، وتتميز البريمة بجزئها العلوي الحديدي الذي يحتوي على سنتين جانبيتين أو ثلاث أسنان، أما جزئها السفلي فيتمثل في مقبض خشبي² يزخرف أحيانا بزخارف هندسية وحزوز.

¹ Hilton-Simpson (M. W), "Some Arab and Shawia Remedies and Notes on the Trepanning of the Skull in Algeria", In: The Journal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain and Ireland, Vol. 43, Jul. - Dec, 1913, p 717.

² Malbot(H) & Verneau(R), Op.cit, p179.

3-4- أدوات النشر: تتمثل في المنشار أو المناشير، وهي عبارة عن أداة حديدية أو فولاذية منها المستقيمة

التي تشبه المراوح (النوع البسيط على شكل حرف L) ومنها المنحنية، ومنها التي جاءت بشكل حرف T¹ وهي



أدوات النشر: 1 منشار بشكل حرف T / 2 منشار بثلاث حواف/3-4-5-6-7-8 مناشير مستقيمة ذات أسنان حبيقة وعريضة / 9 منشار وسكين بشكل حرف T / 10 منشار منحني / 11 منشار دائري
عن: Lachey, la médecine arabe... p 57 و Verdène, De la trépanation du... p 994, Simpson, Arab medicine...plateV

تشبه فؤوس الحروب

(النوع المزدوج بشكل

حرف T)²، ويضاف إلى هذا

النوع المنشار

الدائري (الرقم 11) الذي تم

العثور عليه لدى أحد

الممارسين لكن استخدامه

ناذر، أما مقابض هذه

المناشير فهي خشبية

مستديرة وقد تكون مزخرفة، أما جزئها العلوي فهو مسطح ومسنن بأسنان عريضة (ثلاث إلى أربع أسنان) أو

ضيقة (قد تصل إلى سبعة أسنان)، كما نشير هنا أن المنشار المستقيم هو الذي حدد نوع التريئة المنشرة

بالأوراس ألا وهي المربعة والركنية³، أما التريئة التاجية فلم يوجد لها نموذج بالمنطقة المدروسة.

4-4- المهرزات (الرافعات) والمنقاش: هي أدوات تستخدم بعناية فائقة لنزع البقايا العظمية⁴.

5- مراحل التريئة، أهم حالاتها المرضية وأنواعها:

1-5- مراحل التريئة: يقسم الأطباء عظام الجمجمة حسب سمك القحف إلى ثلاث أقسام: طبقة العظم

الخارجي (الطبقة الخارجية)، طبقة العظم الداخلي (الطبقة الداخلية)، والطبقة الفاصلة بينهما حيث يوجد

الدم، وللعلم تقام عملية التريئة في أي موضع من الجمجمة، باستثناء مناطق الدروز التي تسمى محليا بمناطق

الكتبة⁵.

1-1-5- مرحلة سلخ فروة الرأس: يتم إجراء سلخ فروة الرأس بطرق مختلفة، فمثلا يضع الأطباء قطعة

لحم طازجة من الجهة اليمنى للماعز (فوق الكبد) على مكان الإصابة لمدة ثلاثة أيام، مما يسهل عملية كشط

فروة الرأس، أو يقومون مباشرة بإزالة جزء من فروة الرأس بالمطابع، ثم يتم الضغط على فروة الرأس بقوة

حتى الوصول للعظام، وقد تقام عملية السلخ أيضا بالسكين والشفرة أو بالسكين والمنشار، حيث يقوم

¹ Kirkup (John), "The evolution of cranial saws and related instruments", in trepanation (History, Discovery, Theory), Publishers Swets & Zeitlinger, 2005, pp 294-295.

² Malbot(H) & Verneau(R), Op.cit, p 179.

³ Verdène (A), Op.cit, p 828.

⁴ Hilton-Simpson (M. W), "Some Arab...", Op.cit, p 718.

⁵ Verdène (A), Op.cit, p 830.

الجراح بربط منديل حول رأس المريض بإحكام من أجل مراقبة النزيف، ثم يتم إزالة جزء مستطيل من الجلد في شكل أربع خطوط ، أو يضع شقين متقاطعين بزاوية قائمة ثم لف حواف فروة الرأس للخلف و تثبيتها بخطافات أو المناقش (جمع مناقش).

2-1-5- كشط الأنسجة: تختلف هذه المرحلة باختلاف الحالة المرضية أي أحيانا تقام مباشرة بعد نزع فروة الرأس وبأحيان أخرى تكون آخر هذه المراحل أي بعد استئصال الجزء العظمي، فمثلا عند نزع فروة الرأس يقوم الجراح بكشط الأنسجة الملتصقة بالعظم بواسطة مكاشط، ثم يعالج سطح العظم بمسحوق اللحاء من نبات العرعر الفينيقي، ويمزج بالزبدة الدافئة قبل البدء في العملية، وفي بعض الحالات يتبين أن مجرد كشط العظم التالف يكفي للشفاء، وفي هذه الحالة تنتهي العملية بسرعة¹، أما استئصال القطعة العظمية فيستغرق وقتا أطول ويتم تنفيذه بطرق مختلفة.

3-1-5- مرحلة النقب أو النشر: تختلف باختلاف الحالات المرضية، حيث تقام التريئة إما بواسطة البريمة أو بالمنشار أو بهما معا.

تريئة البريمة: بعد تطهير فروة الرأس، يتم ثقب الجمجمة بالبريمة المناسبة، حيث تحفر مجموعة من الثقوب المتقاربة بواسطة البريمة قرب الموضع التي تظهر به الجروح في العظام، أو عن طريق حفرة غير عميقة، وتكون العملية جزئية أو كاملة.

تريئة المنشار: توجد حالات مرضية تستدعي الاستخدام المباشر للنشر، وللعلم فإن معظم الجراحين يكملون عملية النشر في جلسة واحدة تستغرق ما بين ساعة وساعة ونصف، لكن في بعض الأحيان تستغرق أكثر من يوم لتقليل الضغط على المريض، بحيث يقوم الممارس بنشر شق صغير، ثم يستكمل عمله تدريجيا حتى يتم نشر كل الجزء العظمي.

4-1-5- مرحلة إزالة العظام: يقوم بعض الجراحين بإزالة الأجزاء العظمية مباشرة بعد إتمام عملية النشر بحذر بواسطة المهرزات والمناقش، والبعض الآخر يتركونه في مكانه لمدة ثلاثة أيام من أجل العثور على أعصاب العظام الميتة، ليتم إزالته في اليوم الثالث، فيما اختار آخرين نزعها بعد مرور من عشرة إلى خمسة عشر يومًا، ولمنع فروة الرأس من الانغلاق الطبيعي توضع قطعة قطنية منقوعة في العسل والزبدة.

2-5- أشهر الحالات المرضية للتريئة وأنواعها: تختلف طرق التريئة المقامة للشخص المصاب حسب الحالات المرضية ودرجة خطورتها، لذا تكون العملية أولية أو ثانوية، كاملة أو جزئية، تقام على مرحلة واحدة أو مرحلتين، ومنه سنعدد فيما يلي أشهر هذه الحالات وما نوع التريئة الواجب إجرائها.

1-2-5- حالة كسر مؤكد: في هذه الحالة تختلف طريقة التريئة حسب حالة الجرح

¹ Hilton-Simpson (M. W), Arab medicine..., Op.cit, pp 31-32.

إذا تعلق الأمر بجرح كبير، يظهر به الكسر والضغط العظمي، يلجأ الطبيب إلى ترينة أحادية المرحلة ومربعة بالمنشار أي تقام في وقت واحد، حيث يقوم الجراح بشق فروة الرأس إلى العظم حول الجرح في شكل دائري أو مضلع، وهنا تعتبر إزالة فروة الرأس في هذه الحال ضروري لأن إبقائها يضيق الضمادات ويعرقل سرعة الشفاء، ثم يستعين بالمنشار ذو الأسنان العريضة لتحديد موضع الصدمة الدماغية في شكل أربعة خطوط بزوايا قائمة أو شبه قائمة، وأحياناً يكتفي بخط أو اثنان أو ثلاثة لإزالة العظم المكسور، ثم يستعين بالمنشار ذو الأسنان الضيقة ويواصل النشر بحذر حتى يصل إلى قرب المخ، وينهي عمله بالكشط برأس المكشط وإزالة الجزء العظمي الباقي بواسطة المهزات والكماشات¹، أما طريقة التضميد فتختلف حسب الجراح، وعادة



يوضع على سطح المخ علاج موضعي مطهر (العلاج 1 أو 2)، ويوضع عليه قطعة نسيج من البرنوس الذي يغمر في زيت ويثقب لتسهيل خروج القيح إلى الخارج. ويربط الكل برباط حول الرأس، ثم يغطى بضمادة خشبية أو رصاصية أو برونزية مثقوبة في الغالب لخروج القيح، وبها حزام لتربط حول الرأس².

أما إذا تعلق الأمر بجرح بدون ضغط عظمي وغير استعجالي لإزالة القطعة العظمية من اللب الدماغية، تقام في هذه الحالة جراحة ثنائية المرحلة (على مرحلتين)، حيث يبدأ الطبيب بنزع فروة الرأس بواسطة الشفرة والسكين إلى غاية

الوصول إلى العظم بشكل يتناسب مع امتداد الجرح، ثم يتم تعيين ثلاث خطوط بالمنشار في شكل خطين متوازيين وواحد عمودي، أما الجهة الرابعة فتبقى سليمة. ثم يستخدم العلاج 3 في المرحلة الأولى³، أما المرحلة الثانية فتكون بعد عشرين إلى خمسة وعشرين يوماً مع الحرص على التغيير اليومي للضمادات، واتباع حمية جيدة، حيث يتمكن الجراح من إزالة العظم بالاستعانة بالمسلة فقط. وبعد إزالة البقايا العظمية المحتجزة في الأنسجة، يراقب الطبيب وجود خفقات على سطح المخ حيث تعتبر هذه الحالة إشارة لشفاء للمريض، أما غياب هذا الخفقان وإفراز رائحة كريهة من الجرح مصاحب باللون الأسود على سطح المخ، يعني أن حالة المريض خطيرة، ويتم اللجوء إلى علاج موضعي خارجي آخر يتمثل في زيت البيض العلاج⁴. ونشير هنا في حال حدوث نزيف أثناء العملية، أنه يعالج بالكي⁴ بواسطة الشفرة.

2-2-5- حالة كسر غير مؤكد:

¹ Vérdène (A), Op.cit, p 831.

² Seguir (Mohamed Ben Larbey), La médecine arabe en Algérie, Thèse pour le doctorat en médecine, Faculté de médecine de Paris, 1885, p32.

³ Malbot(H) & Verneau(R), Op.cit, p181.

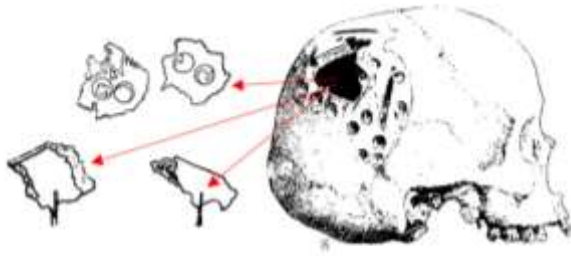
⁴ Vérdène (A), Op.cit, pp 832-833.

- كسر الطبقة الخارجية: إذا كان الكسر غير ظاهر، يحاول الطبيب التأكد من هذا عن طريق وضع شق بالسكين على فروة الرأس بتمريره على موضع الضرر، ثم يقوم بالبحث عن العظم بواسطة مسبار، وفي حال صادفه انخفاض أو نتوء، حينها يجب اللجوء إلى عملية التريئة الجزئية.

- كسر الطبقة الداخلية: في حال تعرضت الطبقة الداخلية للكسر فالمسبار لا يحقق نتيجة مؤكدة، ويعطي الطبيب في هذه الحالة حبة لوز للمريض ليقوم بكسرها بأسنانه، فإن لم يتمكن من ذلك فهذا يعني أنه تعرض لكسر داخلي للقحف الدماغي، حيث أنه من الأعراض التي تؤكد وجود كسر داخلي: الأظافر الشاحبة، خفقان شديد في الأوردة، عدم القدرة على تحريك العينين، الرعاف، سيلان الدم والمصل من الأذن.

2-3-5- التصدعات والنزيف الدموي على الدماغ: تختلف الإشارات حول التصدعات حسب درجة الألام لدى المريض (خفيفة أو حادة)، فإذا كانت خفيفة فهذا يعني أن الطبقة الخارجية فقط تعرضت للضرر، لذا تطبق التريئة الجزئية بواسطة البريمة، وفي حال كانت حادة سيظهر حينها تجمع للدم على سطح الدماغ، وبالتالي تقام عملية التريئة الكاملة¹، حيث يلجأ الطبيب لاستخدام المنشار أو وضع علاج لإزالة العظم، أو زيت البيض وحليب المرأة الطاهرة الذي له دور فعال في إزالة كل الشوائب الموجودة على سطح المخ.

2-4-5- التريئة المتأخرة (التنخر): عند بقاء الاضطرابات الدماغية بعد تلقي الصدمة، ولم يخضع صاحبها للتريئة تستمر الألام بشدة في موضع الصدمة، وهذا يؤدي لتشكيل قيح داخلي مما يستلزم تدخل جراحي ولو بمرور أشهر أو سنوات بعد التعرض للصدمة الدماغية، حينها يقوم الطبيب بشق فروة الرأس ويبحث عن العظم، فإذا وجده جاف ومسود يقوم بتريئة بالبريمة إلى أن يجد مكان القيح، ثم يفرغ في الثقوب



مختلف أشكال الجزء العظمي المستأصل

عن: p 192 "Les Chocs et la trépanation..." Malbot(H) & Verneau(R), pp 921-922. Vérdène, De la trépanation du...

العلاج المعتاد استخدامه، بعد مدة معينة ينفصل التشقق العظمي ويبدأ الجرح في التماسك²، ويكون شكل هذا الجزء العظمي غير منتظم، أو مربع أو مثلث، وبنفس حجم راحة اليد³.

ومن هنا نلاحظ أن نوع

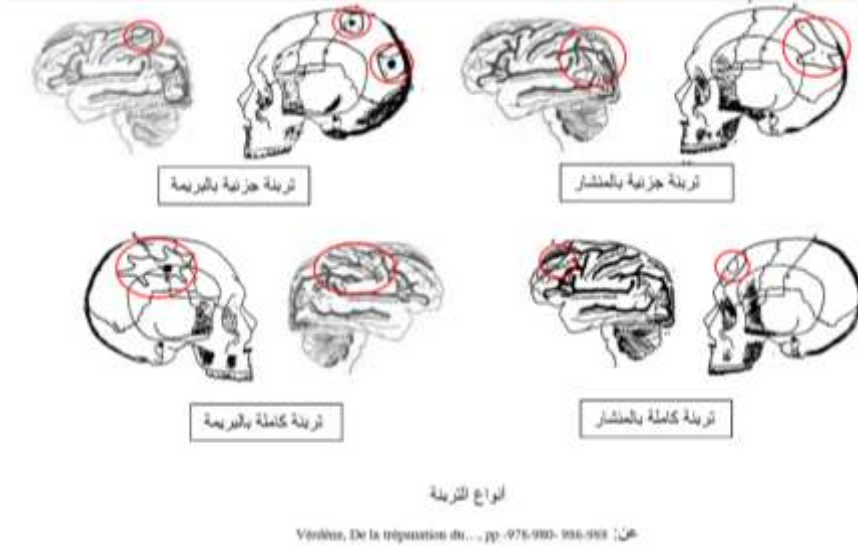
التريئة المقامة على الشخص المصاب تختلف باختلاف حالات الإصابة، وهي تتمثل على العموم في التريئة

¹ Malbot(H) & Verneau(R), Op.cit, p 180-181.

² Vérdène (A), Op.cit, p 835-836.

³ Malbot(H) & Verneau(R), Op.cit, p 181-183.

الجزئية أو الكاملة بالبريمة حيث تتراوح الثقوب المقامة من 6 ملم إلى 1 سم، والترينة الجزئية أو الكاملة بالمنشار ويكون طول الضلع بها حوالي 3 سم.¹



6- طرق العلاج: صوحت عمليات التريئة الممارسة بعلاجات مختلفة تعتمد على أعشاب ومواد طبيعية غنية بمواد² تساعد على شفاء الجروح والتعفن، حسب ما يقتضيه المرض، ويبدو أن هذه العلاجات كانت لها فائدة ملحوظة على الفرد وسرعة شفائه، وهي تتمثل في:

العلاج 01: يتكون من الزعفران، لحاء شجر الرمان، الزبدة، القطران، لبن وعسل، ويوضع عليه قطعة نسيج من البرنوس الذي يغمر في الزيت ويثقب لتسهيل خروج القيح إلى الخارج، ويربط الكل بحزام حول الرأس، وبمادة خشبية أو رصاصية تربط هي الأخرى بالرأس بواسطة حزام.

العلاج 02: تتمثل في ضمادة قطنية مغمورة في القطران السائل، وقطعة نسيج لبرنوس من الصوف.³

العلاج 03: نضع في أحد الأركان سكر، وفي آخر زبدة، وفي الثالث عسل، وفي الرابع زعفران، ويغطي الكل بمادة صمغية لمنع دخول الهواء، ثم توضع قطعة قماش مغمورة بشمع العسل ومكادات عشبية.⁴

العلاج 04 (زيت صفار البيض): يتم استخدام مجموعة من صفار البيض بعد إزالة البياض، وتوضع في إناء طيني، ويتم طهيها إلى يصبح البيض أسود كالفحم، وينتج عن هذه العملية زيت بكمية قليلة (حيث أن 10 صفار بيض بوزن 150 غ، نستخلص منها 20 غ من الزيت أي حوالي الخمس من الوزن الإجمالي 20 %، حيث

¹ Ibid, p 183.

² كانت هذه المواد غنية بالكوليسترول، المواد الدهنية، مواد فوسفورية، البوتاسيوم، كبريتات الصوديوم، أحماض لبنية، الغلوكوز، ماء.

³ Verdène (A), Op.cit, p 832.

⁴ Ibid, p 833.

أن هذه الزيت جد فعالة للمخ، وقد صرح فاردين بتجريب هذه الزيت بعد التقيد بهذه الوصفة، و أكد فعاليتها في تضميد الجروح والتقرحات والإفرازات، نظرا لطبيعة العلاج الدسمة والمستحلبة، وتم اعتمادها بصفة رسمية بالمستشفى العسكري ببوردو، في علاج الجروح، التقرحات، الخراجات، وأمراض السيلان. كما استخدم الأوراسيين في علاج الجروح زيت آخر يتمثل في زيت صفار البيض المركب، وهو يتكون من عدد من صفار البيض الذي يوضع في قدر، يتم طهيه إلى أن يجف ويصبح أسود كالفحم، ثم يضاف له مادة دهنية (شحوم) فنتحصل على زيت سوداء اللون، ويضاف إليها عسل مغلي بعد نزع الرغوة الناتجة عن الغلي، وزبدة ذائبة مصفاة، ويضاف لها سكر، زعفران وحليب المرأة الطاهرة، وهو علاج يفيد خاصة في حالات الدماغ المتضرر الذي يظهر عليه بقع سوداء أو زرقاء على جلدة الرأس¹.

الخاتمة:

بعد التعرض إلى أهم المعطيات والجوانب الملزمة بموضوع جراحة الجماجم بالأوراس استطعنا الخروج بمجموعة من النتائج المتمثلة في:

- أولا لاحظنا أن انتشار جراحة الترينة في الحضارات السابقة كان له خلفيات روحية وسحرية أكثر منه طبية، على عكس المجتمع الأوراسي الذي كان مجتمعا أثرت فيه تعاليم الدين الإسلامي، لذا كان يلجأ إلى الترينة في معظم الأحيان من أجل التداوي، خصوصا إذا كان الحادث طبيعيا أي ليس للإنسان دخل به.

-ثانيا يعتبر المجتمع الأوراسي مجتمعا شديد التمسك بأراضيه وممتلكاته الفلاحية، واعتبرت هذه الأخيرة محل نزاع في الكثير من الأحيان، حيث ازدادت حالات الضرب على الرأس التي كانت تؤدي لا محال إلى كسور وتصدمات على مستوى الجمجمة، مما كان يستلزم اللجوء للترينة خصوصا إذا علمنا أن الضحية كان يستفيد من فدية أو تعويض مالي من طرف الشخص الذي كان السبب في وقوع الحادث، لكن هذا لم يكن السبب الوحيد حيث وجدت أسباب أخرى كالحصول على حق الطلاق بالنسبة للنساء، وكل هذه الأسباب الطبيعية أو البشرية جعلت عدد كبير من المجتمع الأوراسي يلجأ للترينة، من رجال، و نساء، و أطفال على حد سواء دون استثناء.

-ثالثا بالنسبة لكيفية استقاء هؤلاء الأطباء والجراحين المحليين لعلومهم ومناجهم، فقد لاحظنا استفادتهم بتجارب ومناهج أسلافهم من أطباء العرب كالزهرابي الذي كان من أشهر الجراحين، حيث لوحظ تشابه في وسائل الجراحة أو طرق الجراحة والعلاج، وهذا من خلال المخطوطة التي توارثها هؤلاء الممارسين، والتي جاء بها أهم كفاءات العمل، ومع هذا لوحظ وجود نوع من الاستقلال الفكري والاجتهاد في مجال المعرفة الطبية التي مكنت الطبيب والجراح الأوراسي من إقامة عمليات مختلفة حسب ما تستدعيه الحالة المرضية، كما

¹ Ibid, pp 926-927-928.

ظهرت لدينا مجموعة من المصطلحات الطبية المحلية سواء تلك التي تخص العملية، أو أدواتها مثل: مناطق الكتبة، المنهيلة، الأهشمة، البريمات، المسلة، المنقاش...إلخ.

-رابعاً سرعة الشفاء لدى معظم الأشخاص اللذين خضعوا للجراحة في مدة زمنية قياسية بالرغم من خطورة الجروح والكسور التي تعرضوا لها، تبين البنية المورفولوجية القوية التي يتمتع بها أفراد هذا المجتمع، وقدرته على الصمود ضد الصدمات التي تعرض لها، وقد سجلت سرعة الشفاء لدى معظم الباحثين اللذين تطرقوا لموضوع البحث مثل الدكتور ربود.

-خامساً فعالية العلاجات الموضعية المصاحبة للعملية بينت المستوى الفكري للطب المحلي، واستطاعت إثبات فعاليته حتى في المستشفيات الأوربية خاصة في الحالات المتعلقة بالجروح والتعفن.

ومنه وقبل إعطاء كلمة ختام موضوع جراحة الترينة، علينا أن نشيد بأهمية هذا النوع من الدراسات التي من شأنها توضيح إسهامات المناهج الطبية المحلية بإيجابياتها وسلبياتها لكونها اعتبرت منطلق وممهّد لتطور العلوم الطبية المستحدثة.

قائمة المصادر والمراجع

الكتب:

- El Khamlichi (A), Emergence de la neurologie Africaine, lawn Edition, Rabat, 2019.
 Jedidi (H), Une brève histoire de la trépanation de la préhistoire à l'ère post-moderne (mémoire de diplôme universitaire d'histoire de la médecine), Edition Université Paris Descartes, Faculté de médecine, 2019.
 Spink (A) & Lewis (G), Abulcasis, On surgery and instruments, London, 1973. Hilton-Simpson (M. W), Arab medicine surgery (A study of the healing art in Algeria), Oxford university press, London ,1922.

المقالات:

- Bousquet (George, H), “Un qanoun de l'Aurès”, In: Hespéris (Archives berbères et bulletin de l'institut des hautes études marocaines), Tome XL (1er et 3émé trimestre), Édition E. Larose, 1953, pp 77-88.
 Malbot(H) & Verneau(R), “Les Chaouia et la trépanation du crane dans l'Aurès II (Etude d'ethnographie Algérienne)”, In: L'anthropologie, Tome VIII, 1897, pp 174-204.
 Reboud (V), “Notice sur la vallée de l'oued El Arab et sa végétation”, In: Bulletin de l'académie d'Hippone, N° 19, Imprimerie Dagand, Bone, 1883, pp 49-69.
 Vérdène (A), “De la trépanation du crane chez les indigènes de l'Aurès (Algérie)”, In: Revue de chirurgie, Edition F. Valcan, 1885, pp 817-996.
 Kirkup(John), « The evolution of cranial saws and related instruments », in trepanation(History, Discovery, Theory) , Publishers Swets & Zeitlinger, 2005, pp 289-304.

الجراند:

- Hilton-Simpson (M. W), “Some Arab and Shawia Remedies and Notes on the Trepanning of the Skull in Algeria”, In: The Journal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain and Ireland, Vol. 43, Jul. - Dec, 1913, pp 707-721.

الرسائل الجامعية:

- Seguir (Mohamed Ben Larbey), La médecine arabe en Algérie, Thèse pour le doctorat en médecine, Faculté de médecine de Paris, 1885.

الطب التقليدي في مواجهة الأمراض والأوبئة بالجزائر العثمانية خلال القرن 18 م

من منظور الطبيب أحمد بن قاسم البوني

Traditional medicine in the face of diseases and epidemics in Ottoman Algeria during the 18th century Ad from the perspective of Doctor Ahmed ben Qasim Al-Boni

ط د، حسيبة عطاء الله، جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة،

atallah.hassiba@univ-dbkm.dz

د. إبراهيم بن مويزة، المدرسة العليا للأساتذة طالب عبد الرحمان الأغواط،

b.benmouiza@ens-lagh.dz

الملخص:

سنحاول في هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على موضوع الطب التقليدي أو التداوي التقليدي لمواجهة الأوبئة التي شهدتها إيالة الجزائر خلال فترات مختلفة من القرن 18م؛ وفي أوقات عصبية تزامن ظهورها وتفشي الكثير من الأمراض المعدية، فقد أثرت هذه الأوبئة ولازالت تؤثر على التركيبة الاجتماعية للمجتمع الجزائري من خلال الآثار الوخيمة الناجمة عنها، ولطالما تنوعت طريقة التداوي لهذه الأمراض والأوبئة عند بعض الأطباء المحليين، ولهذا السبب سنقتصر على طريقة الطبيب أحمد قاسم البوني كأنموذجاً مستقلاً لدراسة ذلك. الكلمات المفتاحية: الطب التقليدي، الأوبئة، الأمراض، الطبيب أحمد بن قاسم البوني، القرن 18م.

Abstract:

In This paper, we will try to shed light on an important topic of traditional medicine to confront the epidemics that the Algerian Eyalet witnessed during different periods of the 18th century AD. In addition, and at adifficults times, its emergenceand the spreadof many infectious diseasescoincided. These epidemics affected and continue to affect the society through its dire effects,the method of treating these diseases and epidemics has long been varied by some local doctors, For this reason, we will confine ourselves to the method of Dr.Ahmedben Qasim Al-Boni as an independent model in studding this.

Key words: Traditional medicine, epidemics, diseases, Doctor Ahmed ben QasimAl-Boni, the 18th century.

مقدمة:

شهد المجتمع الجزائري أواخر العهد العثماني الكثير من الأوبئة والأمراض المعدية التي توالفت عليه، سواء على ساكنة مدينة الجزائر أو غيرها من الحواضر الكبرى؛ حيث لم تسلم هذه الحواضر من الجوائح الطبيعية التي أحدثت خسائر بشرية ضخمة وفكتت بالأهالي الجزائريين نظراً لتنوع أسبابها واختلاف أعراضها ما بين المدينة والريف. ولذا كان لابد من توفير الحماية لهؤلاء الأهالي لمواجهة مختلف هذه الأمراض والأوبئة طيلة القرن 12هـ/18م، فمن بين الأطباء الذين برز دورهم في هذه الأثناء الطبيب أحمد بن قاسم البوني.

تهدف هذه الورقة البحثية إلى معرفة أهم الأمراض والأوبئة المنتشرة في الجزائر خلال القرن 18م، بالإضافة إلى التعرف على مسار التداوي التقليدي عند المطيب أحمد بن قاسم البوني للقضاء على هذه الأمراض، زيادة على معرفة أهم التجارب المطبقة لاكتشاف العلاج المضاد لهذه الأمراض. ولذلك جاءت هذه الدراسة تحاول معالجة الإشكالية الآتية: هل مارس أحمد بن قاسم البوني التطبيب التقليدي على أرض الواقع؟ أم أنه اكتفى بالتأليف حوله؟ هل نجح في إيصال معارفه الطبية؟ وما مدى نجاعة هذا التداوي في مواجهة الأمراض والأوبئة الخطيرة التي طالما اجتاحت الجزائر خلال القرن 18م؟ ومن أجل تفكيك هذه الإشكالية قمنا بطرح جملة من التساؤلات الفرعية والتي نوجزها فيما يلي: من هو أحمد بن قاسم البوني؟ وماهي المكانة العلمية بين علماء عصره؟ ماهي مؤلفات الشيخ أحمد بن قاسم البوني الطبية؟ هل كان تأليفه حول الطب هو رد فعل على الواقع الاجتماعي على غرار الأوبئة والأمراض المنتشرة أم أن الأمر لا يعدو أن علمه هو الذي فرض عليه ذلك؟ ما مدى قيمة الوصفات الطبية التي قدمها البوني خلال هذا القرن؟ وماهي أهميتها الوقائية؟ وكيف نظر الرحالة الأجانب لهذا النوع الطبي بالإيالة؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية المطروحة وتساؤلاتها الفرعية اتبعنا المنهج التاريخي الوصفي الذي ساعدنا على رصد كرونولوجيا أهم الأوبئة والأمراض التي انتشرت في الجزائر خلال القرن 18م، بالإضافة إلى معرفة طريقة التداوي التقليدية عند الطبيب أحمد البوني.

هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال هذه المداخلة وفق العناصر التالية:

1- أهم الأمراض والأوبئة المنتشرة بالجزائر العثمانية خلال القرن 18م:

1-1- العوامل المؤدية لانتشار الأوبئة بالجزائر:

إن المتتبع لمسار انتشار مختلف الأمراض والأوبئة بإيالة الجزائر خلال القرن 18م، سيقف لا محالة على أهم الأسباب والعوامل المؤدية إلى تفشيها بهذا الشكل الرهيب والمرعب مخلفة وراءها العديد من الضحايا والمصابين، ولعل أهم هذه العوامل وأخطرها تفشي وباء الطاعون بالإيالة بسبب الهواء الملوث نتيجة كثرة العفن وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: "... وقوع الهواء وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة

العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة،... فإن كان الفساد قويًا وقع المرض في الرئة، وهذه الطواعين وأعراضها مخصوصة بالرئة،... وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران...¹، أو بسبب وصول العدوى من التجار المصابين بهذا الوباء وغيره الآتين من بر المشرق أو من أوروبا وغيرهما نتيجة كثرة المعاملات التجارية مع الإيالة².

وفي ذات السياق، يعد الركب الحجي من بين أبرز الوسائل المؤدية لانتشار هذا الوباء في الإيالة خلال القرن 18م، حيث أدى الاحتكاك والاتصال بين الحجاج برا وبحرا سببا مباشرا في نقل العدوى إلى بعضهم البعض و إلى غيرهم، لذا تعرض الحجاج الجزائريين سنة 1758م إلى حتمية عدوى الإصابة لما نزلوا بميناء الإسكندرية وقد تزامن هذا النزول بوصول سفينة بريطانية قادمة من مدينة أزمير تحمل مطوعونين، مما إنجر عنه إصابة هؤلاء الحجاج بالعدوى ليصلوا إلى ميناء الجزائر وكلهم مطوعونين³، بالإضافة إلى أن الإنكشارية لم تسلم هي الأخرى من عدوى الإصابة؛ حيث برزت جملة من الأمراض بين صفوفها في الحروب نتيجة احتكاكهم مع الجنود المصابة فتنقلت العدوى إليهم بصورة أفضع، مع حركة السفن والهجرة من القارة الأوروبية إلى مدينة الجزائر وغيرها، وهو ما أكده أحمد الشريف الزهار بقوله: "... وفي سنة 1201هـ/1786م جاء الوباء إلى الجزائر حتى وصل عدد الأموات أحيانا إلى خمسمائة جنازة كل يوم، قيل أنه أتى من بر الترك في مركب مع رجل يدعى ابن سماية، واستمر الوباء في الجزائر إلى غاية سنة 1211هـ/1796م..."⁴.

كما ذكر حمدان بن عثمان خوجة سبب تعرض المرأة الريفية للأمراض المختلفة ويرجع ذلك إلى قيامها بالأعمال الشاقة وعدم إعتنائها بالنظافة وهذا ما جعله يقول: "...نرى هؤلاء النساء اللاتي لا يتوقفن عن الأشغال الشاقة قدرات لا يعتنين بهندامهن وعلاجهن عبارة عن نباتات معروفة بنجاعتها لأن السكان هنا

1 - ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، تح وتع: محمد بن تاويت الطنجي، د. الكتب العلمية، ط1، ج1، بيروت، 1983، ص ص 376-377.

2 - محمد الزين، نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية أواخر عهد الدايات، مجلة البحوث والدراسات، ع 17، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2012، ص 192.

3 - فلة القشاعي، الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الإحتلال الفرنسي 1518-1871م، وزارة الثقافة، الجزائر، 2010، ص ص 240-241.

4 - أحمد الشريف الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر 1830-1754، تح: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص 51.

لا يعرفون مبادئ التطبيب وبالنسبة إليهم فالطبيعة وحدها هي التي تصنع المعجزات، ومن العادة في هذه الحالات يلجؤون إلى الحمية...¹.

هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى لاتقل أهمية عما سبق التطرق إليه ومنها الطبيعية كالكوارث الطبيعية سواء بسبب إجتياح وغزو الجراد² أو ندرة الأمطار تارة، زيادة على الغياب التام لثقافة الإلتزام بالقواعد الصحية في حالة وجود وباء أو مرض وعدم وجود أدوية ناجعة³، أو بسبب تدهور الأوضاع الصحية والاجتماعية للأهالي.

2-1- أبرز الأمراض والأوبئة المنتشرة بالجزائر:

برز في أحواز المدن الجزائرية العديد من الأمراض خلال القرن 18م؛ ومن الأمراض التي تفشت

نذكر:

1-2-1- مرض الحمى:

تعرضت مدينتي البليدة والجزائر لمختلف أنواع الحمى، أشهرها وأكثرها انتشارا الملاريا أو "حمى المستنقعات" التي تسببت فيها المياه العكرة الموجودة تحديدا في المستنقعات والأودية المجاورة للأحياء السكانية والمناطق السهلية، مثل: سهل متيجة الموبوءة⁴، وهذا ما أكدته أيضا الأستاذة علامة صليحة في دراستها القيمة؛ حيث بينت وبالتحليل أن العامل الطبيعي هو الذي أثر بالدرجة الأولى في تفشي هذا المرض بمدينة الجزائر وغيرها؛ بسبب تلك الروائح الكريهة المنبعثة من وادي الحراش ومن مستنقعات متيجة⁵.

2-2-1- أمراض العيون:

عرف بايلك الشرق الكثير من الأسقام المتعلقة بالعيون على غرار مرض الرمد Trachome الذي استهدف الأطفال الصغار بمدينة قسنطينة وعنابة بداية من فصلي الربيع والخريف⁶. أما مرض بياض العيون أو ما يعرف بإعتام عدسة العين أو الساد، فهو تمزق يصيب عدسة العين الطبيعية الواقعة خلف

¹ - أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر 2، 2005-2006م، ص 279.

² - فلة قشاعي، المرجع السابق، ص 77.

³ - Thomas Shaw, voyage dans la régence d'Alger, tradition de l'anglais marlin J, meccarthy, 2^{ème} Edition, Tunis, 1980, P81.

⁴ - E, Niersiol, " La régence" Alger vue par un allemand au XVIII siècle, pub -s- Histoire Algérienne, 1930, P58.

⁵ - صليحة علامة، الأحوال الصحية بالجزائر خلال الاحتلال الفرنسي من 1830-1962 م، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان، 2017، ص 21.

⁶ - Diego Fray Haédo, topographie et histoire générale d'Alger, R.A N° 15, Alger, 1871, P 462.

البؤبؤ والقزحية، وتعد الإصابة بهذا المرض أحد أكثر الأسباب المؤدية لفقدان النظر لدى كبار السن.¹ وذهبت الأستاذة صليحة علامة لتحليل هذا المرض مستعينة بطرح البارون هباند الذي زار مدينة قسنطينة سنة 1786م وكتب عنها؛ مرجعت أن سبب هذا المرض مرده للتغيرات المناخية - أي العامل الطبيعي - والتي تأثر بدورها على شبكية العين حيث استهدف هذا الداء فئة اليهود فقط.²

1-2-3- الحصبة:

تعد الحصبة La rougeole من الأمراض القاتلة الواسعة الانتشار بالجزائر خلال فترة الدراسة، لكن هذا الوباء عرف بين أواسط الأهالي باسم "المرض الأحمر"؛ حيث اشتدت وطئته بين الأطفال تحديدا مما أدى إلى قتل العديد منهم يوميا.³

1-2-4- مرض التيفوس:

يعتبر مرض التيفوس أو كما يعرف بـ "الهواء الأصفر" من الأمراض المعدية الخطيرة التي ضربت معظم العائلات الجزائرية سواء تلك العائلات المتواجدة في بايلك الشرق أو بايلك الغرب؛ إذ ارتبط ظهور هذا المرض بالمجاعة بالدرجة الأولى؛ فكلما ضربت المجاعة منطقة معينة إلا وتزامن ظهورها مع هذا المرض أي تقريبا كل عشرين سنة، ونلمس فيه نوعان:

1-4-2-1- التيفوس الطفحي:

سمي بالشمشي Tiphuse scanthemati وهذا النوع هو الذي أصاب الفرق العسكرية الإسبانية الموجودة في بجاية، ومن أعراضه ارتفاع درجة حرارة الجسم إلى 40° مع صداع شديد وطفح جلدي.

1-4-2-2- تيفوس مورين:

يعرف بالتسممة اللاتينية Typhus murin ويتشكل هذا المرض بسبب برغوث الفأر الناقل له، وأعراضه تكون مماثلة لأعراض التيفوس الطفحي.⁴

1-5-2-1- وباء الطاعون:

¹ - نادية فتيسي، الطب في العهد العثماني من خلال رسائل المجموعة 1641 -رسالة صالح باي إلى وكيل الباستيون رقم: 53 أنموذجا-، المجلة التاريخية الجزائرية، المجلد 06، العدد 02، الجزائر، سنة 2022، ص 329.

² - صليحة علامة، المرجع السابق، ص 22.

³ - عثمان بوحجرة، الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي 1518 - 1871، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة وهران، الجزائر، 2015، ص 50.

⁴ - محمد الزين، الأوضاع الاجتماعية والصحية في الجزائر العثمانية 1518 - 1830م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر (غير منشورة)، جامعة الجبالي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر، 2010-2011م، ص 20.

ارتبط ظهور وباء الطاعون بالجزائر العثمانية خلال الفترة المدروسة؛ بعدة أسباب طبيعية مختلفة نذكر منها: التغيرات الجوية والتقلبات المناخية تارة وفترات الجفاف والزلازل وكذا الحرائق تارة أخرى وما ترتب عنها من تخريب وتدمير¹. حيث ضرب هذا الوباء مدينة الجزائر عدة مرات، وحتى مدينتي القل وقسنطينة لم تسلما منه خلال سنتي 1756-1758م².

الجدول رقم 01: يوضح بعض الحواضر الجزائرية المتضررة من وباء الطاعون خلال سنة 1756م

| المدن الجزائرية | مدينة الجزائر | مدينة القل | مدينة قسنطينة |
|-----------------|---------------|------------|---------------|
| تعداد الضحايا | 4324 | 1758 | 1754 |

المصدر: تم انجاز الجدول بالاعتماد على إحصائيات الواردة في كتاب مصطفى خياطي³. انطلاقاً من الجدول رقم 01 الذي يوضح بعض الحواضر الجزائرية المتضررة من وباء الطاعون خلال سنة 1756م، يبدو أن تفشي وباء الطاعون لم يستثن أي مدينة أو جهة من الإيالة، إذ ترد فيه إحصائيات ضخمة حول عدد الضحايا من المصابين وهو الأمر الذي استوقفنا مقارنة بتعداد الوفيات؛ فيذكر أنه بمدينة الجزائر وصل عدد الضحايا المطوعونين بـ 4324 ضحية، كما لم يهمل تعداد الضحايا من الأهالي المطوعونين بمدينة القل الذين بلغ عددهم بـ 1758 ضحية، في حين بلغ تعداد المطوعونين في مدينة قسنطينة بـ 1754 ضحية مطوعنة، لذا نحلل الظاهرة المدروسة بتطور تعداد الإصابة وأن وطأة الوباء على مدينة الجزائر ودار السلطان كانت أكبر من الضعفين والنصف من بايلك الشرق.

الجدول رقم 02: الرصد الكرونولوجي لوباء الطاعون في بايلك الشرق خلال القرن 18م

| السنة الميلادية | سبب التفشي | تعداد الضحايا | المدن المتضررة |
|-----------------|--------------------------------------|--------------------------|----------------|
| 1738 | المبادلات التجارية في الحوض المتوسط. | عدد كبير من الضحايا. | القالا وعنابة |
| 1740 | سفينة قادمة من الإسكندرية. | تقريباً 100 ضحية يومياً. | عنابة |

¹ - فلة موساوي قشاعي، وباء الطاعون في الجزائر العثمانية دوراته وسلم حدته وطرق انتقاله، مجلة دراسات انسانية، ع 1، الجزائر، 2001م، ص 143.

² - Jean Marchika, Histoire de la peste en Algérie de 1363 a1830; Thèse pour le Doctorat en Médecine, maison bastide-Jourdan, Alger, 2021, P103.

³ - Mostapha Khiati, La médecine en Algérie au cours de la période ottomane (15-19Siècle), sante Maghreb, Alger, 2013, P 239.

| | | | |
|---------------|-----------------|---|-----------|
| عناية والقالة | حوالي 100 ضحية. | المبادلات التجارية بين مملكة نابولي وعنابة على مسألة صيد المرجان. | 1785-1786 |
| قسنطينة | حوالي 100 ضحية. | الاحتكاك مع السفن الأجنبية لبحارة جاؤوا من القسطنطينية. | 1793 |
| قسنطينة | 100-120 ضحية. | مشاركة الجزائر ضد حملة نابليون بونابرت على مصر. | 1799 |

2- الطب التقليدي لمواجهة الأمراض: (طريقة المطيب أحمد قاسم البوني)

1-1 - التعريف بالطبيب أحمد بن قاسم البوني:

هو أبو العباس أحمد بن قاسم بن محمد بن ساسي المسيقي التميمي البوني، ولد ببونة¹ سنة 1653م²، يرجع نسب البوني إلى قبيلة تميم وهي من أشهر القبائل العربية التي استقرت في الجزائر منذ الفتح الإسلامي على غرار باقي القبائل العربية الأخرى، وهو النسب المصاحب لاسمه في كافة مخطوطاته وكذا مراسلاته، ففي إحدى مراسلاته مع الداوي محمد بكداش، يذكر نسبه إلى تميم قائلاً:

أحمد نجل قاسم
بوني ذو مآثم الحد
إلى تميم ينتهي
باب الإله يحتمي³

ويعرفه الكتاني بقوله: ... الإمام العلامة المحدث المسند الجامع المطلع صاحب التأليف العديدة والأنظار الكثيرة...⁴، أما الحفناوي فيصفه بقوله: "... علامة عصره وإليه المرجع في الفتوى، وعليه المعول في حل المسائل العويصة..."⁵

¹- رقعة جغرافية واسعة الإمتداد، تقع شرقاً إلى نواحي الكاف وباجة بتونس، أما غرباً فتجدها قسنطينة. للمزيد انظر: أحمد البوني،

التعريف ببونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف، تح: سعيد دحماني، د. كنوز الرشيد، الجزائر، 2015م، ص 23.

²- عبد العي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيوخ، تح: إحسان عباس، د. الغرب الإسلامي، ط2، ج1، بيروت، 1982م، ص 236.

³- محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية، تق وتح: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص 128.

⁴- عبد العي بن عبد الكبير الكتاني، المصدر السابق، ص 236.

⁵- أبي القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة فونتانه الشرقية، ج2، الجزائر، 1906م، ص 516.

هذا عن نسبه، أما عن مذهبه في العقيدة فهو ينتهج المذهب المالكي لكونه من فقهاء المالكيين وأحد علماء الحديث¹، كما برز عليه أيضا تأثره بإحدى الطرق الصوفية والتي أظهرتها الأبيات الشعرية التي أشارت إلى إنتماءه الصريح للطريقة القاديرية، وقد وردت على هذا النحو:

أعانه الله على المجاهدة حتى توصل إلى المشاهدة
لحضته تسعد طول الأبد بإذن ربنا العظيم الصمد
وذا هو الإكسير في الحقيقة بل نفعه أتم في الطريقة
أخذ يقظة على الرباني الشيخ عبد القادر الجيلالي²

ولا يخفى على أحد، أن نشأته كانت علمية محضة؛ إذ تلقى العلم على يد والده قاسم وجده محمد الساسي وغيرهما من شيوخ وعلماء عائلته³، أما عن علاقاته بعلماء قسنطينة فكانت علمية محضة؛ ومن بين الذين كان يتواصل معهم الشيخ بركات بن باديس، ومن ثم واصل العلم خارج الجزائر؛ فكان متنقلا بين المغرب الأقصى وتونس، ومن ثم انتقل إلى المشرق الإسلامي وتحديدا مصر فأخذ العلم من علماءها الشيخ عبد الباقي الزرقاني وغيره، ثم واصل رحلته الحجازية إلى أن نزل بمكة لأداء مناسك الحج وبعد تمامه من المناسك عاد إلى عنابة ليصبح مدرسا فيها⁴. توفي بمسقط رأسه سنة 1726م⁵.

2-2- مؤلفات أحمد بن قاسم البوني الطبية:

كتب أحمد البوني العديد من الكتب سواء تلك المخطوطة بيده أو منسوخة بواسطة أحد النساخ والتي تخص عدة حقول ومن أهمها الطبية، لذا نوضحها في الشكل الآتي:

- مبيّن المسارب في الأكل والطب مع المشارب (الأرجوزة الطبية)
- إعلام أهل القريحة بالأدوية الصحيحة.
- مختصر في الطب لتذكرة داود.
- إعلام الألباء بأدوية الأطباء.

¹ - عادل نومّض، معجم أعلام الجزائر، منشورات المكتب التجاري، بيروت، 1971م، ص 49.

² - أحمد البوني، الدرّة المصنونة في علماء وصلحاء بونة، تح: محمد لخضر بوبكر وسعيد دحماني، د. الوسام العربي، الجزائر، 2011م، ص 75.

³ - سعد بوفلاقة، الشيخ الإمام أحمد بن قاسم البوني تأملات في حياته وآثاره، بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2015، ص ص 28-22.

⁴ - زينب اخلف، الطب الشعبي في الجزائر العثمانية من خلال مخطوط "إعلام أهل القريحة بالأدوية الصحيحة"، مجلة رفوف، جامعة أدرار، المجلد 10، العدد 02، الجزائر، جويلية 2022م، ص 38.

⁵ - عبد العي بن عبد الكبير الكتاني، نفسه، ص 236.

- نظم في منافع الثوم.
- الأدوية المفردة الثابتة للأذكيا.
- الكفين في أمراض العين.
- مختصر كتاب المنافع البينة لابن باديس الصنهاجي.
- 3-2- طريقة التطبيب عند أحمد بن قاسم البوني من خلال مخطوطه:
- 1-3-2- التعريف بالمخطوط ووصفه:

المخطوط الطبي جاء بعنوان "مبين المسارب للأكل والطب مع المشارب"، لمؤلفه أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني التميمي، أنهى المؤلف كتابته في يوم الجمعة 13 صفر من سنة 1132 هـ/ 1719-1720 م كما ورد في آخر المخطوط¹، وقد وُجد هذا الكتاب محفوظاً بالمكتبة الوطنية الجزائرية مصلحة المخطوطات والكتب النادرة تحت رقم 1775 مصور بشكل PDF، وهي النسخة التي بُني عليها هذا البحث. ونص هذا الكتاب مدون بخط مغربي مقروء كاملاً؛ جاء في شكل أرجوزة مقسمة إلى تسعة "9" أقسام؛ وكل قسم إلى مجموعة فصول؛ بحيث لمسنا تنوع في النصوص من أوله إلى آخره، فذكر الكاتب المرض مرفوق بالعلاج، أما بخصوص حالة الكتاب فهو بحالة جيدة؛ دُون بقلم مداد أسود وبعض الكلمات كتبها المؤلف بالمداد الأحمر، مثل كلمات: محمد وغيرها، كما لوحظ وجود ترقيم عربي بأعلى كل ورقة من جهة اليسار بخط المؤلف الناسخ، كما يحوي أيضاً على بعض الهوامش ويبدو أنها عبارات سقطت سهواً من المؤلف نفسه، وبخصوص كراسة هذا الكتاب فهي تتكون من خمسة وخمسون "55" لوحة بمقاس: 237 × 175 سم؛ كما تحوي غالبية هذه الألواح على عدد متقارب من الأسطر تتراوح ما بين 22-23 سطراً، وعن نوعية أوراقها ولونها فهي متينة ذات لون أصفر بني؛ وهي كاملة من اللوحة الأولى إلى اللوحة الأخيرة. جاءت بداية هذا الكتاب بالبسملة والحمدلة والصلاة على الرسول ﷺ مثلما تكون عليه الصيغة العامة للمخطوطات، ثم عبارة كُتبت بالمداد الأحمر "هذا نظم الشيخ البركة سيدي أحمد البوني ابن في علم الطب والله الموفق للصواب"، لتبتدأ الأرجوزة بقوله:

| | |
|-------------------------|---------------------------|
| يقول أحمد الفقيه البوني | هو ابن قاسم الرضى المصون |
| ومن تميم نسبا غفر له | جميع ذنبه بجاه الكملة |
| الحمد لله أنه أياحا | الطيبات زادنا أرباحا |
| جاعل علم الطب نصف العلم | كما أتى عن النبي ذي الحلم |

¹ - أحمد بن قاسم البوني، مبين المسارب للأكل والطب مع المشارب، المخطوط رقم 1775، المكتبة الوطنية الجزائرية مصلحة المخطوطات والكتب النادرة، الجزائر، ص 55.

قال من استطاع منكم ينفع أخاه فلينفعه ذلك يرفع¹
أما عن نهايته فكانت في شكل أدعية على توفيق الله لإتمام كتابة الكتاب ومما جاء فيها:
تحب من يلح في الدعاء فاقبل دعاء أحمد الدعاء
كان التمام في محرم الحرام سنة اثنتين أيا ذوي احترام
بعد ثلاثين وألف ومائة وغفر الله لنا وللفيه
في نصف شهر قد فرغت منه أعاني الله القوي عنه²
2-3-2- أهمية المخطوط:

يعد الكتاب من أهم المصادر المخطوطة التي تناولت موضوع الطب التقليدي والأمراض بالجزائر العثمانية، وتكمن أهميته بالدرجة الأولى في أن مؤلفه المطيب أحمد بن قاسم البوني، أي أنه مدرك بالموضوع الذي يؤلف فيه، كما جاء فيه أيضا أن مؤلفه المطيب استقى أغلب الطرق والأفكار من شيوخه بدء بوالده قاسم الذي استقى العلم بدوره من شيخه الأجهوري، وكذا الشيخ يحيى الشاوي، والشيخ محمد الخرشبي،... وغيره من المشاركة الذين كان لا يفارق مجالسهم ويسجل ملاحظاتهم، زيادة على اعتماده على مشاهداته الشخصية جراء تجريبه للدواء على عدد من المرضى، وإذا أمعنا النظر على ملاحظاته التي تخص مجال الطبي فإننا نستنتج أنه اتسم بدقة التشخيص - أي تشخيص المرض - وموضوعية الطرح وضبط العلاج دون تحيز.

كما تتضح محتوياته أيضا في كونه يبرز طرق الإستطباق التقليدية لدى هذا المطيب، إلا أن الكتاب جاء ليذكر أبرز أسماء هذه الأمراض الشائعة والتي كانت منتشرة بين أواسط الأهالي فسواء كانت تلك الأمراض معروفة أو مجهولة؛ إلا أنه استطاع في كل حالة مرضية أن يشخص المرض بالنص الصريح المختصر مع إبراز طريقة التداوي التقليدي المناسبة لهذا الداء، وبهذه الطريقة استطعنا أن نلم بأبرز الأمراض التي ظهرت بالمجتمع الجزائري في تلك الآونة، ومن بين الأمراض المذكورة نذكر: أمراض الأم المعدة، أمراض القولنج، الحمى الربيع، السم المدسوس في الأكل والمشروب، القروح، مرض النساء،... وغيرها من الأمراض.

والملاحظ أيضا، إمكانية التمييز بين طرق التداوي بالأعشاب الطبيعية المتنوعة لديه لملاحظة الاختلاف في التركيبة الدوائية المستخلصة من هاته النباتات؛ فكل طريقة علاجية جربها هذا المطيب على المريض تصلح لعلاج سقما معيناً دون غيره، فمن بين الأعشاب الهامة التي ورد ذكرها نذكر: الريحان، السدر، الخروب، الزعتر، العليق، الخردل، الدفلة، ورق القرع... وغيرها.

1 - أحمد بن قاسم البوني، مابين المسارب... نفس المخطوط، ص 02.

2 - نفسه، ص 55.

2-3-2- طريقة التطبيب التقليدي من خلال المخطوط :

تنوعت طرق التطبيب عند المطيب أحمد البوني جراء توظيفه لمجموعة من الأعشاب الطبيعية ومزجها مع بعض المواد الغذائية الاستهلاكية من أجل معالجة المرضى، بالإضافة إلى اقتراحه لجملة من النظم الوقائية والإحترازية منها: العلاج بالأعشاب الطبية كحرق النبات العطري، وتعطير الملابس من أجل إحتراز من الطاعون وللقضاء عليه. وسنوضح في الجدول أدناه نماذج من طرق الإستطباب لديه.

الجدول رقم 03: نماذج لبعض الأمراض وطرق علاجها حسب المخطوط.

| المرض | طرق الإستطباب | طريقة العلاج من المخطوط |
|---------|--|---|
| القولنج | إذا داوم المريض بالقولون على شرب العسل على الريق فإنها سيشفى من كل أعراض هذا الداء. | قوله: "... من مرض القولنج شريك العسل *** قال على الريق أخي بلا كسل..." ¹ |
| الكبد | إذا أكل السقيم ودوام على أكل الرمان فإنه سيشفى من هذا المرض، وكذلك الزبيب الأحمر منزوع العجم أو مصطكى شرباً أو ضماداً والكمون يقوي الكبد الباري ² . | قوله: "...رماننا يصلح للأكباد ³ ..." |
| النقرس | وهو ورم ووجع في مفاصل الكعبيين وأصابع الرجلين إذا ضمد بعصارة كزبرة خضرا نفعه إن كان حارا وأما البارد فالتضميد بملح وخل ينفعه ككبريت وقطران ضمادا . | قوله: "...عصارة كزبرة خضرا..." |

¹ - أحمد بن قاسم البوني، ميين المسارب... نفس المخطوط، ص 2.

² - جهيدة بوعزيز، التداوي التقليدي في الجزائر العثمانية من خلال المخطوطات الطبية المحلية في القرن الثامن عشر- مخطوطات أحمد البوني أنموذجا، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة أبو القاسم سعد الله -الجزائر، الجزائر، 2019-2020م، ص244.

³ - أحمد بن قاسم البوني، ميين المسارب... نفسه، ص 2.

| | | |
|--|---|------------|
| قوله: "... وأكل الأفيون ينفع الكلا ويذهب السعال إذ ما أشكلا قتل وقلد يا أخي بن حلا مثل القرافي ليس ممن ضللا..." ¹ | إذا أكل السقيم ودوام على أكل الأفيون بمقدار محدد سيذهب عنه الداء. | وجع الكلا |
| قوله: "... وكرفس قال يقوي المعدة يطيب النكهة لا مباحة..." ² | إذا أكل السقيم ودوام على أكل نبات الكرفس يوميا بمقدار محدد سيذهب عنه الوجع. | وجع المعدة |

3- نظرة الرحالة الأجانب للطب التقليدي:

تباينت نظرة الرحالة الأجانب من الأطباء الأوروبيين وغيرهم بين معارض ومؤيد حول مسألة التداوي بالأعشاب، وهذا بسبب عدم الثقة الكافية لهؤلاء في الطب المحلي التقليدي، ومن بينهم لوجي دو تاسي Laugier de Tassy الذي قال: "... لا يوجد طبيب لا في مدينة الجزائر ولا في أي ناحية من المملكة..."³، وطرحه هذا لا يختلف عن طرح القنصل الأمريكي وليام شالر في قوله: "... أن الطب نفسه لا يوجد من يدعيه، هذا إذا استثنينا المشعوذين وكتاب الحرور..."⁴ ومن الرحالة الذين قمنا برصد مواقفهم نذكر:

1-3 الرحالة الانجليزي توماس شو:

يعترف توماس شو⁵ بوجود بعض الأطباء الجزائريين المحليين ويذكر طريقتهم في معالجة الأمراض بالأعشاب، ويذكر مجموعة من الوصفات الطبية التقليدية التي يستعملونها لها لمداداة مرضاهم، على غرار وصفة الحمى والجذري والروماتيزم والالتهاب وغيرها⁶، وفي الوقت ذاته يقزم هؤلاء الأطباء ويقلل من شأنهم ومكانتهم بين الأهالي، ويصفهم بالجهلة نظراً لعدم قدرتهم على التحصيل العلمي الطبي لديهم بجهدهم لمنابع ومصادر الطب⁷.

¹ - أحمد بن قاسم البوني، مابين المسارب... نفس المخطوط، ص 18.

² - نفسه، ص 2.

³ - Laugier de Tassy, Histoire du royaume L'Alger, Editions Loysel, Paris, 1992, P82.

⁴ - وليام شالر، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824م)، تر: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص 81.

⁵ - رجل دين ورحالة بريطاني، ولد حوالي 1694م في كيندال Kindal بإنجلترا وتوفي سنة 1751م، سافر إلى مدينة الجزائر وغيرها من المدن خلال إقامته بها، حيث استطاع تدوين ملاحظاته حول المجتمع الجزائري وعلاقته بالسلطة المركزية. للمزيد أنظر: عبد الحميد عمران، قبائل شرق الجزائر قراءة في بعض العادات والذهنيات حسب الدكتور توماس شو من خلال كتابه رحلة في مدينة الجزائر، المجلة التاريخية الجزائرية، العدد 05، جامعة المسيلة، ديسمبر 2017م، ص 57.

⁶ - Shaw Thomas, Op .cit, PP 82-83.

⁷ - Ibid, P 80.

كما يرجع هذا الرحالة النقص الحاد في عدد المستطبيين الأكفاء بالجزائر إلى عدم وجود أمراض خطيرة بها، وإن وجدت فسوف تبرز بنسبة ضئيلة والتي تكون عادة غير مميتة أو أنها ليست طويلة الأمد على الأقل¹.

2-3- الطبيب جون أندري بايسونال:

لا تختلف نظرة هذا الطبيب عن غيره من الأطباء الأوروبيين، فبرزت نظريته الإحتقارية للأطباء الجزائريين؛ إذ ينعتهم بالجهل في كل المسائل قائلا: "... العريان شديداً والجهل في كل ما يتعلق بالعلوم..."، حيث راح يصفه بأبشع الألفاظ والنعوت وهذا من خلال تهكمه على الطب التقليدي المحلي حيث قال: "... أن جهلهم كبير لدرجة أنهم لا يعرفون ولا يعالجون أي مرض..."²

3-3- الطبيب جوهان أرندست هابنسترايت:

اتضح نظريته الدونية اتجاه الأطباء المحليين والأهالي؛ في قوله: "... لا أستطيع أن أقنع هؤلاء الناس بأن كل مرض من الأمراض يتطلب دواءً خاصاً... بأن دواء واحد كفيلاً أن يشفى كل الحالات المرضية..."³

4- انعكاسات تفشي هذه الأمراض والأوبئة على مجتمع الإيالة:

ولم تتوقف السلطة المركزية في الجزائر مستسلمة أمام انتشار هذه الأمراض، بل حاولت التصدي لها وفقاً لشراسة وقوة تلك الأمراض والأوبئة وسرعة تفشيها، كما عملت على نشر ثقافة الوقاية منها، وما تشكله من خطورة وحتى تصويب اعتقادات الأهالي حول موضوع الموت والحياة؛ وكذا ضرورة التي يقول بها الدين الإسلامي في الوقاية و المعالجة من كل الأمراض السابقة الذكر⁴.

وهذه الإجراءات تفند ما يدعيه البعض، من أن السلطات المركزية لم تعالج من المصابين بالأمراض البوائية غير المرضى المتواجدين بالموانئ البحرية كالقل وعنابة وبجاية وكذا جيغل من الجهة الشرقية، ومن الجهة الغربية كمديني وهران ومستغانم وغيرهما، وعملت على حماية الأصحاء، وأنها غضت الطرف عن المصابين في الحدود البرية ودواخل المدن⁵.

1.4. تراجع وتيرة النمو الديمغرافي:

¹ - Ibid, P 81.

² - جهيدة بوعزيز، المرجع السابق، ص 91.

³ - ناصر الدين سعيدوني، رحلة العالم الألماني ج. أر. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145-1732م)، د. الغرب الإسلامي، تونس، 2013.

⁴ - Boubaker Sadok, La peste dans les pays des Maghreb Attitude face au fléau et impacte sur les activités commerciales XVIème- XVIIIème siècle, Revue d'histoire maghrébine N° 69 -70, 1995, P324.

⁵ - فرنسوا أرنوبل، علم الأوبئة في البحر الأبيض المتوسط في القرن 17 م -20م، مجلة التاريخ للدراسات، ع 17-18م، 1998م، ص

لقد سجل المنحى البياني لنمو السكان في الجزائر خلال القرن 18م تراجعاً بسبب انتشار العديد من الأمراض والأوبئة؛ وبسبب الكوارث الطبيعية وحتمية هذه الظواهر والتي أثرت على انخفاض الزيادة الطبيعية نتيجة ارتفاع معدل الوفيات وانخفاض معدل المواليد سنوياً ذلك من خلال الجدول أدناه:

الجدول رقم 03: يبرز تراجع تعداد السكان في الجزائر العثمانية ما بين 1731-1788م.

| السنوات | 1731 | 1755 | 1788 |
|----------------|--------|--------|-------|
| عدد السكان (ن) | 150000 | 100000 | 50000 |

انطلاقاً من الجدول أعلاه، الذي يوضح تراجع عدد سكان في الإيالة ما بين فترتي 1731-1788م؛ ولعل مرد ذلك بالدرجة الأولى إلى انتشار الأمراض المعدية والأوبئة بين أوساط الأهالي وعلى رأسها وباء الطاعون الذي شهدته مدينة الجزائر خاصة سنوات: 1730، 1733، 1778، 1799، 1800م؛ وهي فترة طويلة تكشف عن الخسائر البشرية الفداحة التي حصدها هذا الوباء، والتي لم يسلم منها حتى الداوي علي خوجة الذي توفي بعد إصابته به¹.

2.4. تدهور الحالة النفسية للمصابين:

لقد أصبح الأهالي الناجون من مختلف الأمراض والأوبئة في ضيق وحرَج نفسي كبير، فمنهم من برزت لديه اضطرابات نفسية وكذا عدم الإلتزان في شخصيته وهذا الاضطراب وعدم الإلتزان مردهما إلى الإعاقة الحركية بالدرجة الأولى، أو تأثيرات الإصابة في شبكية العينين على نفسية المصاب حتى أصبح كفيفاً... وغيرها.

3.4. اللجوء إلى الطب الأوروبي:

لقد تأثر الأطباء الأجانب بالوضعية الكارثية التي آل إليها المجتمع الجزائري، فكلما جاء أجنبي إلى منطقة معينة يُنظر إليه الأهالي على أنه طبيب ودليلنا في ذلك: "...من يذهب للبحث عن النباتات ينظر إليه هناك بأنه متطبيب أو مداوي بالأعشاب ويطلقون عليه اسم الباربيرو أو الحلاق هو الإسم الذي يعرف به الطبيب الذي يحظى لديهم بكل احترام وتقدير لمهنته هذه..."²، وفي موقف آخر طلب الداوي علي الكردي من الطبيب الألماني تحضير مستحضر علاجي لإبنه المريض بقوله: "...على مغادرة الجزائر شريطة أن أترك له الأدوية التي كان لها مفعول في معالجة ابنه وأعلمه كيفية استعمالها، فقامت بتحضيرها وسلمت الوصفة الخاصة بها لحرسه الشخصي ليتمكن من استخدامها في معالجة ما يلزم به وبأصدقائه من الأمراض..."³

¹ - Boubaker Sadok, op.cit, P312.

² - ناصر الدين سعيدوني، المرجع نفسه، ص 43.

³ - نفسه، ص 77.

وفي هذا المقام، صرح القس بواري Poiret الذي نزل بالقالة سنة 1786م قائلاً: "...إن سكان القالة كانوا يقدرّون الأطباء الأوروبيين الذين يتواجدون بالصدفة عندهم، ويستقبلونهم بحفاوة؛ وأنه بمجرد رؤيتهم لطبيب أوروبي يتهافتون عليه لطلب الكشف عليهم حتى ولو كانوا أصحاء؛ رغبة منهم في عدم تفويت الفرصة..."¹

4.4. تعطل حركة التعليم:

لقد كان العامل الطبيعي المتمثل في الأوبئة أبرز عائق يحول دون مواصلة الطلبة لتعليمهم في المدارس والزوايا لتجنب الاحتكاك بين المصابين والأصحاء، فبالرغم من وجود المؤسسات التعليمية إلا أنها هي الأخرى شهدت توقف وشلل بسبب غياب طلبتها ليتفشى الجهل بين أواسطهم.
خاتمة:

وفي الأخير ومن خلال تطرقنا لموضوع الطب التقليدي في مواجهة الأمراض والأوبئة بالجزائر العثمانية خلال القرن 18 م من منظور الطبيب أحمد بن قاسم البوني، خرجنا ببعض النتائج التي سنوضحها كما يلي:

إن هذا الموضوع يعد المرأة العاكسة عن الأحوال الصحية السائدة في الجزائر العثمانية، فهو يصور جميع الأمراض والأوبئة المنتشرة بين أواسط الأهالي الجزائريين في المدن الكبرى أو في أحوازها، كما يبرز هذا الموضوع الدور المنوط الذي لعبه المطيب أحمد بن قاسم البوني في الحد من هذه الأمراض وحصنها خاصة وباء الطاعون.

كما لوحظ إهمال خطير في علم الطب والجراحة والصيدلة عند هذا المطيب. إلا أن كتابه المدرّوس يعتبر مصدراً أولياً يرجع إليه الباحثون في الدراسات التاريخية لجمع مادتهم الخبيرة، لإزالة الغموض عن الطب التقليدي المعروف آنذاك والذي تعود جذوره إلى ما قبل العصر الحديث.

وأخيراً، إن التأريخ للطب التقليدي والأمراض وكذا الأوبئة في إيالة الجزائر هو مجهود علمي يجب الإشادة به ودعمه بكل السبل حتى لا يتوقف، وأن لا يبقى حبيس ظروف استثنائية أو مناسباتية، بل الأصح في كل ذلك هو مواصلة الكتابة والبحث عن كيفية التداوي بالأعشاب لمواجهة الأمراض والأوبئة وسبل علاجها.

قائمة المصادر والمراجع:

الكتب:

- أحمد بن قاسم البوني، مبين المسارب للأكل والطب مع المشارب، المخطوط رقم 1775، المكتبة الوطنية الجزائرية مصلحة المخطوطات والكتب النادرة، الجزائر.

¹ - Poiret, L'abbé, Voyage en barbarie ou lettres sur ancienne Numidie (1785-1786), Paris, (1789), P133.

- أحمد البوني، التعريف ببونة إفريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف، تح: سعيد دحماني، د. كنوز الرشيد، الجزائر، 2015م.
- أحمد البوني، الدرّة المصنونة في علماء وصلحاء بونة، تح: محمد لخضر بوبكر وسعيد دحماني، د. الوسام العربي، الجزائر، 2011م.
- أحمد الشريف الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر 1754-1830، تح: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م.
- أبي القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة فونتانه الشرقية، ج2، الجزائر، 1906م.
- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، تح وتع: محمد بن تاويت الطنجي، د. الكتب العلمية، ط1، ج1، بيروت، 1983.
- سعد بوفلاقة، الشيخ الإمام أحمد بن قاسم البوني تأملات في حياته وآثاره، بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2015.
- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، منشورات المكتب التجاري، بيروت، 1971م.
- عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيوخات، تح: إحسان عباس، د. الغرب الإسلامي، ط2، ج1، بيروت، 1982م.
- فلة القشاعي، الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الإحتلال الفرنسي 1518-1871م، وزارة الثقافة، الجزائر، 2010.
- محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية، تق وتع: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
- وليام شالر، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824م)، تر: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.
- Diego Fray Haédo, topographie et histoire générale d'Alger, R.A, N° 15, Alger, 1871.
- E, Niersiol, " La régence" Alger vue par un allemand au XVIII siècle, pub -s- Histoire Algérienne, 1930.
- Laugier de Tassy, Histoire du royaume L'Alger, Editions Loysel, Paris, 1992.
- Poiret, L'abbé, Voyage en barbarie ou lettres sur ancienne Numidie (1785-1786), Paris, 1789.
- Thomas Shaw, voyage dans la régence d'Alger, tradition de l'anglais: marlin J, Meccarthy, 2ème Edition, Tunis, 1980.

المقالات :

- زينب اخلف، الطب الشعبي في الجزائر العثمانية من خلال مخطوط " إعلام أهل القريحة بالأدوية الصحيحة"، مجلة رفوف، جامعة أدرار، المجلد 10، العدد 02، الجزائر، جويلية 2022م.

- عبد الحميد عمران، قبائل شرق الجزائر قراءة في بعض العادات والذهنيات حسب الدكتور توماس شو من خلال كتابه رحلة في مدينة الجزائر، المجلة التاريخية الجزائرية، العدد 05، جامعة المسيلة، ديسمبر 2017م.
- فلة موساوي قشاعي، وباء الطاعون في الجزائر العثمانية دوراته وسلم حدته وطرق انتقاله، مجلة دراسات انسانية، ع 1، الجزائر، 2001.
- محمد الزين، نظرة على الأحوال الصحية بالجزائر العثمانية أواخر عهد الدايات، مجلة البحوث والدراسات، ع 17، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2012.
- نادية فتيسي، الطب في العهد العثماني من خلال رسائل المجموعة 1641 –رسالة صالح باي إلى وكيل الباستيون رقم: 53 أنموذجا-، المجلة التاريخية الجزائرية، المجلد 06، العدد 02، الجزائر، سنة 2022م.
- Boubaker Sadok, "La peste dans les pays des Maghreb Attitude face au fléau et impacte sur les activités commerciales XVIème- XVIIIème siècle", Revue d'histoire maghrébine N° 69 -70, 1995.

الرسائل الجامعية:

- أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر 2، 2005-2006م.
- جهيدة بوعزيز، التداوي التقليدي في الجزائر العثمانية من خلال المخطوطات الطبية المحلية في القرن الثامن عشر- مخطوطات أحمد البوني أنموذجا-، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة أبو القاسم سعد الله –الجزائر 2، الجزائر، 2019-2020م.
- صليحة علامة، الأحوال الصحية بالجزائر خلال الاحتلال الفرنسي من 1830-1962 م، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة أبي بكر بلقايد –تلمسان، الجزائر، 2017م.
- عثمان بوحجرة، الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي 1518 - 1871، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة وهران، الجزائر، 2015.
- محمد الزين، الأوضاع الاجتماعية والصحية في الجزائر العثمانية 1518 - 1830م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر (غير منشورة)، جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر، 2010-2011م.
- Jean Marchika, Histoire de la peste en Algérie de 1363 a1830; Thèse pour le Doctorat en Médecine, maison bastide-Jourdan, Alger, 2021.

العلوم الطبية في المغرب الإسلامي وإسهام المرأة فيها

Medical sciences in the Islamic Maghreb
and the contribution of women to it

ط د، صديقي محمد، جامعة تلمسان (الجزائر)

sedm4137@gmail.com

الملخص:

تعتبر العلوم الطبية من بين العلوم العقلية التي إهتم بها العرب منذ فجر الإسلام ، فالطب والمداواة أخذ قصب السبق من الإهتمام من طرف العرب المسلمين والسبب راجع لأهمية المداواة خصوصاً خلال تلك المرحلة التي تميزت بكثرة المعارك والحروب التي خاضها المسلمون خلال الفتوحات الإسلامية ، مما إستلزم الإهتمام بالطب ومداواة الجرحى ، الأمر الذي أفرز العديد من العلماء الذين برزوا في هذا المجال ، وتواصل هذا الإهتمام في مختلف المناطق الإسلامية ليشمل أيضا بلاد المغرب الإسلامي والأندلس، ولم يقتصر الإنتاج الفكري في مجال العلوم الطبية على الرجال فقط ، بل كان للنساء أيضاً حضور متميز في هذا المجال ومقالنا هذا سيعالج إشكالية تطور العلوم الطبية والمداواة في المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط وإسهام المرأة فيها ، حيث سنستعرض واقع العلوم الطبية في المغرب والأندلس و ابرز العلماء والأطباء الذين ساهموا في تطوير هذه العلوم ، وإبراز دور المرأة المغربية والأندلسية في الحركة الطبية ، ومن هنا نطرح إشكالية واقع العلوم الطبية في المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط و دور المرأة في هذا، و سنحاول من خلال هذا المقال التأسيس لمقاربات تاريخية تكشف لنا واقع العلوم الطبية والمداواة في المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط وتطورها تدريجياً مع إبراز جهود المرأة في مجال التطبيب.

الكلمات المفتاحية: العلوم الطبية ، المغرب الإسلامي ، الأندلس ، المرأة.

Abstract:

The Medical sciences are among the mental sciences that Arabs have been interested in since the dawn of Islam, the Medicine and healing took the lead from the interest of Arab Muslims, and the main reason for this is due to the importance of medication, especially during that period, which was marked by the abundance of battles and wars that Muslims fought during the Islamic conquests, which necessitated attention to medicine and the treatment of the wounded, this is produced many scholars who have emerged in this field, and continued in various Islamic regions to include as well the Islamic Maghreb and Andalusia, and this Intellectual production in the field of medical sciences was not limited to men only, but women also had a distinguished presence in this field. This article will address the problem of the development of medical sciences and healing maghreb during the Middle Ages and the contribution of women to it, we will review the reality of medical and the most prominent scientists and doctors who contributed to the development

of these sciences, and through this article, we will try to establish historical approaches that reveal to us the reality of medical sciences and healing in the Islamic Maghreb during the Middle Ages and their gradual development, while highlighting women's efforts in the field of medicine.

Key words: Medical sciences, Islamic Maghreb, Andalusia, women.

1- العلوم الطبية في المغرب الإسلامي:

لقد عرفت العلوم الطبية وتيرة متباطئة ببلاد المغرب الإسلامي منذ القرن الثاني للهجرة، حيث اهتم المجتمع المغربي حينها بالعلوم الدينية والفقهية تزامناً مع الفتوحات الإسلامية، وتأخر ازدهار الطب والفلسفة بحواضر إفريقية إلى أواخر العهد الأغلبي، والسبب أن المغرب العربي وجه اهتمامه بصفة شاملة إلى العلوم الدينية بدرجة أولى مثلما أشرنا إليه آنفاً، إلى أن وفد بعض الأطباء العراقيين على إفريقية مما أدى إلى انتعاش الطب والفلسفة¹، فمع مطلع القرن الثالث هجري، ازدهرت في القيروان العلوم الطبية بتشييد مدرسة طبية رائعة، كان من أول روادها إسحاق بن عمران² الذي قدم من بغداد بدعوة من الأمير الأغلبي سنة 273هـ/887 م، وكانت آنذاك صناعة الطب لم تدخل إلى بلاد المغرب بعد، حيث يعتبر من الأوائل الذين أدخلوا علوم الطب والمداواة إلى بلاد المغرب الإسلامي، وتعلق ابن عمران بمبادئ الطب وآدابه، حيث كان طبيباً للأمرء والنبؤساء على حد السواء³، ويعتبر إسحاق بن عمران ذو الأصل البغدادي من الأوائل الذين دخلوا إفريقية في عهد دولة زيادة الله بن الأغلب التميمي، وكان هذا الأخير من جلبه إلى إفريقية، وبفضله ظهر الطب والفلسفة في المغرب وكان طبيباً خادقاً، متميزاً بتأليف الأدوية المركبة، استوطن حيناً من الزمن، وألف عدة كتب، أبرزها كتابه المعروف بنزهة النفس وكتابه في الفصد وآخر في النبض، ولإسحاق كذلك مؤلفات أخرى منها كتاب الأدوية المفردة وكتاب العنصر والتمام في الطب، و مقالة في الاستسقاء و كتاب جمع فيه أقاويل جالوس في الشراب، وكتاب له في المعدة ورسوب البول وبياض المني⁴، وكان يستعمل في التداوي الوسائل العلاجية والنفسية، والاعتناء بالمريض من الناحية

- 1 راجع بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، البشائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2019، ص 76.
- 2 إسحاق بن عمران: يكنى أبو علي وهو أول طبيبٍ على مستوى علي ظهر في الديار التونسية في العهد الأغلبي وكان يعرف لسرعة إبرائه للمرض بإسم: سم ساعة، كنا من أطباء بغداد وسمراء في أيام الخليفة المعتمد على الله (256-279هـ/870-892م) لقد جلبه إبراهيم الثاني إلى القيروان ليكون طبيبه الخاص، ينظر إلى: كمال السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، دار النضال للطباعة والنشر، د.ط، د.س.ن، ص 561.
- 3 عمار سليم، طب النفس والأعصاب في المغرب والأندلس، المجلة العربية للطب النفسي، دار المنظومة للنشر، مج5، ع1 ماي، 1994، ص 75.
- 4 ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: نزار رضا، د.ط، منشورات دار مكتبة الحياة، د.س، بيروت، ص 479.

النفسية، كمواساته و دفعه للتنزه في الغابات والبساتين ، كما كان يمارس على المريض العلاج بالتغذية والحمية والاستحمام بالمراهم والأدهان، مثل زيت الكتان وزيت اللوز ، ودهان الخردل .

كما اهتم الأغلبية بالعلوم الطبية ، بظهور أول طبيب بإفريقية هو الطبيب السرياني النصراني يوحنا ابن ماسويه ، في حين تذكر المصادر أن البداية الأولى للطب بالقيروان كانت مع مجيء الطبيب العباسي إسحاق بن عمران الذي يعود له الفضل في تأسيس المدرسة الطبية القيروانية وباعث نهضتها الفكرية في العلوم النظرية والتطبيقية¹، و من الأطباء الذين ساهموا في العلوم الطبية في القيروان خلال فترة الأغلبية إسحاق بن سليمان الإسرائيلي ، وهو مصري الأصل ويهودي الديانة ، وسكن القيروان ولازم إسحاق بن عمران البغدادي وتلمذ على يده² ، وعرفت إفريقية أواخر القرن الثالث هجري قبيل سقوط دولة الأغلبية أشهر طبيب ، إنه ابن الجزائر³ الذي توفي في حدود سنة 320هـ/932م ، وقد نشأ في عائلة ذات صلة متينة بالطب ، حيث كان عمه ووالده طبيبان ، ولا شك أنه أخذ الطب عن عائلته و أستاذه إسحاق بن سليمان ، ومن أهم كتبه "زاد المسافر" ، الذي اعتمد في تأليفه على كتب إسحاق بن عمران ، إضافة إلى كتاب "الأدوية المفردة" وكتاب "المعدة وأمراضها ومداواتها" ، وقد تطرق ابن الجزائر لكل مجالات الطب والصيدلة ، وكذلك طب الأطفال الذي ألف كتاباً بشأنه سماه سياسة الصبيان وتديبيرهم⁴ .

ومن الفقهاء الأغلبية الذين كانت لهم دراية بالطب يوسف أبو عمر المغامي (ت: 288هـ/900م) الذي كان ممتهدناً للتطبيب ، ويحي بن عمر (ت: 289هـ/901م) الذي كان فقيه البدن⁵ .

وفي سياق الحديث عن العلوم العقلية في المغرب الإسلامي ، يلفت الانتباه انتعاش الفكر الطبي خاصة في عهد الفاطميين بظهور عدة أطباء على غرار إسحاق بن سليمان المعروف بالاسرائيلي و ابن الجزائر ، وهما في حقيقة الأمر عاصرا نهاية الدولة الأغلبية .

1 Ahmed Ibn M.lad , l cole medicale de Kairaoun aux 9eme et 10eme siecle , jouve et ncie , PARIS, 1933, p.11.

2 صاحي بوعلام ، الحياة العلمية بإفريقية في عصر الدولة الأغلبية (184-296هـ/800-909م) ، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الوسيط ، كلية العلوم الإجتماعية والإنسانية- قسم التاريخ – جامعة بن يوسف بن خدة ، الجزائر، 2009م، ص 162.

3 ابن الجزائر: هو أبو أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد المعروف بابن الجزائر ، من الأطباء الذين عاصروا الدولة الفاطمية بإفريقية وهو من أهل القيروان من عائلة تحترف الطب ، أخذ العلم عن أبي إسحاق بن سليمان وعاش نيفاً وثمانين ، ينظر إلى: ابن أبي أصيبعة ، مصدر سابق ، ص 181.

4 صاحي بوعلام ، مرجع سابق ، ص.ص:163.164.

5 المرجع نفسه ، ص 165.

ويعتبر الأمير الأغلبي زيادة الله الثالث أول أمير عرفت عهده بناء أول مستشفى بالقيروان وكان العاملون به يدرسون العلوم الطبية وعلوم الدين¹ ، وكانت مهام الأطباء في العهد الأغلبي تنحصر بصورة جلية في مداواة جرحى المعارك ومرافقة الجيوش² .

وفي العصر الفاطمي وبعد القضاء على دولة الأغالبة ، انتقل جل أطباؤها لخدمة الفاطميين وفي مقدمتهم إسحاق بن سليمان³ ، ومع حلول عهد بني زيري عرف النشاط الطبي فتوراً واضحاً مقارنة بتلك الطفرة التي عرفتها العلوم الطبية في عهد الأغالبة .

وفي القرن السادس هجري تواصلت الجهود في المجال الطبي ، حيث أولى الأمراء المرابطون والموحدون عناية كبيرة للدراسات الطبية و تنظمت مهنة الطب أكثر من أي وقت مضى و تأسست البيمارسنتات⁴ ، ففي عهد الموحدين كان الخليفة يوسف الموحي من رجالات الطب والصيدلة وكان له طموح في هذا العلم ، شأنه في ذلك شأن الطبيب السبتي أبي الحسن علي بن يقظان و أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمان السلوي، والشريف الإدريسي الذي كان له مؤلف سماه: الكتاب الجامع لصفات أشتات النبات ، إضافة للطبيب السعيد العماري الذي كان فاضلاً في صناعة الطب والهندسة وعلم النجوم⁵ .

وبالنسبة لعلم الطب في العهد الحفصي فقد أظهر الملوك الحفصيين عناية به ، فبرزت كوكبة من الأطباء إشتهروا بإسم الصقليين وراجت سمعتهم ومؤلفاتهم تونس والعالم العربي وعرف هذا العصر بعصر النهضة الطبية في تونس⁶ أو ما يسمى الفقهاء الأطباء على غرار أبو القاسم محمد بن أحمد الأموي المعروف بإبن أندراس الذي هاجر إلى بجاية وإستقر بها خلال سنة 660هـ/1263م ، و اشتغل بمهنة الطب

1 رحاب خضر عكاوي ، الموجز في تاريخ الطب عند العرب ، دار المناهل ، بيروت لبنان ، د.س.ن ، ص 245. ينظر: الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين، ج3، ط15، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، 2002م ، ص 56.

2 بلقاسم جدو، تطور العلوم النقلية والعقلية في بلاد المغرب الإسلامي على عهد الدول المستقلة (140-296هـ/757-909م)، مذكرة ماجيستر في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ والآثار ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ن جامعة باتنة ، 2013-2014م، ص113.

3 إسماعيل محمود ، الأغالبة ، سياستهم الخارجية ، ط3، عين للدراسات ، القاهرة، 2000، ص 187.

4 جمال أحمد طه ، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين ، دراسة سياسية وحضارية ، د،ط ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، جمهورية مصر العربية ، 201 ، ص 302.

5 محمد المنوني ، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ، ط23، مطبوعات المغرب للتأليف والترجمة ، الرباط ، 1497هـ/1988م ، ص،ص:122، 123، 124.

6 أحمد بن ميلاد ، الطب العربي التونسي في عشرة قرون ، ط2، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1999م ، ص 28.

وتدريسها¹، ومن أشهر أطباء هذا العصر الزركشي بدر الدين محمد بن بهادر الذي ترك كتاباً قيماً بعنوان "تاريخ الدولتين" و الذي استعرض فيه تاريخ الموحيدين والحفصيين وطبع لأول مرة بتونس سنة 1289هـ/1872م²، والطبيب أبو العباس أحمد بن خالد المالقي الذي استوطن بجاية وتضلع في العلوم الدينية والمنطق والعلوم الطبية³.

وفي عهد بني مرين أعتبر الطب من بين العلوم التي لقيت رواجاً كبيراً نظراً لاهتمام المرينيين بصحة المواطنين في دولتهم ، ولكثرة المارستانات التي أنشئت لعلاج المرضى والمصابين في عهدهم ومن مشاهير الأطباء أحمد بن محمد بن يوسف الجزنائي والمعروف بإبن شعيب المتوفي سنة 749هـ/1348م الذي أخذ الطب على يد يعقوب الدارس بتونس ، وسافر إلى غرناطة وهناك قام بدراسة ضخمة عن الأدوية المنفردة ، ومن الأندلسيين الذين عملوا بالطب في العاصمة المرينية فاس محمد بن قاسم بن أبي بكر القرشي المالقي ، رحل هذا الطبيب إلى فاس وتولى فيها الإشراف على المارستان ، ومن بين المؤلفات الطبية المشهورة في العصر المريني الكتاب الذي ألّفه ابن الخطيب وعنوانه عمل من طب عن حب ، تناول فيه الأمراض المختلفة وطرق علاجها⁴.

وفي الأندلس فقد عرفت العلوم الطبية رواجاً كبيراً فقد كثرت فيها المدارس الطبية ، ففي إشبيلية أنشأت مدرس كبرى نبغ فيها مشاهير الأطباء والحكماء ، كما كانت في طليطلة مدرسة أخرى للطب وكذلك في مدينة مرسية مدرسة ثالثة لا تقل إشعاعاً عن سابقتها ، وقد نالت مدارس الطب في قرطبة شهرة عظيمة بنجاح العمليات الجراحية التي أجريت فيها⁵ و يعتبر علم الطب وما يلحق به من علوم أخرى من أبرز العلوم التي حازت على إهتمام وعناية الأندلسيين بل لا نغالي إذا قلنا أن الطب يأتي في مقدمة العلوم التجريبية من حيث النشاط ووفرة الإنتاج العلمي في الأندلس ، وكان الأندلسيون يعولون في دراستهم لمسائل الطب على كتاب مترجم من كتب النصراري يقال له الأبريشيم بمعنى المجموع أو الجامع⁶ ، في هذا الصدد أنجبت البلاد

- 1 الغبريني ، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة بجاية ، تح: راجح بونار ، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1980 ، ص101.
- 2 أحمد بن عامر ، الدولة الحفصية، د.ط ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، 1392هـ/1972م ، ص 69.
- 3 محمد بن مخلوف ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، 1394هـ ، ص200.
- 4 محمد بن مخلوف ، مرجع سابق ، ص 349.
- 5 تركي علي محمود العزاوي ، أعلام الطب العربي في بلاد الأندلس ، بنو زهر الأندلسيون نموذجاً ، ط1، دار النوادر ، سورية ، لبنان ، الكويت ، 143هـ/2012م ، ص 28.
- 6 محمد بشير حسن راضي العامري، فصول في إبداعات الطب والصيدلة في الأندلس، د.ط، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1971 ، ص 54.

الأندلسية عباقرة الأطباء من بينهم الطبيب الزهراوي¹، وابن رشد القرطبي وابن جلجل² القرطبي وغيرهم، حيث أبدعوا في اختصاصاتهم الطبية³، وأنجبت مدن الأندلس مشاهير الأطباء أثناء الإزدهار الحضاري فابن جلجل صنف ستة كتب في الطب أشهرها كتاب "طبقات الأطباء والحكماء"، أما ابن رشد القرطبي ألف ستة عشر كتاباً في الطب والعلاج ويمكن القول أن ازدهار الطب والصيدلة بلغ ذروته في عصر الخلافة الأندلسية بين سنتي 300 و400هـ أي منذ تولي عبد الرحمان الثالث الحكم في الأندلس⁴، كما نبغ في العلوم الطبية بالأندلس مجموعة كبيرة من الرجال والنساء، فمنهم أحمد بن إياس من أهل قرطبة، الذي تمهر في علم الأدوية، وألف فيه كتاباً جليلاً لا نظير له، إضافة إلى عائلة بنو زهر من أعيان إشبيلية، فقد توارثوا هذا العلم جيلاً بعد جيل، وأولهم أبو مروان بن عبد الملك، وسار على نهجه ابنه أبو العلاء وحفيده أبو مروان⁵، ومن الأطباء الذين برزوا في القرن السادس هجري في الأندلس ابن الطفيل الذي ولد في وادي آش بغرناطة قبيل سنة 504هـ/1110م، مارس الطب في غرناطة وكان طبيباً والياً، لقد ألف ابن الطفيل كتباً مختلفة حول علم الهيئة والطب منها: رسالة حي بن يقظان وتفسير مخطوطة أرجوزة في الطب لابن سينا⁶، وأنجبت بلنسية الطبيب ابن طلحوس الذي ألف شرح ألفية ابن سينا وأبو الصلت⁷ أمية بن عبد العزيز

- 1 الزهراوي: يعد أبو القاسم الزهراوي من أكبر الأطباء الذين عرفتهم الأندلس تقول عنه الدكتورة زغريد هونكة في كتابها شمس العرب تسطع على الغرب: أن الجراح الأندلسي أدخل تجديداً ليس على علم الجراحة فحسب، بل أيضاً في مداواة الجروح وتفتيت الحصاة داخل المثانة وفي التشريح وإجراء العمليات، ينظر إلى: عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد، الطب ورائداته المسلمات، مكتبة المنار، ط1، الأردن، 1405هـ/1985م، ص 10. ينظر: شوقي أبو خليل، علماء الأندلس إبداعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوروبية، ط1، دار الفكر، دمشق، سورية، 1425هـ/2004م، ص 31.
- 2 ابن جلجل: هو سليمان بن حسان طبيب أندلسي ولد في قرطبة وخدم في بلاط هشام المؤيد بالله، من أهم مؤلفاته كتابه طبقات الأطباء والحكماء، ينظر إلى: باقر أمين الورد، معجم العلماء العرب، ج1، مر: كوركيس عواد، ط1، مكتبة النهضة العربية، بيروت، 1406هـ/1986م، ص 46.
- 3 محمد بشير حسن راضي العامري، فصول في إبداعات الطب والصيدلة في الأندلس، مرجع سابق، ص 6.
- 4 نفسه، ص.ص: 10:9.
- 5 أحمد شلي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج4، مكتبة النهضة الإسلامية، ط10، القاهرة، 1995م، ص 134. ينظر إلى: محمد بشير حسن راضي العامري، فصول في إبداعات الطب والصيدلة في الأندلس، مرجع سابق، ص 28.
- 6 سلمى الخضراء الجيوسي، مرجع سابق، ص 1105.
- 7 أبو الصلت: من مواليد دانية بالأندلس وإليها ينسب إسمه، غادر إلى تونس وكان عمره ثلاثون سنة، كان منجماً قديراً وأديباً ينظم الشعر ويهوى الفلسفة ويتقن الحساب، ينظر إلى: كمال السامرائي، مرجع سابق، ص 579.

الأندلسي صاحب كتاب الأدوية المفردة وابن خاتمة¹ الأندلسي صاحب كتاب تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الواقد والرميلي صاحب كتاب البستان في الطب والرندي صاحب كتاب الأغذية وحفظ الصحة²، وفي سياق الحديث عن الطب في الأندلس يستوقفنا ما قدمه العلماء الذين استقروا بالأندلس كابن الرقام محمد بن إبراهيم (ت: 715هـ/1315م) وهو من أهل مرسية ونزيل غرناطة وكان عالماً بالحساب والهندسة والطب وله عدة مؤلفات منها كتاب الشفا وكتاب الزيج القويم الغريب المرصد³.

2- إسهام المرأة في العلوم الطبية

أثبتت المرأة المغربية تضلعها في مختلف العلوم منها العلوم الطبية ، فكان إسهامها في علم الطب كبيراً، ففي عهد المرابطين ساهمت النساء المرابطيات في ممارسة الطب التقليدي، الذي امتننته عدة نساء خاصة المسنات⁴، حيث كنّ يلجأن لعلاج المرضى من خلال تحضير بعض العقاقير بمواد نباتية إستشفائية، وغير هذه الطريقة كانت النسوة تلجأن للشيوخ والأولياء طلباً للشفاء وتبركاً بهم بالدعاء، على غرار الشيخ أبي يعزي الينور ، الذي جاءته مرة صبية بها علة فمسح عليها فشفيت⁵، ولم ترد لنا المصادر التاريخية نساء مرابطيات طبيبات باستثناء أسرة بني زهر التي برعت في ميدان الطب⁶ والمداواة ، وكانت نساء هذه الأسرة ماهرات في علاج المرض ، مثل أم عمرو⁷ بنت أبي مروان بن الزهر أخت الطبيب أبي بكر

1 ابن خاتمة: هو أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة أبو جعفر الأنصاري ، طبيب ومؤرخ من الأنصار الأدياء البلغاء من أهل ألمرية بالأندلس ، من كتبه "مزية ألمرية على غيرها من البلاد الأندلسية" و "رائق الترية" و "إلحاق العقل بالحس في الفروق بين إسم الجنس وعلم الجنس" و "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الواقد" الذي وضعه في سنة 747هـ حيث ظهر في تلك الفترة وباء في ألمرية إنتشر في كثير من البلدان وسماه الإفرنج بالطاعون الأسود، ينظر إلى : باقر أمين الورد ، مرجع سابق ، ص 46.

2 محمد بشير حسن راضي العامري ، فصول في إبداعات الطب والصيدلة في الأندلس، مرجع سابق ، ص.ص:40.37.

3 محمد بشير حسن راضي العامري ، المرجع السابق ، ص 90.

4 مليكة حميدي، المرأة المغربية في عهد المرابطين (448-541هـ/ 1056-1146م) دراسة تاريخية ، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع ، الجزائر، 2011، ص 359.

5 نفسه ، ص 360.

6 نفسه ، ص 362.

7 أم عمرو :توفيت مع أخيها بعد تناول طعام مسموم سنة 595هـ/1198م ، ذلك ما يؤكد الدجيلي في أعلام العرب ، إذ يعتبر أن هذه الوفاة تسبب فيها الوزير أبي زيد عبد الرحمن بن يوجان الذي دس السم لابي بكر بن زهر وابنة أخته أم عمرو التي كانت ماهرة في فن الولادة وأمراض النساء ، وذلك أثناء إقامتهما في مراكش ، فتوفي الإثنين مسمومين ودفنا بحديقة الأمراء بذات المدينة ، ينظر إلى: عبد الصاحب عمران الدجيلي، أعلام العرب في العلوم والفنون ، ج2، ط2، النجف ، العراق ، 1386هـ/1966م ، ص 21.

بن الزهر ، والتي كانت متقدمة في الطب وماهرة في التدبير والعلاج ، وكانت لها الحظوة لدى أمراء بني عبد المؤمن ، فكانت تلج قصورهم وتداوي نساءهم وأطفالهم وإماءهم ، وكانت أشهر النساء الطبيبات في عصرها قادرة على علاج سائر أمراض النساء ، كما خلقت ابنتها في نفس المهنة ، وقد اشتهرت بالتوليد وعلاج أمراض النساء المستعصية وتوفيت بعد سنة 580هـ ، ويظهر مما سبق أن الطب التقليدي أو طب الأعشاب كان الأكثر انتشاراً مقارنة بالطب العلمي¹ ، أما في عهد الموحدين برزت بعض النساء في المجالات الطبية والصحية وتواصل نشاط أسرة ابن زهر في عالم الطب والمداواة ، فهذه أخت الحفيد أبي بكر بن زهر² و ابنتها اللتين كانتا عالمتين بصناعة الطب والمداواة ، ولهما خبرة جيدة فيما يتعلق بمداواة النساء ، الأمر الذي جعل الخلفاء الموحدون يكلفهن بمداواة أزواجهن ، حيث كانتا تزوران نساء المنصور لمعالجتهن ، وكانتا على دراية واسعة بالعديد من الأمراض النسائية وطرق علاجها كاحتباس الطمث وأسبابه والأوجاع المصاحبة له ومعرفتهن بعقل الرحم من الإختناق والسيلان والبثور والقروح والحكة والأورام السرطانية³ ، ولأسرة ابن زهر الأندلسية صيت ذائع في عالم الطب رجالاً و نساءً⁴ ولها باعٌ طويلٌ في عهدي المرابطيين والموحدين.

إذن هذا الإنتاج الطبي تمثل أسرة ابن زهر نموذج للأسرة الأندلسية التي أبدعت في العلوم الطبية بفضل ما قدمته أخت وابنة الحفيد أبو بكر بن زهر للمجتمع المرابطي والموحدي والأندلسي في مجالات صناعة الطب والأدوية وأمراض النساء والجراحة ، فلا نجد كتاب من كتب التراجم والسير الأندلسية إلا و ذكر سيرة هذه الأسرة العريقة.

وفي العصر المريني تعتبر عائشة بنت الشيخ محمد بن الجيار المحتسب بسببته شمال المغرب المنتمية لنساء القرن الثامن هجري طبيبة ماهرة ، قرأت علم الطب على صهرها الشيخ محمد الشريشي ونبغت فيه ،

1 أبي عبد الله محمد المراكشي ، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، سلسلة التراجم الأندلسية ، مج:5، السفر الثامن ، تح: إحسان عباس وآخرون، دار الغرب الإسلامي ، ط1، تونس ، 2012، ص 413. ، ينظر: مليكة حميدي، مرجع سابق ، ص 363.

2 أبوبكر بن زهر: لقد كان أبوبكر محمد الملقب الحفيد طبيباً نابغاً واديباً عبقرياً وحكيماً فذاً ولغوياً ممتازاً ويقال أنه لا يوجد في زمانه أعلم منه باللغة وحفظ القرآن ، وولدت للحفيد ابن زهر ابنة أصبحت طبيبة ماهرة وكذلك أصبحت ابنتها من بعدها ، ينظر إلى : عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد ، مرجع سابق ، ص 100.

3 محمد المنوني ، مرجع سابق ، ص 128. ينظر إلى: محمد بشير حسن راضي العامري، فصول في إبداعات الطب والصيدلة في الأندلس، مرجع سابق، ص 101.

4 جمال الدين محمد محمد الهنيدي ، تربية علماء الطبيعيات و الكونيات عند المسلمين في القرون الخمسة الأولى للهجرة ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1، المنصورة ، 1421هـ/2000م ، ص 63.

فكانت عارفة بالطب والعقاقير وما يرجع إلى ذلك ، وكانت بصيرة بالماء وعلاماته، واختصت بطريقة طبية في العلاج وذاع صيتها فتجاوز مدينة سبتة ليشيع داخل قصور بني مرين في فاس¹، وهذا ما تؤكدته عبارة مؤلف كتاب بلغة الأمنية يقول "وتأثرت لها بطريقتها صيت شيدته الأمراء فطالما كانوا يجيزونها بالهدايا والتحف وغيرها"²

أما في الأندلس لم تقتصر العلوم الطبية على إبداعات الرجال بقدر ما كان للمرأة حضوراً متميزاً في هذه العلوم ، حيث أورد لنا تاريخ الطب ورواده أن عدداً من الطبيبات هناك برعن في الطب والجراحة وإجراء العمليات الجراحية الخاصة بالنساء ، إذ تعتبر عائشة بنت الشيخ الكاتب أبو عبد الله بن الجيار الطبية التي قرأت علم الطب عن الشيخ أبي عبد الله الشريفي فكانت عارفة بالطب والعقاقير³ كما برزت أندلسيات كثيرات في مجال الطب⁴ مثل زينب طيبة بني هود من عمالة سرقسطة عارفة بالأعمال الطبية وخبيرة بالعلاج ومداواة آلام العيون والجراحات⁵، حيث ساهمت المرأة في أعمال الطب وصناعة الأدوية من العقاقير العشبية، حيث كانت تستعمل هذه الأعشاب كأدوية لتخفيف الآلام، والأمراض وكذا زيادة الجمال، وقد اشتهرت أخت الطبيب الحفيد ابن زهر وشقيقتها في ميدان الطب والمداواة، وكانت لهما خبرة بأمراض النساء، كما اشتهرت أيضاً أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجالي التي كانت واسعة الإطلاع وكثيرة المعارف، وبارعة في صناعة الطب والأدوية، حيث درست الطب وفهمت أغراضه وعلمت أسباب العلل⁶، وكانت أخت الحفيد ابن زهر وابنتها بفضل براعتهما وخبرتهما في صناعة الطب والمداواة ، تتكفلان بالرعاية الطبية لنساء المنصور⁷، وتعد أسرة بني زهر أسرة أندلسية شريفة عريقة ذات مجد وشهرة عظيمة في العلوم الطبية وأبنائها متبحرين في شتى العلوم كالفقه والأدب واللغة والحديث وخصوصاً العلوم الطبية

- 1 حياة قارة ، النساء في فضاء البحر الأبيض المتوسط ، الثقافة والمجتمع في العصر الوسيط ، د.ط ، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر ، الرباط ، المغرب ، 2011 ، ص 56.
- 2 مؤلف مجهول ، بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب ، تح: محمد بن تاويت ص 187.
- 3 محمد بشير حسن راضي العامري، فصول في إبداعات الطب والصيدلة في الأندلس، مرجع سابق ، ص 42.
- 4 نجلة نجم الدين أحمد كمال ، دور المرأة السياسي والثقافي في الأندلس في القرنين 2 و3 هجريين، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، الجامعة المستنصرية، المعهد العالي للدراسات السياسية والدولية ، قسم الدراسات التاريخية ، ص 137.
- 5 تركي علي محمود العزاوي ، مرجع سابق ، ص 404.
- 6 نجلة نجم الدين أحمد كمال ، مرجع سابق ، ص 138. ينظر إلى : عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد ، مرجع سابق ، ص 93. ينظر إلى: تركي علي محمود العزاوي ، مرجع سابق ، ص 405.
- 7 أحمد شلي ، مرجع سابق ، ص 134.

التي ورثوها أباً عن جد نساءً ورجالاً ، فشقيقة الحفيد أبو بكر مثلما أسلفنا الذكر كانت من النابغات في الطب شأنها في ذلك شأن ابنته التي يدعوها البعض بالحفيدة بنت الحفيد وابنتها وكلهن كن ماهرات في صناعة الطب والمداواة ولهن خبرات ممتازة في الأمراض النسوية والولادة ، وقد توصلت علاقة هذه الأسرة العريقة بالطب في مدينة إشبيلية بالأندلس واشتهر رجالها ونساؤها بالطب في الفترة الممتدة بين القرنين الخامس والسابع هجريين/ الحادي عشر والثالث عشر ميلاديين ، وفي هذا الصدد فقد جاء في كتاب "خبرات في التمريض" بقلم هيلين رايت (إن أخت الحفيد أبو بكر بن زهر و ابنتها كانتا عالمتين بصناعة الطب والمداواة ولهما خبرة جيدة فيما يتعلق بمداواة النساء وكانتا تدخلان على نساء المنصور أبي يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ولا يقبل المنصور وأهله إلا أخت الحفيد أو ابنتها)¹ وقد نالت أخت الحفيد وابنته سمعة مرموقة في علاجها للمرضى وخاصة².

خاتمة:

تعتبر العلوم الطبية من بين العلوم العقلية و النقلية التي لاقت اهتماماً منقطع النظير من طرف العرب والمسلمين عبر مختلف العصور والأمصار ، والسبب راجع بدون أدنى شك إلى الأهمية البالغة للمجال الطبي في حياة المسلمين التي تميزت بكثرة المعارك والحروب في إطار الفتوحات الإسلامية أو النزاعات القبلية أو غير ذلك وهي الدافع الرئيسي لهذا الاهتمام ، والمغرب الإسلامي واحد من الأصقاع التي عرفت فيها العلوم الطبية والمداواة تطوراً مستمراً ، عبر تاريخه الوسيط ، ويعتبر عهد الأغالبة عصر انتقال النهضة الطبية من المشرق إلى بلاد المغرب ، حيث وفد على إفريقية بعض الأطباء العراقيين ، وعرفت القيروان تشييد مدرسة طبية عظيمة كان أول روادها إسحاق بن عمران الذي إستقدمه الأمير الأغلبي الذي يعتبر من الأوائل الذين أدخلوا الطب إلى إفريقية ، حيث عمل على تطوير صناعة الأدوية ، إضافة للطبيب ابن الجزار الذي وفد على إفريقية أواخر القرن الثالث هجري وساهم هو الآخر في تطوير مهنة الطب ، وفي عهد الفاطميين انتعش الفكر الطبي أكثر بظهور أطباء أمثال إسحاق الإسرائيلي الذي عاصر نهاية الأغالبة ، وتواصلت جهود المرابطين والموحدين في العناية بالمجالات الطبية وظهر العديد من رجالات الطب على غرار الطبيب السبتي أبي الحسن علي بن يقظان والشريف الإدريسي ، الذين بفضلهم انتعش الفكر الطبي ، أما بالنسبة للحفصيين فقد أظهروا بدورهم عناية بالعلوم الطبية فبرزت كوكبة من الأطباء عرفوا بالصقليين ، والشأن نفسه في الدولة المرينية بفضل اهتمام الملوك المرينيين بصحة الرعية ، ومن مشاهير الأطباء في هذا العهد أحمد بن محمد بن يوسف الجزائني .

1 عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد ، مرجع سابق ، ص 96.

2 المرجع نفسه ، ص 97.

فيما عرفت الأندلس رواجاً كبيراً للعلوم الطبية فكثرت المدارس الطبية في كثير من المدن الأندلسية مثل إشبيلية و طليطلة و مرسية ، وأنجبت البلاد الأندلسية عباقرة الأطباء أمثال الزهراوي . ولم تقتصر الجهود العلمية في الشأن الطبي على الرجال فقط ، فقد ظهرت العديد من العالمات بمهنة الطب سواء في المغرب أو الأندلس ، وأثبتت المرأة جدارتها وتضلعتها في الطب والمداواة ومن أشهر الطبيبات أم عمرو وأخت الحفيد و إبتهاها وهن كلهن من عائلة ابن زهر المعروفة باشتهارها بالطب ، إضافة إلى عائشة بنت الشيخ بن الجيار في العصر المريني.

قائمة المصادر والمراجع:

01- المصادر

- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: نزار رضا ، د.ط، منشورات دار مكتبة الحياة ، د.س، بيروت، لبنان.
- الغبريني ، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تح: رابح بونار ، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1980 م.
- أبي عبد الله محمد المراكشي ، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، سلسلة التراجم الأندلسية ، مج:5، السفر الثامن ، تح: إحسان عباس وآخرون، دار الغرب الإسلامي ، ط1، تونس ، 2012 م.
- مؤلف مجهول ، بلغة الأمانة ومقصد اللبيب فيمن كان بسبته في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب ، تح: محمد بن تاويت .

02- المراجع:

- رابح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته ، البشائر الجديدة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2019
- كمال السامرائي ، مختصر تاريخ الطب العربي ، دار النضال للطباعة والنشر ، د.ط، د.س.ن .
- عمار سليم ، طب النفس والأعصاب في المغرب والأندلس ، المجلة العربية للطب النفسي ، دار المنظومة للنشر ، مج5، ع1 ماي، 1994.
- رحاب خضر عكاوي ، الموجز في تاريخ الطب عند العرب ، دار المناهل ، بيروت لبنان ، د.س.ن ، ص 245. ينظر: الزركلي ، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين، ج3، ط15، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، 2002م.
- إسماعيل محمود ، الأغلبية ، سياستهم الخارجية ، ط3، عين للدراسات ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية ، 2000م.
- جمال أحمد طه ، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين ، دراسة سياسية وحضارية ، د، ط ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، جمهورية مصر العربية ، 2001م.
- محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ط23، مطبوعات المغرب للتأليف والترجمة ، الرباط، 1497هـ/1988م.
- أحمد بن ميلاد ، الطب العربي التونسي في عشرة قرون ، ط2، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1999م.
- أحمد بن عامر، الدولة الحفصية، د.ط ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، 1392هـ/1972م .
- محمد بن مخلوف ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية، 1394هـ.

- تركي علي محمود العزاوي ، أعلام الطب العربي في بلاد الأندلس ، بنو زهر الأندلسيون نموذجاً ، ط1 ، دار النوادر ، سورية ، لبنان ، الكويت ، 143هـ/2012م .
- محمد بشير حسن راضي العامري، فصول في إبداعات الطب والصيدلة في الأندلس، د.ط، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1971م .
- عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد ، الطب ورائداته المسلمات، مكتبة المنار ، ط1 ، الأردن ، 1405هـ/1985م .
- شوقي أبو خليل ، علماء الأندلس إبداعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوروبية ، ط1 ، دار الفكر ، دمشق ، سورية ، 1425هـ/2004م .
- باقر أمين الورد ، معجم العلماء العرب ، ج1 ، مر: كوركيس عواد ، ط1 ، مكتبة النهضة العربية ، بيروت ، 1406هـ/1986م .
- أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي ، ج4 ، مكتبة النهضة الإسلامية ، ط10 ، القاهرة، 1995م .
- سلى الخضراء الجيوسي، الحضارة العربية في الأندلس ، ج2 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط1 ، بيروت ، 1998م .
- مليكة حميدي، المرأة المغربية في عهد المرابطين (448-541هـ/ 1056-1146م) دراسة تاريخية ، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع ، الجزائر، 2011 .
- عبد الصاحب عمران الدجيلي، أعلام العرب في العلوم والفنون ، ج2 ، ط2 ، النجف ، العراق ، 1386هـ/1966م .
- جمال الدين محمد محمد الهنيدي، تربية علماء الطبيعيات و الكونيات عند المسلمين في القرون الخمسة الأولى للهجرة ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1 ، المنصورة ، 1421هـ/2000م .
- حياة قارة ، النساء في فضاء البحر الأبيض المتوسط ، الثقافة والمجتمع في العصر الوسيط ، د.ط ، دار أبي الرقاق للطباعة والنشر ، الرباط ، المغرب ، 2011م .

03- المراجع الأجنبية:

- Ahmed Ibn M.lad , l cole medicale de Kairaoun aux 9eme et 10eme siecle , jouve et ncie , PARIS, 1933.

04- الرسائل الجامعية

- صاحي بوعلام ، الحياة العلمية بإفريقية في عصر الدولة الأغلبية (184-296هـ/ 800-909م) ، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الوسيط ، كلية العلوم الإجتماعية والإنسانية- قسم التاريخ – جامعة بن يوسف بن خدة ، الجزائر، 2009م .
- بلقاسم جدو، تطور العلوم النقلية والعقلية في بلاد المغرب الإسلامي على عهد الدول المستقلة (140-296هـ/757-909م)، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ والآثار ، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة باتنة ، 2013-2014م .
- نجلة نجم الدين أحمد كمال ، دور المرأة السياسي والثقافي في الأندلس في القرنين 2 و 3 هجريين ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، الجامعة المستنصرية، المعهد العالي للدراسات السياسية والدولية ، قسم الدراسات التاريخية.

المصحات الاستشفائية في منطقة الونشريس
خلال الثورة الجزائرية 1956-1962.

Hospital clinics in the Aloncheris region
during the Algerian revolution 1956-1962.

د. عيسى حمري، جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة، الجزائر.

a.hamri@univ-dbk.m.dz

د. سهام بوديبة، جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة، الجزائر

s.boudiba@univ-skikda.dz

ملخص:

حظي التنظيم الصحي باهتمام كبير لدى قيادة الثورة؛ ففي كل ناحية يوجد المسؤول الصحي على كل المستويات، إذ يتكون الجهاز الصحي من طبيب مكلف بالقطاع الصحي على مستوى الولاية يتولى عملية الإشراف وذلك بواسطة مساعديه في المناطق والنواحي. اهتمت قيادة الثورة بقطاع الصحة لما له من أهمية وهذا ما جعلها تتوجه لبناء المصحات واستقطاب الأطباء وتكوين الممرضين، وتأمين إمكانيات ووسائل العلاج بضمن مصادر وطرق التموين بالأدوية والوسائل الطبية. اعتبر النظام الصحي من بين القطاعات المهمة إبان الثورة التحريرية خاصة بعد تطور الكفاح وما نتج عنه من إصابات في صفوف جيش التحرير الوطني بكل تشكيلاته المدنية والعسكرية أوجب على جبهة التحرير الوطني إيجاد نظام محكم لتسيير هذا القطاع وللحفاظ قدر الإمكان على أرواح المجاهدين وذلك لضمان سيرورة النشاط المسلح.

الكلمات المفتاحية: الثورة الجزائرية، الونشريس، التنظيم الصحي، المصحات، الممرضين.

summary:

The health organization received great attention from the leadership of the revolution. In each district there is a health official at all levels, as the health system consists of a doctor in charge of the health sector at the state level who undertakes the supervision process through his assistants in the regions and districts. The leadership of the revolution paid attention to the health sector because of its importance, and this made it go towards building clinics, attracting doctors and training nurses. And securing the possibilities and means of treatment by guaranteeing the sources and methods of supplying medicines and medical means. The health system was considered among the important sectors during the liberation revolution, especially after the development of the struggle and the resulting injuries in the ranks of the National Liberation Army with all its civil and military formations.

Keywords: Algerian revolution, prosperity, health organization, sanatoriums, nurses.

مقدمة:

صُنفت منطقة الونشريس ضمن أقوى المناطق الثورية في الولاية الرابعة، وهي تابعة للمنطقة الثالثة من الولاية الرابعة لكونها؛ تميزت بطابعها الجبلي، ويمتد الونشريس حوالي 150 كلم من مينا غربا إلى واد دردار شرقا، ومن حوض الشلف شمالا إلى سهل السرسو جنوبا. إن هذا التنوع من جبال، وسهول، ووديان، وغطاء نباتي بما فيه من غابات كثيفة أهلها لتحضن مركز قيادة المنطقة الثالثة من الولاية الرابعة، وخوض عمليات عسكرية قوية اتجه الجيش الفرنسي مما جعل قيادة الثورة تولي لها اهتمام كبير من الجانب الصحي. سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية؛ عرض أهم ما ميز التنظيم الصحي للمنطقة خلال الثورة التحريرية وبعدها، وذلك بناءً على الإشكالية التالية: أولا في جانب تبور فكرة إنشاء مصحات معتمدة لخدمة الثورة: ماهي الممهدات التي ساهمت في بروز فكرة اعتماد نظام مؤسساتي صحي لخدمة الثورة التحريرية؟ في جانب منطقة الونشريس: كيف ظهرت المصحات الاستشفائية بها؟ وهل شملت مناطق محددة دون غيرها؟ ما هي الوسائل والترتيبات المعتمدة في تكوين الجهاز الطبي من ممرضين وأطباء؟ هل كان للمرأة دور في الخدمة الطبية خلال فترة الثورة التحريرية بالمنطقة؟ في جانب الهياكل الطبية وفعاليتها في خدمة الثورة: ما هو النظام المعتمد في بناء المصحات الاستشفائية؟ هل كانت مراكز ثابتة أو متحركة؟ ما مدى الطاقة الاستيعابية لهذه المراكز في الجانب المادي والبشري في استقبال وخدمة الجرحى والمناضلين في صفوف الثورة.

هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال هذه المداخلة وفق العناصر التالية:

1- عوامل بروز القطاع الصحي المدعم لمسار الثورة:

تشكلت النواة الأولى لميدان الصحة خلال الثورة التحريرية ابتداء من الإضراب الطلابي في 19 ماي 1956؛ الذي سمح لصفوف الثورة أن تتدعم بأصحاب الاختصاص في القطاع الصحي، حيث كان قطاع الصحة بصورة عامة منعدم تماما، وحتى الإطارات الطبية في هذه المرحلة كان تكوينها في معظمه بدائيا لذلك فإن المرحلة الأولى من عمر الثورة و الممتدة ما بين 1954 و 1956؛ عانت الكثير في هذا الميدان الحساس و الأساسي وقد استمر الحال إلى غاية إضراب الطلبة في 19 ماي 1956 ، والتحاقهم بصفوف الثورة حيث أعطوا نفسا قويا لقطاع الصحة من خلال التحاق العديد من طلبة الطب والصيدلة وكذلك طلبة التمريض بها، وقد أضحت المهمة هي تقديم المساعدة الطبية اللازمة والضرورية للجرحى من المجاهدين لتنتقل إلى الطرف المدني من خلال تفقد المرضى المدنيين في القرى والمداشر والأرياف.

يعد إضراب الطلبة في 19 ماي 1956 مكسبا حقيقيا للثورة بما حققه من دعم بشري لها، حيث كان عدد الطلبة الجزائريين المسجلين بالجامعة حوالي 518 طالبا أضربوا عن الدراسة ولم يلتحق منهم إلا 30 طالبا فقط ، بينما انضم الطلبة الثانويون بأفواج كبيرة.

وقد كان لإضراب الطلبة في الجامعة ولنشاط الدكتور نقاش أثراً بالغ الأهمية على المصالح الصحية، وهو الذي كان يدير خلية تابعة لجيش التحرير بالجامعة تضم عدداً من الطلبة نذكر منهم: مجاوي عبد العليم طالب سنة ثانية طب، أحمد بوضرية طالب سنة ثانية طب، بن ونيش مراد طبيب أسنان، الدكتور بن زرجب بن عودة، يوسف الخطيب طالب سنة ثانية طب، شريف صابر، نفيسة حمود طبيبة قابلة، الدكتور حرموش أرزقي المدعو سي السعيد، الدكتور رحموني جيلالي المدعو سي جلول، الدكتور بكيري كيدي، سيد علي الشريف الزهار، الدكتور أحمد ماتن، كمال بن شنتوف، عبد الكريم دمارجي، مصطفى علي، محمد رحموني¹.

كان الفرع الصحي من بين التنظيمات التي لا يستهان بها إلى جانب الهياكل العسكرية والفروع السياسية والاتصالات والاستعلامات وفقاً لمقررات مؤتمر الصومام الذي أخضع المنظومة الصحية لنظام معين²، ومن بين الأسباب التي جعلت الشعب الجزائري ينفر من المصحات الفرنسية؛ هو قيام بعض الأطباء الفرنسيين بتصفيات جسدية عمدية للمرضى من الجزائريين عملياتهم التجريبية عليهم بدعوى الذريعة العلمية لإجراء فحوص تكميلية. وهو ما أفقد الجزائريين الثقة في المستشفيات الفرنسية، وشاع بين الأهالي الجزائريين فكرة أن "إن الإنسان يعرف كيف يدخل عليهم- الأطباء الفرنسيين- ولكن يجهل كيف سيخرج من عندهم و فيها إذا كان سيخرج"³.

هذا ما جعل رئيس مجلس نقابة الأطباء في فرنسا البروفيسور "بيد لبيفر" يوجه انتقاداً شديداً للهجة للأطباء الذين يمارسون مثل هذا النشاط الذي يتعارض مع التقاليد الفرنسية في مهنة الطب، إذ جاء في رسالة له موجهة إلى مجالس نقابات الأطباء في الجزائر وقسنطينة ووهران "أسمح لنفسي بتذكركم بأن السر المهني لا يمكن إفشاؤه في أية حالة ولا بأية حجة وأني لأعلمكم أيضاً أن الأطباء مطالبون ببذل العناية نفسها لجميع الأشخاص أيا كان دينهم أو عرقهم، سواء كانوا أصدقاء أم أعداء، وأني لأذكركم أخيراً بأن قانون أخلاقيات المهنة قد حدد ذلك تماماً في المادة الثالثة..." "يجب على الطبيب معالجة جميع مرضاه بالوجدان عينه أيا كانت ظروفهم وجنسياتهم ودينهم وشهرتهم والمشاعر التي يوحون بها إليه" ولننصف أيضاً أن كثيراً من الأطباء الأوروبيين قد رفضوا تنفيذ القرارات التي تبنتها السلطات الفرنسية في الجزائر⁴. أي أن الممارسات التعسفية الطبية المطبقة من قبل الأطباء الفرنسيين في الجزائر كانت نابعة عن أحقاد

¹ - مصطفى خياطي، المأزر البيضاء خلال الثورة التحريرية، ترجمة نسيبة غربي، منشورات ANEP، ص 231-243.

² - مجلة أول نوفمبر، تنظيم الجهاز الصحي خلال الثورة، مجلة أول نوفمبر، ع، 129، 128، ص 27.

³ - فرانس فانون، العام الخامس للثورة الجزائرية، ترجمة: ذوقان قرقوط، طبع المؤسسة الوطنية للاتصال النشر والاشهار، الجزائر، 2008، ص 130، 134، 135.

⁴ - نفسه، ص 135.

استعمارية بعيدة عن العرف الطبي المعتمد في فرنسا، وهو ما دفع بعض الشخصيات البارزة في المجال الطبي بفرنسا تندد بتلك التصرفات وتدعو إلى الحد منها.
2- 2- الثورة والاهتمام بالتنظيم الصحي:

كانت الثورة الجزائرية شاملة متعددة الجوانب والهيكل محكمة التنظيم، هذا ويعتبر الفرع الصحي فيها من أهم التنظيمات التي فكرت بها قيادة الثورة وأنشئتها وأحكمت تنظيمها على جميع المستويات إبتداء من أفواج جيش التحرير إلى فيالقه وكتائبه العديدة، وأيضا على مستوى الولايات حتى صار الجهاز الصحي يغطي معظم جهات الوطن ومعامل الكفاح المسلح معززة إياها لاسيما بعد انضمام الشباب المثقف إليها¹.

كان المسؤول الصحي في السنوات الأولى للثورة يحمل الجرحى إلى المدينة لتلقي العلاج أو لإجراء العمليات الجراحية، ومع تطور الأحداث أصبح الأطباء ينتقلون من حين لآخر إلى معامل الثورة لمعالجة الجرحى و المرضى و كوين الممرضين في تلك الأماكن، ويتلقى طاقم المصلحة تكوينا أوليا يكفي أي جندي يملك المستوى الابتدائي للحصول على المعارف الأساسية للعلاج والإسعاف.

جدير بالذكر أن المرأة قد كانت لها مساهمات قيمة في هذا المجال، إذ استطاعت مواجهة الصعاب عندما كان عدد المصابين يزداد جراء تصعيد الحرب على الرغم من مستواها التعليمي المحدود. كانت هذه المصلحة تسهر على تقديم العلاج للجرحى والمرضى من المجاهدين إلى جانب تقديم الخدمات الصحية المختلفة لسكان الأرياف الخاضعين لسلطة الثورة والتي يتولى مسؤوليتها دكتور في الطب أو طالب في العلوم الطبية².

يعد الطبيب أو الممرض تقريرا شهريا دوريا عن مختلف نشاطاته، ويقدمه في ثلاث نسخ تتجه إحداها إلى لجنة القطاع وتذهب الأخرى إلى المسؤول الصحي عن الناحية وهذا الأخير يجمع التقارير ويلخصها ويوجهها إلى مسؤول المنطقة ومسؤول المنطقة يحرر تقرير ثلاثي يقدمه مسؤول الصحة على مستوى الولاية إلى لجنة الولاية³.

ونظرا لخصوصية جهاز الصحة تم إعادة النظر فيه بحيث أوكلت مهمة تسييره إلى مسؤول عنه على جميع المستويات، ممّا جعل الولاية الرابعة تتابع أوضاعها الصحية عن كثب إذ نجد:
على مستوى المنطقة: يديرها طبيب وهي أعلى هرم صحي حيث نجد بها الامكانيات البشرية والمعدات الصحية أفضل. وهي بمثابة عيادة مركزية يحال عليها كل الجرحى والمرضى الذين يستعصي

¹ - عبد الحفيظ أمقران، 'التنظيم الصحي أثناء حرب التحرير'، مجلة أول نوفمبر، ع، 19، ص، ص، 28، 27.

² - Mohamed TEGUIA, L'Armée de Liberation Nationale en Wilaya 4, Edition casbah, Alger, 2006, P69, 70.

³ - محلة أول نوفمبر "تنظيم الجهاز الصحي خلال الثورة"، مجلة أول نوفمبر، ع، 128-129، 1991، ص 30.

أمرهم على طواقم عيادات النواحي، وإذا لم يتماثل المريض للشفاء؛ إذا استدعت الضرورة يتم نقله إلى خارج الوطن، وفي الغالب إلى المغرب حيث القواعد الخلفية للثورة. على مستوى الناحية: يتولى مهام التمريض ممرض رئيسي برتبة مرشح بمساعدة طاقم من الممرضين والممرضات برتب أقل.

على مستوى القسم: أوكلت المهمة للممرض برتبة عريف، يساعده ممرضان أو ممرضات حسب الامكانيات البشرية المتوفرة منهم واحد أو أكثر يلزم تحركات الكتيبة، كلما استعصت حالة المريض أو الجريح يحوّل على مستوى الناحية، يسهر المسؤول الصحي على الانضباط والسير الحسن للمصلحة الطبية، وهو الوحيد المؤهل لأخذ القرارات المناسبة في هذا المجال ويقوم عمله بالتنسيق مع المسؤول السياسي والعسكري ويرفع التقارير الخاصة بقسمه إلى مسؤول الناحية ولا يمكن للجريح أن يبقى في مصلحة القسم أكثر من ثلاثة أيام، وكان هذا التنظيم متماشيا مع بقية المصالح الأخرى للثورة، مما أوجد سلطة إدارية قائمة بحد ذاتها من القسم مروراً بالناحية ومن ثم المنطقة إلى الولاية¹.

ومن بين المهام الكبرى للمسؤول الصحي السهر على تطبيق إجراءات النظافة الجماعية والفردية لمختلف القسامات والمراكز إذا كانت نظافة المركز محترمة بصفة دقيقة، أما على المستوى الفردي تم فرض نظام صارم للنظافة الجسدية والثياب بالقضاء المبرم على القمل بواسطة الغلي في حالة انعدام مبيد الحشرات.² إنَّ المسؤول الصحي هو الوحيد المؤهل لاتخاذ القرارات في المجال الصحي، إلا أنه على المستوى التنظيمي يخضع للنظام كباقي الجنود، كما يخضع للتفتيش الدوري الذي يقوم به المسؤولون الصحيون والتنظيميون في المستويات العليا³.

يقول محمد صايكي: "إن دور الطبيب و الممرض و المستوصف ابان ثورة التحرير دور عظيم، لتميز وزنه ضمن صفوف جيش التحرير، ويظهر هذا الوزن في الأثر السيكولوجي الإيجابي الذي يتركه في نفسية المجاهدين، فشعور المجاهد بأنه محاط بجهاز طبي متماسك يزيده ثقة و صموداً أثناء قيامه بالعمليات المسلحة، ونشير الى أن أول مستوصف هو مستوصف الشيخ الجزيري⁴.

¹ - نظيرة شتوان، الثورة التحريرية، 1954 - 1962، الولاية الرابعة نموذجاً، أطروحة الدكتوراه في التاريخ المعاصر جامعة أبي بكر بلقادير تلمسان، 2007_ 2008، ص 338 339.

² - محمد التومي، " نظرة عامة عن التنظيم الصحي في إحدى الولايات خلال الثورة التحريرية "، مجلة أول نوفمبر، ع54، 1982، ص 36.

³ - نفسه، ص 34.

⁴ - محمد صايكي، شهادة نائبر من قلب الجزائر، تحرير محفوظ اليزيدي، دار الأمة، الجزائر، 2010، ص 159.

إضافة إلى دور الطبيب النفسي التربوي والسياسي. وهو بذلك يدعم نشاط المحافظين السياسيين ويسهر على نشر الوعي الصحي وقواعده ومهمته إعلامية دعائية ضد المصالح الفرنسية.¹ ومن مهامه أيضا التنظيم الداخلي للمصحات، كمراقبة الحراسة والسهر على الانضباط العام وإعداد محتوى الوجبة للجنود حسب القواعد المحددة على مستوى الولاية ويقدم تقريرا عن نشاطاته من ثلاث نسخ يوجه الأول منه للقسم والثاني للمسؤول الصحي للناحية ويحتفظ بالنسخة الثالثة في الارشيف، ويقدم مسؤول الصحة على مستوى الناحية تقريرا لمسؤول الصحة بالمنطقة الذي يرسل بدوره تقاريره إلى مسؤول الصحة للولاية.²

3- المصحات الاستشفائية في منطقة الونشريس

نظرا لطبيعة الكفاح أسس جيش التحرير في منطقة الونشريس مراكز صحية لعلاج الجرحى والمرضى من المجاهدين، وفي هذه المراكز تجهيزات ووسائل بسيطة ويرافق المجاهدين فتيات ونساء مجاهدات يعملن بصفة خاصة في المراكز الصحية ويقمن بما يناسبهن من الأعمال الأخرى مثل العلاج وتوعية النساء في الريف في الميدان الاجتماعي.³

من بين المصحات أو المراكز الصحية نجد:

- مصحة بني مرجبا

- مصحة طيايين قرب ثنية الحد.⁴

- مصحة عمرونة بالونشريس

- مصحة الونشريس يشرف عليها الدكتور بكير قدي.

- مصحة المركز الصحي بالمنطقة الثالثة بالقرب من قرية العثمانية بجبل خلاد في ماسينا يشرف

عليها الدكتور يوسف الخطيب المدعو سي حسان.

¹ - جيلالي تكران، الصحة في الولاية الرابعة التاريخية إمكانيات وتنظيم بين 1954 1962، مذكرة ماجستير في تاريخ الثورة 1954 1962، جامعة الجزائر، 2006_2007، ص 64.

² - محمد تومي، مصدر سابق، ص 36.

³ - الهاشمي هجرس، جيش التحرير الوطني مرحلة التنظيم والهيكلية 1956 1958، أعمال الملتقى الدولي حول نشأة وتطور جيش التحرير الوطني، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر 2010، ص 316.

⁴ - المنظمة الوطنية للمجاهدين، تقرير الملتقى الجهوي المقدم للملتقى الوطني الثالث لتسجيل وقائع وأحداث الثورة الولاية الرابعة ج1 العمليات العسكرية من: 1956/08/20 إلى 1956/12/31، ص 60.

3-1- مصحة طيابين : تداول على تسييره كل من الممرض حسين حكيم وبوعلام المدني والممرض سعود بودينار الذي أصبح مرافق الكتيبة الحسنية 1958، والممرض بنور الذي عالج بشير عطار المدعو بوعلام بوصبع قائد الكتيبة الحسنية،¹ عيادة الطبيب سي سعيد " حرموش أرزقي،² حيث تميزت هذه الفئة بالشجاعة وتحمل كل أعباء القطاع، ورغم قلة المتخصصين في الميدان إلا أنهم أبانوا عن براعة لا نظير لها.

تم اكتشاف العيادة من قبل الجيش الفرنسي الذي بدوره أبادت جميع الجرحى والأطباء الذين لم يتمكنوا من الفرار، كالدكتور سي يحي بالإضافة الى العديد من الطلبة في العلوم الطبية من بينهم جيلالي رحموني "سي جلول" مولاي بن سونة الذي أصيب في العين عندما تصدى لهجوم على المصلحة المتواجدة في احدى المغارات وكذلك أرزقي حرموش "سي السعيد" كل هؤلاء الطلبة ذهبوا إلى الخارج لإتمام دراستهم ولم يعودوا أما يوسف الخطيب سي حسان فقد أشرف لمدة طويلة على إدارة المصلحة بالونشريس³، ونجد أيضا محمد بوكفيلان وزوجته، حيث كان يشرف على المركز الصحي، و كان ينقل المرضى والمصابين الذين تتطلب حالتهم الاستعجال إلى مراكز أخرى⁴.

3-2- مصحة الونشريس: بقيادة باكيري قدي بقي أعضاء هذا القطاع وعلى رأسهم طبيب وسط العمليات والنشاط الثوري مع الإشراف على المنطقة أو أكثر لتغطية الشؤون الصحية الملحقة، وهو ما يضاعف من مجهوداتهم الجبارة باستمرار طيلة الثورة، حيث تم إقامة مستشفى في باب البكوش بقيادة باكيري قدي ونائبه يوسف الخطيب، كما أدار المركز الصحي بالمنطقة الثالثة بالقرب من قرية العثمانية بجبل خلاد في ماسينا(بلدية أولاد بن عبد القادر حاليا) بولاية الشلف، حيث يتسع لحوالي ثلاثين شخصا، وعلى مقربة منه أشرف الطبيب عبد الكريم دمارجي على مركز الونشريس مع تقديم دروس تكوينية للممرضين والممرضات والمسعفين الاجتماعيين⁵.

¹ - الجيلالي تكران، مرجع سابق، ص 70.

² - حرموش أرزقي ابن بجاية و طالبا بكلية الطب بالجزائر العاصمة أصيب في ساقه و تم ارساله الى المغرب لتلقي العلاج ثم ألمانيا حيث أنهى دراسته في الطب توفي يوم 28 يوليو 1992م، أنظر عمر رمضان، كومندو جمال في الونشريس...، وقائع قتال الذكرى الخمسين للاستقلال الجزائر، أوت 2012، ص 19

³ - Mohamed TEGUIA, OP Cit ,p70.

⁴ - بلعري خالدي، دورطلبة الزوايا والمدارس القرآنية خلال الثورة بالمنطقة الثالثة من الولاية الرابعة 1954-

1962، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر ملحقة بني مسوس، 2006-2007، ص 47.

⁵ - الجيلالي تكران، مرجع سابق، ص 66.

كما ساهمت المرأة في الثورة كمتطوعة فمارست أغلب النساء مهنة التمريض كمساعدات للأطباء فكُنَّ يسهرن على علاج الجنود و تقديم الخدمات الصحية لسكان الأرياف و قد تلقين بهذا الصدد تكويننا في عين المكان ليصبحن كمرضيات و مساعدات اجتماعيات¹.

لقد سهرت هذه المراكز على تقديم إسعافات العلاج بالرغم من بساطة الوسائل كالخييط العادي وشفرة الحلاقة والمنشار الحديدي لإجراء العمليات الجراحية، ولم يهمل هؤلاء رسالتهم الانسانية ودعمهم النفسي لرفقائهم من الجنود والمدنيين خاصة في الريف الشيء الذي جعلهم يلتحمون بالثورة إذ نجد الطبيب يوسف الخطيب خلال أداء مهامه يتجاذب مع مرضاه أطراف الحديث للترويح عنهم ورفع معنوياتهم². وتعرضت العديد من المراكز إلى التخريب من طرف الجيش الفرنسي بعد اكتشافها منها مركز باب البكوش بالونشريس في ماي 1958 وراح ضحية ذلك حوالي ثلاثين جريحا مع ممرضتهم.

3-3- مصحة باب البكوش: ويشرف عليها يوسف الخطيب ، كما أشرف على إدارتها طاقم من جيش التحرير منها المصلحة التي كانت متواجدة بجبل عمرونة بالونشريس، داخل غابة كثيفة تغطيها أشجار الأرز، تقع على مقربة من ثنية الحد، التي تعد مصدرا هاما للتموين بالمواد الغذائية والأدوية، كان سكان مشتي "بونيل" يسهرون على شؤون هذه المصلحة في الخفاء، واضعين أنفسهم في خدمتها تحت إشراف سي حسان (يوسف الخطيب)³.

3-4- مصحة عمرونة: ابتداء من سنة 1959 فإن الظروف الالتحاق بالجبل أصبحت صعبة جدا بسبب الهجوم الكبير للقوات الفرنسية وتوسيع نطاق المناطق المحرمة مع ترحيل الشعب من الأرياف نحو المحتشدات، مما زاد من معاناة المكلفين بالصحة، كما تم اكتشاف الكثير من المراكز الصحية، ودُمّرت ولم يبقى منها بالمنطقة إلا مركزان أحدهما كان يشرف عليه بوعلام المدني، في مصحة الطيابين المتواجد بالقسم الرابع للناحية الرابعة، أما الثاني فكان يشرف عليه حكيم المتواجد بالناحية الأولى، وكان هناك بعض المسعفين موزعين على الوحدات القتالية لجيش التحرير، إذ نجد في الكتيبة الكريمة الممرض حسين، أما الكتيبة الحسينية فنجد الممرض محمد⁴، يبدو أنه طيلة هذه الفترة الحرجة من عمر الثورة التي لم تكن تعالج عمليا إلا الجرحى من الجنود والمدنيين وهنا يجب التذكير بأنه نظرا للوسائل البسيطة التي كانت موجودة لدى الثورة إلا أنها أنجزت الكثير من المعجزات الحقيقية في عملية بتر دون تخدير كلي أو جزئي، باستعمال شفرة حلاقة ومنشار حديدي، وترقيع الجروح بالخييط العادي، وجبر الكسور بالوسائل

¹ - محمد تقيّة، حرب التحرير في الولاية الرابعة، ترجمة بشير بولفراق، دار القصبة، الجزائر، 2012، ص 152.

² - نفسه، ص 67.

³ - Mohamed TEGUIA, **OP Cit**, p 71

⁴ - المنظمة الوطنية للمجاهدين، التقرير السياسي ج1، ص 77.

المتاحة، وكانت هذه المراكز محل بحث دائم من طرف الجيش الفرنسي، لأنها تضم جنودا عاطلين جسديا وغير مسلحين مما يسهل عليها إلقاء القبض عليهم.

4- كيفية تجهيز وبناء المصحات:

تكون المصححة في مكان آمن بالقرب من نقاط عناصر الماء أو في عمق الجبال وأحيانا بالدواوير بين أوساط السكان الموثوق في إخلاصهم. يخصص للمرضى أو الجرحى مكان يوضعون فيه على أسرة خشبية أو على أحصرة فقط ويكون مجهزا للعلاج و يتخذ جزءا منه مكتبا، ومكان للطبخ ويقسم إلى قسمين: القسم الأول يخصص للنساء، حيث يقمن بإعداد الكسرة أما القسم الثاني فيخصص للطبخ ومكان آخر للرجال القائمين بالحراسة¹.

كانت تقام هذه المصحات عموما في المغارات والمعازل والغابات، غير أن بعضها كانت مستقرة نسبيا عند التمشيط، وأخرى مجبرة على الترحال الدائم، وكانت هذه المراكز مكونة من طلبة الطب الذين تركوا مقاعد دراستهم للانضمام إلى الثورة². وكان يشرف على المصحات ممرضون قدماء أو مساعدون تقنيون في الصحة، تتشكل المجموعات شبه الطبية من مجاهدين ومجاهدات مكونين في الميدان "رغم انعدام التجهيز والأدوية والآليات، ورغم الظروف الشاقة تفانى هؤلاء الرجال باللباس الأبيض في القيام بمهمتهم وأتوا بالمعجزات وكانوا يجرون العمليات بالوسائل المتوفرة دون تخدير أو مضادات حيوية فقد يبترون بعض الأعضاء بواسطة منشار للحديد، وكثير من الجرحى أو المرضى استرجعوا صحتهم وعادوا للقتال وأرسل آخرون إلى الحدود لتعدّر شفاءهم³. وعن تأسيس مراكز صحية تقول حرموش فريدة: "تم إنجاز مركزين للعلاج في جبل زكار، وكان المركزان عبارة عن أكواخ من الأغصان تم توظيف مركز واحد وترك الآخر عند الضرورة، كما أقيمت مخابئ للأدوية التي كانت تأتي من المدينة، و أقيمت مخابئ للجرحى⁴. كانت عملية بناء المصحات تنجز وفقا للظروف والوسائل المتاحة في الميدان، أحسنها تلك التي كانت تتواجد بالمداشر، ويشرف على إدارتها طاقم من جيش التحرير منها المصلحة التي كانت متواجدة بجبل عمرونة بالونشريس، داخل غابة كثيفة تغطيها أشجار الأرز، تقع على مقربة من ثنية الحد، التي تعد

¹ - محمد تومي، مرجع سابق، ص 34.

² - حمود شايد، دون حقد ولا تعصب، صفحات من تاريخ الجزائر المحاربة، ترجمة كابويه عبد الرحمن، سالم محمد، منشورات حلب الجزائر، 2010، ص 219.

³ - حمود شايد، مصدر سابق، ص 220.

⁴ - محمد الشريف ولد الحسين، في قلب المعركة، جيش التحرير الوطني الولاية الرابعة، دار القصبية، الجزائر، 2007، ص 203.

مصدرا هاما للتموين بالمواد الغذائية والأدوية، كان سكان مشتى "بونيل" يسهرون على شؤون هذه المصححة في الخفاء، واضعين أنفسهم في خدمتها تحت إشراف سي حسان (يوسف الخطيب)¹. ونجد أيضا طريقة أخرى متبعة في إقامة المصححات تتمثل في حفر غار مدعم بجذوع الأشجار يقع في أماكن صعبة المنال والمنفذ بالنسبة للقوات الفرنسية، أو تقع في كوخ مبني من أغصان الأشجار، بحيث يكون أكثر استجابة لمقتضيات التنقل السريع والمتكررة عند الحاجة عادة ما تستغل المغارات الطبيعية لهذا الغرض، وإذا ما توفرت مع مراعاة الشروط الأمنية وقربها من الموارد المائية غير المرسومة على الخريطة الرسمية حتى لا تستهدف أثناء عمليات التمشيط والمطاردة، ومع ذلك يتفطن الجيش الفرنسي أن المجاهدين يقومون بصفة مؤقتة على مقربة من هذا العنصر الحيوي².

5- التكوين في الصحة

سعى القائمون على المجال الصحي في منطقة الونشريس إلى توفير العدد الكافي من الممرضين والممرضات بعجالة، حيث قرر الأطباء المشرفون الإسراع في التكوين الاستعجالي لتلبية حاجيات الجرحى والمرضى من جيش التحرير والسكان للتخفيف عن ألامهم، وقد تخرج العديد من الممرضين الأكفاء الذين أثبتوا نشاطهم في الميدان الصحي فقد استطاع الممرض قرطبي بن حليلة إجراء عملية جراحية خطيرة كللت بنجاح وعمره 17 سنة بأمر من أستاذه يوسف الخطيب. وبأمر من جهة التحرير شرع الأطباء في تكوين الشباب والشابات العاملين لديهم تكوين مكثف وسريعا في تقديم الإسعافات الأولية للجرحى، وضع الضمادات، والوخز بالحقن في العضلات والأوعية، ويمرّ التكوين بمرحلتين الأولى نظرية و الثانية تطبيقية تتراوح ما بين أربعة إلى خمسة أشهر. ويتمحور التكوين حول الأسس التالية:

- دراسة أعراض الأمراض المعدية كالسل وغيره وطرق علاجها.
 - التعرف على مكونات الجسم.
 - طرق تقديم العلاج البسيط والإسعافات الأولية.
 - إجراء عمليات جراحية كبرى الأعضاء، نزع شظايا القنابل أو الرصاص³.
- وعن تكوين الممرضين كان يشترط في الطلبة مستوى شهادة الابتدائي، يخضعون لتكوين نظري يدوم ثلاثة أشهر، يعقبه تدريب عملي لمدة ستة أشهر في المصححات، وعند انتهاء فترة التدريب يلتحق

¹ - Mohamed TEGUIA, OP Cit, p 71

² - محمد تقية، مصدر سابق، ص 84.

³ - الجيلالي تكران، مرجع سابق، ص 67 68

هؤلاء الطلبة بالوحدات المتواجدة في ميدان القتال¹، وتقول فاطمة حسين المدعوة فريدة حول التكوين "...رغم الظروف القاسية التي كنا نعيشها بسبب متابعة العدو لنا وقلة الامكانيات فقد تمكنا في فترة وجيزة من استيعاب الدروس التي تمثلت في: كيفية وضع الضماد وتبديله، وكيفية وضع الحقن، وقياس الحرارة، وتقديم الاسعافات الاولية للجريح."²، و تجاوز التكوين في مجال التمريض ليتعداه إلى وظيفة الجندي في المعركة الذي يتطلب التحكّم في استعمال السلاح والتدرّب على أساليب الحرب والاستعداد للمعركة، إذ شهد الممرض بودينار سعود (من الونشريس) معركة جبل عمرونة وكعريشة وسيدي أعمر رفقة بونعامة، وهذا ما يؤكد مدى التزام الممرض بالقواعد التنظيمية والواجبات العسكرية في المنطقة³.

هذا ما يمكن الممرضين من تكوين علمي قائم على ما يلي:

- يجب على الممرض أن يكون بارعا في معرفة الأدوية والوظائف الحيوية لجسم الانسان.
 - معرفة أدوية الاستعجال (المضادات للألم، العفونة، الاغماء، الجراثيم والتزيف).
 - معرفة الجهاز الحركي للفرد.
 - معرفة الجهاز الدموي.
 - معرفة الجراثيم والطفيليات والاطعمة والمياه الحاملة للمرض، ووسائل الوقاية والنظافة الجسمية وإمكانية عزل المريض، تطهير الجرح، والتخييط بالخيط والتدليك⁴.
- 6- مصادرو طرق التموين بالأدوية والوسائل الطبية
- إن التموين بالأدوية كان أحد المشاكل الصعبة بحيث كان يتم جمع الأدوية وشراؤها بالرغم من كل المصاعب بواسطة المنظمة المدنية (المحلية) بحيث ترسل طرود الأدوية إلى مركز القسمة ومن هناك إلى مركز الناحية⁵.

ساهم الشعب الجزائري في المدن والأرياف في دعم المجال الصحي بالونشريس بتوفير الشروط المكتملة له من إيواء، إطفام، لباس، أدوية، رغم مخاطر ضياع أرواح مدنية، إذ أصبح توفير الادوية مسألة صعبة ومؤلمة⁶، وهو ما جعل السلطات الفرنسية تشدد الرقابة على الصيدليات خاصة منها التي يملكها

¹ - محمد تومي، مصدر سابق، ص 35.

² - نظيرة شتوان، مرجع سابق، ص 345.

³ - الجيلالي تكران، مرجع سابق، ص 76.

⁴ - نفسه، ص 74.

⁵ - محمد التومي، مرجع سابق، ص 35.

⁶ - الجيلالي تكران، مرجع سابق، ص 85.

جزائريون، بعملاء مدنيين لمراقبتها وتضييق الخناق عليها مما جعل التموين بالأدوية في بعض المناطق مسألة صعبة، فكان يرفض بيع الكحول والسلفاميد والحقن ولذلك كانت القيادة العسكرية الفرنسية تحصي خسائر الجزائريين في عداد الموتى لانعدام وسائل العناية الصحية¹.

أصبح التموين من الأدوية في بعض الأقاليم مسألة صعبة ومؤلمة، فكان يرفض بيع الكحول والسلفاميد والحقن ولذلك كانت القيادة العسكرية الفرنسية تحشر في احصائياتها لخسائر الجزائريين دائما تقريبا عددا من الجرحى يفترض اعتبارهم في عداد الأموات لانعدام وسائل العناية². وحسب شهادة يوسف الخطيب لمجلة أول نوفمبر، فإنه ورغم قلة الوسائل وانعدامها فقد واصل الطبيب دوره كاملا معتمدا على وسائل جد بسيطة أحيانا: كالخييط العادي، وموس الحلاقة، والمنشار الحديدي عند إجراء العمليات³.

من الممرضين نجد حيرش عدة أما فيم يخص الوسائل المتاحة يقول "لقد كانت جد بسيطة حيث لا توجد أجهزة تشخيص إلا نادرا ولا أجهزة التحليل كما أن بعض الوسائل تتطلب كهرباء من أجل تشغيلها وهذه الأخيرة لم تكن موجودة في أي من المراكز الصحية ولذلك إكتفينا بما وجد ثم أضفنا إليه التفاني في العمل... وكثيرا ما كان المصاب يتمائل للشفاء إذا أصيب في أحد الأطراف العلوية أو السفلية بحيث إذا وصل إلى المركز الصحي لتوه أما إذا بقى ينزف فإنه من العسير تدارك ما فات..."⁴.

نشطت خلايا جبهة جيش التحرير المكلفة بتوفير الادوية في منطقة الونشريس وتم تكليف المسبلين في المدن بشراء الدواء وإيصاله إلى المراكز الصحية، في حالات كثيرة تقوم النساء أو الممرضات العاملات في المستشفيات بالمدينة بإقتناء الأدوية من الصيدليات وإخفائها داخل أكياس، أو شرائها من قبل المواطنين وخاصة الاطفال ليسدد ثمنها فيما بعد المحافظ السياسي. أو استعمال التمويه من خلال قيام خلايا جبهة التحرير بنقل الجرحى والمرضى إلى مصحات حكومية أو عيادات خاصة بأسماء مستعارة⁵. تعد المستشفيات مصدرا رئيسيا للتموين وذلك عن طريق أشخاص مخلصين للثورة، بحيث يتم تهريبها وإيصالها إلى جيش التحرير، وكمثال عن ذلك المسبلة رتيبة من العاصمة التي تؤكد ذلك من خلال قولها: "كنت آخذ معي من المستشفى حيث أعمل كل ما أستطيع أخذه دون جلب انتباه السلك الطبي

¹ - فرانس فانون، مصدر سابق، ص 146.

² - نفسه، ص 146.

³ - عبد القادر ماجن، "لقاء مع المجاهد حسن يوسف الخطيب"، مج: أول نوفمبر، ع70، 198، ص55.

⁴ - نفسه، ص46، 47.

⁵ - الجيلالي تكران، مرجع سابق، ص 86، 88.

الفرنسي خاصة المواد الصيدلانية التي تستعمل في العمليات الجراحية وأسلمها إلى المسؤول الذي أنسق معه في الجهة"¹.

كما تقول المسبلة حورية من شرشال: "اتصلوا بي الإخوة الثوار وطلبوا مني العمل على تزويدهم بالأدوية وكل المستلزمات الصيدلانية التي يمكن الحصول عليها من المستشفى بعيدا عن أنظار الفرنسيين والمشبهو فهم بغرض تزويد المجاهدين في الجبال"².

كان محمد بوسماحة يشتغل في مستشفى العطاف، حين اتصلت به قيادة الثورة من أجل تزويد مصحاتها المتنقلة والثابتة بالدواء، وهو ما كان واستجابة لنداء الوطن، وكان يقدم المساعدة للمرضى وإبعاد اليأس والقنوط عنهم حتى يوم استشهاده في سنة 1957، بعدما ضبط من طرف الجيش الفرنسي وقتله.³ و هنا نجد أيضا حرص المسعفات الاجتماعيات والممرضين في توجيه السكان للعلاج لدى المصحات الأوروبية دون خلفية، رغبة في الاحتفاظ بكمية الأدوية لمعالجة المجاهدين، إضافة لهذا تقوم المسعفات الاجتماعيات بحملات وقائية للسكان في قواعد النظافة بكل مظاهرها.⁴

رغم المشاكل الصعبة بسبب المراقبة الصارمة التي مارستها الادارة الفرنسية إلا أن الثورة استطاعت أن تتجاوزها من خلال المنظمة المدنية بحيث ترسل طرود الادوية إلى مركز القسمة بعد شرائها، ومن هناك ترسل إلى الناحية، حيث تسجل هذه الادوية بمحضر الصيدلي الجهوي الذي يقوم بتخزينها وهو بدوره يمون بالأدوية بصفة منتظمة للقسمات حسب احتياجاتها ويخضع هذا الصيدلي لسلطة المسؤول الصحي بالناحية، أما على مستوى المنطقة يوجد مخزون للأدوية تسند مهمة الاشراف عليها لصيدلي تابع للمنطقة، إلى جانب تقديم الخدمات الصحية تقوم الممرضات وبالخصوص المرشدات بتربية السكان تربية صحية لتتعدى الجانب الصحي إلى الجانب الاجتماعي والسياسي.⁵

7- إمكانيات العلاج

¹ - يحيواي مسعودة، دور المرأة في الثورة التحريرية، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، وزارة المجاهدين، 2007، ص 38.

² - نفسه، ص 39.

³ - بلعري خالدي، مرجع سابق، ص 47.

⁴ - نفسه، ص 89.

⁵ - محمد تومي، مصدر سابق، ص 35.

ولم يكن الحصول على الأدوية بالأمر الهين ولهذا اعتمد نظام معين في جمع الأدوية انطلاقاً من القمة فالناحية حيث يستلمها صيدلي الناحية ويقسمها إلى قسمان قسم منها يحتفظ به أما القسم الثاني فيكون من نصيب صيدلي المنطقة كما اخضع التنظيم الصحي لأرقام رمزية حفظاً على سرية مصحاتها¹.

وبالحديث عن نزع شظايا القنابل يقول الممرض سي علي الذي قام بنزع شظايا الرصاص من جسم المجاهد الأغواطي في جبل المداد بثنية الحد " فقامت بتوثيقه من الايدي والارجل وأفرغت زيت الزيتون الساخن في ثقب الجروح ليتسرب إلى مكامن الشظايا ليتوسع الجرح، ثم ضغطت وعصرت الجزء المصاب من الجسم، فتسللت الشظية بسهولة إلى الخارج... "2، وكذا معالجة المجاهد سي عبد الرحمن برتبة عريف عندما أصيب بشظايا قنبلة رمتها الطائرات الحربية على المجاهدين خلال معركة العناب في أفريل 1957، تعفنت جراحه حيث سلّم إلى سي يوسف الخطيب وبدوره حوّل إلى مركز زكار ليعالج من قبل أرزقي حرموش وزوجته، وفي زكار أيضاً قام الممرض عامر بن عبد القادر بنزع رصاصة أصيبت بها زوجة سي جلول بلميلود. وفي حدود سنة 1957 أصيب المجاهد بن غانم في كتفه وفكه السفلي الذي أتلف منه جزء كبير (تشوّه)، حيث تكفل يوسف الخطيب بعلاجه رفقة الممرض المدني وتم تخييطه في مركز عمرونة وشفي بعد ذلك³.

كما نسجّل إجراء العمليات الجراحية لعلاج بعض الاصابات الخطيرة ، ففي عام 1960 مثلاً أصيب مجاهد على مستوى الرجل فتعقّنت مما تطلب بترها، وتكفل بذلك الممرض قرطبي بن حليلة بعد أن أخذ الموافقة من يوسف الخطيب، فأحضر المصاب وأربعة جنود لمساعدته. أما الوسائل الطبية فاقترنت على سائل الكيلان، شفرة الجراحة، مقص خاص، الاكسجين، منشار خاص بقطع الحديد، سائل الإيثر، حيث وضع السائل فوق اللحم وبعدها مسكه الجنود حتى لا يتحرك وفي هذا يقول: "وفتحت الجروح بشفرة الجراحة وأوقفت سيلان الدم بمقص خاص وبجانب المجاهد صادق بطل يقدم الاكسجين حتى لا يتعفن الجرح يساعده الشهيد الطاهر وآخران يقدمان للجريح الإيثر لتخفيف الألم ، وبالوصول إلى العظام استعملت المنشار الحديدي فأغبي على الجريح واعتقدنا أنه فارق الحياة وبعد ذلك خطت الجلد وشفي وعاد إلى ساحة الجهاد".⁴

وخلال العمليات العسكرية الكبرى (شال 1959) تمّ تشديد الرقابة على الأدوية والصيدالة ؛ الأمر الذي زاد خطورة على الوضع الصحي بالمنطقة، وتم تطويق المنطقة وتضاعف عدد الجرحى والمرضى،

¹ علي كافي ، مذكرات على كافي من المناضل السياسي الى القائد العسكري، دار القصة ، الجزائر، ص، 164.

² - نظيرة شتوان، الثورة التحريرية، مرجع سابق، ص 345.

³ - الجيلالي تکران، مرجع سابق، ص 77، 78.

⁴ - نفسه، ص 78.

- وهاجر السكان بسبب انقطاع الدواء والغذاء ، ودُمّرت المخازن والمخابئ مما أدى إلى اللجوء إلى التداوي بالأعشاب (الطب التقليدي) إذ نجد حالات المرض ودوائه فيما يلي:
- الحى: يمكن مداواتها بقطع أزهار الكينة في أواخر الربيع، وتغلى في الماء لتشرب صباحاً قبل الأكل.
 - الجروح: باستخدام نبات الزعتر.
 - الحروق: الطلي بالزبدة أو الطين على الجرح.
 - أمراض الصدر: يوضع الثوم المقلي أو المشوي في العسل ثم تناوله.
 - الرعاف: تناول قشور البيض بعد طحنها.
 - الاسهال: بتغلية ورق الزعرور ثم شربه.
 - الجروح: يستخدم لشفائها مسحوق القهوة والكي بقضيب أو بالماء المغلي للكدمات.
 - الشظايا: لاستخراجها يستخدم زيت الزيتون الساخن.¹

إن حالات جبر الكسور واستئصال الرصاص وشظايا القنابل والمتفجرات وبترا الأعضاء كانت تجري في ظروف صعبة، وفي بعض الاحيان بدون تخدير ولو جزئي، وحسب الظروف والوضعية المعيشة في حالة فقدان الادوية وخاصة منها المضادة للجراثيم أو في حالة قيام الجيش الفرنسي بعمليات عسكرية حيث يضطر الجرحى إلى الانتقال السريع من مكان لأخر بسبب كل هذا يتباطأ الشفاء وتحدث مضاعفات في غالب الاحيان، كما أن أعضاء المصلحة يتحلّون بالتفاني في العمل وبروح التضحية².

وعناية خاصة من طرف قيادات الولاية من أجل توفير الخدمات الصحية في حدها الأدنى للمجاهدين على مختلف الدرجات³، وفي هذا يقول الرائد عز الدين "في السابق كانت العيادة ثابتة تستقبل الجنود المرضى أو المصابين علماً أننا لم نكن نمرض إلا نادراً" ثم يتحدث عن نظام العيادات قائلاً "أجبرنا على تغيير محطاتنا باستمرار كان المصابون يتلقون العلاج ومنها يرحلون إلى الخارج تحت حماية المسبلين والجنود بالنسبة للحالات الخطيرة"⁴.

¹ - الجيلالي تکران، مرجع سابق، ص 84.

² - نفسه، ص 61.

³ - جمال قنن، لمحة تاريخية عن جيش التحرير الوطني، أعمال الملتقى الدولي حول نشأة وتطور جيش التحرير الوطني، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 1 نوفمبر 1954، منشورات وزارة المجاهدين، 2005/7/5، ص 69.

⁴ - الرائد عز الدين، الفلاحة، تر: جمال شعلاي، موفم للنشر، الجزائر 2011، ص 45.

يقول يوسف الخطيب: لم تكن مهمتنا مقتصرة على معالجة المجاهدين فقط، وإنما كنا نقوم بالمهمة نفسها في أوساط الجماهير داخل القرى والمعاشر وبفضل وعي المثقفين وحرص قيادة الثورة فقد أصبح لكل منطقة طبيب خاص وكل ناحية ممرض بإمكانه إجراء بعض العمليات البسيطة وتقديم الإسعافات وكانت وسائل العلاج متوفرة بفضل يقظة المناضلين والتزامهم¹.

خاتمة:

بناءً على ما ذكرناه؛ ساهمت المصحات أو مراكز الصحة في منطقة الونشريس خلال الثورة الجزائرية 1956-1962 بخدماتها الجليلة في النضال الثوري، خاصة في الجانب الصحي لضمان معالجة الجرحى والمصابين، وذلك بتأسيس مراكز صحية في كل ربوع الونشريس، وتسخير لها من أطباء ومرضى خاصة؛ ومن بين أهم المصحات في المنطقة نذكر مصحة طيابين وعمرونة وباب البكوش.

عمل المشرفون على الصحة في الونشريس على تقديم الإسعافات الأولية للجرحى، وضع الضمادات، والوخز بالحقن في العضلات والأوعية، وقد مرّ تكوينهم بمرحلتين شملت جانبا نظريا وآخر تطبيقي، وقد امتدت فترة التكوين التطبيقي ما بين أربعة إلى خمسة أشهر. ساهمت في تخرج العديد من الممرضين الأكفاء الذين أثبتوا نشاطهم في الميدان الصحي، نذكر من ذلك الممرض قرطبي بن حليلة إجراء عملية جراحية خطيرة كللت بنجاح وعمره 17 سنة.

سهرت هذه المراكز على تقديم إسعافات العلاج بالرغم من بساطة الوسائل ولم يهمل هؤلاء رسالتهم الانسانية ودعمهم النفسي لرفقائهم من الجنود، ولم يقتصر عملهم في معالجة جيش التحرير بل امتد حتى الى المدنيين، اذ نجد من ممرضين رافق وحدات جيش التحرير في القرى والمداشر والجبال لتقديم العلاج للمواطنين وتوعيتهم صحيا وسياسيا، خاصة في الريف الشبي الذي جعلهم يلتحمون بالثورة.

قائمة المصادر والمراجع:

كتب:

- الرائد عز الدين، الفلاحة، تر: جمال شعلالي، موفم للنشر، الجزائر 2011.
- كافي علي، مذكرات على كافي من المناضل السياسي الى القائد العسكري، دار القصة، الجزائر
- يحياوي مسعودة، دور المرأة في الثورة التحريرية، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، وزارة المجاهدين،
- ولد الحسين محمد الشريف، في قلب المعركة، جيش التحرير الوطني الولاية الرابعة، دار القصة، الجزائر، 2007
- شايد حمود، دون حقد ولا تعصب، صفحات من تاريخ الجزائر المحاربة، ترجمة كابويه عبد الرحمن، سالم محمد، منشورات حلب الجزائر، 2010
- تقية محمد، حرب التحرير في الولاية الرابعة، ترجمة بشير بولفراق، دار القصة، الجزائر، 2012
- خياطي مصطفى، المآزر البيضاء خلال الثورة التحريرية، ترجمة نسيبة غربي، منشورات ANEP.

¹- عبد القادر ماجن، مرجع سابق، ص55.

فانون فرانس ، العام الخامس للثورة الجزائرية، ترجمة: ذوقان قرقوط، طبع المؤسسة الوطنية للاتصال النشر والاشهار، الجزائر، 2008.

صايكي محمد ، شهادة ثائر من قلب الجزائر، تحرير محفوظ اليزيدي، دار الأمة، الجزائر، 2010.

عمر رمضان، كومندو جمال في الونشريس...، وقائع قتال الذكرى الخمسين للاستقلال الجزائر، أوت 2012.
TEGUIA Mohamed, L'Armée de Liberation Nationale en Wilaya 4, Edition casbah, Alger, 2006.

رسائل جامعية

شتوان نظيرة ، الثورة التحريرية، 1954 - 1962 ، الولاية الرابعة نموذجاً، أطروحة الدكتوراه في التاريخ المعاصر جامعة أبي بكر بلقادير تلمسان، 2007 _ 2008 .

تكران جيلالي ، الصحة في الولاية الرابعة التاريخية إمكانيات وتنظيم بين 1954 1962، مذكرة ماجستير في تاريخ الثورة 1954 1962، جامعة الجزائر، 2006 _ 2007.

خالدي بلعربي ، دور طلبة الزوايا والمدارس القرآنية خلال الثورة بالمنطقة الثالثة من الولاية الرابعة 1954-1962، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر ملحقة بني مسوس، 2006-2007.

جرائد

ماجند عبد القادر ، "لقاء مع المجاهد حسن يوسف الخطيب" ، مج: أول نوفمبر، ع70، 198

مجلة أول نوفمبر ،تنظيم الجهاز الصحي خلال الثورة ،مجلة أول نوفمبر، ع، 129، 128.

أمقران عبد الحفيظ ، 'التنظيم الصحي أثناء حرب التحرير'، مجلة أول نوفمبر، ع، 19.

محلة أول نوفمبر "تنظيم الجهاز الصحي خلال الثورة" ، مج: أول نوفمبر، ع128-129، 1991.

التومي محمد ، " نظرة عامة عن التنظيم الصحي في إحدى الولايات خلال الثورة التحريرية " ، مجلة أول نوفمبر، ع54، 1982.

ملتقيات

قنان جمال ، لمحة تاريخية عن جيش التحرير الوطني ، أعمال الملتقى الدولي حول نشأة وتطور جيش التحرير الوطني، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 1 نوفمبر 1954، منشورات وزارة المجاهدين، 2005/7/5.

هجرس الهاشمي ، جيش التحرير الوطني مرحلة التنظيم والهيكلية 1956 1958 ، أعمال الملتقى الدولي حول نشأة

وتطور جيش التحرير الوطني، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 ،

الجزائر 2010.

المنظمة الوطنية للمجاهدين، تقرير الملتقى الجهوي المقدم للملتقى الوطني الثالث لتسجيل وقائع وأحداث الثورة الولاية الرابعة ج¹ العمليات العسكرية من: 1956/08/20 إلى 1956/12/31.

التداوي بالأشربة في الأندلس خلال ق 5هـ -6هـ/11-12م

Medication with syrup in Andalusia during Q5H, 6H /11-12M

ط. د. بن الذيب فيروز، جامعة: محند أولحاج البويرة (الجزائر)

f.bendib@univ-bouira.d

ملخص:

العلم علمان علم فقه الأديان وعلم طب الأبدان ومن هذا المنطلق الأخير، نجد أن العالم الإسلامي بصفة عامة و بلاد الأندلس بصفة خاصة قد تعددت أساليب علاج الأمراض بها سيما وأن الله عز وجل قد حباها بتنوع نباتاتها ومعادنها وحيواناتها ومع تطور علم الصيدلة وازدهاره فيها ، تمكن صيادلتها وأطبائها من استخلاص العديد من العقاقير والأشربة للتداوي سواء كان مصدرها نباتيا أو معدنيا أو حيوانيا، وعليه ارتأيت معالجة موضوع التداوي بالأشربة في الأندلس خلال ق 5 هـ، 6 هـ/11-12م وهدفي من ذلك هو ابراز تنوع الأشربة المستخدمة في التداوي وتوقع أهل الأندلس في استخلاصها وصناعتها أمثال ابن البيطار و ابن زهر وابن رشد وغيرهم الذين تفوقوا في صنع أدوية مفردة كانت او مركبة وحتى يتسنى لنا الإحاطة بموضوع الدراسة طرحت إشكالية، تكمن في التساؤلات التالية: ما هو مفهوم الأشربة؟ وماهي أنواع الأشربة وأصولها؟ كيف تستخدم الأشربة في العلاج؟ وماهي الخدمات الرقابية التي تم فرضها في بلاد الأندلس على الأشربة؟ وأختم مداخلة بالنتائج المتوصل إليها.

الكلمات المفتاحية: الأشربة، الأمراض، العلاج، الأندلس، الخدمات الرقابية.

Summary:

The methods of treatment used by Muslims in Andalusia have been numerous, particularly as pharmacology has evolved and flourished. Its pharmacists and doctors have been able to manufacture many drugs and beverages for the treatment of various diseases, whether they originate in vegetation, mineral or animal, and I have therefore decided to participate with you in the meeting to be organized. My intervention is entitled: Medication with syrup in Andalusia during Q5H, 6H/11-12M. In order to address the issue, the following questions are problematic: What is the concept of a drink? What are the types of beverages and their origins? How to use drinks in treatment? What control services have been imposed in Andalusia on the beverages? I conclude my intervention with my findings.

Keywords: Drinking, Diseases, Treatment, Andalusia, Supervisory Services.

مقدمة:

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان من روح وجسد، فالروح دواؤها آيات الله عزوجل خالق السماوات والأرض وهذا مصداقا لقوله تعالى: "وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ" أما الجسد فدواؤه بالعلاج إذا أصابته علّة، وهذا مصداقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " تداووا عباد الله فإن الله عز وجل لم ينزل داء إلا وأنزل معه شفاء إلا الموت والهزم"²

وبناء على ما جاء في القرآن الكريم وسنة رسوله قد أولت الحضارة الإسلامية عناية فائقة بعلم الأبدان وصحتها في العالم الإسلامي عامة وفي الأندلس خاصة سيما وأن بلاد الأندلس قد حباها الله تعالى بتنوع طبيعتها فتنوعت موارد العلاجات فيها خاصة بعد تطور علم الصيدلة وازدهاره ، وهذا ما مكن أطباء الأندلس وصيادلتها علاج مختلف الأمراض التي كان يعاني منها أهلها، فتعددت أساليبهم وطرق مداواة مرضاهم ، ومن تلك الأساليب العلاج بالأشربة ، سواء كان أصلها من مستخلصات معدنية أو حيوانية أو نباتية والتي كان لها دورا هاما في تاريخ الطب الأندلسي والذي لا يزال يعرف لغاية يومنا هذا عند الغربيين باسم شروب (syrup) وحتى يتسنى لنا الإحاطة بموضوع الدراسة طرحت إشكالية، تكمن في التساؤلات التالية: ما هو مفهوم الأشربة؟ وماهي أنواع الأشربة وأصولها؟ كيف تستخدم الأشربة في العلاج؟ وماهي الخدمات الرقابية التي تم فرضها في بلاد الأندلس على الأشربة؟ وأختم مداخلتني بالنتائج المتوصل إليها.

-مفهوم الأشربة ودلالاتها في اللغة والاصطلاح:

1-1 في اللغة:

الأشربة جمع شراب وهو ما يشرب من المائعات ، فيقال: شَرَبَ الماءَ شَرْبًا وَشُرْبًا وَشَرِبًا ، والفاعل شارب والجمع شَارِبُونَ وَشَرِبَ ،وقال أبو حنيفة والشراب والشُّرْبُ والشَّرِيبُ واحد والجمع أَشْرَابٌ"³ وقال ابن فارس: "الشين والراء والباء أصل منقاس مطرد، وهو الشرب المعروف ، ثم يحمل عليه ما يقاربه مجازا أو تشبيها فنقول شربت الماء أشربه شربا ، وهو المصدر و الشرب الاسم و الشرب القوم الذين يشربون و

¹ - سورة الاسراء، الآية 82

² - احمد بن حنبل، مسند الامام احمد بن حنبل، أشرف على تحقيقه الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط 1 1419هـ، 1999، ج 30، ص 398 رقم الحديث 18455.

³ ابن منظور لسان العرب. تج عامر أحمد حيدر، راجعه عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط 1، 1424هـ، 2003م، بيروت، مج 1، ص 566

الشرب بالكسر الحظ من الماء "1" قال الله تعالى: هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ "2" و الشرب بالضم إيصال الشيء إلى جوفه بعينه مما لا يأتي فيه المضغ "3".

2-1 الشراب اصطلاحاً:

جمع شراب بمعنى مشروب "4"، وهو كل مائع رقيق سائغ يسيل من الفم إلى الجوف من غير مضغ حراماً كان أو حلالاً "5"، وكل شراب أسكر فهو حرام "6".
أما الأشربة التي نود الحديث عنها في دراستنا فهي الأشربة التي تتعلق بالأدوية، والتي في الغالب ما يكون أساسها من الماء والسكر والعسل ثم تضاف إليهم مواد طبية علاجية حسب الحالة المرضية، ثم تطبخ جميعها حتى تنضج ثم تصفى، وتقدم للمريض كدواء طبي "7".
وكثيراً ما كانت تلك الأشربة تنسب إلى أسماء الأطباء أو الصيادلة الذين صنعوها ومن أشهرهم على سبيل المثال لا الحصر: الأشربة المنسوبة إلى الطبيب حمد بن أبان وشراب النصراني الذي صنعه جواد النصراني والذي كان يطلق عليه دواء الراهب "8" وشراب الحراني الذي صنعه الطبيب أحمد بن يونس الحراني "9".

¹ أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ، 1979م، ج3، ص 267

² سورة الشعراء، الآية 155

³ علي بن محمد الشريف الجرجاني، التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، 1985م، ص 53

⁴ مجموعة مؤلفين، نهاية المحتاج الى شرح المنهاج في الفقه على مذهب الإمام الشافعي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ط2، بيروت، لبنان، 1424هـ، 2003م، ص 9

⁵ محمد رواس قلعه جي، معجم لغة الفقهاء، ضبطه لغويا حامد صادق قنبي، وضع مصطلحاته الفرنسية، قطب مصطفى سانو، دار النفائس، دار النفائس، ط1، بيروت، لبنان، 1416هـ، 1996م، ص 69

⁶ نهاية المحتاج الى شرح المنهاج، المرجع السابق، ص 9، وانظر أيضا مجموعة مؤلفين، الموسوعة الفقهية، دار الصفاة، ط1 الكويت، 1416هـ، 1992م، ص 316

⁷ محمد كامل حسين، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة الثقافة، ليبيا دت، ج1، ص 374

⁸ ابن جلجل أبي داود سليمان بن حسان الأندلسي، طبقات الأطباء والحكماء، تح فؤاد سيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة، 1955م، ص 93

⁹ ابن أبي أصيبعة موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، ط1، بيروت، 1399هـ، 1886م، ص 486-487

2-أنواع الأشربة:

تعددت أنواع العقاقير والأشربة التي استخدمها الأطباء والصيادلة في الأندلس لمعالجة مرضاهم بين الأشربة المعدنية والحيوانية والنباتية وتم استخدامها إما مفردة أو مركبة

2-1 الأشربة المعدنية:

2-1-1 الماء:

يعد الماء مادة الحياة وسيد الشراب، وأحد أركان العالم، بل ركنه الأصلي، لكون السماوات خلقت من بخاره والأرض من زبده "1" وجعل الله منه كل شيء حي، وهذا مصداقا لقوله عز وجل في كتابه العزيز "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ" 2 وبناء على ذلك ارتبط ذكر الماء بالحياة والعلاج، سيما وأن الماء يحافظ على حياة الإنسان وعلى رطوبة البدن وعليه فهو يعتبر من أنفع الأشربة وفي هذا الصدد يقول الشاعر:

والماء فيه حياة الناس كلهم وفي النبيذ إذا عاقرته الداء "3"

وعلى الرغم من ذلك فإن أطباء وصيادلة الأندلس كانوا لا يقدمون على استخدام الماء كشراب معالج إلا إذا توافرت فيه شروط معينة تمكنهم من معرفة جودته وهذا لا يتأتى إلا من عشرة طرق (أحدها من لونه : بأن يكون صافيا (الثاني) من رائحته : بأن لا يكون له رائحة البتة ، (الثالث) من طعمه : بأن يكون عذب الطعم (الرابع) من وزنه : بأن يكون خفيفا رقيق القوام ، (الخامس) من مجراه : بأن يكون طيب المجرى والمسلك (السادس) من منبعه بأن يكون بعيد المنبع (السابع) من بروزه للشمس والريح بأن لا يكون مختفيا تحت الأرض ، فلا تتمكن الشمس والريح من قصادته (الثامن) من حركته : بأن يكون سريع الجري والحركة ، (التاسع) من كثرته : بأن يكون له كثرة تدفع الفضلات المخالطة له ، (العاشر) من مصبه : بأن يكون آخذا من الشمال إلى الجنوب أو من المغرب إلى المشرق "4".

والمعروف على بلاد الأندلس تعدد مصادر الماء الشروب بها حيث استخدموا مياه الأمطار بعد تجميعها وتصفيتها ومياه الآبار والعيون والأنهار وحسبنا في ذلك أن شراب أهل مدينة أش كان من الخوابي التي يجلب

¹ ابن قيم الجوزية، الطب النبوي، كتب المقدمة راجع الأصل عبد الغني عبد الخالق، تعليق عادل الأزهرى، دار الفكر، بيروت، د ت، ص 202-203

² - سورة الأنبياء آية 30

³ إسحاق الأصفهاني، موسوعة الطب النبوي، تح مصطفى خضر ونفر التركي، دار ابن حزم، ط1، بيروت، لبنان، 1427هـ، 2006م مج 2، ص 655-656

⁴ ابن قيم الجوزية، المصدر السابق، ص 303

ماؤها من خارجها ومصدر مياهها هو الأمطار"¹ في حين أن أهل مالقه كانوا يشربون من مياه الآبار"² أما شراب أهل مدينة لبله فكان من مياه العيون الواقعة في مروج جهتها الغربية، كما كان أهل جزيرة شلطيح يشربون من مياه نهرها والعيون المتواجدة بها"³ في حين كان أهل مدينة شلب يشربون من مياه واديها الجاري من جهة جنوبها"⁴

ونظرا لاختلاف مصادر المياه وتنوعها نجد هناك فروقا فيما بينها حسب ما يخالطها من حجارة ومعادن ومنها تكتسب تلك المياه خصائصها المعدنية، فممنها الماء الكبريتي والماء النحاسي والماء الحديدي والمياه الشبيهة وكل منها تم استخدامها في العلاج، فالماء الكبريتي يستفرغ البدن وينفع للمصاب بالجرب وصلابة الطحال والكبد والرحم وأوجاع البطن، أما الماء النحاسي فينفع لمرض القولنج"⁵ وينفع للأحشاء الضعيفة والبواسير، كما ينفع في معالجة أمراض الفم واللهاة، أما الماء الحديدي فقد استخدموه في تقوية المعدة والكبد ويشفيها من الأمراض التي تصيبها، كما استخدم في معالجة خفقان القلب في حين استخدمت المياه الشبيهة في معالجة سيلان دم الطمث، وفي منع الاسقاط والقيء وسيلان دم البواسير، كما تعد من أنفع المياه لمعالجة القروح المتحلبة"⁶

ولم يقتصر استخدام أهل الأندلس على المياه المعدنية السالفة الذكر بل استخدموا أيضا المياه العذبة في معالجة بعض الأمراض سواء كانت تلك المياه باردة أو حارة أو مسخنة، وفي هذا الصدد يذكر ابن البيطار أن الماء البارد ينفع من الانتفاخ والعرق، أو من يتبول في الفراش، أو لمن له إسهال أو رعقان واستخدم في علاج تنن ورائحة الفم"⁷ وإذا شرب الماء العذب وسحق به القيروطي"⁸ كان دواء مبردا لجميع الأطراف"⁹ وتلك قاعدة تعود أصولها للطب النبوي، فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "

¹ الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ، 2002م، مج 2، ص 557

² نفسه، ص 565

³ الحميري، صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار عني بنشرها ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت ن لبنان، ط2، 1408هـ، 2002م ص 565

⁴ نفسه، ص 106

⁵ مرض معوي مؤلم يعسر معه خروج الثقل والريح، انظر حسين يوسف موسى وعبد الفتاح الصعيدي، الإفصاح في فقه اللغة مركز النشر الإعلامي الإسلامي، ط3، طباعة وتصحيح مطبعة مكتبة الإعلام الإسلامي، شوال 1404، ج1، ص 504

⁶ ابن البيطار، ضياء الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد الأندلسي، الجامع لمفردات الادوية والأغذية، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1412هـ، 1992م المصدر السابق، ج 4، ص 412، 413

⁷ نفسه ص 411

⁸ نوع من المراهم

⁹ ابن البيطار، نفسه، ج4، ص 408

الحى من فيح جهنم فأبردوها بالماء "1"، ومن ثم فالماء البارد مفيد في حالة الصحة، ضار لمن به زكام، فإذا أصيب الإنسان بنزلة برد اعتقد الطبيب أنه شرب ماء بارداً، فيصف له دواء مسخنا وكذا الأمر في الحميات بحيث نصح الأطباء والصيادلة الأندلسيين معالجتها بالماء البارد "2" في حين أن المياه الساخنة توافق أصحاب الصدع والرمد الذين بهم بثور في الحلق وأورام خلف الأذنين كما أنها تحلل القولنج وكثرة الرياح "3" وإذا شربت المياه الحارة سكنت الحكاك، وتجرعها على الريق يغسل المعدة من فضول الغذاء المتقدم "4"

أما بخصوص تفضيل المياه التي تستخدم في العلاج فنجد أن ابن رشد يذكر أن أفضل المياه التي تستخدم في العلاج هي مياه العيون التي لا تكون صلبة جبلية ولا دمتة "5" سباخية، بل تكون في الأراضي المعتدلة بالضرورة، وأحمدتها مياه الأنهار الكبيرة لفعل الشمس فيها "6" في حين يشير ابن زهر إلى أن أفضل المياه هي مياه العيون التي يستقبل انفجارها المشرق، فإذا مسها حر استحرت سريعاً وإذا مسها برد بردت سريعاً "7"

وما دمننا بصدد الحديث عن المياه المستخدمة كدواء فإننا توصلنا إلى أن الأندلسيين تمكنوا من استخلاص الماء سواء أكان ذلك من بعض الخضر أو الحبوب وحتى اللحوم واستخدموها كشراب لأجل معالجة مرضاهم، وحسبنا في ذلك على سبيل المثال لا الحصر استخدامهم لماء الجبن لإصلاح البطن والصرع والجرب المتقرح وداء الفيل أو البثور في كل البدن "8"، كما استخدموا ماء اللحم في معالجة ضعف القلب، وأنفعها ماء لحم الحملان والجداء، وإذا قلنا ماء اللحم تبادر لأذهانتنا أنه هو المرققة التي يطبخ في

¹ أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ط 1، 1412هـ، 1991 م ص 1732 رقم الحديث 2210

² سعيد بن حمادة، (الطب والصيدلة بالأندلس: القواعد والتيارات)، نشر في مجلة -Hesperis-Tamuda. LIV1 2019 193- 228، ص 222

³ ابن البيطار، المصدر السابق، ج 4، ص 411

⁴ نفسه، ج 4، 412

⁵ دمتة والدمث: السهول من الأرض، ومعناها الأرض اللينة السهلة الرخوة، والدمث: المكان اللين ذو رمل، ابن منظور، المصدر السابق، مج 2، ص 167، 168

⁶ ابن رشد، الكليات في الطب، تحليل وشرح، محمد عابد الجابري، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1999، ص 399-400

⁷ ابن زهر أبي مروان عبد الملك الأندلسي، النشاط والقوة والشفاء في الأغذية وهو كتاب الأغذية، وضع حواشيه محمد أمين الضناوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، لبنان، 1419هـ، 1998م، ص 63

⁸ ابن البيطار، المصدر السابق، ج 4، ص 414

ماءها اللحم، لكن الأمر ليس كذلك، بل ماء اللحم هو ما يخرج المدقوق بالطبخ حتى يسيل منه رشح وعرق و ينقلي فيه اللحم ثم يصفى ويشرب¹ "كما استخدم كلا من ماء الشعير وماء الخيار للحميات في حين استخدم ماء الورد لتقوية الدماغ وتسكين آلام الصداع وشربه يقوي المعدة والقلب"²

2-2 الأشرية الحيوانية:

المقصود بالأشرية الحيوانية هي تلك الأشرية ذات المصدر الحيواني كالعسل واللبن وغيرها

وأشهرها على الإطلاق.

2-2-1 العسل:

لا يخفى على أحد منا فوائد شراب العسل في معالجة الكثير من الأمراض وقد جاء ذلك صراحة في القرآن الكريم فيقول عز وجل في محكم تنزيله "وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"³ فالآيتين تسوق لنا الدلائل على عظمة الله وإيحائه للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتا وأن تأكل من كل الثمرات وتسلق الطرق التي ألهمها الله أن تسلكها ويخرج من بطونها شراب ذو ألوان مختلفة فيه شفاء للناس⁴ "ونظرا لفوائده الكثيرة تعددت استعمالاته حيث تم إدخاله في تحضير مختلف الأطعمة، كما يعد شرابا من الأشرية ودواء اشتهرت بها مدن الأندلس وهذا ما نستشفه من قول الشاعر :

إن شئت كان طعاما أو شئت كان شرابا"⁵

وبناء على ما سبق ذكره فإن العسل يعد ركنا عظيما في تدبير الصحة ومداواة الأسقام وهذا ما أكد عليه ابن زهر⁶ "وعليه فقد تم استخدامه في العديد من الأشرية كشراب العسل المضاف إليه القرفة والزنجبيل وجوزة الطيب، لمعالجة أمراض الكبد، وتقوية المعدة وسائر أمراض الإستسقا"⁷ وليس هذا

¹ ابن البيطار، المصدر السابق، ج4، ص 416

² نفسه، ص 414، 416، 418

³ سورة النحل، الآيتين 68-69

⁴ أحمد أنور عيسى، التداوي بالأعشاب بين الحقيقة والسراب، دار الجمهورية للصحافة، سبتمبر، 2012م ص 123

⁵ أحمد قدامة، قاموس الغذاء والتداوي بالنبات، موسوعة غذائية صحية عامة، دار النفائس، بيروت، ط2، 1402هـ /1986م ص403

⁶ ابن زهر، كتاب الأغذية، المصدر السابق، ص 63

⁷ هو ما اجتمع من ماء في البطن، للمزيد انظر، حسين يوسف موسى، وعبد الفتاح الصعيدي، المرجع السابق، ص 504

فحسب بل استخدم في تحليل البلغم وتليين البطن "1" وصنعوا من العسل الأبيض شراب الجلاب "2" للعلاج من بعض الحميات "3" ولا يفوتنا ذكرا أن أهل الأندلس صنعوا شراب العسل المنزوع الرغوة والذي كان يعد من أنفع الأشياء للسعال والربو "4"

2-2-2 اللبن (الحليب):

2-2-3 تعريفه لغة:

اللبن: هو خلاص الجسد ومستخلصه من بين الفرث والدم، وهو كالعرق يجري في العروق، والجمع ألبان "5" يقول ابن فارس، اللام والباء والنون أصل صحيح يتفرغ منه كلمات، وهو اللبن المشروب يقال: لبنته ألبنته، إذا سقيه اللبن، وفلان لا يبن أي عنده لبن "6"، وناقاة حلوب ذات لبن "7"، ويقول الفيروز آبادي في القاموس المحيط أن الحليب: هو اللبن الحلوب أو الحليب مالم يتغير طعمه "8" وبناء على ما سبق ذكره نخلص إلى أنه لا فرق بين لفظ حليب ولبن بل هو مرادف له.

2-2-4 تعريفه اصطلاحاً:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي: فاللبن عبارة عن سائل أبيض يكون في إناث الأدميين والحيوان "9" ويعد اللبن من أجل النعم التي أنعم الله تبارك وتعالى بها على الإنسان في الدنيا ووعده المتقين بأن يكون واحداً من شروباتهم في الجنة، كما جعل في ألبان الأنعام فائدة كبيرة حيث يقول سبحانه وتعالى: وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ "10" هذا في الدنيا أما صفة الجنة التي أعدها الله لعباده الذين اتقوا سخطه، واتبعوا رضوانه

¹ سامية مصطفى محمد مسعد، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة في عصري المرابطين والموحدين هـ 484 إلى 620 هـ (1092 إلى 1223م)، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، القاهرة، 1423 هـ، 2003م، ص 268.

² يقصد به ماء الورد، وهي كلمة فارسية معربة ن للمزيد انظر ابن منظور، المصدر السابق، مج 1، ص 323

³ سامية مصطفى، المرجع السابق، ص 268

⁴ ابن البيطار، المصدر السابق، ج 3، ص 160

⁵ ابن منظور، المصدر السابق، مج 13، ص 457

⁶ ابن فارس، المصدر السابق، ج 5، ص 231

⁷ نفسه، ج 2، ص 95

⁸ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تع أبو الوفا نصر الهوريني المصري الشافعي، راجعه أنس محمد الشامي زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 1429 هـ، 2008م، ص 390.

⁹ مجموعة مؤلفين، الموسوعة الفقهية، المرجع السابق، مج 35 ص 196، أنظر أيضا مجموعة مؤلفين، معجم لغة الفقهاء،

المرجع السابق، ص 388

¹⁰ سورة النحل، الآية 66

بأنهار من اللبن لم يتغير طعمه بخلاف لبن الدنيا لخروجه من الضروع وتصبح به حموضة وهو شراب أهل الجنة ، قال تعالى : "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ"¹ وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم فضل اللبن عل غيره من الأطعمة و الأشربة وقد ورد ذكره في الحديث النبوي الشريف إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا أكل أحدكم طعاما فليقل : اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه وإذا سقي لبنا ، فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فإنه ليس شيء يجزئ من الطعام و الشراب إلا اللبن"² وقد أثبتت الدراسات الحديثة فوائد اللبن، وأنه أكمل الأغذية، إذ لا يوجد غذاء آخر يمكن أن يماثل اللبن في خصائصه وصفاته.

وقام ابن البيطار في كتابه جامع مفردات بتقسيم أنواع اللبن حسب الفصول حيث يذكر أن لبن فصل الربيع يكون أكثر من لبن فصل الصيف وتقاس قيمته الغذائية حسب أنواع النباتات التي ترعى فيها الدواب فيذكر أن :لبن الحيوان الذي يرتعي النبات الطري أرطب على الذي يرتعي اليابس"³ كما تختلف الألبان حسب أنواع الحيوانات فيذكر ابن زهر أن لبن المعز هو أفضل الألبان حين يحلب فإذا شرب على الصوم وهو دافئ يغذي البدن حتى يسمن المسلولين"⁴ كما أنه نافع من السعال"⁵ أما لبن الضأن فهو كثير اللذة وافر الترطيب لكنه كثير المضار غليظ الجوهر"⁶ ، أما لبن البقر فقد استخدمه أهل الأندلس في علاج مرض السل والربو والحمى العتيقة"⁷ واستخدموا لبن النوق لتقوية المعدة و الكبد"⁸ بالإضافة الى أنواع أخرى من الألبان التي ذكرها ابن البيطار وذكر فوائدها العلاجية : مثل لبن الخنازير الذي يشفي من السل ، ولبن الأتان إذ تمشض به شد اللثة والأسنان ، كما استخدم لعلاج مرض عسر البول وقروح الرئة و أمراض الصدر"⁹.

¹سورة محمد، الآية 15

² ابن حجر العسقلاني، هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصاييح والمشكاة، تخريج محمد ناصر الألباني، تحقيق علي بن حسن عبد المجيد الحلبي، دار ابن القيم، دار ابن عفان ط1 1422 هـ / 2001، القاهرة، مج 4، ص 183، رقم الحديث 4213، وانظر أيضا ابن قيم الجوزية، المصدر السابق، ص 183

³ابن البيطار، المصدر السابق، ج 4، ص 364

⁴ ابن زهر، كتاب الأغذية، المصدر السابق، ص 26 ومعنى المسلول (أي المصاب بالسل أو التدرن الرئوي).

⁵ابن البيطار، المصدر السابق، ج 4، ص 364

⁶ابن زهر، كتاب الأغذية، المصدر السابق، ص 26

⁷ابن البيطار، المصدر السابق، ج 4، ص 370

⁸ابن زهر، كتاب الأغذية، المصدر السابق، ص 26

⁹ابن البيطار، المصدر السابق، ج 4، ص 370

ولم يقتصر شراب اللبن على ما ذكرنا سلفاً، بل اهتدى أهل الأندلس في الاعتماد على الألبان لعلاج المصابين بالتسمم وذلك بطبخ اللبن بالحصى المحصى إلى أن يصير إلى النصف نفع للإسهال وقرحة الأمعاء واللبن الحليب يصلح للحرقه واللهيب العارض من الأدوية القاتلة أو حتى لمن أطعم سُمًّا¹.

2-3 الأشربة النباتية:

تعد أوراق النباتات وجذورها ومستخلصاتها من بين الأشربة التي اعتمد عليها الأطباء والصيادلة الأندلسيين في معالجة مرضاهم وتأتي في مقدمتها شجرة الزيتون.

2-3-1: الزيتون

شجرة مباركة شرفها الله سبحانه وتعالى بمكانة ومنزلة رفيعة في القرآن الكريم، ومما جاء فيها قوله عزوجل: "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ"². ولقيمة الزيتون وزيته ومنافعه الطبية والعلاجية عمل العرب على نقل أشجار الزيتون لبلاد الأندلس وحظي بعناية علماء الزراعة في الأندلس الذين خصوا له فصولاً وأبواباً في كتبهم فذكروا تجاربهم وخبراتهم في زراعته وما توصلوا إليه في ذلك وحسبنا ما كتبه كلا من ابن بصال و ابن العوام الاشبيلي³ ونظرا لفوائده الكثيرة استخدم ورقه كشراب في العلاج حيث يذكر ابن البيطار أن ورق الزيتون ينفع من تآكل الأسنان إذا طبخ ووضع ماؤه في الفم⁴ في حين تكمن فوائد زيت الزيتون الطبية في معالجة أمراض عديدة فاستخدمها أهل الأندلس لإخراج الديدان من البطن وإطلاقها وتسكين وجعها ومعالجة السموم⁵.

2-3-2التين:

¹ابن البيطار، المصدر السابق ج 4، ص 365

²سورة النور 35

³ابن بصال، كتاب الفلاحة، نشره وترجمه وعلق عليه خوسي مارية مياس ببيكروسا، ومحمد عزيمان، معهد مولاي الحسن تطوان (المغرب)1955، ص 61،60. أنظر أيضا ابن العوام الاشبيلي ابي زكريا يحي بن محمد بن أحمد، الفلاحة الأندلسية، تح أنور أبو سليمان، سمير الدروبي، على ارشيد محاسنة، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ط1، عمان، الأردن، 1433هـ، 2012م، ج1، ص 572

⁴ابن البيطار المصدر السابق، ج 2 ص 484

⁵الذهبي أبو عبد الله محمد بن أحمد، الطب النبوي، تح أحمد رفعت البدراوي، دار احياء العلوم، ط3، بيروت، 1410هـ، 1990م، ص 127

شجرة مباركة أقسم بها الله عزوجل في كتابه العزيز في قوله: "وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ وَطُورِ سِنِينَ" ¹ تجمع بين الغداء والدواء، تتميز ثمارها باختلاف أنواعها فمنها الأحمر والأصفر والأسود والأخضر، لقيت هي الأخرى اهتماما من الأندلسيين حيث حرص الزراع على غرسها في فصل الخريف والربيع ² لفوائدها الطبية، استخدمها الأطباء في الأندلس في علاج الكثير من الحالات المرضية فيذكر ابن البيطار أنه إذا طبخ التين وشرب شرابه باللوز المسحوق أسهل البطن وليّن صلابة الرحم ³ واستخدم في علاج الحالات المرضية لدى الأطفال سيما الذين يعانون من اختناقات تنفسية حادة نتيجة عوارض مرضية وذلك بعد طبخ التين اليابس مع الحلبة فإن شرب طبيخهما معا نفع في إزالة السعال و أوجاع الصدر لدى الأطفال ⁴

2-3-3العناب:

شجر مثمر من فصيلة السدریات، ثماره لحمية تشبه الزيتون ولونها يتحول من الأخضر إلى البني الداكن ولها لب أبيض ⁵، تعرف هذه الشجرة في بلاد الأندلس باسم الزفروف ⁶ تمكن الأندلسيين من استخلاص شراب منها يساعد على تسكين السعال وقطع العطش وذلك بعد أن يتم أخذ رطلين من زرع الرجلة وزبعة الخس، ويطبخ الجميع في خمسة أرتال من الماء، ثم يصفى ويضاف له رطلين من السكر ويطبخ حتى يصير في قوام الشراب، ⁷ "واستخدم شراب العناب أيضا في تسكين حرارة البدن" ⁸.

2-3-4الريحان:

¹سورة التين، الآيات 1، 2

²أحمد بن محمد بن حجاج الاشبيلي، المقنع في الفلاحة، تح. صلاح جرار جاسر أبو صفية، تدقيق و اشراف عبد العزيز الدوري، منشورات مجمع اللغة الأردني، 1402هـ، 1983م، ص 110

³ابن البيطار، المصدر السابق، ج 1، ص 201

⁴فتيحة تريكي، النباتات النفعية مجالات استخداماتها ببلاد الأندلس خلال العصر الوسيط، رسالة دكتوراه، اشراف عبد القادر بوباية، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران، 1442هـ، 2020-2021م، ص 272

⁵أحمد قدامة، المرجع السابق، ص 421

⁶فتيحة تريكي، المرجع السابق، ص 288

⁷مجهول، الطبيخ في المغرب والاندلس نشر. امبروسيو ميراندا، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمديرد عدد 9-10، 1 يناير 1961 ص 246

⁸فتيحة تريكي، المرجع السابق، ص 288

ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى: "وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ"¹ وقوله أيضا: فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ"² ويطلق الريحان على كل مشموم من النبات له ريح طيب، يعرف لدى أهل الأندلس باسم الآس"³ له فوائد طبية عديدة استخدم حب الريحان كشراب بعد دقه في مهراس من حجر ثم يحصر ماؤه، ويطبخ بعدها في الماء حتى يبقى منه نصفه فقط ثم يصفى ويبرد ويضاف له السكر وهو بارد ثم يطبخ مرة أخرى وعند استعماله يضاف له الماء البارد ويتم الاحتفاظ به في إناء زجاجي للحفاظ على صلاحيته. أما ورقه فقد استخدم أخضرا كان أو يابساً في تحضير شراب منه بعد طبخ أوراقه في الماء ثم يضاف لها السكر وتطبخ مرة ثانية حتى الحصول على شراب ورق الريحان وهذا الشراب يعالج السعال والإسهال ويستعمل في استطلاق البطن من الدم"⁴ كما يفيد في تقوية المعدة وهذا حسب ما ذهب إليه ابن زهر.⁵

2-3-15 الأترج:

شجر معروف في كثير من البلدان له ورق أبيض ، يتميز بطيب طعمه ورائحته ، وهذا ما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : " مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب"⁶ والأترج نوعان الحلو والحامض والفرق بينهما كما يوضحه ابن بصال في كتابه الفلاحة أن عين الأترج الحامض أخضر مشوب بسواد ، والأترج الحلو يميل لونه إلى الصفرة"⁷ استخدمه أهل الأندلس كشراب في العلاج بعد أخذ خمسين ورقة من الأترج ونقعها في الماء ثم يضاف إليها السكر وصره بها العود القماري"⁸ ، والقرنفل ويطبخ الكل حتى الحصول على شراب يفيد في تقوية الأعضاء الباطنة وتليين البطن"⁹ ، كما

¹ سورة الرحمان، الآية 12

² سورة الواقعة الآية 89

³ ابن العوام الاشبيلي، المصدر السابق، ج 5، 65

⁴ مجهول، المصدر السابق، ص 243

⁵ ابن زهر، كتاب الأغذية، المصدر السابق، ص 76

⁶ مسلم، المصدر السابق، ص 549 رقم الحديث 779، وانظر أيضا، نهاد عباس زينل، الإنجازات العلمية للأطباء في الأندلس وأثرها على التطور الحضاري في أوروبا - القرون الوسطى 95-897هـ / 711-1492م، دار الكتب العلمية، ط 1 بيروت،

1971م، ص 361

⁷ ابن بصال، المصدر السابق، ص 81

⁸ يقصد به العود القماري

⁹ مجهول، المصدر السابق، ص 237

يذكر ابن البيطار أن شراب الأترج له قوة يضاد بها حتى الأدوية القاتلة (السموم)¹، أما قشره فقد اتخذ منه أهل الأندلس أشربة لاستفراغ الأغلاظ من البدن كالبول والعرق² وإلى جانب النباتات السالفة الذكر استخدم أهل الأندلس خلاصة بعض النباتات كأشربة للعلاج وحسبنا في ذلك البنفسج الذي يفيد شرابه مع الماء في مرض الخناق وصرع الصبيان³، كما يسهل الصفراء إذا استعمل شراباً⁴ أما شراب الزعفران فقد استخدم في علاج الأوجاع الباطنة وتسهيل عملية الولادة، فإذا تعسرت ولادة امرأة وسقيت منه درهمين تلد من ساعتها⁵ أما القرنفل فقد استخدم شرابه لجبل النساء فإن أرادت امرأة أن تحبل ما عليها إلا شرب وزن درهم من القرنفل⁶ كما يفيد شراب العناب حسب ما ذهب إليه ابن زهر في علاج خشونة قصبه الرئة والصدر وعلاج حرقة البول⁷

3 جدول في مجربات الأشربة النباتية لعلاج بعض الأمراض:

| المصدر | العلاج النباتي بالأشربة | المرض |
|--|--|-------------|
| ابن البيطار المصدر السابق، ج 1 ص 6-7 | يستحسن ابن البيطار نبات أطريال (أو ما يعرف بجزر الشيطان)، وهو نبات يشبه الشبث في ساقه وحجمه غير أن حمة الشبث زهرها أصفر، وهذا النبات زهره أبيض) فشربه يسقي منه المريض ويعرض في الشمس الحارة بعد شربه له لمدة ساعتين أو أكثر حتى يعرق لأن خاصية هذا النبات دفع المرض إلى سطح البدن في المواضع البرصية فينفظها ويحرقها ولا يصيب من المواضع السليمة من البرص شيء وتكرر العملية إلى غاية استجابة المريض للعلاج | البرص والهق |
| ابن زهر، التيسير في المداواة والتدبير، أحمد فريد المزيدي، بيروت، 1971م دار | الماء وشراب السكنجبين (وشراب السكنجبين نوعان: شراب السكنجبين الساذج يتم صنعه بمزج الخل الحاذق مع السكر ويطبخان حتى الحصول على شراب | مرض الأذنين |

¹ ابن البيطار، المصدر السابق، ج 1، ص 15

² ابن زهر، الأغذية ن المصدر السابق، 42

³ ابن البيطار، المصدر السابق، ج 1، ص 156

⁴ فتيحة تريكي، المرجع السابق، ص 280

⁵ يوسف بن عمر بن علي بن رسول الغساني التركماني، المعتمد في الأدوية المفردة، ضبطه وصححه محمود عمر الدمياطي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط 1، 1421هـ، 2000، ص 148

⁶ نسيم بوترة، موسى هواري (الفوائد الطبية للنباتات العطرية في الأندلس ما بين القرن 3-6هـ، 9-12م)، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، المجلد 7، العدد الرابع، ماي 2022م، ص 682

⁷ ابن زهر، كتاب الأغذية، المصدر السابق، ص 78

| | | |
|--|---|--------------------------------------|
| الكتب العلمية، ج1، ص 32 | والنوع الثاني، السكنجيين النافع بمزج الخل الحاذق مع العسل والسكر). | |
| أبوالخيرالإشبيلي عمدة الطبيب في معرفة النبات، تح محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، ط11995م، ج 2، ص 579 | شرب عصير نيات شحمة الدجاج | الجنون (الماليخونيا) |
| ابن زهر، التيسير في المداواة والتدبير، ج 1 المصدر السابق ص 38 | إذا حدث تشقق في الشفاه، يلتزم المريض بشرب شراب السكنجيين العسلي أياما متوالية | أمراض الفم (أمراض الشفاه) |
| ابن البيطار، المصدر السابق، ج2، ص 481 | نبات الزوفا (النابطة) وهي حشيشة تنبت في الجبال وتفتش أعصانها على وجه الأرض في طول الذراع ولها ورق وأغصان إذا طبخ هذا النبات بالماء والتين والعسل والسذاب وأخذ في شكل شراب نفع من السعال | السعال |
| ابن زهر التيسير، المصدر السابق، ج1، ص 40 | شراب السكنجيين والزبيب والايسراء | أمراض العينين (جرب العينين) |
| ابن البيطار، المصدر السابق، ج1، ص 98 | شراب الإيرسا (وهو نوع من السوسن له ساق به أزهار منحنية بألوان مختلفة فيشبه قوس المطر وشرابه يعالج وجع الأسنان | الأسنان |
| ابن البيطار، المصدر السابق، ج4، ص 480 | إذا شرب النعناع مع الخل يقتل دود البطن | أمراض المعدة (دود البطن) |

4- الإجراءات الرقابية على الأشرية:

لما كانت الصحة هي أئمن ما في الحياة، فقد حرص حكام الأندلس على فرض الرقابة لكل ما يتعلق بالصحة من خلال نظام يعرف باسم الحسبة ويطلق على صاحب هذه الخطة في بلاد الأندلس اسم صاحب

السوق أو صاحب الحسبة¹ ويساعده في عمله أعوان يختارون من ذوي الكفاءة والخبرة والمعرفة بكل صناعة حتى يتسنى لهم محاربة أساليب الغش التي تطلال المنتوجات الصناعية وكل ما يتعلق بها وكذا محاربة حيل التجار وغشهم للسلع والمنتوجات الصناعية² وتأتي على رأسها الأدوية والعقاقير على مختلف أنواعها التي نالت حقها من الرقابة وهذا نظرا لما لها من تأثير على حياة الناس وصحتهم وقد أمدتنا كتب الحسبة بمعلومات لا بأس بها فيما يخص هذا الجانب وخصصوا لها أبوابا في تأليفهم ونذكر على سبيل المثال لا الحصر ما كتبه صاحب معالم القرية فيما يخص الشرايين أي صانعي الأشربة حيث أشار إلى أن التدليس فيها كثير وأنه لا يمكن حصر معرفته على التمام لكون العقاقير والأشربة مختلفة الطبائع والأمزجة والتداوي على قدر أمزجتها ، فمنها ما لا يصلح لمرض ومزاج ، فإذا أضيف إليها غيرها أحرقها عن مزاجها فأضررت بالمريض لامحالة ، فالواجب عليهم أن يراقبوا الله تعالى في ذلك وينبغي على المحتسب تخويفهم ووعظهم وإنذارهم بالعقوبات إذا طال شراهم تدليس وغش معين فكانت الرقابة عليهم في كل وقت وعلى غفلة بعد ختم حوانيتهم من الليل ، ويشترط عليهم أن لا يطبخوا الأشربة إلا من السكر النقي ، ولا يطبخوا بشيء من الترانيق³ ولا من جلابية العسل ، وأن يقرر عليهم دستور الطب ، وهو لكل عشرة أرطال سكر ثلاثة أرطال من ماء الفاكهة وأن لا يكثر من شراب التفاح ولا البنفسج وأمثالها بليمون فإنه يجرد الأمعاء ويضر بالمريض⁴ . ومن فرط حرص المحتسبين على مراقبة الأشربة شملت مراقبتهم لكل السوائل التي تدخل في صناعة الأشربة الدوائية كزيت الزيتون والعسل والألبان وغيرها كثير⁵ " لا يسمح المجال للإشارة إليها لكثرتها في هذه الورقة البحثية.

وللحفاظ على الصحة العامة للفرد الأندلسي وتجنبنا لما لا يحمد عقباه أكد رجال الحسبة على ألا يبيع الشراب ولا يركب الدواء إلا الحكيم الماهر ولا يشتري ذلك من عطار ولا شرابي، لكون هؤلاء همهم

¹ عيسى بن الذيب، التجارة في عصر دولة المرابطين، رسالة ماجستير، اشراف حسن أحمد محمود، قسم التاريخ، جامعة القاهرة، 1411هـ-1990م، ص 100

² عيسى بن الذيب، المرجع السابق، ص 100، 101

³ يقصد به الماء الكدر الذي يخالطه وحل، للمزيد انظر، ابن منظور، المصدر السابق مج 10 ص 151 152

⁴ ابن الإخوة محمد بن محمد بن أحمد القرشي، معالم القرية في أحكام الحسبة، تح محمد محمود شعبان، صديق أحمد عيسى المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1976م، ص 185

⁵ أحمد بن عبد الله ابن عبد الرؤوف، رسالة في آداب الحسبة والمحتسب منشورة ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تح ليفي بروفينسال، مطبعة المعهد الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة، 1955م، ص 105، 108

الشيزريعيد الرحمن بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشره السيد الباز العريني، بإشراف محمد مصطفى زيادة مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1365هـ، 1946م، ص 58، 59، ابن الاخوة، المصدر السابق، ص 213

وحرصهم الوحيد حصولهم على الأثمان دون علم، فيفسدون الفتق"¹ ويقتلون الأعداء لأنهم يركبون أدوية مجهولة مخالفة للعمل."²

الخاتمة:

من خلال دراستنا لموضوع التداوي بالأشربة في الأندلس خلال ق 5هـ-6هـ/11-12م توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أبرزها:

1-أضاف أطباء الأندلس كابن البيطار وابن زهر طرق جديدة لعلاج بعض الأمراض بعد استخدامهم الأعشاب والأشربة، والتي لا يزال أثرها لغاية يومنا هذا.

2- أن المؤلفات الطبية التي تم تأليفها في فترة الدراسة كان لها دور كبيرا في تحسين المستوى العلاجي والصحي في بلاد الأندلس.

3-تفوق أهل الأندلس بصناعة أدوية وعلاجات على شكل أشربة سواء كانت من مستخلصات معدنية أو حيوانية أو نباتية.

4-تطور العلاج بالأعشاب في الأندلس راجع لدور العرب المسلمين في إدخال العديد من النباتات إليها كالأترج والزيتون وغيرهما والتي استغلها أطباء الأندلس في استخلاص خلاصاتها على شكل أشربة واستعمالها في العلاج.

5 - تفشي ظاهرة الغش في صناعة الأشربة في المجتمع الأندلسي بمن لا علاقة لهم لا بالطب ولا الصيدلة كالعطارين والعشابين الذين كان هدفهم استغلال معاناة المرضى وكسب الأموال على حسابهم.

6-كانت المؤلفات الطبية الأندلسية تدرس في كبريات الجامعات الأوروبية ومن بينها كتاب الأدوية المفردة لابن البيطار كذا كتب ابن زهر وقد ساهم ذلك في انتقال العديد من المصطلحات الطبية والكلمات العربية إلى اللغات الأوروبية ومن بينها كلمة شراب (syrup) التي لاتزال متداولة في كتبهم ولغتهم إلى غاية يومنا هذا.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في البحث:

المصادر:

-القرآن الكريم

- الاشيبلي أحمد بن محمد بن حجاج، المقنع في الفلاحة، تح، صلاح جرار جاسر أبو صافية، تدقيق وشراف عبد العزيز الدوري، منشورات مجمع اللغة الأردني، 1402هـ، 1983م

- الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تع أبو الوفا نصر الهوريثي المصري الشافعي، راجعه أنس محمد الشامي زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 1429هـ، 2008م

¹ يقصد به التجويف الصدري من خلال فتحة المريء الموجودة في الحجاب الحاجز.

² ابن عبدون التجيبي، رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، اعتنى بها بتحقيقها إ ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة 1955، ص 47

- ابن أبي أصيبعة موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، ط1، بيروت، 1399هـ، 1886م
- ابن البيطار، ضياء الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد الأندلسي، الجامع لمفردات الادوية والأغذية، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1412هـ، 1992م، ج1، ج2، ج4
- ابن بصال، كتاب الفلاحة، نشره وترجمه وعلق عليه خوسي مارية مياص بيكروسا، ومحمد عزيزمان، معهد مولاي الحسن، تطوان (المغرب) 1955
- ابن جلجل أبي داود سليمان بن حسان الأندلسي، طبقات الأطباء والحكماء، تح فؤاد سيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة، 1955م
- ابن حجر العسقلاني، هداية الرواة إلى تخریح أحاديث المصائب والمشكاة، تخریح محمد ناصر الألباني، تحقيق علي بن حسن عبد المجيد الحلبي، دار ابن القيم، دار ابن عفان ط1 1422 هـ / 2001، القاهرة، مج 4،
- ابن رشد، الكليات في الطب، تحليل وشرح، محمد عابد الجابري، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1999
- ابن زهر أبي مروان عبد الملك الأندلسي، النشاط والقوة والشفاء في الأغذية وهو كتاب الأعذية، وضع حواشيه محمد أمين الضناوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1419هـ، 1998م
- ابن عبدون التجيبي، رسالة في آداب الحسبة والمحاسب، اعتنى بها بتحقيقها ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة 1955
- ابن قيم الجوزية، الطب النبوي، كتب المقدمة راجع الأصل عبد الغني عبد الخالق، تعليق عادل الأزهرى، دار الفكر، بيروت، دت
- ابن منظور، لسان العرب. تح عامر أحمد حيدر، راجعه عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط1، 1424هـ، 2003م، بيروت، مج1، مج2، مج10، مج13
- الإشبيلي أبو الخير، عمدة الطبيب في معرفة النبات، تح محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، ط1 1995م، ج 2
- ابن حنبل احمد، مسند الامام احمد بن حنبل، أشرف على تحقيقه الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط 1 1419هـ 1999، ج 30.
- ابن عبد الرؤوف أحمد بن عبد الله، رسالة في آداب الحسبة والمحاسب منشورة ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحاسب، تح ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة، 1955م
- الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ، 2002م، مج 2
- الحميري، صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار عني بنشرها ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2، 1408هـ، 2002م
- الذهبي أبو عبد الله محمد بن أحمد، الطب النبوي، تح أحمد رفعت البدرأوي، دار احياء العلوم، ط3، بيروت، 1410هـ، 1990م
- الشيزري عبد الرحمن بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشره السيد الباز العريني، بإشراف محمد مصطفى زيادة مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1365هـ، 1946م

- ابن رسول الغساني التركماني يوسف بن عمر بن علي، المعتمد في الأدوية المفردة، ضبطه وصححه محمود عمر الدمياطي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط 1، 1421هـ، 2000
- ابن الإخوة محمد بن محمد بن أحمد القرشي، معالم القرية في أحكام الحسبة، تح محمد محمود شعبان، صديق أحمد عيسى المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1976م
- ابن العوام الأشبيلي ابي زكريا يحيى بن محمد بن أحمد، الفلاحة الأندلسية، تح أنور أبو سليمان، سمير الدروبي، عليا رشيد محاسنة، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ط1، عمان، الأردن، 1433هـ، 2012م، ج1، ج5.
- ابن زهرأبي مروان عبد الملك الأندلسي، التيسير في المداواة والتدبير تح أحمد فريد المزيدي، بيروت، 1971م دار الكتب العلمية، ج1، ص 32
- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ، 1979م، ج2، ج3، ج5
- ابن الحجاج أبو الحسين مسلم، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ط 1، 1412هـ، 1991 م رقم الحديث 2210
- الأصفهاني إسحاق، موسوعة الطب النبوي، تح مصطفى خضر ونفر التركي، دار ابن حزم، ط1، بيروت، لبنان، 1427هـ، 2006م مج 2
- مجهول، الطبخ في المغرب والأندلس نشر. امبروسيو ميراندا، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدير عدد 9-10، 1 يناير 1961
- القرآن الكريم
- المراجع:
- موسى حسين يوسف والصعدي عبد الفتاح، الإفصاح في فقه اللغة، مركز النشر الإعلامي الإسلامي، ط3، طباعة وتصحيح مطبعة مكتبة الإعلام الإسلامي، شوال 1404، ج1.
- عيسى أحمد أنور، التداوي بالأعشاب بين الحقيقة والسراب، دار الجمهورية للصحافة، سبتمبر، 2012م
- قدامة أحمد، قاموس الغذاء والتداوي بالنبات، موسوعة غذائية صحية عامة، دار النفائس، بيروت، ط2، 1402هـ، 1986م
- مسعد سامية مصطفى محمد، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة في عصري المرابطين والموحدين هـ 484 إلى 620هـ (1092 إلى 1223م)، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، القاهرة، 1423هـ، 2003م
- الجرجاني علي بن محمد الشريف، التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، 1985م
- مجموعة مؤلفين، نهاية المحتاج الى شرح المنهاج في الفقه على مذهب الإمام الشافعي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ط2، بيروت، لبنان، 1424هـ، 2003م
- قلعه جي محمد رواس، ضبطه لغويا حامد صادق قنيبي، وضع مصطلحاته الفرنسية، قطب مصطفى سانو، دار النفائس معجم لغة الفقهاء، دار النفائس، ط1، بيروت، لبنان، 1416هـ، 1996م
- حسين محمد كامل، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة الثقافة، ليبيا دت، ج1
- مجموعة مؤلفين، الموسوعة الفقهية، دار الصفوة، ط1 الكويت، 1416هـ، 1992م

- زينل نهاد عباس، الإنجازات العلمية للأطباء في الأندلس وأثرها على التطور الحضاري في أوروبا – القرون الوسطى 95-897هـ
1492-711م، دار الكتب العلمية، ط1 بيروت، 1971م
- بن حمادة سعيد، (الطب والصيدلة بالأندلس: القواعد والتيارات)، نشر في مجلة Hespéris – Tamuda. LIV1 2019 193-
228
- هوارى نسيمه بوترة موسى (الفوائد الطبية للنباتات العطرية في الأندلس ما بين القرن 3-6هـ، 9-12م)، مجلة المعارف
للبحوث والدراسات التاريخية، المجلد 7، العدد الرابع، ماي 2022م
- بن الذيب عيسى، التجارة في عصر دولة المرابطين، رسالة ماجستير، اشراف حسن أحمد محمود، قسم التاريخ، جامعة
القاهرة، 1411هـ-1990م
- تريكي فتيحة، النباتات النفعية مجالات استخداماتها ببلاد الأندلس خلال العصر الوسيط، رسالة دكتوراه، اشراف عبد
القادر بوباية، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران، 1442هـ، 2020-2021م

تطور علم الطب والصيدلة في عهد الدولة الحمادية

(398هـ/547هـ-1007م/1152م)

Evolution of medicine and pharmacy in the hammadid state era
(AD1152/AD1007-H547/H398)

ط.د. رضوان زيرار. جامعة تلمسان (الجزائر)

redouane.zirar.5582@gmail.com

الملخص:

تهدف دراستنا هذه الى تسليط الضوء على واحدة من العلوم العقلية التي انتعشت خلال عهد الدولة الحمادية، بفضل تنشيط بعض الأمراء للعلم وذويه، وبما أوقفه أهل البر والإحسان والأرزاق الجارية على طلاب العلم، وتوفرها على العديد من النباتات الطبية، كلها عوامل وظروف حفزت للإقبال على طلب العلم فازدهرت الحركة العلمية ببروز العديد من التخصصات.

و من بين هذه العلوم هي صناعة الطب التي كانت مهتوكة الجانب من قبل كل من هب ودب، حيث يتعرض لها الغث والسمين ولا يقع بينهما التمييز إلا عند قليل من الناس كما قال الغبريني، لكنها سرعان ما انتعشت هذه الصناعة بفضل نخبة من العلماء أمثال ابن أبي مليح وغيره ممن يطول ذكرهم الملمين بالأدوية المركبة و المنفردة العارفين بالأمراض وطرق علاجها، حتى تعدت شهرتهم العديد من الأصقاع.
الكلمات المفتاحية: العلوم العقلية، الدولة الحمادية، الطب، الصيدلة، البيمارستان.

Abstract:

Our research aims to shed light on one of the mental sciences that flourished during the era of the Hammadi state, owing to some princes' promotion of science and scientists, as well as what the people of righteousness and charity endowed for students of science. In addition to the availability of many medicinal plants, all of which are factors and conditions that stimulated the demand of science. As a result of the establishment of several specialties, the scientific movement developed. Among these fields is medicine, which was degraded and exposed to virtually everyone, but it swiftly developed owing to a handful of intellectuals such as Ibn Abi Malih and others who are famous for being knowledgeable with both combination and individual medications, as well as illnesses and treatment approaches.

Key words: mental sciences, Hammadi state, medicine, pharmacy, bimaristan.

مقدمة:

لقد شهدت الدولة الحمادية نهضة علمية شاملة وإنتاج فكري غزير، وكان من مظاهرها اتضاح الشخصية العلمية الحمادية-الصنهاجية-، بل وقوة هذه الشخصية واستقلالها إلى حد كبير، إذ تنوعت بها جل العلوم النقلية والعقلية بفضل ثلة من العلماء الأفاضل الذين حملوا على عاتقهم رسالة العلم والاجتهاد، ولعل أبرز هذه العلوم والتي تصنف في خانة العلوم العقلية هي صناعة الطب والصيدلة.

لقد تضافرت أسباب عدة لإنعاش هذه الصناعة لاسيما وجود أمراء وفروا للناس وحدة واستقرار وأمن ورخاء، فأتاحوا كل من شأنه أن ينهض بثقافتهم، ويرقى بعلمهم، حتى أصبحت بجاية حاضرة الحماديين محط أنظار العلماء المسلمين من كل حذب وصوب، فتوافدوا عليها ينهلون من علومها ويستفيدون من معارفها وقد أعجب الرحالة ممتدحين هذا التنوع والثراء العلمي والمعرفي وكل هذا بفضل نخبة من الأطباء والصيداللة تعدت شهرتهم العديد من الأصقاع.

ولأجل الإلمام أكثر بدراستنا هذه نطرح التساؤل التالي: إلى أي مدى ساهمت الدولة الحمادية في النهوض بصناعة الطب والصيدلة؟.

وللإجابة على هذه الإشكالية لا بد من:

- ضبط بعض المفاهيم التي لها علاقة بدراستنا هذه كمفهوم (العلوم العقلية، الطب، الصيدلة، تعريف الدولة الحمادية).
- تتبع العوامل والظروف المساعدة على تحقيق هذه الطفرة العلمية في مجال الطب والصيدلة.
- أشهر الأطباء والصيداللة، وأبرز نشاطاتهم العلمية على الصعيدين على الداخلي والخارجي.

1- ضبط المفاهيم:

1-1 العلوم العقلية:

يعرفها ابن خلدون: "على أنها هي طبيعية للإنسان من حيث إنه ذو فكر، فهي غير مختصة بملة، بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها، وهي موجودة في النوع الإنساني، منذ كان عمران الخليفة¹، ومن بين أصنافها: الطبيعيات والتي تبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون، فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية، وما يتولد عنها من إنسان وحيوان ونبات ومعادن، وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل، وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك. ومن الذين كتبوا في هذا العلم ابن سينا في كتابه "الشفاء" جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة، ثم لخصه في كتاب "النجاة" وفي كتاب "الإشارات"².

¹ ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، المجلد 01، القاهرة، دار ابن الجوزي، 2010، ص: 416.

² ابن خلدون، 2010، مصدر سابق، ص: 428.

2-1- علم الطب:

أ- لغة:

الطَّبُّ: مُثَلَّثَةٌ الطَّاءِ علاج الجسم والنفس، يَطْبُ وَيَطَّبُ، والرِّفْقُ والسِّحْرُ، وبالكسر: الشهوة والإرادة والشأن، والعادة وبالفتح: الماهر الحاذق بعمله، كالطبيب، ولقد طَبَّتْ بالكسر والفتح. جمعها أَطْبَةٌ وأطباء، والمتطبب متعاطي علم الطب¹. بينما الطبيب: العالم بالطب، وجمع القلة: أَطِبَّة. والكثير أطباء. تقول ما كنت طبيبا ولقد طببت. بالكسر والمتطبب الذي يتعاطى علم الطب، والطَّبُّ والطَّبُّ لغتان في الطب، وفي المثل: "إن كنت ذا طب فطب لعينيك"، وطَبَّ، كل حاذق طبيب عند العرب². وعليه فصناعة الطب هي وظيفة يمارسها شخص يعرف بالطبيب يشترط فيه أن يكون ماهرا وحاذقا.

ب- اصطلاحا:

علم الطب علاج الجسم والنفس³، وعند ابن سينا: "الفن الذي يزيل عائقا يحول دون الطبيعة، والقيام بوظيفتها المعتادة"⁴. بينما ابن خلدون جعل علم الطب من فروع الطبيعيات، والطب صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح، فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية، بعد أن يتبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن، وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ عنها وما لكل مرض من الأدوية، مستدلين على ذلك بأمزجة الأدوية وقواها، وعلى المرض بالعلامات المؤدنة بنضجه وقبوله للدواء، وأولا في السجية والفضلات والنبض، محاذين لذلك قوة الطبيعة، فإنها المدبرة في حالي الصحة والمرض، وإنما الطبيب يحاذيها ويعينها بعض الشيء، بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة والفصل والسن، ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب⁵.

يقول حاجي خليفة: "اعلم أن تحقيق أول حدوث الطب عسير لبعده العهد واختلاف آراء القدماء فيه، وعدم المرجح فهناك من يقول أنه خلق مع الإنسان، والثاني وهو الأكثر يقول أنه مستخرج بعده إمَّا بإلهام من الله وإمَّا بتجربة من الناس"⁶.

3-1- علم الصيدلة:

¹محي الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، القاهرة، دار الحديث، 2008، ص: 989.

²أبي نصر اسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، القاهرة، دار الحديث، 2009، ص: 690.

³محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، 1414هـ، ص: 553.

⁴جلال مظهر، حضارة الاسلام وأثرها في الترقى العالمي، القاهرة، مكتبة الخانجي، للطباعة والنشر والتوزيع، 1905، ص:

319.

⁵ابن خلدون، مصدر سابق، ص: 428.

⁶مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت، دار إحياء، د.ت، ص: 76.

عرفت هذه الكلمة أنها من أصل هندي، فلفظ صيدلاني وصيدناني معرب من لفظ جندناني وجندن أو جندل بالهندية وهو الصندل (من العطور المعروفة عند العرب ويستعمله أهل الهند في العلاج كثيرا)⁷، وبذلك فإن كلمة جندلاني حدث عليها تحريف فأصبحت صيدلاني وتطلق على مزاو العطر، ثم أطلقت بعد ذلك على مزاو الأدوية وعلى كل مختص بجمع الأعشاب النافعة للتطبيب⁸.

وللصيدلية ألفاظ مختلفة استعملت في اللغات الأكثر انتشارا لتسمية الصيدلية ونذكر منها: الصيدلة في الاصطلاح العربي كما عرفها البيروني هي معرفة العقاقير المفردة بأجناسها وأنواعها وصورها المختارة لها وخلط المركبات من الأدوية واستخراج الأجود منها¹.

يعرفها حاجي خليفة: "أنها فرع من فروع الطب، وهو علم يبحث فيه عن تميز المتشابهات بين أشكال النباتات من حيث أنها صينية أو هندية أو رومية، وعن معرفة زمانها صيفية أو خريفية وعن تميز جيدها من الرديء وعن معرفة خواصها والغرض والفائدة منه ظاهر والفرق بينه وبين علم النباتات. إن علم الصيدلية باحث عن تمييز أحوالها أصالة وعلم النباتات باحث عن خواصها أصالة، والأول أشبه للعمل والثاني أشبه للعلم، وكل منهما مشترك للآخر بالآخر².

وتعرف أيضا بصناعة العطر والشراب وقال عنها البيروني أن الصيدلاني هو المحترف بجمع الأدوية على أحد صورها واختيار الأجود من أنواعها، مفردة ومركبة على أفضل التركيب خلدها أهل الطب³. أما كلمة الدواء في الصيدلية يقابلها كلمة عقار، جمعها عقاقير وهي كلمة مشتقة من العبرية الأرامية عقار ومعناها أصول النبات لأن أساس الأدوية من أصل الأعشاب، واتسعت الكلمة بعد ذلك ودلت على جميع أجزاء الأعشاب المستعملة للعلاج لتتضمن بعد ذلك الأدوية الحيوانية والمعدنية كما أطلق أيضا على هذا العلم أقريازين وقربايزين لفظ يوناني معناه تركيب أي تركيب الأدوية وقوانينها⁴.

يتضح أن الصيدلة علم وفن وصناعة أساسها في مدلولها الحديث دراسة مفردات الأدوية من نباتية وحيوانية ومعدنية وكيميائية ومعرفة شوائبها والتعرف على صفاتها وخصائصها وكيفية الحصول عليها وطرق حفظها دون أن يتطرق إليها الفساد، إضافة إلى طرق تعاطيها وتجهيزها في أشكال وعلى هيئات تسهل

⁷ رمضان الصنباغ، العلم عند العرب وأثره على الحضارة الأوربية، الإسكندرية، دار الوفاء للطباعة، 1998، ص: 215.

⁸ رمضان الصنباغ، مرجع سابق، ص: 216.

¹ محمد كامل حسين، الموجز في تاريخ الطب و الصيدلة عند العرب، ليبيا، منتدى سور أزيكية، د.ت، ص: 101.

² حاجي خليفة، مصدر سابق، ص: 73.

³ شحاتة قنوتي، تاريخ الصيدلية والعقاقير في العصر القديم والوسيط، بيروت، أوراق شرقية، 1996، ص: 11.

⁴ رمضان الصنباغ، مرجع سابق، ص: 216.

تناولها وتؤكد مفعولها والاحتفاظ بخصائصها وكذلك ما تصير إليه في جسم الكائن الحي وتأثيره فيه سليما كان أو عليلا.

4-1- علم الطب والصيدلة:

يعتبر علم الطب والصيدلة من العلوم المستحبة والضرورية للإنسان¹، ويؤكد هذا الرأي ما جاء في قول الشافعي: "لا أعلم علما بعد الحلال والحرام أنبل من الطب"، ويتحسر في ذات الوقت عما ضيعه المسلمون من صناعة الطب في بداية الأمر بقوله: "لقد ضيعوا ثلث العلم ووكلوه لليهود والنصارى"²، لأن هذا اللون من المعرفة الإنسانية يحفظ سلامة المجتمع وبنيتة الجوهرية من العلل والأمراض، كما يسهر على سلامته الروحية رجال الفقه وعلماء الشريعة، فالإسلام إذن أعطى أسبقية لحفظ الأبدان على حفظ الأديان³.

لقد ظل علم الصيدلية والطب في العصور السابقة متلازمتين، وكان الشخص الواحد يقوم بفحص المرضى وتشخيص أمراضهم ثم يقوم بنفسه بتحضير الأدوية الخاصة لعلاجهم⁴، ولكن بعد أن كثرت العقاقير وازدهرت وكثرت الأمراض وتنوعت اقتضى الأمر فصل الطب عن الصيدلة، وأصبح كل علم مستقل عن الآخر وقائم لذاته، وأول من أطلق عليه لقب صيدلانية هو "أبو قريش عيسى الصيدلاني"⁵.

ومن الدلائل على هذا الانفصال ما كان يقوم به إسحاق بن عمران حيث أنه كان يعاين مرضاه في مكان عام وكان بعد ذلك يقوم بكتابة الدواء على ورقة ويرسل مرضاه لشرائه من عند العطارين⁶، كما قام أيضا ابن الجزار بالفصل بين هذين العلمين، حيث أنه كان يقوم بعد انصرافه إلى إفريقية بترك غلام له اسمه "رشيق" أمام باب داره سقيفة وهي تقع بجانب باب الخروج من الدار، وقد أعد بين يديه جميع المعجونات والأشربة والأدوية، فإذا رأى القوارير بالغداة يقوم بتحرير وصفة طبية بها الأدوية المفردة والمركبة مع أشكالها الصيدلانية وكيفية استعمال الجرعات اليومية ومدة العلاج، ثم يأمر ابن الجزار المريض بالذهاب إلى الصيدلانية السقيفة التي وضع بها عامله رشيق وهو بمثابة المساعد للصيدلي لأخذ

¹ عبد العزيز فيلاي، الطب والصيدلة في الأندلس في القرن 6هـ/12م أبو جعفر أحمد بن محمد الغافقي نموذجا ت560هـ/1165م، الجزائر، دار الهدى، 2012، ص: 257.

² عبد العزيز بن عبد الله، تعليم الطب بالمغرب والعالم الإسلامي، مجلة الأكاديمية للمملكة المغربية، رقم 05 (ديسمبر 1988)، ص: 25.

³ ابن رشد، الكليات في الطب، القاهرة، مطابع الهيئة المصرية العامة، 1989، ص: 07.

⁴ محمد كامل حسين، مرجع سابق، ص: 314.

⁵ رمضان الصبأغ، مرجع سابق، ص: 218.

⁶ إيمان بديع عبد ربه، الصيدلية في التاريخ الإسلامي، بحوث ودراسات (موقع نسيم الشام)، 2011، ص: 23.

الدواء منه بدلا من ابن الجزار¹، وذلك نزاهة بنفسه أن يأخذ من أحد شيئا فكان هذا الغلام يقوم بتسليم الأدوية الموصوفة والتي قام المعلم ابن الجزار بتحضيرها مسبقا كما كان يقوم باستلام ثمنها كما ذكره في الوصفة الطبية إضافة إلى أخذ أجره الطبيب ابن الجزار².

ومن خلال هذا يتضح أن الجزار هو أول من فرّق بين العمل الطبي L'acte médical، والعمل الصيدلاني L'acte pharmaceutique، وأصبحت مهنة الصيدلة مستقلة ومتممة ومتكاملة مع مهنة الطب مع الاختصاص لكل مزاوّل لها ومن ثمة تطور علم الصيدلة وازدهر وصار مادة حيوية تدرس في المدارس والمعاهد التي أنشئت لهذا الغرض.

5-1- عوامل تطور علم الطب والصيدلة:

لقد تضافرت جملة من العوامل في تحقيق تلك الطفرة العلمية والتي مست جل التخصصات العلمية، ومن بين هذه العوامل والظروف المساعدة على ذلك:

أ- العامل السياسي:

لقد اعتمد الأمراء الحماديون بعد تأسيس دولتهم سنة 408هـ/1017م³، واتخاذهم مدينة أشير⁴، ثم القلعة⁵، ثم انتقلهم إلى بجاية في عام 460هـ/1068م⁶، وسبب هذا الانتقال حسب ابن الأثير " هو الرغبة في الاستيلاء على المهديّة، وأنه لا بد من حصارها برا وبحرا"⁷، وقد ذكر عبد الواحد المراكشي أن بني حماد كانوا يحكمون من قسنطينة إلى موضع يعرف بسيوسيرات يبعد عن بجاية بحوالي تسع مراحل⁸، وتمتد

1. أبو جعفر أحمد بن ابراهيم أبي خالد القيرواني ابن الجزار، طب الفقراء والمساكين، طهران، مطالعات اسلامي، 1999، ص: 53

2. ابن الجزار، مرجع سابق، ص: 25.

3. حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، دار الرشاد، 1421هـ-2000م، ص: 158. بعد استقلالهم عن الدولة الفاطمية حمل أمراءها لقب الملك. ينظر: عبد الفتاح مقلد الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب العربي، ج02، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1994م، ص: 240.

4. أبي عبيد الله البكري، المسالك والممالك، ج02، الدار العربية للكتاب، 1992م، ص: 725.

5. رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1397هـ-1977م، ص: 20.

6. عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج06، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000م، ص: 27.

7. علي بن الأثير، الكامل في التاريخ، ج08، بيروت، دار الكتاب العربي، 1471هـ-1997م، ص: 202-204.

8. عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، بيروت، المكتبة العصرية، صيدا، 1426هـ-2006م، ص: 253.

جنوبا إلى غاية وارجلان(ورقلة حاليا)¹، وفي هذه الرقعة المترامية الأطراف انتهجت سياسة حسن الجوار مع جيرانهم وفقا للمصالح المشتركة التي تحقق فائدة لحكمهم²، والتسامح روحيا ومذهبيا مع الأقليات والطوائف التي كانت تعيش على أراضيها، حيث عاملت كل المذاهب و الملل والنحل بالعدل والرفق والمساواة³، فاندمجت في عمليات البناء والتشييد والتعمير التي شرع فيها مؤسس الدولة حماد الذي شيد بنايتها وأسوارها واستكثر فيها من المساجد والفسادق، فاستبحرت في العمارة واتسعت بالتمدن، ورحل إليها من الثغور والقاصية والبلد البعيد طلاب العلوم وأرباب الصنائع النفاق، أسواق المعارف والحرف والصنائع بها⁴ ثم سار ابنه القائد حماد على نهج والده بالاهتمام بالجانب الثقافي والحضاري للدولة⁵، ومن بين ما تم تشييده البيمارستان والتي هي عبارة عن مستشفى عام تعالج فيه جميع الأمراض والعلل من باطنية، وجراحية، ورمدية، وعقلية مجهزة بكل ما يلزم من أدوات وأطعمة، وأشربه وملابس وأطباء، وعقاقير، وقوارير، وظلت كذلك حتى عصور التخلف فصارت مأوى للمجانين فقط⁶.

كما التجأت إليها أعداد كبيرة من مختلف الشرائح لحصانها ومناعتها، وفي ذلك يقول النويري: "ولما رحل المعز من القيروان وصار إلى المهديّة وتمكنت العرب، وخرّبوا البلاد ونهبوا الأموال، انتقل كثير من أهل القرى والبلاد إلى بلاد بني حماد لحصانها، فعمرت بلادهم وكثرت أموالهم"⁷. نستنتج من هذا أن القلعة أصبحت ملجأ لرجال العلم والمعرفة الذين لم يجدوا بدا من الرحيل إلى عاصمة بني حماد طلبا للأمن والهدوء.

ب- العامل البشري:

ونقصد بها هجرة علماء القيروان إلى القلعة، حيث قصدوا التجار وأصحاب رؤوس الأموال وطلاب العلم سنة 405هـ/1014م وهذا ما يؤكد البكري بقوله: "وهي اليوم مقصد التجارة، وبها تحل الرحال من الحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب"⁸، وكمثال عليهم أبو القاسم عبد الجليل ابن بكر المعروف

¹ عبد الرحمان الجليلي، تاريخ الجزائر العام، ج01، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، 1384هـ-1965م، ص:365.

² حسين خضيري أحمد، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب 362هـ-567هـ/973م-1171م، القاهرة، مكتبة المدبولي، د.ت، ص:79.

³ محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983، ص:202.

⁴ ابن خلدون، مصدر سابق، ص:202.

⁵ عبد الفتاح مقلد الغنيمي، موسوعة تاريخ المغرب العربي ج02، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1994، ص:273.

⁶ اسماعيل سامعي، معالم الحضارة العربية الإسلامية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2012، ص:201-202.

⁷ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ب، ص:118-119.

⁸ أبي عبيد الله البكري، المسالك والممالك ج02، الدار العربية للكتاب، 1992، ص:710.

بالدباجي الذي رحل من افريقية بعد الغزو الهلالي للقيروان سنة 449هـ/1057م¹، والمعروف بابن الباذش، وأحمد بن خلف بن الطاهر بن علي بن عيسى بن عبادة الأنصاري البلنسي، وأحمد بن خصيب ت450هـ/1058م، والأندلس في ذلك الوقت كانت إحدى أقطاب الحضارة في العالم الإسلامي ومركز للإشعاع الفكري الذي يضاهاى بغداد وأهلها، ولما انتقلوا إلى القلعة كانوا يحملون معهم مستواهم الحضاري الراقى². كما استقبلت القلعة المهاجرين الفارين من الحروب والفتن التي شبت بالأندلس والمعروفة بالفتنة القرطبية في نهاية المائة الرابعة ومثال ذلك من العلماء الأندلسيين الوافدين: أحمد بن علي بن خلف الأنصاري من غرناطة، وغيره من العلماء الآخرين الذين ساهموا في مجال التعليم بإنشاء المدارس على النمط الأندلسي، والتي أدت دور كبير في ترقية المستوى العلمي دراسة وتأليفا، مما ساهم في تخرج العديد من الطلبة ممن سيكون لهم باع في الكثير من العلوم³، وتمكنوا من إمداد أوروبا بتجارب مهمة في ميدان الطب والعلاج والجراحة والصيدلة⁴.

ت- تشجيع الأمراء للعلم والعلماء:

لقد عرف عن أمراء بجاية تقديرهم للعلم وأهله وتشجيعهم للأدباء⁵ بنشر الأمن والاطمئنان في نفوس المقيمين فيها والوافدين عليها، حتى أصبحت قبلة آمال أهل العلم وكعبة طلابه، قربوا إليهم العلماء وأنشأوا بيوت الحكمة ودور الكتب، وأقاموا بها الوراقين يؤدون وظيفة لتنشيط الحكومات على ذلك فظهر نوابغ وحكماء الأطباء وظهرت مؤلفات في شتى التخصصات⁶، ويضاف إلى ذلك أخلاق البجائيين وحبهم للعلم والعلماء وإقبالهم على السماح والاستفادة من كل مقبل عليهم كيفما كانت منزلته⁷.

ومن أجل تشجيع الحركة الفكرية بعاصمتهم الجديدة كانوا يقربون العلماء منهم ويعقدون المجالس العلمية للمناظرة شأنهم شأن إخوانهم الزيريين بالمهدية والقيروان، بالإضافة إلى توزيع المنح على الطلبة المتفوقين وعلى رجالات الفكر في كل فن من فنون المعرفة، مما جعل الناصر يستقبل مجموعة من العلماء كان لهم دور بارز في النهوض بالحركة العلمية⁸، إضافة إلى تقديم إعانات مالية لتمويل المخطوطات وشراء

¹. منور البركاني، قلعة بني حماد الحاضرة والحضارة، المسيلة، منشورات جمعية اليقين الحضاري، 1985، ص: 110-111.

². أحمد سعودي، الحياة الاقتصادية والثقافية لقلعة بني حماد، مجلة هيرودت للعلوم الإنسانية والإجتماعية 05 رقم 02، 2021، ص: 17.

³. أحمد سعودي، مرجع سابق، ص: 18.

⁴. يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص: 166.

⁵. عمار عمورة، موجز في تاريخ الجزائر، الجزائر، دار ربحانة للنشر والتوزيع، 2002، ص: 62.

⁶. مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج02، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ت، ص: 167.

⁷. مختار حساني، الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية، الجزائر، دار الهدى، 2011، ص: 81.

⁸. اسماعيل العربي، القلعة عاصمة بني حماد الأولى، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976، ص: 27-30.

الكتب للمكتبات، وبصفة خاصة استقطاب العديد من علماء الأندلس وذلك من خلال إعفاء الناصر السكان من ضريبة الخراج وبالتالي ساهم في قدوم الجاليات واستيطانهم في بجاية.
ث- توفرها على الأعشاب الطبية:

مما لا شك فيه أن كل علم لا بد له من مواد أولية، كالنباتات والأعشاب الطبية والتي تواجدت بكثرة في العديد من جبال الدولة الحمادية، وهو ما أشار إليه الإدريسي متحدثاً عن بجاية حاضرة الحماديين بقوله: "ومن جهة الشمال جبل يسمى ميسون، وهو جبل سامي العلو، صعب المرتقى، وفي أكنافه جمل من النبات المنتفع به في صناعة الطب مثل: شجر الحوض والسقولوفندوريون، والقنطاريون الكبير والرزواند، والقسطون، والإفستين أيضاً وغير ذلك من الحشائش، وفي هذا الجبل كثير من العقارب صفر الألوان لكن ضررها قليل"¹. وعليه نستنتج من هذا القول أن هذه الأعشاب كانت علاجاً للعديد من الأمراض المتفشية في تلك الحقبة، وما بعدها خاصة وأن بجاية حافظت على هذه المواد الأولية حتى في القرون اللاحقة، إذ نزل بها العالم ابن البيطار المالقي ت646هـ/1248م أحد أصدق علماء النبات في العصر الوسيط، والذي نزل بجاية مؤقتاً بحثاً عن الأعشاب الطبية والتي لم تكن معروفة سوى في بجاية².
وعليه فإن هذه العوامل وغيرها هي التي أدت إلى قيام نهضة علمية وثقافية، وبالتالي إنتاج فكري ضخم مس كل التخصصات من بينها علم الطب والصيدلة.

2- علم الطب والصيدلة وأشهر علمائه:

لقد شهدت قلعة بني حماد تطورا في مجال الطب و الصيدلة من مظاهر هذا التطور في القلعة بروز أطباء كبار منهم:

2-1- أبو جعفر عمر بن علي البندوخ القلعي:

من مواليد القلعة في حدود سنة 472هـ، المعروف بابن البندوخ القلعي، كان طبيبا ماهرا مشهورا³، ورياضي وشاعر، تعلم في صباه على يد شيخه الصالح أبي عبد الله الغديري، وأخذ العربية وعلوم الدين عن أبي الفضل بن النحوي، ولكن اهتمامات ابن البندوخ انصبحت حول علم الطب الذي كان خبيراً به، وهذا ما يؤكد صاحب عيون الأنبياء قائلاً: "كان فاضلاً خبيراً بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة وله حسن نظري

¹. عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق مج01، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1422-2002، ص: 259-260.

². عمارة علاوة، مغرب أوسطيات-دراسة في تاريخ وحضارة الجزائر في العصر الوسيط، قسنطينة، مكتبة إقرأ، 2013، ص: 164.

³. عبد الحليم عويس، دولة بني حماد- صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، القاهرة، دار الصحوة للنشر والتوزيع، 1411هـ-1991، ص: 370-371.

الإطلاع على الأمراض ومداواتها كان معتنيا بالكتب الطبية والنظر فيها وتحقيق ما ذكره المتقدمون من صفة الأمراض ومداواتها¹، إلى جانب حسن نظره في الإطلاع على الأمراض وعلاجها، إذ جمع بين الطب والصيدلة²، رحل إلى المشرق وبالتحديد إلى دمشق وأقام سنينا كثيرة، وكانت له دكان عطر بالبلايين يجلس فيها، ويعالج من يأتي إليه أو يستوصف منه، وكان يهوى عنده أدوية كثيرة مركبة يصنعها من سائر المعاجين والأقراص والسفوفات وغير ذلك، يبيع منها وينتفع الناس بها، وكان معتنيا بالكتب الطبية والنظر فيها، وله حواش على كتاب القانون لابن سينا، وشرح كتاب الفصول لأبقراط وهو عبارة عن أرجوزة وشرح كتاب مقدمة المعرفة لأبقراط عبارة عن أرجوزة أيضا، والمفرد في التأليف عن الأشباه، وكان له أيضا اعتناء بعلم الحديث، ويشعر وله رجز كثير إلا أن أكثر شعره ضعيف منحل، وعمّر عمرا طويلا، وضعف عن الحركة حتى إنه كان لم يأت إلى دكانه إلا محمولا في مخفة، وعي في آخر عمره بماء نزل في عينه، لأنه كان كثيرا يتغذى باللبن ويقصد بذلك ترطيب بدنه، وتوفي بدمشق في سنة خمس أو ست وسبعين وخمسائة الموافق ل1079م³.

وهناك طبيب آخر يظهر من اسمه أنه من أسرة البندوخ وهو أبو حفص عمر بن علي بن خليفة ابن البندوخ القلعي، كان طبيبا بالإسكندرية، ويبدو من خلال اسمه أن يكون له علاقة بابن البندوخ وربما يكون من أبناء عمومته، خاصة إذا اعتبرنا أبا جعفر وأبو عمر بن علي وأبو حفص هو عمر بن علي أن جداهم هو الخليفة ابن البندوخ.

1-1- ابن أبي المليح:

كان طبيبا مشهورا حاذقا في صناعة الطب، حدثنا العماد الأصفهاني عنه أنه كان ماهرا وكتابا شاعرا في بلاط بني حماد، كان حاذقا في صناعة الطب وأديبا يكتب ويقرض الشعر⁴. ذكر ابن بشرون أنه ورد شعره قوله:

يَا جُمْلَةَ الْحُسْنِ هَبْ لِي مِنْكَ حِسَانًا أَيُّ أُحْبُكَ أَسْرَارًا وَإِعْلَانًا.
إني لتعبدك لا أبغي بكم بدلا ولا أحب سواك الدهر إنسانا⁵

1-1- ابن النباش:

¹ موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة ابن أبي أصبعية، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، القاهرة، دار المعارف، 1996، ص: 578.

² عبد الغني حروز، جواني من الحياة العلمية بقلعة بني حماد 408-461هـ/1017-1070م، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية 02 جانفي 2014، العدد 3، ص: 295.

³ ابن أبي أصبعية، مصدر سابق، ص: 578.

⁴ محمد الطمار، المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، ديوان المطبوعات الجامعية، 2010، ص: 233.

⁵ رشيد بورية، مرجع سابق، ص: 184.

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن حامد البجائي ويعرف بابن النباش معتن بصناعة الطب مواظب لعلاج المرضى، ذو معرفة جيدة بالعلم الطبيعي، وله أيضا نظر ومشاركة في سائر العلوم الحكمية وكان مقيما بجهة مرسية¹، ولعله كان أحد أطباء البيمارستانات ببجاية، فقد رحل إلى مرسية وبقي بها مدة طويلة، وقد عاصره الطبيب عمر بن البندوخ. ولد بالقلعة والتحق ببجاية، فكان يعرف الأدوية ويطب بها. غادر المغرب الأوسط وقصد الشرق وجال في ربوعه، واختار دمشق لسكناه فبقي بها يعالج الناس، ونفعهم كثيرا، ومات بتلك المدينة عام 575هـ، وخلف كتباً في الطب منها حواش على كتاب القانون لابن سينا، وشرح الفصول لأبقراط في أرجوزة، وكتاب ذخيرة الألباب أو الباء في الباءة، وكتاب "لطائف الأنوار في الطب"².

1-1- أبو اسحاق ابراهيم الداني:

كانت له عناية بالغة في صناعة الطب وأصله من بجاية نقل إلى الحضرة، وكان أمين البيمارستان، وطبيب به بالحضرة، وكذلك ولداه، والأكبر منهما هو أبو عبد الله محمد قتل في غزوة العقاب في الأندلس مع الناصر وتوفي الداني في مراکش في دولة المستنصر بن الناصر³.

إضافة إلى "ابن النورس" اشتهر بالطب وقال عنه الغبريني "أنه كان طبيبا باحثا، وله معرفة بعلم العربية وعلوم الدين"⁴، وعلي ابن الطبيب⁵، ومحمد بن أبي بكر المنصور القلعي الذي نبغ في الطب والرياضيات والحساب وعلم الفرائض⁶.

وعن تطور الأدوية والطب في قلعة بني حماد ما يشير نجد نصا للإدريسي يبين ذلك قائلا: "بهذه المدينة عقارب كثيرة سود، تقتل في الحال وأهل القلعة يتحرزون منها ويتحصنون من ضررها، ويشربون لها نبات (الفليون الحرائي)، ويزعمون أنه ينفع، ويشترى قدر بدرهمين منه لعام كامل...وحكى عن هذه الحشيشة أنه شربها وقد لسعته العقرب فسكن الوجع سريعا، ثم أنه لسعته العقارب في سائر العام ثلاث مرات، فما وجد لذلك اللسع ألما وهذا النبات ببلد القلعة كثير"⁷، كما كانوا يستعملون بعض المواد والنباتات الطبيعية المحلية في علاج الأمراض فعلى سبيل المثال لا الحصر نجدهم أنهم جعلوا الماء أفضل

¹. ابن أبي أصيبعة، مصدر سابق، ص: 447.

². محمد الطمار، مرجع سابق، ص: 233.

³. ابن أبي أصيبعة، مصدر سابق، ص: 482.

⁴. أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1979، ص: 101.

⁵. رشيد بوربية، مرجع سابق، ص: 199.

⁶. عبد الحليم عويس، مرجع سابق، ص: 270.

⁷. الشريف الإدريسي، مصدر سابق، ص: 260.

دواء للحى من خلال الإكثار من شربه لطرح كل المواد الضارة سواء عن طريق البول، أو العرق، واستغلوا زيت الزيتون لكثرة في تلك المنطقة كمستحضر تجميلي، إضافة إلى غسل النحل الذي كانوا يستعملونه في علاج آلام الحنجرة¹.

ومن بين الأمراض التي تمكنوا من إيجاد لها وصفات علاجية نجد مرض الصداع عن طريق دهن مقد الرأس بزيت الزيتون، وعلاج المعدة من خلال تسخين قشور الرمان وتقطير ماءها، كما ابتكروا علاج لمرض النقرس والمفاصل من خلال عكر الزيت وسحقه والدهن به، أو أوراق الكرنب وتعصير ماءها². وحصادا لما سبق اتضح لنا الصورة على مدى تطور صناعة الطب والصيدلة في القلعة الحمادية، حيث أننا نجدهم قد عرفوا المداواة بالأعشاب وهو ما يعرف عندنا حاليا بالطب البديل، إلى جانب معرفتهم المداواة بسم العقارب، في حين أن العلم الحديث لم يتوصل حتى اليوم لدواء مضاد للسعها سوى مصلى من سمها، إضافة إلى شيء يهر العقل ويؤكد المستوى العلمي الرفيع الذي بلغه الطب عند الحماديين هو تقنين الدواء بجرعات محدودة لعام كافية لوقاية من سمها وهو دليل أيضا على أن هناك تجارب أجريت على الدواء قبل أن يستعمل ويقن.

الخاتمة:

يتبين لنا مما سبق أن التطور الصحي الذي شهدته الدولة الحمادية في مجال الطب والصيدلة لم يكن وليد الصدفة بل تضافرت جملة من الظروف والعوامل في تحقيقه، يمكن إيجازها على النحو الآتي:

- اهتمام الأمراء الحماديين بالعلم والعلماء.
- العمل على توفير الأمن والاستقرار في مختلف أرجاء الدولة.
- انتهاج سياسة التعايش والتسامح مع كل الملل والنحل المستقرة على أراضيها.
- انتعاش جل الحرف والصنائع، ومن بينها علم الطب والصيدلة بفضل نخبة من العلماء الأفداد، ذاع صيتهم في كل البقاع، حيث قاموا بجولات واسعة في المشرق والمغرب الإسلاميين للاستزادة من المعلومات والمعارف المختلفة.
- تمكنهم من تطوير هذه الصناعة وتنقيحها، حتى أصبحت علما مقننا بقواعد وأصول ووسائل متعددة.
- استطاعوا بمجهوداتهم العلمية وابتكاراتهم إلى علاج العديد من الأمراض والقيام بتعديل الكثير من الحقائق الطبية الخاطئة وتصحيحها.
- أضافوا أبوابا جديدة في الطب والصيدلة وطرق العلاج لم يسبقهم إليها أحد من خلال الأعشاب المنتشرة في مختلف أحوالها.

¹. ابن الجزار، المرجع السابق، ص: 28.

². ابن الجزار، المرجع السابق، ص: 41-58-115-135-169.

- ساهموا في إنارة الطريق لعدة الشعوب وخاصة الأوربية لتنهض من كبوتها وتفتي طريقها وتتخلص من عقدة أن المرض نوع من العقاب والجزاء الإلهي لا ينبغي للإنسان أن يعالجه، وإنما عليه أن يهرع إلى دير أو كنيسة، ويبقى هناك لعل المعجزة تشفيه.

الملاحق:

أ- بعض أشعار ابن البذوخ يمدح فيها كتب الطبيب جالينوس:

| | |
|---|--|
| مَا قَالَ بِقِرَاطٍ وَالْمَاضُونَ فِي الْقِدَمِ | أَكْرَمَ بِكُتُبِ لِحَالِيْنُوسٍ قَدْ جَمَعَتْ |
| مُسْلِمٌ عِنْدَ أَهْلِ الطَّبِّ فِي الْأُمَمِ | كُدَيْسُ قُورِيْدَسُنْ عِلْمَ الدَّوَاءِ لَهُ |
| مِنْ بَعْدِهِمْ كَانَتْ شَارِ النَّوْرِ فِي الظُّلَمِ | فَالطَّبِّ عَنْ ذَيْنَ مَعَ بِقِرَاطٍ مُنْتَشِرُ |
| تَرَى ضِيَاءَ الشُّفَا فِي ظُلْمَةِ السَّقَمِ | بِطِبِّهِمْ تُقْتَدَى الْأَفْكَارُ مُشْرِقُهُ |
| فَإِنَّ وَجْدَانَهُ فِي الطَّبِّ كَالْعَدَمِ | لَا تَبْتَغِي فِي شِفَاءِ الدَّاءِ غَيْرَهُمْ |
| يَحْتَاجُ فِيهِمْ إِلَى إِتْمَامِ غَيْرِهِمْ | لِأَنَّهُمْ كَمَلُوا مَا أَصْلَوْهُ فَمَا |
| وَعُدَّةٌ كَثْرَةٌ فِي الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ | إِلَّا الدَّوَاءَ فَمَا تُحْصَى مَنَافِعُهُ |
| مَنْ ذَا يَعُدُّ جَمِيعُ الرَّمْلِ وَالْأَكَمِ | عَدُّ النُّجُومِ نَبَاتِ الْأَرْضِ أَجْمَعُهَا |
| مِنَ التَّجَارِبِ وَالْآيَاتِ وَالْحَكَمِ. | فِي كُلِّ يَوْمٍ تَرَى فِي الْأَرْضِ مُعْجَزَةً |

المصدر: ابن أبي أصيبعة، مصدر سابق، ص: 579.

قائمة المصادر والمراجع:

• مصادر:

- آبادي محي الدين محمد بن يعقوب الفيروز. القاموس المحيط. القاهرة: دار الحديث، 2008.
- ابن أبي أصيبعة موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة. عيون الأنبياء في طبقات الأطباء. القاهرة: دار المعارف، 1996.
- ابن الأثير علي. الكامل في التاريخ ج8. بيروت: دار الكتاب العربي، 1417هـ-1997.
- ابن الجزار أبو جعفر أحمد بن ابراهيم أبي خالد القيرواني. طب الفقراء والمساكين. طهران: مطالعات اسلامي، 1999.
- ابن الجزار، طب المشائخ وحفظ صحتهم. تونس: بيت الحكمة، 2009.
- ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ج6. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.
- المقدمة، المجلد 01، القاهرة: دار ابن الجوزي، 2010.
- ابن رشد. الكليات في الطب. القاهرة: مطابع الهيئة المصرية العامة، 1989.
- ابن منظور محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين. لسان العرب. بيروت: دار صادر، 1414هـ.

- الإدريسي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الشريف. نزهة المشتاق في اختراق الأفاق مع 01. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1422-2002.
- البكري أبي عبيد الله. المسالك والممالك ج02. الدار العربية للكتاب: 710، 1992.
- الجوهرى أبي نصر اسماعيل بن حماد. الصِّحاح. القاهرة: دار الحديث، 2009.
- الغبريني أبو العباس. عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. بيروت: دار الأفاق الجديدة، 1979.
- المراكشي عبد الواحد. المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين. بيروت: المكتبة العصرية صيد، 1426هـ-2006م.
- النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب. نهاية الأرب في فنون الأدب. بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.
- حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. بيروت: دار إحياء، د.ت.
- مراجع:
- البركاني منور. قلعة بني حماد الحاضرة والحضارة. المسيلة: منشورات جمعية اليقين الحضاري، 1985.
- الجيلالي عبد الرحمان. تاريخ الجزائر العام ج01. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، 1384هـ-1965.
- الصباغ رمضان. العلم عند العرب وأثره على الحضارة الأوربية. الاسكندرية: دار الوفاء للطباعة، 1998.
- الطمار محمد. الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983.
- ———. المغرب الأوسط في ظل صنهاجة. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2010.
- العربي اسماعيل. القلعة عاصمة بني حماد الأولى. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976.
- الميللي مبارك بن محمد. تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج02. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ت.
- بورويبة رشيد. الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1397-1977.
- بوعزيز يحي. الموجز في تاريخ الجزائر. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2007.
- حروز عبد الغني. "جواني من الحياة العلمية بقلعة بني حماد 408-461هـ/1017-1070م." مجلة الحكمة للدراسات التاريخية 02 (جانفي 2014): 03.
- حسن خضير أحمد. علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب 362هـ-567هـ/973م-1171م. القاهرة: مكتبة المدبولي، د.ت.
- حسين محمد كامل. الموجز في تاريخ الطب و الصيدلة عند العرب. ليبيا: منتدى سور أزيكية، د.ت.
- سامعي إسماعيل. معالم الحضارة العربية الإسلامية. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2012.
- سعودي أحمد. "الحياة الاقتصادية والثقافية لقلعة بني حماد." مجلة هيروتد للعلوم الانسانية والاجتماعية 05، رقم 02 (2021).
- عبد ربه ايمان بديع. "الصيدلية في التاريخ الاسلامي." بحوث ودراسات (موقع نسيم الشام)، 2011.

- علاوة عمارة. مغرب أوسطيات-دراسة في تاريخ وحضارة الجزائر في العصر الوسيط. قسنطينة: مكتبة إقرأ، 2013.
- عمورة عمار. موجز في تاريخ الجزائر. الجزائر: دار ربحانة للنشر والتوزيع، 2002.
- عويس عبد الحليم. دولة بني حماد- صفحة رائعة من التاريخ الجزائري. القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع، 1411هـ-1991.
- فيلالى عبد العزيز. الطب والصيدلة في الأندلس في القرن 6هـ/12م أبو جعفر أحمد بن محمد الغافقي نموذجاً ت560هـ/1165م. الجزائر: دار الهدى، 2012.
- فنواى شحاتة. تاريخ الصيدلية والعقاقير في العصر القديم والوسيط. بيروت: أوراق شرقية، 1996.
- مختار حساني. الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية. الجزائر: دار الهدى، 2011.
- مظهر جلال حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمى. القاهرة: مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، 1905.
- مقلد الغنيمي عبد الفتاح. موسوعة تاريخ المغرب العربي ج02. القاهرة: مكتبة مدبولي، 1994.
- مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس. القاهرة: دار الرشاد، 1421-2000.
- . معالم تاريخ المغرب والأندلس. القاهرة: دار الرشاد، 1421-2000.
- مقالات ومجلات:
- بن عبد الله عبد العزيز. "تعليم الطب بالمغرب والعالم الإسلامي." مجلة الاكاديمية للمملكة المغربية، رقم 05 (ديسمبر 1988).

التدابير والمعالجات الصحية لدى أولياء وصلحاء بلاد المغرب الإسلامي

خلال القرن 6 و7 هـ / 12 و13 م

Health measures and treatments among the saints and saints of the Islamic Maghreb countries during the 6th and 7th centuries AH/12 and 13 AD

د. صديقي محمد، جامعة ابن خلدون تيارت (الجزائر)

9889med@gmail.com

د. مقني بن عودة، جامعة غرداية (الجزائر).

megnebenouda@gmail.com

ملخص:

نتطرق خلال هذه المداخلة إلى دور الأولياء وخدمتهم للأوضاع الصحية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن الخامس و السادس الحادي عشر والثاني عشر للميلاد، وذلك من خلال إبراز الدور الذي قامت به هذه الفئة في المجال الصحي، وقد تمكنت فئة الأولياء من استقطاب العامة في تلك الفترة من خلال مشاركة البعض من الصلحاء في هذا المجال بحيث امتحنوا العلاج والمداواة بأساليب عند طريق الموروث الشعبي تارة وأخرى عن طريق الكرامات والبركة، على الرغم من الطب العلمي كان موجودا وبقوة، ويمكن الإشارة إلى أن الأعشاب والعقاقير لعبت دورا هاما في العملية العلاجية عند فئة الأولياء فكانت المداواة بها وفق تجربة ومنها العلم بمفعول كل نبتة، ولعل من المتصوفة من كان لهم معرفة بأصول النبات وإمكانية إدراج بعض الصفات في عملية العلاج والمداواة، وبالنظر للعامة رغم وجود حكماء وأطباء لهم دراية بالصناعة الطبية، إلا أن الكثير من أفراد المجتمع آثر العلاج والمداواة عند المتصوفة على غيرهم من الأطباء في تلك الفترة.

الكلمات المفتاحية: المغرب الإسلامي؛ الأولياء؛ الكرامات؛ المعالجات الطبية؛ الأعشاب والعقاقير.

summary:

The During this intervention, we discuss the role of saints and their service to the health conditions in the countries of the Islamic Maghreb during the fifth, sixth, eleventh and twelfth centuries AD, by highlighting the role played by this category in the health field, and the saints category was able to attract the public in that period by During the participation of some of the righteous in this field, so that they were professional in treatment and healing by methods according to the popular heritage at times and at other times through miracles and blessings, despite the fact that scientific medicine was present and strong, and it can be pointed out that herbs and drugs played an important role in the therapeutic process among the saints, so the treatment was In it according to experience, including knowledge of the effect of each plant, and perhaps among the Sufis were those who had knowledge of the origins of the plant and the possibility of including some recipes in the process of treatment and treatment, and in view of the general public, despite the presence of wise men and doctors who have knowledge of the medical industry, but many members of society preferred treatment and treatment with Sufis over other physicians of that period.

Keywords: IslamicMaghreb;guardians; dignities; medicaltreatments; Herbs and drugs

مقدمة:

ارتبط ظهور التّصوّف في بلاد المغرب الإسلامي بالتقرب من العامة والإحسان إليهم، فقد تركت هذه العلاقة بصمات واضحة على مختلف جوانب الحياة، كما كان الطب من بين الجوانب التي وثّقت العلاقة بين فئة العامة ورجال التّصوّف، لقد استعمل المتصوفة طرقاً مختلفة في معالجة مرضاهم تراوحت بين الجانب الروحي والجانب المادي، فمنها الكرامة والبركة والدعاء، ومنها ما اعتبر تقليداً أو تجربةً من الوسط الشعبي والذي كان متداولاً في عملية العلاج.

كما أن موضوع التصوف من المواضيع التي أسيل فيها الحبر الكثير، فقد دأبت الدراسات المتعددة على معالجة ظاهرة التصوف وطرق انتشارها إلى بلاد المغرب الإسلامي، وفصلت في أصل الكلمة وأعلام التصوف الذين نشروه في البلاد، لكن موضوعنا يعالج دور الأولياء في الجوانب الصحية. فالمتصوفة لم يكن لهم طب علمي قائم على الكتب الطبية القديمة كما كان عليه الأطباء في ذلك العصر، لكن اعتمدوا في المعالجة والاستشفاء على ظاهرة الكرامة التي تكون للأولياء دون غيرهم، كما انتشر الطب الشعبي القائم على الاعتماد على الأعشاب والعقاقير،

يمكن الالتفات إلى نقطة هامة تشير إليها المادة التاريخية ألا وهي تمسك العامة بطب الأولياء وترددهم عليهم للاستشفاء وحتى بعد الممات، ويرجع هذا الإقبال إلى عدة عوامل خدمت فئة المتصوفة، منها الاقتراب الاجتماعي، فهم يعيشون نفس ظروف العامة، خاصة الفئة البسيطة ويقاسمونهم محنتهم المختلفة، فما مدى تمكّن المتصوفة في المجال الطبي ومعالجتهم لمختلف الأمراض؟

1-طب الأولياء

ارتبط ظهور التّصوّف في منشئه بمخاطبة العامة والتقرب إليهم، فقد تركت هذه العلاقة بصمات واضحة على مختلف جوانب الحياة، وكان الطب من بين الجوانب التي وثقت العلاقة بين فئة العامة ورجال التّصوّف، واستعمل المتصوفة طرقاً مختلفة في معالجة مرضاهم تراوحت بين الجانب الروحي والجانب المادي، فمنها الكرامة والبركة والدعاء لشفاء المرضى، ومنها اللمس أو الريق أو استعمال الأعشاب والعقاقير.

كما يمكن الالتفات إلى نقطة هامة تشير إليها المادة التاريخية ألا وهي تمسك العامة بطب الأولياء، ويمكن أن تُطرح بذلك عدة تساؤلات ومنها: ماهي طرق العلاج عند المتصوفة؟ ثم ما مدى نجاعة طب المتصوفة؟

لقد شكّلت الأمراض هاجساً لدى المجتمع المغربي، ولم يجدوا وسيلة للتخفيف منها إلا عن طريق المتصوّفة والسبل التي يغلب عليها الطابع الغيبي¹، وهذا من الأسباب التي جعلت البعض من العائمة يتصلون بالصّالحاء وأصحاب الكرامات، وقد بدأ نشاط المتصوّفة الطّبي مع القرن 6هـ/12م، واستمر في التوسع والتزايد حتى نهاية العصر الوسيط²، وكثيراً ما تروي كتب المناقب طبيعة المعاملة التي حظي بها العائمة من طرف المتصوّفة، وقد عرف عن المتصوّفة بمساعدتهم لفئة العائمة بما يستطيعوا خاصّة في الجانب الصّحي، ويذكر ابن قنفذ بعض المتصوّفة بقوله: <<ورأيت منهم بفاس وهو حي ألا بها ولي الله الفقيه الزاهد الورع أبا عبد الله محمد الجناتي³... فكان يبادر إلى خدمة الغريب المريض ويسعى في أمره<>⁴.

2- طرق المداواة عند المتصوّفة

أ- الصدقة والدعاء والرقية

ومن نماذج وطرق المداواة لدى المتصوّفة ما اشتهر به الشيخ أبو العباس السبتي⁵ الذي كان يعالج الأمراض، وحل المشاكل بالصدقة، فكل مريض استنجد به يأمره بالصدقة ثمّ يشفى من مرضه⁶، وقد كانت من عادة العائمة أن يتوجهوا إلى الصّالحاء إما للتطبيب أو للدعاء للمرضي لكي يتم الشفاء على أيديهم، ويذكر ابن الزيات أنّ أبا محمد بن عبد الله بن يخلف الصّابوري قال: مرضت لنا صبية، فحملناها إلى أبي يعزى ليدعو لها فدعا لها⁷، ولم يقتصر استنجد العائمة بالصّالحاء في مجال الشفاء من الأمراض بل فاقه إلى مختلف الكوارث الطّبيعية، ويذكر التادلي عن أبي محمد عبد الغفور⁸ عندما ذهب إلى أغمات فقال: فمررنا بقوم مجتمعين على قتل الجراد فقاموا إلى أبي محمد وشكوا إليه ما نزل بهم من الجراد، فقال لهم: لعل الله يصرفه عنكم حتى لا تعلموا هل غاص في الأرض أم صعّد في السماء، فدعا لهم وانصرفنا، فرجعت من

¹ ابن الزيات التادلي، المصدر السابق، ص، ص 214، 215.

² محمد حقي، المرجع السابق، ص 79.

³ عبد الله محمد الجناتي: من فاس الفقيه الزاهد الورع من أهل العلم والصلاح والزهد، وكان الصلاح يطعمونهم والفقهاء يبرونه والعائمة ترمقه وتشير إليه. ينظر: ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقيير، تح، محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات الجامعة للبحث العلمي، الرباط، كلية الآداب، 1965م، ص 76.

⁴ ابن قنفذ القسنطيني، المصدر نفسه، ص 76.

⁵ أبو العباس السبتي: هو أحمد بن جعفر الخزرجي المعروف بالسبتي ولد بسبته عام 524هـ/1130م نزل مراكش وبها مات عام 601هـ/1205م. ينظر: ابن الزيات التادلي، المصدر نفسه، ص 452.

⁶ محمد حقي، المرجع نفسه، ص 78.

⁷ ابن الزيات التادلي، المصدر السابق، ص 400.

⁸ أبو محمد عبد الغفور ابن يوسف الأيلاني من أهل تاكثرت من بلاد أيلانم ومات بأغمات وريكة سنة 586هـ. ينظر: ابن الزيات التادلي، المصدر نفسه، ص 253.

أغمات في اليوم الثاني، فمررت بؤلئك القوم فقالوا له أقرأ سلامنا على الفقه أبي محمد وأعلمه أن الله تعالى قد أراحنا من الجراد¹. فالجراد كان من الكوارث التي تؤدي إلى الجوع وانتشار الأمراض، وهناك نماذج متعددة في وقوف المتصوفة مع العامة للحد إما من الجوع أو المعالجة والتداوي، ولقد كان المصامدة يزورون وجاج بن زلو للمطي² من أهل السوس الأقصى ويتبركون بدعائه، وإذا أصابهم القحط استسقوا به³. ومن نماذج المداوة عند المتصوفة، ما يخبر به صاحب المستفاد عن عبد الله بن معلي⁴، أنه كان له صاحب يسمى بججاج فضربته سكين في عينه الواحدة، وكان الحكيم ابن عمار يعالجها فقال له الحكيم ابن عمار: لا تسرف في علاج عينك فقد فسدت ولا تنتفع بها، قال حجّاج: فإن صرفت عنه وأنا بالك على فقد عيني، فلما قربت من مسجد ابن محمود وهو بالقرب من حانوت ابن عمار لقيت عبد الله بن معلي، فسألني عن حالي، فأعلمته بما ذكر الحكيم ابن عمار فقال لي: اطلع بنا إلى المسجد حتى ننظر عينك فأخذ بعيني وفتحها ونظر إليها ورقاها ودعا لي... فلما جن الليل قال لي أهلي: أرني نر عينك ففتحها فأبصرت البيت وأبصرت أهلي⁵.

ب- اللمس والمسح والريق:

ومن المتصوفة من كان يعتمد على اللمس والريق⁶. كما يتحدث ابن قنفذ عن الولي أبو الحسن علي بن أيوب⁷ عندما لجأ إليه رجل يشكو من وجع في بطنه يصيح منه، فمسح بيده المباركة وحرك شفتيه فذهب ألمه بقدر الله تعالى⁸، ولقد سلك أولياء المغرب الإسلامي أسلوب العلاج بالرقى للمرضى وعالجوا

¹ نفسه، ص 253

² وجاج بن زلو للمطي: من أهل السوس الأقصى رحل إلى القيروان فأخذ عن أبي عمران الفاسي ثم عاد إلى السوس فبنى دار سماها "دار المرابطين" لطلبة العلم وقراء القرآن وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه وإذا أصابهم قحط استسقوا به. ينظر: ابن الزيات التادلي، المصدر نفسه، ص 89.

³ نفسه، ص 89.

⁴ أبو محمد عبد الله بن معلي من أهل الفضل والعفاف منقبضاً عن الناس صاحب كرامات ومكاشفات. ينظر: أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي، المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يلها من البلاد، تح: محمد الشريف، الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط1، 2002م، ص 72.

⁵ أبو عبد الله التميمي، المصدر السابق، ص، ص 74، 75.

⁶ ابن الزيات التادلي، المصدر السابق، ص 296.

⁷ أبو الحسن علي بن أيوب: من مدينة سلا وهو الخطيب الصالح والوالي الشهير المعلم لكتاب الله. ينظر: ابن قنفذ القسنطيني، المصدر السابق، ص 83.

⁸ نفسه، ص 84.

الصرع من الجن والعين. وتعددت استعمالات الرقية، فنجد البعض يستعين بها عند حدوث الأمراض الوبائية والمزمنة¹.

ويوجد نموذج آخر لتفوق طب المتصوفة ما ذكره التادلي عن صديق أبي مدين شعيب² المدعو أبو لقمان يزرجان ابن يعقوب الأسود³ ت (570هـ/1175م) أنه كان يعالج الصرع، كما يذكر عن عبد الله بن عيسى بن صقر قال: كنت في شببي تصيبي غاشية... فحملتني-أمه- إلى أبي لقمان... فقالت له أمّا الأطباء فقد عجزوا ولم يبق إلا طب الله تعالى، فمسح بيده على رأسي فما أصابني الصرع من حينئذ إلى الآن⁴، ومن العامة من وجدوا في طب المتصوفة ملاذاً آمناً للتخلص من بعض الأمراض خاصة المستعصية منها.

ومن أخبار الصالحين في مداواة ما ذكر عن الشيخ الصالح أبي تميم عبد الرحمان الهزميري⁵ قال: أعجب ما رأيت من أخبار الصالحين أني مشيت بأختي حين ظهر البرص بها في الوجه إلى مدينة فاس ليعالجها الأطباء... فلم ينفع الدواء، فرحت بها وقصدت زيارة أبي تميم فلما دخلت عليه قال لي ما سويت عندك شيئاً حتى تركتني وذهبت إلى الأطباء... فجاءته أختي وسلمت عليه وقعدت وجعل يحدثنا ويمسح بريقه البرص المرة بعد المرة فغلبني النوم وأنا جالس انتهت فجذته مستنداً يذكر ونظرت إلى وجه أختي فإذا هو قد ذهب البرص منه⁶، كما تبين هذه الواقعة عن عجز أحد الأطباء في المعالجة وبالمقابل استطاع المتصوفة معالجة المرض.

لكن لا يمكن الجزم في كل الأحوال بتلك النماذج، فقد ظهر في بلاد المغرب نوع من التنافس بين الأطباء والمتصوفة في المجال الطبي، وقد سعت الكرامة إلى تشويه الطبّ الديني فصورته عاجزاً، وأن كثيراً منهم بعدما يئسوا من الاستشفاء عند الأطباء اتجهوا إلى الأولياء فبرأوا من أمراضهم المزمنة بدون أي مقابل

¹ بختة خليلي، الفقر بالمغرب الإسلامي ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (1315م) واقعه وأثاره، رسالة دكتوراه، جامعة اسطنبولي معسكر، 2015/2016م، ص 278.

² أبو مدين شعيب ابن الحسن الأنصاري أصله من حصن قطينانة من عمل إشبيلية ثم نزل بجاية أقام بها إلى أن أمر بإشخاضه إلى حضرة مراكش عام 594هـ ينظر: ابن الزيات التادلي، المصدر السابق، ص 319.

³ أبو لقمان بن يزرجان ابن يعقوب الأسود: من أهل مدينة تاقايطت من عمل مراكش كان صديقاً لأبي شعيب توفي 570هـ/1175م. ينظر: ابن زيات التادلي، المصدر نفسه، ص 252.

⁴ ابن الزيات التادلي، المصدر نفسه، ص، ص 233، 234.

⁵ أبو تميم عبد الرحمان الهزميري: من أصحاب أبي مدين شعيب كان حافظاً للمسائل وقبره قريب من مكناسة، ويقال له في التشوف: أبو تميم عبد الواحد الأسود تلميذ ابي يعزي، بنى مسجداً في مكناسة ولما مات دفن في رحبه. ينظر: ابن قنفذ القسنطيني، المصدر السابق، ص 267، ابن الزيات التادلي، المصدر السابق، ص 31.

⁶ ابن الزيات التادلي، المصدر نفسه، ص 31.

ماعدا (الفتوح)¹، ومن أمثلة التنافس بين الأولياء والأطباء في هذا المجال، فالأطباء كانوا ينكرون على الأولياء تدخلهم في هذا الميدان، بينما سعى الأولياء إلى إبراز قدراتهم على المعالجة خاصة للأمراض المزمنة.² وقد اتبع الشيخ أبو يعزى³ في المعالجة عدة طرق أحدثت الكثير من النقد له على الرغم من أن ولايته عند جماعة من الفقهاء المجاورين له، حيث ذهبوا إلى أبي مدين شعيب وقالوا: ولكن نشاهده يلمس بيده صدور النساء وبطونهن ويتفل عليهن فيبرأن ونرى أن لمسهن حرام فإنّ نحن تكلمنا في هذا هلكننا وإن سكتنا تحيرنا، فقلت لهم: رأيتم لو أن بنت أحدكم أو أخته أصابها داءٌ لا يطلع عليه إلا الزوج ولم يجد من يعاينيه إلا طبيب يهودي أو نصراني ألستم تجيزون ذلك⁴.

لكن الشيخ أبو يعزى جعل معالجته مثل معالجة باقي الأطباء، فلا يمكن عنده أن يطعن في كيفية أو طريقة المعالجة التي يتبعها، كما أن الشيخ كان قد استعمل الدفل والريق للعلاج، ومن أمثلة ذلك ما رآه صاحب كتاب المستفاد بقوله: <<ورأيت- أبو يعزى- في بيته رجلاً أخذته في وجهه أكلة وذهبت بأحد خديه فسألته عن حاله فقال لي: أنه لما أصابني ما ترى، دللت على الشيخ فأتيت إليه، ولي عنده مدة يرقيني في غداة كل يوم، ويمضغ ورق الزيتون ويتفل ذلك في موضع العلة، فلقد توقفت زيادة العلة>>⁵، ويقول التادلي عن أبي يعزى ويحكي عنه رضي الله عنه قال مررت في بعض سياحتي بالسواحل وإذا بجارية وهي تستغيث من وجع عينها فمسحتها وذهبت فسمعتها تقول من مسح على عيني وقد استراحنا؟⁶، اشتهر الشيخ أبي يعزى كثيراً بعلاجه لمختلف الأمراض وبطرق مختلفة فقد استخدم المسح باليد والدفل والريقي.

ويذكر ابن قنفذ قول أبو عبد الله التاودي حول عمل الشيخ أبو يعزى قال: حضرت عند أبي علي يعزى وجيء له برجل قعد عن الحركة، فما زال يتفل عليه حتى قام⁷، لقد حاول الطبّ الصّوفي أن يقوم مقام الطبّ العلميّ أو يفوقه، ويقول صاحب المستفاد حول الشيخ أبو يعزى وصليت معه يوماً صلاة الفجر في

¹ إبراهيم القادري بوتشيش، الخطاب الاجتماعي في الكرامة الصوفية بالمغرب خلال عصر المرابطين والموحدين مساهمة في دراسة الفكر الاجتماعي للبلدان المتوسطية، مكناس، كلية الآداب، ص، ص 112، 114.

² الحسن بولقطيب، المرجع السابق، ص 75.

³ أبو يعزى: قال قوم أنه من هزيمة غيروجان وقيل من بني صبيح من هكسورة وقد أناف على مائة سنة نحو الثلاثين دفن بجبل إيروجان عام 572هـ/1177م وكان قطب عصره وأعجوبة دهره 1146م حبس في صومعة الجامع أيام ثم خلي سبيله.

ينظر: ابن الزيات التادلي، المصدر السابق، ص، ص 214، 215.

⁴ ابن الزيات التادلي، المصدر نفسه، ص 23.

⁵ أبو عبد الله التميمي، المصدر السابق، ص 39.

⁶ أحمد التادلي الصومعي، المصدر السابق، ص 138.

⁷ ابن قنفذ، المصدر السابق، ص 29.

مسجده... فلما خرج من باب المسجد، إذا بامرأة بإزاء باب المسجد قد صرعاها الجن وهي تتخبط فقال لها بكلام... فقامت وليس بها ألم وغطت وجهها حياءً من الناس¹، كما أنه استعمل أوراق الدفلى التي كان يقوم بمضغها ثم يضعها على مكان الألم²، وقام بمعالجة ضرير وذلك بإرسال برقعة من برنوسه وأمره بحرقها والاكتحال برمدها³، ويظهر الشيخ أبو يعزى في صورة الصيدلي فقد قال صاحب المستفاد >>«وكان وصل معه بأقراص مطبوخة في دقيق البلوط... فطلبت له من تلك الأقراص، فأعطاني قرصاً واحداً... فكان ذلك القرص ترياق، فكل من أخذه وجع أوحى أعطيته منه فيأكلها، فما هو أن يحصل بجوفه فيعافيه الله تعالى من ذلك الألم»⁴، وهذا النموذج من الاستشفاء ثبتت نجاعته عند عامة الناس.

ج- ظاهرة الاستشفاء بالصِّلحاء وقبورهم

ذهب العامة إلى أكثر من الاستشفاء بالصِّلحاء وهم على قيد الحياة، فقد كان الناس يتبركون ويستشفون بتراب الأولياء، حيث ذهب الناس إلى قبوري أبو محمد مع الله بن يحيى بن يجاتن الزنات⁵ من حومة بلاد تادلا، وهو من أهل العلم والعمل ت536هـ/1142م⁶، وكذلك أبو حفص عمر ابن مكي سوط الدغدوغي⁷ ت(546هـ/1152م) وهو من كبار الأولياء واستشفوا بتراب قبورهم⁸ وهو من أعمال دكالة، كما اعتمد المتصوفة على الرقي بالحناء وكتابة التمام والحروز أو القراءة على المريض -القرآن- وهي أشياء يستخدمها الطب الشعبي⁹، ونقل الناس تراب الشيخ أبي يعزى وتراب الشيخ أبي غالب النيسابوري للاستشفاء من الأمراض والقروح¹⁰، وهذا قصد التبرك بهم ويعد دليلاً قاطعاً على مدى تأثر العامة بالأولياء

¹ أبي عبد الله التميمي، المصدر السابق، ص، ص 35، 36.

² ابن الزيات التادلي، المصدر السابق، ص 301.

³ نفسه، ص 277.

⁴ أبي عبد الله التميمي، المصدر السابق، ص، ص 35، 36.

⁵ أبو محمد مع الله بن يحيى بن يجاتن الزناتي من أهل العلم والعمل توفي عام 536هـ/1142م يشفى الناس بقبره وكان صاحب كرامات. ينظر: ابن الزيات التادلي، المصدر السابق، ص، ص 132، 133.

⁶ نفسه، ص 132.

⁷ أبو حفص ابن عمر بن مكي سوط الدغدوغي: من كبار الأولياء يشفى الناس بتراب قبره توفي في حدود سنة 540هـ/1146م، ودفن بمسجده الذي بناه بتافرينت من بلد دغدوغ من دكالة. ينظر: ابن الزيات التادلي، المصدر السابق، ص 141.

⁸ ابن الزيات التادلي، المصدر نفسه، ص 141.

⁹ محمد حقي، المرجع السابق، ص 76.

¹⁰ ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، قسم الموحدين، ص 140.

وبطيمهم، كما أن ظاهرة الاستشفاء أو التبرك بتراب قبور الأولياء أحدثت جدلاً كبيراً¹، لكن يبقى الجانب الصحي هو الأساس في مدى الشفاء من الأمراض.

ويرجع الوزن سبب انتشار الوباء وعدم القدرة عليه، هو ظاهرة التمسح فقط بالتراب فقال: >>يظهر في بلاد المغرب كل عشر سنوات أو خمسة عشر وعشرين سنة، ولكن عندما يأتي يذهب بالعديد من الناس، لأنه لا يهتم به أحد ولا يستعمل الدواء باستثناء التمسح بالتراب>>²، إن استخدام التراب ومحاولة مداواة به له أثر على الحياة الصحيّة، فربما كان الاعتقاد السائد هو أن تراب الأولياء أحسن للعلاج من الذهاب للأطباء، أو كانت الحاجة المادية سبباً في جعل الناس يقصدون هذا العمل الذي في نظرهم غير مكلف مادياً، ولربما كان هناك من يشفى من مرضه بسبب التبرك بالقبور أو أخذ التراب والاستشفاء به؛ وفي هذه الحالة يكون هذا الشفاء من المرض راجع للعامل النفسي الذي له دور أساسي في عملية المداواة.

خاتمة

لهذا فإنّ عملية التطبيب عند المتصوّفة وباستخدام طرق متعددة كالدعاء والبريق واللمس التي كانت في الغالب محل إعجاب وذهول عند العامّة فقد استطاعوا في عدة مواضع معالجة أمراض مستعصية، لكن يمكن أن تكون الفناعة بالوالي وبكراماته سبباً أولياً في بداية الشفاء والارتياح النفسي، كما تبقى تلك الأمراض التي استعصت على الأطباء واستطاع المتصوّفة علاجها؛ فهنا يمكن أن تكون إما لمعرفة أنواع الأعشاب والعقاقير أو لبركة الدعاء والكرامة.

ظاهرة التصوف نشأة بالمشرق الإسلامي وانتقلت إلى بلاد المغرب نتيجة لعدة عوامل، ومما يميزها هو حضور الكرامات لدى الأولياء وبمظاهر مختلفة.

لقد اعتمد الصوفية على أسلوب حياة جعل منهم محل ثقة لدى العامة، فقد أثر هؤلاء الفقير على الغني وقاموا بالتصدق والإنفاق على المحتاجين من الفقراء والمساكين والعابرين للسبيل، فازداد تمسك فئات كبيرة من المجتمع بالصوفية.

¹ التبرك: قال فيه الونشريسي (جائز مادام الناس يتبركون بتراب قبور العلماء والشهداء والصالحين، وكان الناس يحملون تراب سيدي حمزة بن عبد المطلب في القديم من الزمان، قلت هذا من القبيل ما جرى عليه عمل العوام في نقل تراب الشيخ أبي يعزي وتراب ضريح ابن غالب النيسابوري). ينظر: المعيار، ج1، ص 330.

² الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 85.

اعتنى البعض من الصوفية بالطب وعالجوا الناس وفق منهجهم الذي كان بعيداً عن المعرفة العلمية بصناعة الطب، فقد اعتمدوا على الكرامات في العلاج والمداواة واستطاعوا أن يعالجوا الأمراض المستعصية على الطب العلمي في تلك الفترة، كما شكل الارتياح النفسي للعامة عند مجيئهم للمتصوفة والايمان بخوارقهم خطوة أولى من خطوات العلاج والتي تساعد المرضى على الشفاء مما جعل نسبة الشفاء من المرض عالية.

في فترة القرن السادس للهجرة والثاني عشر للميلاد كان الطب الشعبي موجوداً في بلاد المغرب وكان الكثير من هؤلاء الأطباء يعالجون الناس بالاستعانة بالأعشاب والعقاقير، استعان الأطباء من الصوفية بالأعشاب لكن كان إدراجها وفق منطق الكرامة التي لازمت المتصوفة في عملية العلاج، ولم تصادف خاصة في كتب المناقب أن المتصوفة اعتنوا بالجانب العلمي للطب أو كانت لهم معرفة حقيقية بطب المنتشر في تلك الفترة.

قائمة المصادر والمراجع

- ✓ ابن خلدون عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تح: خليل شحادة، وسهيل زكار، دار الفكر، (د، ط)، بيروت: 2001م، ج 1.
- ✓ عبد الرحمن ابن خلدون، شفاء السائل وتهذيب المسائل، تح: محمد مطيع الحافظ، ط 2، دار الفكر، دمشق: 1996م.
- ✓ ابن القبطان المراكشي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح: محمود علي مكي، ط 1، دار الغرب الإسلامي بيروت: 1990م، ج 6، ص 14.
- ✓ الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 1983م، ج 1.
- ✓ ابن الزيات التادلي أبي يعقوب يوسف بن يحيى 617هـ/1220م، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد التوفيق، ط 2، منشورات كلية الآداب، الدار البيضاء: 1997م..
- ✓ موسى بن عيسى المازوني، مختصر ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار، تح: عبيد بوداود، ط 1، الرشد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر: 1436هـ/2015م.
- ✓ إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس عصر المرابطين، (د، ط)، دار الطليعة، بيروت (د، س).
- ✓ محمد المنوني، ورفات من حضارة المرينيين، ط 3، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط: 1420هـ/2000م.
- ✓ أبي عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني ت 781هـ/1380م، المناقب المرزوقية، تح: سلوى الزاهري، ط 1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة، الدار البيضاء: 1429هـ/2008م.

- ✓ أبو جعفر أحمد بن الجزار، طب الفقراء والمساكين، تح: الراضي الجازة وفاروق عمر العسلي، (د، ط)، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون تونس: (د، س).
- ✓ ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، تح، محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات الجامعة للبحث العلمي، الرباط، كلية الآداب، 1965م.
- ✓ أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي، المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تح: محمد الشريف، الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط1، 2002م.
- ✓ بختة خليلي، الفقر بالمغرب الإسلامي ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (1315م) واقعه وأثاره، رسالة دكتوراه، جامعة اسطنبولي معسكر، 2015-2016م.
- ✓ إبراهيم القادري بوتشيش، الخطاب الاجتماعي في الكرامة الصوفية بالمغرب خلال عصر المرابطين والموحدين مساهمة في دراسة الفكر الاجتماعي للبلدان المتوسطية، مكناس، كلية الآداب.

فهرس المحتويات

| الرقم | عنوان المداخلة | الصفحة |
|-------|--|-----------|
| 01 | الأحوال الصحية بمدينة الحلة العراقية ابان العهد العثماني أ.د. كريم مطر حمزة الزبيدي، جامعة بابل (العراق) | 21 – 10 |
| 02 | الإجراءات والتدابير الصحية للوقاية من انتشار الأوبئة في العصر العباسي د. حمادوش بولخراس . جامعة تيارت (الجزائر) | 35 – 22 |
| 03 | المنظومة الصحية الفرنسية بالجزائر ودورها في ترسيم السياسة الاستعمارية د. حسين مجاود، جامعة سعيدة (الجزائر) | 49 – 36 |
| 04 | إسهامات علماء الجزائر العثمانية في المجال الطبي والصيدلي خلال القرن الثامن عشر الميلادي. د. بوجلال قدور، جامعة معسكر (الجزائر). | 65 – 50 |
| 05 | المؤلفات الطبية دراسة في التكليف بالتأليف والاهداء بين القرنين الثالث ونهاية التاسع الهجريين أ.د. يوسف كاظم جفيل الشمري ، م.م. فاطمة حيدر حسين المرشدي كلية التربية، جامعة بابل (العراق) | 85 – 66 |
| 06 | تطور الجهاز الصحي لجيش التحرير الوطني إبان الثورة التحريرية قراءة وتعليق على ضوء أرضية مؤتمر الصومام د. حسني حمرة، المركز الجامعي مغنية (الجزائر) د. عبد الحفيظ موسم، جامعة سعيدة (الجزائر) | 94 – 86 |
| 07 | إسهامات أبي بكر الرازي الطبية وتأثيرها في أوروبا د. محمود زياد، وزارة التربية والتعليم (فلسطين) | 107 – 95 |
| 08 | دور التأليف الطبية ومساهماتها في تقدم الحضارة الغربية -طب الفقراء والمساكين لابن الجزائر القيرواني أنموذجاً- د.ة. خليلي بختة، دة. رحمان فاطمة الزهراء جامعة غليزان، (الجزائر) | 126 – 108 |
| 09 | فضل المسلمين على الغرب المسيحي الأوروبي في مجال الطب إبان العصور الوسطى من خلال كتابات المستشرقين د.ة. نصيرة طيطح، جامعة مستغانم (الجزائر) | 142 – 127 |
| 10 | الوضع الصحي والممارسات الطبية في الجزائر العثمانية: دراسة تاريخية على ضوء الكتابات الغربية. د. صغير عبلة، جامعة وهران 01 (الجزائر) | 156 – 143 |
| 11 | الاهتمام بالصحة النفسية والجسدية للأطفال بين العصر الوسيط والمعاصر د.ة. عائشة تازي، جامعة الشلف (الجزائر) د.ة. أمينة تازي، جامعة البليدة 02 (الجزائر) | 172 – 157 |

| | | |
|-----------|--|----|
| 184 – 173 | نماذج للتداوي والعلاج ببركة وحكمة شيوخ الزوايا بجنوب الغرب الجزائري في العصر الحديث – الشيخ سيدي أحمد بن أبي زيان أنموذجا- أ.د موساوي مجدوب، المركز الجامعي صالحى أحمد بالنعامة (الجزائر) | 12 |
| 196 – 185 | رسائل في طب الأطفال عند العرب (الوصف والعلاج) د. مداح عبد القادر، دة. حرشوش كريمة، جامعة تيارت (الجزائر) | 13 |
| 208 – 197 | العلاج الطيّ بالماء في بلاد الغرب الإسلامي د. أسماء خلوط، دة. فتيحة قاضي، جامعة تيارت (الجزائر) | 14 |
| 220 – 209 | الأسر الطبية والبيمارستانات في العصر العباسي الأول (132-232هـ) - (750-847م) د. حسيبة باحمان، جامعة أدرار (الجزائر) | 15 |
| 237 – 221 | تطور جراحة الجماجم بالأوراس خلال الفترة الإستعمارية (الترينة) د. درية حجاري، جامعة قسنطينة 02 (الجزائر) | 16 |
| 254 – 238 | الطب التقليدي في مواجهة الأمراض والأوبئة بالجزائر العثمانية خلال القرن 18م من منظور الطبيب أحمد بن قاسم البوني ط د، حسيبة عطاء الله، جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة (الجزائر) د. إبراهيم بن موية، المدرسة العليا للأساتذة طالب عبد الرحمان الأغواط (الجزائر) | 17 |
| 266 – 255 | العلوم الطبية في المغرب الإسلامي وإسهام المرأة فيها ط د، صديقي محمد، جامعة تلمسان (الجزائر) | 18 |
| 283 – 267 | المصحات الاستشفائية في منطقة الونشريس خلال الثورة الجزائرية 1956-1962. د. عيسى حمري، جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة (الجزائر) د. سهام بوديبة، جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة (الجزائر) | 19 |
| 302 – 284 | التداوي بالأشربة في الأندلس خلال ق 5هـ-6هـ/11-12م ط د. بن الذيب فيروز، جامعة البويرة (الجزائر) | 20 |
| 317 – 303 | تطور علم الطب والصيدلة في عهد الدولة الحمادية (398هـ/547هـ-1007م/1152م) ط.د. رضوان زيرار. جامعة تلمسان (الجزائر) | 21 |
| 327 – 318 | التداوي والمعالجات الصحية لدى أولياء وصلحاء بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن 6 و7هـ/12 و13م د. صديقي محمد، جامعة تيارت (الجزائر) د. مقتي بن عودة، جامعة غرداية (الجزائر). | 22 |





المركز الديمقراطي العربي
للدراستات الاستراتيجية، الاقتصادية والسياسية
Democratic Arab Center
for Strategic, Political & Economic Studies

المؤتمر الدولي العلمي:

الطب والخدمات الصحية بالعالم الإسلامي عبر العصور

Medicine and health services in the Islamic world through the ages

أ.عمار شرعان، رئيس المركز الديمقراطي العربي، برلين، ألمانيا

التدقيق والنشر: د.حنان طرشان

رقم تسجيل الكتاب

VR.3383-6812. B

يونيو/حريزان 2023